

Al-Aqeedah Egyptian
Academy
13751130 ENGLAND





التفسير
الاعتقادي

عقدد ١١٥٥



13751130
Egyptian
Al -Aqeedah Academy



أكاديمية العقيدة المصرية







كلية العقيدة الإسلامية

اسم المقرر: أصول العقيدة
رمز المقرر: عقدد
رقم المقرر: ١١٥٥
عدد الوحدات: ٤

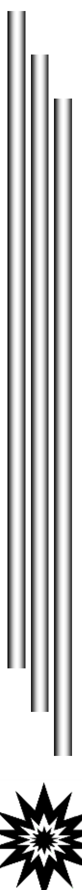
أكاديمية العقيدة المصرية


أصول العقيدة
أ.د/ محمود عبد الرازق الرضواني


١
الدورة العلمية الأولى
أصول العقيدة

الجزء رقم (١)

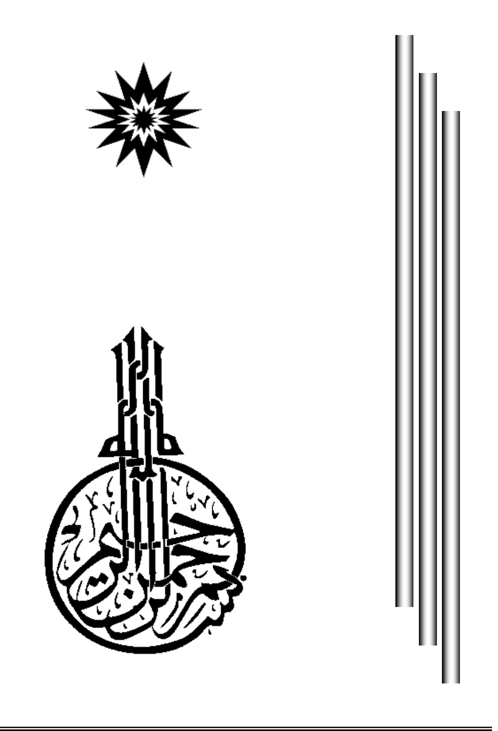








عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ



الدورة العلمية الأولى في أصول العقيدة

عقيدة أهل السنة والجماعة في الغيبيات

وتوحيد الأسماء والصفات



AlBasira TV EutelSat 10815H

عقيدة أهل السنة والجماعة

في الغيبيات وتوحيد الأسماء والصفات



إعداد

ا.د/ محمود عبد الرازق الرضواني

أستاذ العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة



AlBasira TV EutelSat 10815H

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م





AlBasira TV EutelSat
10815 H

- اسم الكتاب: أصول العقيدة.
- اسم المؤلف: أ.د / محمود عبد الرازق الرضواني.
- المجلد الأول.
- عدد الصفحات: ٦٥٦ صفحة.
- مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم.
- رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٩/١١٢٩٨

المقدمة



- العلم أمانة، ورسالته في الإسلام رسالة سامية.
- أهمية دراسة التوحيد والعقيدة دراسة علمية منهجية.
- توصيف الدورات العلمية في التوحيد والعقيدة.
- مفردات المنهج المقرر لدورة أصول العقيدة.
- دعاء وتذكير، وشكر وتقدير.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ الأحزاب: ٧٠/٧١.

أما بعد .

فإن العلم أمانة استودعها الله الخاصة من أوليائه، وليس العلم مجرد شهادة جامعية يعتبرها صاحبها سببا في رزقه، أو مكانة دعوة أو فقهية أو درجة علمية يتوسد بها صاحبها منصبا في بلده.

وإنه مما يشق على النفس أن يشعر إمام أو خطيب يتولى النصح في وظيفة دعوية، أو قيادة الآخرين بدرجته العلمية أنه ليس أهلا لما هو فيه من المسئولية والأمانة العلمية، وأن لديه قصورا علميا شديدا بسبب تهاونه في التحصيل العلمي وإن تجاوز الاختبار النهائي، أو إقحامه في هذا الأمر بحكم الواقع التعليمي الذي وجد في بعض مؤسساته تقصيرا تطبيقي لتدريس العلوم الإسلامية.

• العلم أمانة ورسالته في الإسلام رسالة سامية.

ومعلوم أن رسالة العلم في الإسلام كانت ولا زالت رسالة تسمو فوق كل غاية دنيوية، وأن الله ﷻ رفع أهل العلم المخلصين فوق الناس درجات، وفضلهم في تحصيله ودرجاته مقامات فوق مقامات فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ المجادلة:١١.

وصح عن نبينا المصطفى ﷺ أن العلم بالتعلم، فلا بد من رغبة قوية وعزيمة صادقة لمن أراد أن يتعلم ما كان عليها أصحاب محمد ﷺ، وقد ثبت عن نبينا ﷺ أن الله ﷻ لو أراد بعبد خيرا فقهه في الدين، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر.

وثبت أيضا أن من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب، فأين أصحاب النوايا الصادقة، والهمم العالية، الذين يطلبون العلم إخلاصا لربهم، ومحبة في نبيهم ﷺ ، ورغبة في التمسك بسنة نبيهم؟

أين الذين رغبوا في نشر توحيد العبادة لله بين أبناء الأمة فعرفوهم بشهادة ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، وأن عقيدة أهل السنة والجماعة هي قرآن وسنة بفهم سلف الأمة؟ أين بقايا أهل العلم الذين يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الحق والدليل أهل التعصب والعمى، الذين ينفون عن كتاب الله

تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين يقفون صامدين بقوة الحق والدليل والحجة، للذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الشبهة والتأويل والفتنة؟

- **أهمية دراسة التوحيد والعقيدة دراسة علمية منهجية.**

وانطلاقا من العمل على تحقيق الغاية التي خلق الله العباد من أجلها والسعي إلى رفعة الأمة الإسلامية وتحقيق مجدها وعزها، بنشر كلمة التوحيد والعقيدة الصحيحة المبنية على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة؛ دون التقليد أو التعصب الأعمى، تأتي هذه الدورة العلمية في أصول العقيدة، ليتعرف من خلالها طلاب العلم في البلاد الإسلامية على منهج أهل السنة والجماعة في الإيمان بالغيبيات وتوحيد الأسماء والصفات.

وتلك الدورة هي أحد الدورات الأربع التي نسعى من خلالها إلى التعريف بالعقيدة الصحيحة التي تعتمد على أن حقيقة الإسلام في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب كانت ممثلة في تصديق الصحابة لخبر الله وتنفيذ أمره. فسلفنا الصالح كانوا يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية.

هذا هو المنهج الذي يعتمد على أنه من المحال أن يتعارض العقل

الصريح الواضح مع النقل الصحيح الثابت، وأن العقل الصريح يشهد للنقل الصحيح ويؤيده لأن الذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده.

كما أن طريقة أهل السنة والجماعة تحمي المجتمع وتوحد الأمة على العمل بالكتاب والسنة، بحيث لا يقع شباب الإسلام فريسة للتعصب الأعمى، فلا يبقى مغمض العينين مقيدا أسيرا لتبعية جماعة أو طريقة أو مدرسة أو مرشد أو شيخ يملي عليه ما يقوله أو يفعله، بلا سؤاله عن حجته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فليس في طريقة سلفنا من يقدم قوله على قول الله ورسوله ﷺ تحت أي سبب أو مصلحة.

قال الإمام مالك رحمه الله: (إنما أنا بشر، أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه) [١].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: (ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول، أو أصلت من أصل، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي.. وجعل يردد هذا الكلام) [٢].

وقال: (كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح،

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي ٦/٢٩٤.

(٢) مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول لعبد الرحمن المقدسي ص٥٨.

فحديث النبي ﷺ أولى فلا تقلدوني) (١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (لا تقلدني، ولا تقلد مالكا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا) (٢).

• توصيف الدورات العلمية في التوحيد والعقيدة الإسلامية.

الهدف الأساسي من الدورات العلمية في العقيدة الإسلامية هو العناية بنشر التوحيد الذي كان عليه سلفنا الصالح، وترسيخ العقيدة الصحيحة، والمبادئ والقيم الإسلامية المبنية عليها بأساليب علمية، وصيانتها من الضلالات والأفكار البدعية، وغرس الروح الإسلامية والأخلاق الكريمة في طلاب العلم للحفاظ على تلك القيم من الغزو الفكري والانحرافات العقدية والسلوكية، بحيث يبقى طالب العلم عضوا صالحا نافعا في مجتمعه، محافظا على دينه حريصا على بلده.

والمسلك في تلك الدورات العلمية اتباع النظام الذي يعرف بنظام التعليم عن بعد، بحيث يكون الأمر سهلا ميسورا، يتمكن من خلاله جميع فئات المجتمع من التعرف على العقيدة الصحيحة بنظام التعليم الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان.

ولكي يستوعب الطالب الراغب في حمل أمانة تلك العقيدة، وينال شرف تدريسها مستقبلا بصورة كافية تمكنه من التأهل لنشرها بعد

---

(١) السابق ص٥٩.

(٢) السابق ص٦١.

مراعاة المتطلبات العلمية الأخرى، لابد من دراسة أربع دورات علمية، تم توصيفها على النحو التالي:

١. دورة أصول العقيدة في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، وكل ما جاء في النقل الصحيح من أخبار عن الغيبيات.

٢. دورة منة القدير في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد الربوبية ومسائل الإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتدبير، وما يتبعها من أركان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣. دورة منة الرحمن في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة، وإفراد الله بأحكام العبودية، وبيان أنواع الشرك في الإلوهية، وخطورته على الأمة الإسلامية، وحقيقة العمل وأركان الإيمان، وما يقابله من أنواع الكفر والعصيان.

٤. دورة كفاية الطالبين في بيان أصول فرق المسلمين المتقدمين ومذاهب المعاصرين المنحرفين، وأديان المخالفين لسيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

ولا بد لطالب العلم حتى يتقن أحد الدورات العلمية السابقة أن يلتزم حضور الدورة، أو مشاهدة المحاضرات المسجلة على الوسائط

المتعددة والملحقة بالكتاب المقرر لكل دورة، بحيث لا تقل نسبة المتابعة في كل دورة عن ستين ساعة مرئية سماعا مباشرا، وأن يقوم بعمل التلخيصات والأبحاث المطلوبة حول موضوع كل محاضرة.

- **مفردات المنهج المقرر لدورة أصول العقيدة.**

دورة أصول العقيدة تعرفنا بمنهج أهل السنة والجماعة في الغيبيات وتوحيد الأسماء والصفات، بحيث يتمكن طالب العلم من الإلمام بما يكفي لتمييز هذا الجانب من جوانب العقيدة الإسلامية.

وقد تناول المنهج في هذه الدورة ثلاثين مطلبا مشروحا شرحا ميسرا، وبتوسع زائد في الكتاب عن المحاضرات المرئية بحيث يستطيع الطالب أن يجد بين يديه ما يصبو إليه مما يغطي له كل فقرة في المطلب أو موضوع المحاضرة. وأما بيان مفردات تلك المطالب في دورة أصول العقيدة فهو على النحو التالي:

- المطلب الأول.

ماهية العقل والنقل ومدارك اليقين.

١. ما المقصود بالعقل؟
٢. ما هي الغاية الرئيسية من وجود العقل؟
٣. ما هي حدود المعرفة بالعقل؟
٤. ما هي العتبات المطلقة للحواس الخمس؟
٥. انعدام رؤية الأشياء يكون لسببين اثنين.

٦. العقل الصريح ومدارك اليقين.
٧. ما المقصود بالنقل؟
٨. جملة النقل تمثلت في القرآن وما ثبت في السنة المطهرة.
٩. النقل الصحيح كله حجة يوجب تصديق الخبر وتنفيذ الطلب.
١٠. النقل الصحيح لا يثبت إلا بقواعد المحدثين.

- المطلب الثاني.

هل يمكن أن يتعارض العقل مع النقل؟

١. العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح.
٢. الهداية الحقيقية تكمن في قيادة النقل الصحيح للعقل الصريح.
٣. الضلال الحقيقي في قيادة النقل الباطل للعقل الصريح.
٤. الوعيد الشديد لمن لم يلتزم بالنقل الصحيح.
٥. أسباب التعارض بين العقل والنقل.
٦. السبب الأول عدم ثبوت النقل وأمثلة على ذلك.
٧. السبب الثاني عدم فهم العقل للنقل وأمثلة على ذلك.

- المطلب الثالث.

العقل والنقل بين السلف والخلف.

١. أيهما يقدم على الآخر العقل أم النقل ولماذا؟
٢. العقل أصل في العلم بالنقل وليس أصلا في ثبوته.
٣. مثل العامي المستفتي مع الدال على المفتي.
٤. كثير ممن قدم العقل على النقل اعترف بحيرته وضلاله.

٥. من أعرض عن القرآن وعارضه فجهله جهل بسيط أو مركب.
٦. هل السلف أصحاب جمود عقلي؟ ومتى يقدم العقل على النقل؟
٧. تقديم العقل على النقل في باب الأمر يؤدي إلى بدع العبادات.
٨. بدع الاعتقادات سببها تقديم العقل على النقل في باب الأخبار.
٩. المقصود بمصطلح السلف والخلف.
١٠. ذم السلف الصالح للمبتدعة وعلماء الكلام.
١١. طريقة الخلف ليست أسلم ولا أحكم من طريقة السلف.

- المطلب الرابع.

طريقة الصحابة رضي الله عنهم في فهم العقيدة.

١. مراتب الناس في تصديق الخبر.
٢. منهج الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة.
٣. موقف الصحابة من خبر الله ورسوله ﷺ.
٤. موقف الصحابة في باب الأمر والطلب.
٥. الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان.
٦. الإيمان في باب الأمر له ثلاثة أركان.
٧. اليقين المنافي للشك شرط من شروط لا إله إلا الله.
٨. ما معنى الإيمان في حديث سفيان؟

- المطلب الخامس.

تاريخ المذهب العقلي وظهور الجهمية.

١. بدعة الجهمية وظهور المدرسة العقلية؟

٢. مناظرة الجهم بن صفوان للسمنية؟
٣. الرد السلفي على شبهة السمنية.
٤. ظهور المعتزلة وقوة انتشار المدرسة العقلية؟
٥. شرح الأصول الخمسة عند المعتزلة.
٦. التوحيد وستروا تحته تعطيل الصفات.
٧. العدل وستروا تحته خلق العباد لأفعالهم.
٨. المنزلة بين المنزلتين وستروا تحته حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا.
٩. إنفاذ الوعيد وستروا تحته حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة.
١٠. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وستروا تحته الدعوة لأصولهم.
١١. كيف ظهرت البدعة الكبرى؟

- المطلب السادس

علم التوحيد في عصر النبوة وأنواعه وتصنيفاته.

١. المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا.
٢. توحيد العبادة اصطلاح سائد بين السلف منذ عصر النبوة.
٣. المصطلحات التي تدل على علم التوحيد.
٤. مفهوم الإلوهية عند السلف الصالح.
٥. مفهوم الإلوهية عند الخلف وعلماء الكلام.
٦. مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية.
٧. مفهوم الإلوهية عند الفلاسفة.
٨. التوحيد عند السلف نوعان باعتبار وثلاثة باعتبار آخر.

٩. الأسماء التي أطلقت على النوع الأول من التوحيد.

١٠. الأسماء التي أطلقت على النوع الثاني من التوحيد.

- المطلب السابع

العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة.

١. العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين عند السلف.

٢. صنف التوحيد إلى نوعين على معنى الإسلام والإيمان.

٣. صنف التوحيد إلى نوعين لتمييزه عن توحيد المعتزلة.

٤. صنف التوحيد إلى نوعين لدلالة النصوص جملة وتفصيلا.

٥. صنف التوحيد إلى نوعين باعتبار الخبر والطلب.

٦. التوحيد نوعان باعتبار استخلاف الإنسان في الأرض.

٧. العلة في تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع.

٨. تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع عند الأشعرية.

٩. مناقشة الأشعرية في تصنيفهم التوحيد وبيان بطلانه.

- المطلب الثامن.

أنواع الدلالات وتعلقها بالأسماء والصفات.

١. دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على ما عناه المتكلم ووضعه له.

٢. دلالة التضمن دلالة اللفظ على بعض ما عناه المتكلم ووضعه له.

٣. دلالة اللزوم هي دلالة الشيء على سببه.

٤. دلالة الالتزام هي دلالة الشيء على أصله ونتيجته.

٥. هل لازم القول قول يحاسب عليه الإنسان؟
٦. اللازم من النقل الصحيح إذا صح أن يكون لازما فهو حق.
٧. دلالة الأسماء الحسنى على العلمية والوصفية.
٨. أمثلة لأنواع الدلالات في الأسماء الحسنى.

- المطلب التاسع.

توحيد الصفات ونفي قياس التمثيل وقياس الشمول.

١. التوحيد أساس الاعتقاد السلفي في باب الصفات.
٢. لا بد للتوحيد من نفي قياس التمثيل والشمول.
٣. قياس التمثيل هو إلحاق فرع بأصل في حكم جامع لعلة.
٤. ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق.
٥. شرح ابن أبي العز الحنفي للقدر المشترك والقدر الفارق.
٦. الاتفاق في اللفظ عند التجرد لا يوجب التماثل.
٧. المخَاطب لا يفهم المعانيَ المعبرَ عنها باللفظِ إلا عند تقيدها.
٨. قياس الشمول قياس يستوي فيه الأفراد تحت حكم واحد.
٩. خطورة استخدام قياس التمثيل الشمول في حق الله.
١٠. المعطلة ضلوا في فهم القدر المشترك والقدر الفارق.
١١. ما معنى خلق الله آدم على صورته ؟
١٢. هل ظاهر النصوص مراد أو غير مراد؟

- المطلب العاشر.

قياس الأولى وطريقة السلف في إثبات الصفات.

١. التوحيد عند السلف يؤدي إلى إثبات الصفات دون تعطيلها.

٢. طريقة السلف في إثبات الصفات النفي المجمل والإثبات المفصل.
٣. الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما.
٤. طريقة السلف في النفي، النفي المتضمن لكمال الضد.
٥. طريقة السلف في إثبات الصفات استخدام قياس الأولى.
٦. لا بد للموحد أن يحذر من التعطيل والتحريف.
٧. رد شيخ الإسلام ابن تيمية على المعطلة.
٨. التأويل بغير دليل تحريف للكلم عن مواضعه.
٩. مذهب السلف وسط بين التعطيل والتمثيل.

- المطلب الحادي العاشر.

معاني التأويل في القرآن والسنة.

١. التأويل لغة رجوع الكلام ومآله إلى ما ينطبق عليه.
٢. المعنى الأول للتأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.
٣. أدلة القرآن على المعنى الأول للتأويل.
٤. أدلة السنة على على المعنى الأول للتأويل.
٥. المعنى الثاني للتأويل هو التفسير والبيان.
٦. المعنى الثالث محدث وهو صرف اللفظ من معنى إلى آخر بدليل.
٧. التحريف هو صرف اللفظ عن معناه بغير دليل.
٨. التحريف بالتأويل شر من التعطيل والتكييف والتمثيل.
٩. أنواع التأويلات الباطلة التي هي من قبيل التحريف.
١٠. نتائج التأويل الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه.
١١. مثال من أوّل شيئا بعقله وقدمه على ما أوجبته الأدلة النقلية.

٧. سقوط المتكلمين في الباطل بالتأويل أو التفويض.
٨. الاستواء معلوم ليس بمعنى أنه موجود في القرآن.

- المطلب الرابع عشر.

وحدة المنهج في الحديث عن الذات والصفات وسائر الغيبيات.

١. شمولية المنهج في الحديث عن الذات والصفات.
٢. غلاة الصوفية وأكثر المتكلمين جعلوا القرآن عضين.
٣. محبة الصوفية وعبادتهم بلا عوض عبادة بدعية.
٤. القول في الصفات كالقول في الذات.
٥. بدعة المعتزلة في إثبات الأسماء ونفي الصفات.
٦. القول في الصفات كالقول في بعض.
٧. بدعة الأشعرية في إثبات بعض الصفات ورد البعض.
٨. أسلم الضوابط الشمولية التي وضعت للتعريف باعتقاد السلف.

- المطلب الخامس عشر.

إثبات علو الذات والفوقية والنصوص الواردة في المعية.

١. دلالة النصوص على إثبات العرش والاستواء.
٢. دلالة النصوص النقلية على أن الله في السماء.
٣. النصوص الدالة على معية الله لخلقه.
٤. اعتقاد الصحابة رضي الله عنهم في الجمع بين النصوص.
٥. اعتقاد الأئمة الأربعة في الجمع بين نصوص الاستواء والمعية.

٥. أقوال العلماء في أن الأسماء الحسنى توقيفية على النص.
٦. الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها.
٧. أسماء الله تعالى غير محصورة في عدد معين.
٨. معالم منهج الشيخ ابن عثيمين في إحصاء الأسماء الحسنى.

- المطلب الواحد والعشرون

كيف ظهرت الأسماء المشهورة منذ قرون؟

١. روايات حديث أبي هريرة ﷺ في إحصاء الأسماء.
٢. رواة حديث الإحصاء عن أبي الزناد لم يزيدوا في النص شيئا.
٣. الوليد بن مسلم هو من أدرج الأسماء المشهورة.
٤. اضطراب الوليد بن مسلم في جمعه للأسماء المشهورة.
٥. كلام العلماء المحققين عن رواية الوليد ونقدهم لها.
٦. كلام ابن الوزير في وصف تدليس الوليد بن مسلم.
٧. تناقض الوليد بن مسلم في جمعه للأسماء الحسنى.
٨. عبد الملك الصنعاني يفعل كما فعل الوليد ولم يشتهر جمعه.
٩. عبد العزيز بن الحصين يجمع الأسماء ولم يشتهر جمعه.

- المطلب الثاني والعشرون

الأسماء الصحيحة فيما جمعه السلف وابن حزم وابن حجر.

١. إحصاء أبي زيد وإقرار سفيان له واستدراك جعفر الصادق.
٢. تحقيق الأسماء التي استخرجها الأئمة الثلاثة من سورة البقرة.
٣. الزيادة التي استدركها جعفر على أبي زيد من سورة البقرة.

- المطلب الرابع والعشرون.

هل يجوز اشتقاق الأسماء من الصفات والأفعال؟

١. الفرق بين الاسم والوصف والفعل عند اللغويين.
٢. الفرق بين الاسم في حق الله وفي حق العباد.
٣. الفرق بين الفعل ووصف الذات ووصف الفعل.
٤. التوقيف على الاسم توقيف على الوصف والفعل.
٥. التوقيف على الوصف والفعل ليس توقيفا على الاسم.
٦. القائلون بالاشتقاق لا يقصدون إلا الجانب اللغوي.
٧. دورنا تجاه أسماء الله الإحصاء وليس الاشتقاق والإنشاء.
٨. حقيقة ما ورد في كلام بعض العلماء من الأسماء غير التوقيفية.
٩. موقف المسلم من الأسماء المشهورة التي لم تثبت.
١٠. هل أسماء الله الحسنى التوقيفية قطعية الثبوت أم ظنية؟

- المطلب الخامس والعشرون.

الإيمان بالأسماء التوقيفية ضرورة حتمية وليست مسألة خلافية.

١. تناقض من ادعى جواز اشتقاق الأسماء بشرط الكمال.
٢. القول في مسألة الاسم والمسمى وتوجيه كلام السلف.
٣. جلال أسماء الله الحسنى مبني على الكمال والجمال.
٤. اسم الله الأعظم ودلالته على الصفات.
٥. الروايات النقلية الثابتة في اسم الله الأعظم.

٦. اسم الجلالة هو اسم الله الأعظم عند جمهور العلماء.

٧. اسم الله الأعظم الرحمن الرحيم وما فيهما من كمال مخصوص.

٨. اسم الله الأعظم الحي القيوم وما فيهما من كمال مخصوص.

٩. اسم الله الأعظم الأحد الصمد وما فيهما من كمال مخصوص.

- المطلب السادس والعشرون

من ضوابط إحصاء الأسماء ثبوت النص بعلمية الاسم.

١. الدليل على أنه يلزم لإحصاء الأسماء ثبوت النص.

٢. لابد في التوقيف وثبوت النص من الأخذ بالقرآن والسنة معا.

٣. لابد في التوقيف وثبوت النص من الأخذ بقواعد المحدثين.

٤. لا يصح أخذ الأسماء التوقيفية من القرآن دون السنة.

٥. الأسماء المشتهرة التي لم تتوافق مع الشرط الأول.

٦. الأسماء التي لم تتوافق مع الشرط الأول مما ذكره بعض العلماء.

٧. الدليل على أنه يلزم لإحصاء الأسماء علمية الاسم.

٨. هل الجميل اسم من أسماء الله أو وصف من أوصافه.

٩. كثير من الأسماء المشتهرة أفعال لا يصح تسمية الله بها.

١٠. لا يجوز تسمية الله باسم الضار الموجود في الأسماء المشتهرة.

- المطلب السابع والعشرون.

من ضوابط الإحصاء الإطلاق ودلالة الاسم على الوصف.

١. الدليل على أنه يلزم لإحصاء الأسماء الإطلاق.

٢. اقتران الأسماء بالعلو المطلق والفوقية لا ينافي الإطلاق.
٣. شرط الإطلاق لا ينفي التقييد العقلي بالممكنات.
٤. أمثلة لأسماء مقيدة لم ينطبق عليها شرط الإطلاق.
٥. التزام من تتبعوا إحصاء الأسماء الحسنى بشرط الإطلاق.
٦. أنواع التقييد في الأسماء الواردة في الكتاب والسنة.
٧. الدليل على أنه يلزم لإحصاء الأسماء دلالتها على الوصف.
٨. مثال ما لم يتحقق فيه دلالة الاسم على الوصف.

- المطلب الثامن والعشرون.

من ضوابط الإحصاء دلالة الوصف على الكمال المطلق.

١. يلزم لإحصاء الأسماء دلالة الوصف على الكمال المطلق.
٢. هل يصح تسمية الله الماكر الخادع مع ورودهما بصيغة الاسم؟
٣. هل يصح في اسم الله الطبيب الإطلاق أم التقييد ؟
٤. هل يصح إطلاق اسم الصاحب والخليفة على الله ﷻ ؟
٥. رأي ابن القيم في الأسماء ودلالتها على وصف الكمال المطلق.
٦. تتبع أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة.
٧. أسماء الله الحسنى بأدلتها التوقيفية من القرآن والسنة النبوية.
٨. أسماء الله المقيدة بأدلتها التوقيفية من القرآن والسنة النبوية.

- المطلب التاسع والعشرون.

شرح الأسماء التوقيفية ودعاء الله بها دعاء مسألة وعبادة.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيم المَلِكُ القدُّوسُ السَّلامُ المؤمِنُ المهَيمنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المتكَبِّرُ الخَالِقُ البَارِئُ المصَوِّرُ الأوَّلُ الآخِرُ الظاهِرُ البَاطِنُ السَّمِيعُ البَصِيرُ المَولَى النصِيرُ العَفُوُّ القَدِيرُ اللطِيفُ الخَبيرُ الوِترُ الجَمِيلُ الحَيِي السِّتِيرُ الكَبيرُ المتعَالُ الوَاحِدُ القَهَّارُ الحَق المبين القَوِيُّ المَتِينُ الحَيُّ القَيُّوم العَلِيُّ العَظِيم الشَّكُورُ الحَلِيم الوَاسِعُ العَلِيم التوابُ الحَكِيمُ الغنِيُّ الكَرِيم الأحَدُ.

- المطلب الثلاثون

شرح بقية الأسماء التوقيفية ودعاء الله بها دعاء مسألة وعبادة.

الصَّمَدُ القَرِيبُ المجيبُ الغفُورُ الوَدودُ الوَلِيُّ الحَميدُ الحَفيظُ المَجيدُ الفَتاحُ الشَّهيدُ المقَدِّم المؤخِّر المَلِيكُ المقتدِر المسَعِّرُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ القَاهِرُ الديَّانُ الشاكِرُ المَنانَّ القَادِرُ الخلاقُ المَالِكُ الرزَّاقُ الوَكيلُ الرقيبُ المحْسِنُ الحَسيبُ الشافِي الرِّفيقُ المعْطي المقيتُ السَّيِّدُ الطَّيِّبُ الحكَمُ الأكْرَمُ البَرُّ الغفَّارُ الرَّءوفُ الوَهَّابُ الجَوَادُ السُّبوحُ الوَارِثُ الرَّبُّ الأعْلى الإلَهُ ﷻ .

تلك هي مفردات دورة أصول العقيدة التي تتناول عقيد أهل السنة والجماعة في الغيبيات وتوحيد الأسماء والصفات، أتبعناها بوضع اختبار تجريبي مركز، يمكن من خلاله قياس قدرة الطالب على تمييز الاعتقاد الحق، وانتقاء الصواب من خيارات متعددة، أغلبها خيارات باطلة، أو خاطئة، أو تحتمل شيئا من الصواب والخطأ معا.

وهذا الاختبار هو أول اختبار تم بحمد الله تطبيقه في دورة أصول العقيدة. وقد وضعناه في خاتمة الكتاب ليتمكن طلاب العلم من قياس درجة الفهم لما ورد في المنهج من مفردات.

• دعاء وتذكير وشكر وتقدير.

أسأل الله لي ولهم أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا وحسناتهم يوم نلقاه، وأذكرهم وإياي بتقوى الله، وأذكرهم بما رواه البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا) [١].

وعند مسلم من حديث أَبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أجَادِبُ، أمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ؛ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كلأً، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) [٢].

---

(١) البخاري في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة ١/٣٩ (٧٣).

(٢) مسلم في الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ ٤/١٧٨٧ (٢٢٨٢).

وروى البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ لِعَلِي ﷺ: (فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[١].

وإني لأتوجه بالشكر إلى الإخوة الأئمة والدعاة وطلاب العلم الذين قاموا بمراجعة الأحاديث وتخريجاتها العلمية، وكذلك أشكر فريق العمل القائمين على موقع الرضواني، الذين قاموا بتسجيل المحاضرات بما استطاعوا من إمكانياتهم المتواضعة، ثم تفريغها وبرمجتها وإخراجها على النحو المرفق بالكتاب.

وكتبه

ا.د/محمود عبد الرازق الرضواني

أستاذ العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة

والعضو المؤسس للجمعية العلمية لعلوم العقيدة والأديان والفرق

والمذاهب المعاصرة بكلية الدعوة وأصول الدين

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

---

(١) البخاري في الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل ١٠٩٦/٣(٢٨٤٧).

المطلب الأول

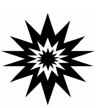
ماهية العقل والنقل ومدارك اليقين



- ما المقصود بالعقل؟
- ما هي الغاية الرئيسية من وجود العقل؟
- ما هي حدود المعرفة بالعقل؟
- ما هي العتبات المطلقة للحواس الخمس؟
- انعدام رؤية الأشياء يكون لسببين اثنين.
- العقل الصريح ومدارك اليقين.
- ما المقصود بالنقل؟
- جملة النقل تمثلت في القرآن وصحيح السنة.
- النقل الصحيح كله حجة.
- النقل الصحيح لا يثبت إلا بقواعد المحدثين.

المطلب الأول

ماهية العقل والنقل ومدارك اليقين



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

فمن أهم الأمور التي تقرر العقيدة السليمة، وتمكن من رسوخها في قلوب المسلمين، وتسهم في إزالة الخلاف بين عامة المختلفين، وتقرب القلوب إلى التمسك بالقرآن والسنة على فهم سلف الأمة، بيان حقيقة العلاقة بين العقل والنقل، أو العلاقة بين عقل الإنسان وما ورد في القرآن والسنة، فالعلاقة بين العقل والنقل تعتبر عاملا حاسما في تحديد هوية المسلم واعتقاده، لاسيما في باب الغيبيات، والإيمان بما ورد فيه من الأسماء والصفات.

ولأهمية ذلك نحاول في هذا المطلب أن نتعرف على موقف السلف الصالح من تلك العلاقة، وما هو المنهج الصحيح الذي يسلكه الموحد في هذا الموضوع؟

- **ما المقصود بالعقل؟**

العقل في أصح الآراء: غريزة وضعها الله في قلوب الممتحنين من عباده، تابعة للروح، وموضوعة في الجانب الغيبي من قلب الإنسان،

غريزة لا نعرف كيفيتها، ولكن نتعرف على وجودها، ووجود أوصافها من أفعال الإنسان في ظاهر البدن، فيقال: هذا عاقل، إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها.

والدليل على أن العقل موجود في القلب قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج: ٤٦.

قال الثعالبي: (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ) [١].

وقال القرطبي: (أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن، وقد قيل: إن العقل محله الدماغ، وروي ذلك عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة) [٢].

وصح من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: (رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثلاثةٍ: عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلمَ، وَعَنْ المَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِل) [٣].

---

(١) تفسير الثعالبي ٣/٨٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/٧٧.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا ٤/١٤١ (٤٤٠٣)، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل ٢/٥ (٢٩٧) .

• ما هي الغاية الرئيسية من وجود العقل؟

لما كانت الإرادة في القلب هي محل الكسب، وهي مسئولة عن شحن العقل بالمعلومات، أو تركه أجوف خاليا فارغا، فإن دور العقل يتمثل في إدراك المعلومات وتحصيلها، وجمعها وترتيبها.

كما أن حواس الإنسان وسيلة نقلها إليه؛ فهي المسئولة عن إدخال المعلومات وإخراجها، ثم يقوم العقل بعد ذلك بتحليلها، وتصنيف الحدث المرافق لها، ثم يخزنها في الذاكرة لاستدعائها، حسب ما يشاء الإنسان.

والغاية الرئيسية من وجود العقل، معرفة الإنسان ما ينفعه أو يضره، وكيف يحصِّل الخير الأعلى والأفضل دائما؟ فالعقل بقياس الأولى ـ ولله المثل الأعلى ـ شأنه شأن العقل الالكتروني، أو جهاز الكمبيوتر، غير أن هذا من صنع البشر، وذاك من صنع خالق البشر، وشتان بين هذا وذاك.

ولما كان عظم المنفعة من أجهزة الكمبيوتر يرتبط طرديا مع البرامج العلمية عالية التقنية، كان عِظَمُ المنفعة من العقل البشري مرتبطا أيضا مع التزام الإنسان بالمناهج الدقيقة والتشريعات المحكمة، التي تضمن له سبل السعادة في الحياة وبعد الممات.

ولن نجد دستورا يتصف بالدقة والشمولية، أو كمال الحكمة في الأحكام التشريعية أكمل من منهج الله، فلو وضع الله ﷻ للإنسان

منهجا ونظاما، ودستورا وأحكاما، وحلالا وحراما، كان الكمال كله فيه، وكان صلاح العقل في اتباعه.

وذلك لأن علم البشر لا يقارن بعلم الله، والحكم بغير شرعه ونظامه لا يرقي إلى الحكم بما أنزل الله.

ومن المعلوم لدى كل فطرة سليمة أن العاقل هو الذي يحرص على جلب المنفعة وتحصيلها، وحب الخيرات وتفضيلها، ولا نجد عاقلا يفضل الخير الأدنى على الخير الأعلى.

والعاقل أيضا هو الحريص على دفع المضرة وإبعادها، كما أنه يتحمل مشقة أدنى، ليحصِّل منفعة أعلى، ويضحي مما يملك بالقليل، ليحصِّل من خلاله الكثير، ويحرص على الباقي، ويزهد في الفاني، فالمريض مثلا يتحمل مرارة الدواء طلبا للشفاء.

إذا كانت تلك أوصاف العقلاء النابعة من الفطرة السليمة، فإن دعوة الإسلام دعوة راقية عظيمة؛ لأنها بنيت على إيثار المصلحة العليا، وتفضيل ما عند الله بطلب الجنة، والبعد عن النار، فليس بعد نعيم الجنة من خير، وليس بعد عذاب النار من شر.

روى مسلم من حديث أَنس ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (يُؤْتَي بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثمَّ يُقَال: يَا ابْنَ آدَمَ، هَل رَأَيْتَ خَيْرًا قَطّ؟ هَل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطّ؟ فَيَقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَي بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْل الجَنَّةِ

فَيُصبَغُ صَبْغَةَ فِي الجَنَّةِ، فَيُقَال لهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَل رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيقُول: لا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) [(١)].

وقال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ الأعلى:١٦/١٩.

والقرآن يخبرنا أن المعرض عن ربه يعترف بذنبه، ويقر على نفسه بأن الله منحه غريزة العقل؛ لكنه لم ينتفع بها، وأنه لم يكن عاقلا حين فضل الدنيا على الآخرة.

قال تعالى عن وصف جهنم وأهلها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ الملك:٨/١١.

قال الحارث المحاسبي: (جميع الممتحنين المأمورين من العقلاء البالغين كلهم، لهم عقول يميزون بها أمور الدنيا كلها، الجليل والدقيق، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون. ألم تسمعه ﷻ يقول: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ الأعراف:١٩٨. وقال جل ثناؤه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ ۝١٧٩﴾ الأعراف:١٧٩.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة ٤/٢١٦٢ (٢٨٠٧).

وهم بالدنيا أهل بصر وسمع وعقل؟ ولم يعن أنهم صم خرس مجانين، وإنما عذبهم لأنهم يعقلون. لو تدبروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه، من آيات الكتاب، وآثار الصنعة، واتصال التدبير الذي يدل عليه، لعلموا أنه واحد لا شريك له. حكى تعالى قول أهل النار فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ الملك: ١٠.

وقد كانت لهم عقول وأسماع، لزمتهم بها الحجة لله ﷻ، وإنما عني ﷻ أنها لم تعقل عن الله فهما لما قال من عظيم قدر عذابه، فندمت ونادت بالويل والندم، لا أنها لم تكن تسمع ولا تعقل، ولا كانوا بمجانين، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه، ووعد وتوعد) [(١)].

• ما هي حدود المعرفة بالعقل؟

حدود المعرفة بالعقل ما وقع تحت مدارك الإنسان من معلومات يدركها بحواسه الخمس، وما نشأ في القلب من علم نتج عن النظر في عالم الشهادة، من خلال الأسباب، أو بأنواع الدلالات العقلية المختلفة، كفهم دلالة الأسباب على نتائجها، والنتائج على أسبابها، وارتباط العلل بمعلولاتها، والتعرف من خلالها على خالقها.

والله ﷻ قد خلق الإنسان بجهاز إداركي محدود تحقيقا لعلة الابتلاء في العبادة التي أوجدنا من أجلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن

(١) ماهية العقل للمحاسبي ص ٢١٨، نشر دار الفكر، بيروت.

نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان:٢.

وقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل:٧٨.

وكل ذلك لإظهار حكمة الله في تكليف العباد بالشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والتصديق بما جاء في رسالة الإسلام، فوجب على المسلم شهادة الحق وقول الصدق، وترك الزور والبهتان والإفك، وترك دعوى علم الغيب، أو القول على الله بلا علم.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحج:٣٠.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان:٧٢.

والمسلم مطالب بالتصديق الجازم لكل خبر ورد عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكل ما ورد في القرآن والسنة من أمور الإيمان أركانه، وأن يثبت ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ، وحرم عليه أن يتقول على ربه، بوضع آراء عقلية، يحكم بها على الأدلة النقلية، فيأخذ منها ما يشاء، ويعطل ما يشاء، فيقع في البدعة وظلمة الأهواء.

قال الله تعالى في وصف الإنسان ومحدودية علمه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء:٨٥.

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ النمل:٦٥.

• ما هي العتبات المطلقة للحواس الخمس؟

لقد أجريت التجارب والدراسات الحديثة لتقدير القيم التقريبية للحدود التي يستقبلها الجهاز الحسي والإدراكي من المؤثرات الخارجية، والتي يطلقون عليها في علم النفس، العتبات المطلقة للحواس الخمس، فوجدوا الحقائق التالية:

١- أن البصر يدرك به العقل صورة شمعة مضاءة، ترى على بعد ثلاثين ميلا في ليل مظلم صاف، ٢٩٠ مليميكرون.

٢- أن السمع يدرك به العقل صوت دقة ساعة في ظروف هادئة تماما على بعد عشرين قدما.

٣- والتذوق يدرك به العقل ملعقة صغيرة من السكر، مذابة في جالونين من الماء.

٤- الشم يدرك به العقل نقطة عطر منتشرة في غرفة مساحتها ستة أمتار مربعة .

٥- وحاسة اللمس يدرك بها جناح ذبابة، يسقط على الصدغ من مسافة سنتيمتر واحد تقريبا.

وإذا كان الجهاز الإدراكي في الإنسان قاصرا بتلك الصورة في

الدنيا، فمن الصعب أن يرى ما وراء ذلك مما يحدث في القبر من عذاب أو نعيم، أو يرى الملائكة، أو الجن، أو عالم الغيب، أو يرى الله سبحانه وتعالى من باب أولى.

ومعلوم أن عدم رؤيته لهذه الحقائق لا يعنى عدم وجودها، فالجن مثلا جهازه الإدراكي يختلف عن الإنسان من حيث القوة، كما قال الله تعالى في وصفه: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأعراف:٢٧.

- **انعدام رؤية الأشياء يكون لسببين اثنين.**

ولما طلب موسى ﷺ رؤية الله ﷻ، لم يكن الجواب باستحالة الرؤية أو نفيها مطلقا، ولكن النفي معلق بانتهاء الحياة الدنيا، فإن الشيء لا يرى لسببين:

١. خفاء المرئي وهو ممتنع في حق الله.

٢. ضعف الجهاز الإدراكي للرائي.

وهذا شأن موسى ﷺ، ولذلك تجلى الله للجبل الذي يتحمل أقصى درجة ممكنة من ضوء الشمس، والذي لا يتحمله الإنسان أكثر من تسع دقائق تقريبا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا

تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأعراف:١٤٣.

ومن ثم فإنه من الخطأ طلب البحث عن كيفية الأمور والحقائق الغيبية، أو كيفية الذات الإلهية، أو كيفية صفاتها؛ لأن السنن التي أوجدها الله في الكون لا تسمح بذلك، اللهم إلا إذا حدث خرق للعادة في بعض معجزات الأنبياء؛ فيرون الملائكة أو الجنة أو النار أو بعض أمور الغيب مما يحدث في القبر أو في السماء، أو ما يعجز الإنسان العادي عن إدراكه.

وقد ورد عند البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (خَسَفَتْ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فقَرَأَ سُورَةً طَوِيلةً، ثمَّ رَكَعَ فَأَطَال، ثمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثمَّ اسْتَفْتَحَ بِسُورَةٍ أُخْرَى، ثمَّ رَكَعَ حَتَّى قَضَاهَا وَسَجَدَ، ثمَّ فَعَل ذَلكَ فِي الثانِيَةِ، ثمَّ قَال: إِنَّهُمَا آيَتَان مِنْ آيَاتِ اللهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذلكَ فَصلوا حَتَّى يُفْرَجَ عَنْكُمْ. لقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُل شَيْءٍ وُعِدْتُهُ، حَتَّى لقَدْ رَأَيْتُ أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنْ الجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلتُ أَتَقَدَّمُ. وَلقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ)[1].

وفي رواية أخرى عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لا يَخْسِفَانِ

(١) البخارى، كتاب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة ٤٠٦/١ (١١٥٤).

لَمْوتِ أَحَدٍ وَلا لحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلكَ فَاذْكُرُوا اللهَ. قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثمَّ رَأَيْنَاكَ كَعْكَعْتَ. قَال ﷺ: إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلتُ عُنْقُودًا، وَلوْ أَصَبْتُهُ لأَكَلتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا. وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثرَ أَهْلهَا النِّسَاءَ. قَالوا: بِمَ يَا رَسُول اللهِ؟ قَال: بِكُفْرِهِنَّ. قِيل: يَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَال: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ. لوْ أَحْسَنْتَ إِلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلهُ، ثمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) (١).

أما أمر الإدراك في الآخرة فهو مختلف تماما، إذ أن مدركات الإنسان في الآخرة تختلف عن مدركاته في الدنيا، كما ورد عند البخاري ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النبي ﷺ قال: (خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ، طُولهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلمَّا خَلقَهُ قَال: اذْهَبْ فَسَلمْ عَلى أُولئِكَ النَّفَرِ مِنْ المَلائِكَةِ جُلوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَال: السَّلامُ عَليْكُمْ، فَقَالوا: السَّلامُ عَليْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُل مَنْ يَدْخُل الجَنَّةَ عَلى صُورَةِ آدَمَ، فَلمْ يَزَل الخَلقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآن) (٢).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة ٣٥٧/١ (١٠٠٤)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٦٢٦/٢ (٩٠٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب بدء السلام ٢٢٩٩/٥ (٥٨٧٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٢١٨٣/٤ (٢٨٤١).

والحديث دل على أن الإنسان يوم القيامة يكون على صورة آدم عليه السلام طوله ستون ذراعا. ومن ثم فإن مداركه وحواسه تتغير بالكيفية التي تناسب أمور الآخرة وما فيها. فإذا أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، علمنا أن إدراك العين المبصرة في الدنيا وقدرتها تختلف عن إدراك العين المبصرة في الآخرة، وقدرتها على الرؤية.

روى البخاري ومسلم عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَال: (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي البَدْرَ، فَقَال: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْل طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل غُرُوبِهَا فَافْعَلوا. ثمَّ قَرَأَ: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْل طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل الغُرُوبِ) [1].

من أجل ذلك وجب الإيمان بالرؤية في الآخرة، والتسليم بذلك، لموافقته للعقل الصريح والنقل الصحيح.

وكذلك الحال في بقية الأسماء والصفات التي أخبرنا الوحي عنها، نؤمن بها ونثبتها لله دون أن نطلب البحث عن كيفيتها.

- **العقل الصريح ومدارك اليقين.**

أما العقل الصريح فأقصى حدوده، أن يتعرف على وجود الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ٢٠٣/١ (٥٢٩)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ٤٣٩/١ (٦٣٣).

وعظمته من خلال الأسباب ودلالتها، وكيفية التلازم بينها في ترابطها، وهناك عدة أمور يدرك بها العقل حقائق الأشياء على وجه اليقين.

أولها: البديهيات أو الأوليات.

وذلك كالحكم على أن البعرة تدل يقينا على البعير، وأن الأثر يدل يقينا على المسير، وهكذا كل مفعول، لابد له من فاعل، وكل نتيجة لابد لها من سبب. فنحن ما رأينا سيارة تتحرك دون قائدها، أو أوراقا مسطرة بكلمات بديعة كتبت وحدها بغير كاتبها، وما شاهدنا أبدا حجارة ورمالا تتحرك وحدها، فتجتمع على بعضها، وترتب نفسها بنفسها، لتقيم قصرا بديعا، أو سدا منيعا.

ولهذا لما سئل أعرابي عن وجود الخالق فقال معبرا في إجابته عن فطرته الإسلامية النقية: (إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟)[1].

لقد بنى الأعرابي إجابته على دلالة الأوليات على الخالق باليقين، وأنه من المحال عقلا أن يوجد مخلوق بغير خالق، وإلى هذا أشار القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الطور:٣٥/٣٦.

وقد أكد الإنسان العاقل صاحب العقل الصريح بنظره في الواقع أنه

(١) كتاب المواقف، لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ١/١٥١ .

لا يمكن أن يخلق نفسه، فضلا عن غيره، ولو استطاع أن يخلق نفسه، لصورها كما يشاء، ولأوجد فيها كل صفات الكمال وما يشتهيه ويتمناه، ولم يجعلها عرضة لنوازع النفس التي تنقص من قدر الشخص بين عباد الله. ولكن الواقع الذي يراه، ويحسه الجميع، ولا يشك فيه عاقل، أن الإنسان يبدأ من نطفة، ويمر بأطوار مختلفة، حتى إذا اكتمل تكوينه، خرج من بطن أمه في منتهى العجز والضعف، لا يعلم من أمر الحياة شيئا، ثم يتدرج في النمو حتى يبلغ في القوة مداها، ثم يبدأ في الاضمحلال بالشيخوخة إلى أقصاها، ثم تنتهي حياته فيموت ويرجع إلى التراب، ثم يتحول بعد ذلك إلى عظام بالية.

قال الله تعالى مخاطبا العقلاء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ الحج:٥ .

والحق سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى النظر في آياته الكونية، والمخلوقات المرئية، بما في ذلك النفس البشرية، فهي في حقيقتها صفحات كونية، وأدلة عقلية في كتاب الله الكوني، ودور الإنسان الذي أمر الله به في القرآن هو التفكر والاعتبار، والنظر في الآثار، فدور العقل هنا البحث في المخلوقات، وما فيها من حكم وآيات، فإن

المفعولات دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فالمفعول يدل على الفاعل، والمخلوق يدل على الخالق، وذلك يدل باللزوم على وجود الله وقدرته، وعلمه ومشيئته.

ثم ما في المخلوقات من أنواع التغييرات، وما فيها من تنوع في الأشكال والجمال، والحسن والكمال، يدل على وجود إرادة للحق في إدارة الملك، كما أن ما فيها من المصالح والغايات، والحكم البينات الواضحات، يدل على علمه سبحانه وحكمته، وقدرته في إتقان صنعته وغير ذلك مما دعانا الله تعالى إلى النظر فيه.

ومن هنا كان المسلم على يقين بوجود الله، من خلال إثبات وجود الخالق بدلالة الترابط بين الأسباب في حكم الأوليات أو البديهيات.

إن من أكبر المحرمات جريمة الزنا، والحكم فيها لا بد أن يقوم على بينة قطعية، ومفردات وبراهين يقينية، ولا يُبْنى على أمور ظنية. وقد بيَّن القرآن وسائل إدراك اليقين عند الحكم على المرتكبين لها، فمن ذلك البديهيات وارتباط العلل بالمعلولات، كما قالت مريم للملك عندما قال لها: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ مريم: ١٩/ ٢٠.

وهي تعني أنه لم يمسسها بشر بزواج، وأنها لم تكن بغيا بزنا؛ لأن العقل الصريح يعي أن البديهيات تجعل العاقل يحكم حكما يقينيا بأن الولد لا يأتي إلا من طريق مشروع، أو طريق ممنوع.

ولذلك أكد لها الملك أن ذلك واضح صحيح، وأن حالتها استثناء من أحكام العقل الصريح، وأن الله يخلق ما يشاء بخرق العادة بين سائر العقلاء، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ مريم: ٢١.

من أجل ذلك أثبت لها الخالق براءتها، بخرق العادات وظهور المعجزات، وأوحى إليها أنها إذا رأت من أنكر عليها، أن تلزم الصمت وتمتنع عن الكلام، وكل ما عليها أن تشير إلى الغلام وتقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ مريم:٢٦/ ٣٣.

سبحان الله أطفل صغير ينطق بهذه الكلمات؟ ويعرف كل هذه المعلومات؟ ويفهم لوازم القول من العبارات؟

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران:٥٩. وقال سبحانه:﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ مريم:٣٤/ ٣٥.

والله ﷻ قادر على أن يعلم الناس ما يشاء، فيدركون بأبصارهم ما هو تحت الأرض، أو فوق السماء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة:٢٥٥ .

ولكنه سبحانه حكيم، ومن حكمته أنه جعل جهاز الإدراك في الإنسان محدودا، وجعل باب الاطلاع على الغيب بالعقل وحده بابا مسدودا؛ لكي تكون الحياة نوعا من أنواع الابتلاءات، وليكون أهل العلم بين الناس درجات فوق درجات.

ومن ثم فإن آيات القرآن أثبتت للإنسان جهازا للإدراك شاملا متكاملا أساسه في القلب، وأول مهامه إدراك الأشياء ومعرفة الأسماء، وتمييز خصائصها، والتعرف على أوصافها. قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج:٤٦.

وقال أيضا: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الأعراف:١٧٩، فالبديهيات من أبرز الأمور العقلية في الدلالة على وجود الخالق.

ثانيا: المحسوسات.

المحسوسات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وقد جعلها الله ﷻ وسيلة من وسائل الإثبات، وجعلها من مدارك اليقين

لدى العقل الصريح، فبالمحسوسات يثبت الحكم في جريمة الزنا على وجه اليقين كما ثبت بالأوليات.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾ النور:٤/٥.

وقد جاء في الصحيح عَن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قَال: (كنَّا ليْلةَ الجُمُعَةِ فِي المَسْجِدِ، إذ جَاءَ رَجُل مِنَ الأنْصَارِ فقَال: لوْ أنَّ رَجُلا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلا، فتَكَلَّمَ جَلدتُمُوهُ، أَوْ قتَل قَتَلتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ سَكتَ عَلى غَيْظٍ، وَاللهِ لأَسْأَلنَّ عَنْهُ رَسُول اللهِ ﷺ، فَلمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلهُ، فقَال: يا رسول الله، لوْ أَنَّ رَجُلا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلا، فتَكَلَّمَ جَلدتُمُوهُ، أَوْ قتَل قَتَلتُمُوهُ، أَوْ سَكَتَ سَكَتَ عَلى غَيْظٍ، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾ النور:٦/٩) [(١)].

وقد أمر الله عباده باستخدام المحسوسات التي هي من مكونات الجهاز الإدراكي في النظر إلى الإبداع الكوني، والتأمل في خلق السماوات، والتفكر في سائر المخلوقات.

---

(١) رواه مسلم في كتاب اللعان ٢/١١٣٣ (١٤٩٥).

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ الغاشية:١٧/٢١.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ العنكبوت:٢٠.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ الروم:٤٨/٥٠.

ثالثا: المتواترات.

المتواترات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وهي الخبر المتواتر بنقل العدل الضابط الصادق، كعلمنا بوجود مكة والمدينة، فإن العلم بوجودهما علم يقيني. وكذلك بعثة النبي ﷺ العلم بها علم يقيني، لما ورد فيها من تواتر الأخبار ونقل حملة الآثار، وقد اتفق علماء الحديث على أن الأحاديث المتواترة تدل على اليقين.

والمتواتر من الأحاديث، هو ما رواه جمع يستحيل اتفاقهم على الكذب، عن جمع آخر يستحيل اتفاقهم على الكذب، إلى نهاية الإسناد

عن رسول الله ﷺ [(١)].

ويحصل اليقين أيضا بخبر الواحد المعروف معرفة شخصية بالعدالة والضبط، وعدم المبالغة في القول، والمعهود عنه بطول العشرة عدم الكذب، كالراوي الثقة الذي لم يعرف بارتكاب كبيرة، ولا إصرار على الصغيرة، فربما يحدث خبره من اليقين في النفس ما لا يحدثه أخبار التواتر.

ولم يختلف أحد من الأمم في أن رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسولا واحدا يدعوهم إلى الإسلام، واحدا واحدا مفردا إلى كل مدينة وقبيلة، كصنعاء وحضرموت ونجران، وتيماء والبحرين وعمان، وغير ذلك الكثير من البلدان.

وكان كل رسول يُعلم الناس أحكام دينهم كلها، عقيدة وشريعة، وافترض النبي ﷺ على كل جهة قبول رواية أميرهم ومعلمهم؛ فصح قبول خبر الواحد الثقة عن مثله مبلغا إلى رسول الله ﷺ.

روى البخاري من حديث البَرَاءِ ﷺ أنه قَال: (لَمَّا قَدِمَ رَسُول اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، صَلى نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلى الكَعْبَةِ، فَأَنْزَل اللهُ تَعَالى: "قَدْ نَرَى تَقَلبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا". فَوُجِّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ، وَصَلى مَعَهُ

(١) انظر في تعريف الحديث المتواتر، قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ١/١٤٦، والمنهل الروي لابن جماعة ١/٣١، وتدريب الراوي ٢/١٨٠.

رَجُل العَصْرَ، ثمَّ خَرَجَ فَمَرَّ عَلى قَوْمٍ مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَال هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ قَدْ وُجِّهَ إِلى الكَعْبَةِ، فَانْحَرَفُوا وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلاةِ العَصْرِ) [1].

رابعا: التجريبيات.

التجريبيات من الأمور التي يدرك بها العقل حقائق الأشياء، وقد يعبر عنها باطراد العادات، وذلك مثل حكمك بأن النار محرقة، والماء يطفئها، وأن الشمس مشرقة، والسقف يحجبها، وأن الماء ينزل من السماء، فتحيا الأرض بعد موتها، فهي سنن وعادات، وتجارب وممارسات، تدل على حدوث اليقين في النفس.

ولذلك حذرنا الله من العصيان، وذكرنا بما حدث لأعداء الحق في سالف الزمان، فقد كان مصيرهم الخسف والمسخ والصيحة والنيران، كما قال تعالى في القرآن: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)﴾ فاطر:٤٣. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾ محمد:٧/١١.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التمني، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم ٦/٢٦٤٨ (٦٨٢٥).

وقال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ آل عمران:١٣٧.

وقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنفال:٣٨.

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ الصافات:١٣٣/ ١٣٨.

وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَالَ: (لا يُلدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ واحِدٍ مَرَّتَيْنِ) [1].

وروى البخاري من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا) [2].

خامسا: الاعتراف.

من الأمور التي يدرك بها العقل الصريح حقائق الأشياء اعتراف الإنسان على نفسه بذنبه، وهو سيد الأدلة، وعليه أقام النبي ﷺ الحد

---

(١) البخارى في الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٥/٢٢٧١ (٥٧٨٢).

(٢) السابق، باب قوله: اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٥/٢٢٦١ (٥٧٤٣).

ورجم الزاني والزانية.

روى مسلم عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب ﷺ أنه قَال: (جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالكٍ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقَال: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال: وَيْحَكَ ارْجعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إليْهِ. قَال بريدة: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثمَّ جَاءَ فقَال: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: وَيْحَكَ ارْجعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إليْهِ. قَال: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثمَّ جَاءَ فَقَال: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فَقَال النَّبِيُّ ﷺ مِثل ذلكَ، حَتَّى إذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ، قَال لهُ رَسُول اللهِ: فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟ فقَال: مِنْ الزِّنَا، فَسَأَل رَسُول اللهِ ﷺ أَبِهِ جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ ليْسَ بِمَجْنُون، فقَال: أَشَرِبَ خَمْرًا؟ فقَامَ رَجُل فاستنكحه، فَلمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ.

قَال بريدة: فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَزَنَيْتَ؟ فَقَال: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِل يَقُول: لقَدْ هَلكَ. لقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ. وَقَائِل يَقُول: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَل مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ، أَنَّهُ جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ثمَّ قَال: اقْتُلنِي بِالحِجَارَةِ.

قَال: فَلبِثوا بِذَلكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثلاثةً، ثمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُمْ جُلوسٌ، فَسَلمَ ثمَّ جَلسَ فَقَال: اسْتَغْفِرُوا لمَاعِزِ بْنِ مَالكٍ. قَال بريدة: فَقَالوا: غَفَرَ اللهُ لمَاعِزِ بْنِ مَالكٍ، قَال بريدة: فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ تَابَ تَوْبَةً لوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لوَسِعَتْهُمْ.

قَال: ثمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنْ الأَزْدِ، فَقَالتْ: يَا رَسُول اللهِ طَهِّرْنِي؟ فقَال: وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِليْهِ، فَقَالتْ: أَرَاكَ

تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالكٍ، قَال: وَمَا ذاكِ؟ قَالتْ: إِنَّهَا حُبْلى مِنْ الزِّنَا. فَقَال: آنْتِ؟ قَالتْ: نَعَمْ. فَقَال لهَا: حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ. قَال: فَكَفَلهَا رَجُل مِنْ الأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ. قَال: فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَال: قَدْ وَضَعَتْ الغَامِدِيَّةُ. فَقَال: إِذا لا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلدَهَا صَغِيرًا ليْسَ لهُ مَنْ يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُل مِنْ الأَنْصَارِ فَقَال: إِليَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَال بريدة: فَرَجَمَهَا) [1].

وغاية ما للعقل الصريح النظر في الأسباب، والتعرف بدلالتها وجود الخالق، فقول العامة: ربنا عرفناه بالعقل. لا يحمل إلا على معرفة وجوده من خلال النظر في الأسباب، والتعرف من خلالها على عظمته وعلمه ومشيئته، وقدرته وحكمته.

ولا يجوز للإنسان أن يتجاوز ذلك كما فعلت المعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرهم من أتباع الجهمية؛ لأنه سوف يقع في الضلال ويقول على الله ما هو محال، فلو أردنا أن نتعرف على عالم الغيب أو ما يحدث في القبر من عذاب أو نعيم، أو عالم الملائكة، أو عالم الجن والشياطين، أو نتعرف على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا بد من طريق آخر هو طريق النقل.

وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦.

---

(١) مسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا ٣/١٣٢١ (١٦٩٥).

• ما المقصود بالنقل؟

يقصد بالنقل عند علماء العقائد الوحي المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويسمى أيضا بالشرع، أو السمع، أو الخبر، كقول أبى عمر بن عبد البر: (حديث النزول حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو منقول من طرق سوى هذه من أخبار العدول عن النبي ﷺ) [(١)].

وكقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والحكم المرتب على النقل الباطل باطل بالإجماع) [(٢)].

وكقوله أيضا عن صفة الكلام ونسبة القول إلى الله تعالى: (فالقول قد ورد في السمع مضافا إلى الله.. وقد بسطت الكلام على ذلك في غير هذا الموضع، وبينت أن ما جاء به الشرع الصحيح هو الذي يوافقه العقل الصريح) [(٣)].

والنقل، أو الوحي، أو الشرع، أو السمع، أو الخبر، كلها عند علماء العقائد معان مترادفة، تدل على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والنقل هو ما جاءنا من الله يعرفنا فيه بنفسه، فيبين لنا فيه أسماءه وأوصافه وأفعاله، ويبين ما في عالم الغيب من الملائكة والجن، وما

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ١٢٨/٧.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٩١/٢٧.

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٨٧/١).

يحدث في الملأ الأعلى، وما سيحدث يوم القيامة.

والعاقل لا بد أن يقر بالنقل، ويقدمه، ويسلم له، فلا يوجد من هو أعلم بالله من الله، ولا أعلم من رسول الله بالله، فما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات وجب علينا الإيمان به كما أخبر، وما أمرنا الله به كان صلاحنا في اتباعه.

• **جملة النقل تمثلت في القرآن وما ثبت في السنة المطهرة.**

من أصول العقيدة الصحيحة التي كان عليها سلفنا الصالح إيمانهم بأن جملة الرسالة التي نزلت من الله إلى رسوله ﷺ تمثلت في القرآن، وما ثبت في السنة المطهرة، وقد تلقاها النبي ﷺ عن طريق الوحي، وعلى أشكاله المختلفة كما قال سبحانه:

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ النجم: ١/ ٥.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الشورى: ٥١.

وقد تحددت بهذه الآية وسائل خطاب الرسل مع ربهم.

١- الوسيلة الأولى: الوحي من خلال الرؤيا في المنام، كما أوحى الله لإبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام. قال تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ

أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ الصافات: ١٠٠/ ١٠٧.

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يَقُول: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لهُ ضَعْفَهُ، ثمَّ اسْتَحَالتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ، فَلمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَن) [(١)].

وهذه الرؤيا للأنبياء وحي، ولغيرهم مبشرات، لكن لا قيمة لها في إثبات الأحكام، أو إلزام النفس بأي اعتقاد يراه في المنام، أو إلزام الآخرين بمقتضاه.

وذلك لما روي عند البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَال: (سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: لمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلا المُبَشِّرَاتُ، قَالوا: وَمَا

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا ٣/١٣٤٠ (٣٤٦٤). والذنوب هو الدلو العظيمة التي فيها ماء، والغرب الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد الثور. والقليب البئر التي لم تبن جوانبها بالحجارة ونحوها، ومعنى نزع أي استقى بالدلو، والضرب بعطن إذا رويت الإبل ثم بركت حول الماء، والمراد اتساع الأمصار.

المُبَشِّرَاتُ؟ قَال: الرُّؤْيا الصَّالحَةُ) [١].

وعند الترمذي وصححه من حديث أَنَس ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (إِنَّ الرِّسَالةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلا رَسُول بَعْدِي وَلا نَبِيَّ، قَال: فَشَقَّ ذَلكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَال: لكِنِ المُبَشِّرَاتُ، قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، وَمَا المُبَشِّرَاتُ؟ قَال: رُؤْيَا المُسْلمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ) [٢].

٢- الوسيلة الثانية: من وسائل خطاب الرسل مع ربهم الوحي عن طريق الكلام الإلهي المباشر من وراء حجاب بدون واسطة يقظة، كما كلم الله موسى عليه السلام فقال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ النساء:١٦٤.

وقال أيضا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الأعراف:١٤٣.

٣- الوسيلة الثالثة: من وسائل خطاب الرسل مع ربهم، الوحي عن طريق الكلام الإلهي غير المباشر، بواسطة إرسال أمين الوحي جبريل، وله في كيفية التبليغ إحدى حالتين وردتا عند الإمام البخاري من حديث الحارث بن هشام ﷺ، لما سأل رسول الله ﷺ فقال: (يَا رَسُول

---

(١) البخارى في كتاب التعبير، باب المبشرات ٦/٢٥٦٤ (٦٥٨٩).

(٢) الترمذي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ٤/٥٣٣ (٢٢٧٢).

اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثل صَلصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَليَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَال، وَأَحْيَانًا يَتَمَثل ليَ المَلكُ رَجُلا، فَيُكَلمُنِي فَأَعِي مَا يَقُول. قَالتْ عَائِشَةُ رَضِيِ اللهُ عَنْهَا: وَلقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِل عَليْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لِيَتَفَصَّدُ عَرَقًا) [1].

وقد انقطع الوحي بعد ذلك، فلا ينزل على أحد من البشر إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ الأحزاب:٤٠.

فمن ادعى الاتصال المباشر في الخطاب مع الله تحت أي تأويل أو مسمى ليجعل كلامه مقبولا بين الناس، أو حاول أن يضفي القدسية على كلامه، بادعائه أن ما يقوله أو ما يكتبه، إنما تلقاه بطريق من طرق الوحي السابقة، فقد كذب على الله ورسوله ﷺ، وتجاوز أصول القرآن والسنة وسعى في هدمها. مثال ذلك قول القائل من غلاة الصوفية: (أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربى، وأنتم تقولون: حدثني فلان وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات) [2].

---

(١) البخارى في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٤ (٢).

(٢) القائل هو أبو يزيد البسطامي (ت:٢٦١هـ) له كثير من الشطحات، انظر ذخائر الأخلاق لمحي الدين بن عربي ص١٥٣، والفتوحات المكية ١/٣٦٥، والجواهر والدرر لعبد الوهاب الشعراني، بهامش الإبريز ص ٢٦٨.

وكذلك ادعاء محي الدين بن عربي أن كتاب الفصوص أخذه من يد رسول الله ﷺ مكتوبا من اللوح المحفوظ، وهو مجرد ناقل أمين بلا زيادة أو نقصان، كما قال: (فحققت الأمنية، وأخلصت النية، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب، كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان) [(١)].

وقوله أيضا: (فاقتصرت على ما ذكرته من هذه الحِكَم في هذا الكتاب، على حد ما ثبت في أم الكتاب، فامتثلت ما رسم لي، ووقفت عندما حد لي، ولو رمت زيادة على ذلك ما استطعت؛ فإن الحضرة تمنع من ذلك) [(٢)].

وهنا يشبه ابن عربي نفسه بالرسول ﷺ في دقة البلاغ عن الله وخوفه من الوعيد الذي ورد في قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحاقة:٤٣/٤٧.

وكذلك ما ذكره عبد الكريم الجيلي من أصحاب فكر وحدة الوجود وهو يحاكى طريقة الوحي في التجلي الصوفي حيث قال: (يتجلى الحق سبحانه وتعالى على العبد بتجل يسمع فيه صلصلة الجرس، ويسمع تصادم الحقائق بعضها مع بعض، فيجد لها أطيطا يملأ ما بين السماء

(١) فصوص الحكم لابن عربي ص ٤٧، طبع بيروت، وانظر مصرع التصوف لإبراهيم بن عمر البقاعي ص٣٧، نشر عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.
(٢) فصوص الحكم لابن عربي ص ٥٨، طبع بيروت.

والأرض، ثم إذا تقوى وثبت لسماع ذلك، يترقى ويسمع صلصلة الجرس عند رفع الستر)[١].

كل ذلك وأمثاله تهوين لحرمة الدين، وانتهاك مقبوح مشين، انتهاك للثوابت المستقرة في اعتقاد المسلمين.

وقد يجوز ذلك بعض المدافعين عن الصوفية من باب المخاطبات الروحانية، والمحادثات الإيمانية عند المكاشفات والتجليات التي تحدث لبعض الصوفية في شطحاتهم، فنقول له: هذا باب مظلم مفتوح على مصراعيه للمغرضين والحاقدين وشبهات الشياطين. ويكفي العاقل أن يقف على نظرة المستشرقين للوحي عند المسلمين، وكيف وجدوا في مثل ذلك سبيل الخلط بين الوحي وترهات الصوفية.

- **النقل الصحيح حجة يوجب تصديق الخبر وتنفيذ الطلب.**

قال ابن حزم: (إن القرآن لما كان هو الأصل الذي يرجع إليه في معرفة الإسلام، وجدنا فيه وجوب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ، ووجدناه ﷻ يقول فيه واصفا لرسوله ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم:٣/٤، فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ على قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام وهو القرآن.

---

(١) المناظر الإلهية للجيلي ص ١٩٤، تحقيق د. نجاح محمود الغنيمي، دار المنار.

والثاني: وحي مروي منقول، غير مؤلف ولا معجز النظام، ولا متلو، لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبين عن الله ﷻ مراده منا)[١].

ومن الأدلة القرآنية التي تقرر هذه الحقيقة بلا نزاع، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ الحشر:٧. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ آل عمران:٣١/٣٢. وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء:٦٥.

وأمثال ذلك في القرآن كثير، وكله يدل على أن السنة وحي من الله تعالى لرسوله ﷺ، وأنه لا بد من اعتمادها في معرفة أصول الأشياء، والإذعان لها كالقرآن سواء بسواء.

وقد ثبتت روايات كثيرة في السنة، تؤكد أن الصحابة ﷺ كانوا لا يتهاونون في ذلك، وأن النبي ﷺ حذرهم من الكذب عليه، أو التكذيب بسنته، فمن ذلك:

ما رواه أبو داود وصححه الألباني من حديث المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثلهُ مَعَهُ، أَلا

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٩٣/١)، نشر دار الحديث، القاهرة.

يُوشِكُ رَجُل شَبْعَانُ عَلى أَرِيكَتِهِ يَقُول: عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرآن، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلال فَأَحِلوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ) [(١)].

وفي رواية أخرى عند الترمذي وصححها الشيخ الألباني: (وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُول اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ) [(٢)].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (لعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، وَالمُتَفَلجَاتِ للحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلقَ اللهِ. فَبَلغَ ذَلكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ، يُقَال لهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالتْ: مَا حَدِيث بَلغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لعَنْتَ الوَاشِمَاتِ وَالمُسْتَوْشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ وَالمُتَفَلجَاتِ للحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلقَ اللهِ.

فَقَال عَبْدُ اللهِ: وَمَا لي لا أَلعَنُ مَنْ لعَنَ رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ. فَقَالتِ المَرْأَةُ: لقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لوْحَيِ المُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ. فَقَال: لئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لقَدْ وَجَدْتِيهِ. قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر:٧. فَقَالتِ المَرْأَةُ: فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلى امْرَأَتِكَ الآنَ. قَال: اذْهَبِي فَانْظُرِي. قَال: فَدَخَلتْ عَلى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ، فَلمْ تَرَ شَيْئًا، فَجَاءَتْ إِليْهِ فَقَالتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا،

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٤/٢٠٠ (٤٦٠٤)، وانظر صحيح ابن ماجة (١٢)، ومشكاة المصابيح ١/٣٥ (١٦٣).

(٢) رواه الترمذي في كتاب السنة، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ ٥/٣٨ (٢٦٦٤)، وانظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٦٤).

فَقَال: أَمَا لوْ كَانَ ذَلكَ لمْ نُجَامِعْهَا) [١].

ومعنى لم نجامعها، قال جماهير العلماء: معناه لم نضاجعها، ولم نجتمع نحن وهي، بل كنا نطلقها ونفارقها، وقيل: يحتمل أن معناه لم أطأها، وهذا ضعيف كما ذكره النووي، والصحيح أن من عنده امرأة مرتكبة معصية كوصل الشعر أو ترك الصلاة أو غيرهما ينبغي له أن يطلقها.

وكلام ابن مسعود ﷺ واضح في التزامه بالسنة قولا وعملا، كالتزامه بمقتضى أحكام القرآن.

وروى أبو داود عن عمران بن حصين ﷺ أنه كان جالسا مع أصحابه، فقال له رجل من القوم: (يا أبا نجيد إنكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلا في القرآن، فغضب عمران، وقال للرجل: أوجدتم في كل أربعين درهما درهم، ومن كل كذا وكذا شاة شاة، ومن كل كذا وكذا بعيرا، كذا وكذا، أوجدتم هذا في القرآن؟ قال: لا، قال: فعمن أخذتم هذا؟ أخذتموه عنا، وأخذناه عن نبي الله ﷺ، وذكر أشياء نحو هذا) [٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة الحشر، باب وما آتاكم الرسول فخذوه ٤/١٨٥٣ (٤٦٠٤)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ٣/١٦٧٨(٢١٢٥).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الزكاة، باب ما تجب فيه الزكاة ٢/٩٤ (١٥٦١)، وفي رفعه ضعف، انظر ضعيف أبي داود (١٥٦١).

ولا عبرة بمذهب الشيعة والخوارج في رد بعض ما ورد في السنة لأن لهم مواقف خاصة في كثير من الصحابة، وهم رواة الحديث عن رسول الله ﷺ. قال الإمام السيوطي في رد الشيعة لكلام النبي ﷺ: (وأصل هذا الرأي الفاسد في عدم الاحتجاج بالسنة أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة، ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن، وهم في ذلك مختلفو المقاصد، فمنهم من كان يعتقد أن النبوة لعلي، وأن جبريل أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، ومنهم من أقر للنبي ﷺ بالنبوة، ولكن قال: إن الخلافة كانت حقا لعلي، فلما عدل به الصحابة عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه كفروا الصحابة، وبنوا على ذلك رد الأحاديث كلها، لأنها عندهم بزعمهم من رواية قوم كفار) [1].

ولا عبرة أيضا ببعض آراء المعتزلة والمتكلمين الداعية إلى عدم الاحتجاج بالسنة في الآحاد، أو المتواتر من الروايات بحجة مخالفتها لآرائهم الكلامية،كقول أبي الهذيل العلاف وهو أحد من شيوخ المعتزلة: (إن الحجة من طريق الأخبار فيما غاب عن الحواس من آيات الأنبياء عليهم السلام وفيما سواها، لا تثبت بأقل من عشرين نفسا، فيهم واحد من أهل الجنة، أو أكثر) [2].

ويذكر عبد القاهر البغدادي أن كلام العلاف تعطيل للأخبار

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص٦، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ١/١٠٩، طبعة دار الأفاق الجديدة، بيروت.

الواردة في الأحكام الشرعية عن فوائدها، وتهكم واحتقار لما خالف ذلك من روايات السنة، واستهزاء بناقليها [1].

ومن البرهان على قبول خبر الواحد قول الله تعالى عن موسى ﵇:
﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ القصص: ٢٠.

والشاهد أن الرجل الواحد أخبر موسى ﵇ عن مؤامرة الملأ لقتله فصدقه وخرج من المدينة خائفا يترقب. وكذلك تصديقه ﵇ المرأة في قولها وخبرها عن أبيها فمضى معها.

قال تعالى: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ القصص: ٢٥.

وجمهور العلماء على أن خبر الواحد العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه إلى رسول الله ﷺ يوجب العلم والعمل معا، فلا عبرة بقول المعتزلة والخوارج: إن خبر الواحد لا يوجب علينا علما ولا عملا.

- **النقل الصريح لا يثبت إلا بقواعد المحدثين.**

لا بد من التسليم بأن الطريق الوحيد في ثبوت السنة هو الالتزام بقواعد المحدثين في معرفتها، فإذا كانت الآيات القرآنية لا تؤخذ بمعزل عن السنة، وفصل أحدهما عن الآخر لا يقبل في دين الإسلام، فإن من أعظم الأسس في الاعتماد على السنة، أن نسلم بأن الطريق الوحيد في

---

(١) السابق ١/١١٠.

ثبوتها هو الالتزام بقواعد المحدثين في معرفتها. وهو ما عرف عند المسلمين بعلم الحديث، أو العلم بالأصول التي يعرف بها أحوال السند والمتن، من حيث القبول والرد، وذلك فيما نقل من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، ورواياتها وضبطها وتحريرها، وإسناد ذلك إلي من نسب إليه، بتحديث أو إخبار أو عنعنة أو غير ذلك.

فليس كل ما نسب إلى النبي ﷺ يقبل بلا ضابط أو نقاش، فلا بد من الترابط العلمي المتصل بين رواة السند، بحيث يتلقى اللاحق من الرواة عن السابق، فلا يكون بين اثنين من رواة الحديث فجوة زمنية، أو مسافة مكانية يتعذر معها اللقاء، أو يستحيل معها التلقي والأداء، كما يلزم اتصاف الرواة بالعدالة، وهى صفة خلقية تكتسبها النفس الإنسانية، وتحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، ومجانبة الفسوق والابتداع، ولا بد أن يتصف الراوي أيضا بالتثبُّت من الحفظ، والسلامة من الخطأ، وانعدام الوهم مع القدرة على استحضار ما حفظه.

وهذا شرط في جميع رواة الحديث الصحيح من أول السند إلى آخره. يضاف ذلك إلى عدم مخالفة الراوي لمن هو أوثق منه، ولا يكون أيضا في روايته علة قادحة ظاهرة تؤدى إلى عدم ثبوت الحديث.

أما الحكم على ثبوت الحديث بالأصول الكلامية أو المناهج الفلسفة، أو الكشوفات الذوقية، فلا يعد رجوعا إلى قرآن وسنة بفهم سلف الأمة؛ لأن الآراء العقلية متعددة، والأذواق مختلفة ومتغيرة، ولا يمكن ضبط مثل هذه الأشياء، فالحكم على أحاديث الرسول ﷺ في

هذه الحالة، يحكمه الهوى، ويسوقه استحسان النفس وتقلب الرأي.

ومن ثم لا عبرة بقول ابن عربي: (ربما صح عندنا من أحاديث الأحكام ما اتفق المحدثون على ضعفه وتجريح نقلته، وقد أخذناه عن الكشف عن قائله صحيحا، فنتعبد به أنفسنا على غير ما تقرر عند علماء الأصول، ورب حديث قد صححوه واتفقوا عليه، وليس بصحيح عندنا بطريقة الكشف، فنترك العمل به) [١].

ومعنى هذا أن الصوفية لهم حكمهم الخاص على إسناد الحديث، فعن طريق الكشف يزعمون كذبا أنهم يتصلون رأسا بالنبي ﷺ ويصححون الحديث أو يضعفونه !! وبهذا الهجوم على قواعد علم الحديث تنهدم السنة، وتبقى ألعوبة في يد هؤلاء الذين يحكمون عليها بما شاءوا، وليس من ضابط نرجع إليه، ولا فيصل نحتكم إليه، ما دام أن هذا الكشف علم روحي غيبي، وقد يكون كشف هذا الصوفي غير كشف ذاك.

ومثل ذلك أيضا يهدم الشعراني علم الحديث وقواعده في تمييز المقبول والمردود فيقول: (قد رأينا في كلام علماء الرسوم تكفير الأولياء المحدثين، لكونهم يصححون الأحاديث التي قال الحفاظ بضعفها، وهذا عدم إنصاف منهم. وأقل الأحوال، أن ينزلوا الأولياء المكاشفين منزلة أهل الكتاب، لا يصدقونهم، ولا يكذبونهم [٢].

---

(١) رسائل ابن عربي ص٤ ، دار إحياء التراث، حيدر آباد، الهند، ١٩٤٨م.

(٢) اليواقيت والجواهر لعبد الوهاب الشعراني (٢/٩٠)، طبعة دار المعرفة بيروت.

المطلب الثاني

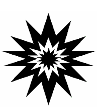
هل يتعارض العقل مع النقل؟



- العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح.
- الهداية في قيادة النقل الصحيح للعقل الصريح.
- الضلال في قيادة النقل الباطل للعقل الصريح.
- الوعيد الشديد لمن لم يلتزم بالنقل الصحيح.
- أسباب التعارض بين العقل والنقل.
- السبب الأول عدم ثبوت النقل وأمثلته.
- السبب الثاني عدم فهم العقل للنقل وأمثلته.

المطلب الثاني

هل يمكن أن يتعارض العقل مع النقل؟



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

ففي المطلب السابق تحدثنا عن العقل وتعريفه، وما هي الغاية الرئيسية من وجوده؟ وما حدود المعرفة بالعقل؟ وما العتبات المطلقة للحواس الخمس؟

وبينا أن انعدام رؤية الأشياء يكون لسببين اثنين، ثم تناولنا الحديث عن العقل الصريح ومدارك اليقين، وبينا المقصود بمصطلح النقل عند علماء العقيدة، وكذلك بينا أن جملة النقل تمثلت في القرآن وما ثبت في السنة المطهرة، وأن النقل الصحيح كله حجة، يوجب تصديق الخبر وتنفيذ الطلب، وأنه لا يثبت إلا بقواعد المحدثين.

وفي هذا المطلب نتناول إن شاء الله الحديث عن قضية التعارض بين العقل والنقل، لما لها من أهمية كبيرة في تحديد هوية أهل السنة والجماعة وتمييزهم عن مخالفيهم. فهم يرون أنه من المحال أن يتعارض العقل الصريح الواضح مع النقل الصحيح الثابت، بل يرون أن العقل الصريح يشهد للنقل الصحيح ويؤيده.

ويرون أن السبب في ذلك سبب منطقي، وهو وحدة المصدر، فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، وهو سبحانه أعلم بصناعته لعقل الإنسان، وأعلم بما يصلحه في كل زمان ومكان، فإذا وضع نظاما ببالغ علمه وحكمته لصلاح صنعته، والتزم الإنسان بمنهجه وشرعته، كان من المحال أن يضل أو يشقى، أو يعيش معيشة ضنكا، إذا اتبع هداية الله.

ومعلوم عند سائر العقلاء أن أولى وأفضل من يضع نظام التشغيل للمصنوعات هو صانعها؛ ولذلك قال الله تعالى في شأن اتباع بني آدم لمنهجه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ طه: ١٢٤/١٢٦.

- **العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح.**

قال ابن تيمية رحمه الله: (كل ما يدل عليه الكتاب والسنة، فإنه موافق لصريح المعقول، والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيرا من الناس يغلطون، إما في هذا، وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده به، كان عارفا بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول) [1].

وقال أيضا: (من قال بموجب نصوص القرآن والسنة، أمكنه أن

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٨٠.

يناظر الفلاسفة مناظرة عقلية يقطعهم بها، ويتبين له أن العقل الصريح مطابق للسمع الصحيح) [١].

وقال: (العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا، ولكن كثيرا من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) [٢].

- **الهداية الحقيقية في قيادة النقل الصحيح للعقل الصريح.**

بين الله ﷻ أن الهداية الحقيقية تكمن في قيادة النقل الصحيح للعقل الصريح، أو بتعبير آخر تكمن في قيادة الوحي الذي يمثل منهج الإسلام ودستوره ونظامه للعقلاء من أصحاب الفطرة النقية، وكل من يحرص على السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة. والأدلة على ذلك من كتاب الله كثيرة لا تكاد تحصى منها نذكر منها مما ورد في القرآن على سبيل المثال:

١. قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى

---

(١) السابق ٦/٥٢٥.

(٢) السابق ٧/٦٦٥.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الشورى: ٥١/ ٥٣.

ووجه الاستدلال أن الله ﷻ بعد أن بين وسائل انتقال الوحي، أو انتقال النقل الصحيح إلى الأنبياء، خاطب نبيه ﷺ مبينا أن هذا الوحي انتقل إليه كذلك، وأن الله ﷻ قد جعل هذا النقل الصحيح نورا يهدي العباد إلى أقوم سبيل لصلاح الإنسانية، وقس على ذلك وجه الاستدلال في النصوص.

٢. قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر: ٢٣.

٣. قول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴿٣﴾ ﴾ محمد: ١/ ٣.

٤. قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ المائدة: ٦٦.

٥. قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي

كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٧.

٦. قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ الطلاق: ١٠/ ١١.

٧. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة: ١٥/ ١٦.

وقد بين النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أن صلاح الإنسانية في اتباع دينه ومنهجه في الحياة، والممثل في النقل الصحيح، وأن سنته هي وحدها سبيل النجاة، ومن ذلك على سبيل المثال:

١. ما ورد في صحيح البخاري من حديث أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (كُل أُمَّتِي يدْخُلونَ الجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى، قَالوا: يا رَسُول اللهِ، وَمَنْ يأْبى؟ قَال: مَنْ أَطاعَنِي دَخَل الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)[1].

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ٦/ ٢٦٥٥ (٦٨٥١).

٢. ما رواه أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَط لنَا رَسُول اللهِ ﷺ خَطا، ثم قَال: هَذَا سَبِيل اللهِ، ثمَّ خَط خُطوطاً عَنْ يمينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثمَّ قَال: هَذِهِ سُبُل، عَلى كُل سَبِيل مِنْهَا شَيطانٌ يدْعُو إِليهِ، ثمَّ قَرَأَ:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ الأنعام:١٥٣) [١].

٣. وعند البخاري ومسلم عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي أنه قال: (جاء رَجُل إلى النبي ﷺ فقال: إنَّ أَخِي اسْتَطلقَ بَطنُهُ، فقال رسول اللهِ ﷺ: اسْقِهِ عَسَلا، فَسَقَاهُ ثمَّ جَاءَهُ فقال: إني سَقَيتُهُ عَسَلا فلم يزِدْهُ إلا اسْتِطلاقًا، فقال له ثلاث مَرَّاتٍ، ثمَّ جاء الرَّابِعَةَ فقال: اسْقِهِ عَسَلا، فقال: لقد سَقَيتُهُ فلم يزِدْهُ إلا اسْتِطلاقًا، فقال رسول اللهِ ﷺ: صَدَقَ الله وَكَذَبَ بَطنُ أَخِيكَ، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ) [٢].

٤. وصح عند أحمد من حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَان الأَنْصَارِي أن رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (ضَرَبَ اللهُ مَثلا صِرَاطا مُسْتَقِيمًا، وَعَلى جَنْبَتَي الصِّرَاط سُورَان، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلى بَابِ الصِّرَاط دَاعٍ يقُول: أَيهَا النَّاسُ ادْخُلوا الصِّرَاط جَمِيعًا وَلا

---

(١) المسند ١/٤٣٥ (٤١٤٢) وصححه الشيخ الألباني في تخريج شرح الطحاوية ص٥٨٧، ومشكاة المصابيح (١٦٦) .

(٢) رواه البخاري في الطب، باب الدواء بالعسل ٥/٢١٥٢ (٥٣٦٠)، ومسلم في كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل ٤/١٧٣٦ (٢٢١٧)، واللفظ لمسلم.

تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاط، فَإِذَا أَرَادَ يفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلكَ الأَبْوَابِ قَال: وَيحَكَ، لا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلجْهُ. وَالصِّرَاط الإِسْلامُ. وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالى. وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالى. وَذَلكَ الدَّاعِي عَلى رَأْسِ الصِّرَاط كِتَابُ اللهِ ﷻ. وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاط وَاعِظُ اللهِ فِي قَلبِ كُل مُسْلمٍ) [1].

• **الضلال الحقيقي في قيادة النقل الباطل للعقل الصريح.**

لا يمكن لعاقل يعلم أن صلاح الصنعة في اتباع نظام التشغيل الذي وضعه صانعها، لاسيما إن كان الصانع موصوفا بالعلم والخبرة وجودة الصنعة، ثم يعمد في تشغيلها إلى نظام بديل، لا علاقة له بالصنعة في قليل أو كثير، قد وضعه إنسان عاجز فقير، مهما ادعى أن نظامه ليس له في الأنام نظير، وأن طريقته في نظام التشغيل مبنية على التطور في الفهم، وعلى الحرية والتقدم والعلم! قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾الملك:١٤.

وكذلك لم نر عاقلا لديه صنعة قيمة في ذاتها، وقد دفع أموالا طائلة في شرائها، ثم عجز عن تشغيلها، أو ظن أنها قد تعطلت عن وظيفتها، وذهب في إصلاحها إلى غير وكيلها أو مصنعها. فإذا كان المسلم العاقل مقرا بذلك فيما يحدث بين البشر، فكيف يترك هداية الله

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٨٢/٤ (١٧٦٧١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٩٤/٢ (٢٣٤٨) .

ويطلب هداية غير المسلمين في تشريعاتهم، ونظم حياتهم وأخلاقهم سلوكياتهم، ويستوردها من اليهود والنصارى والبوذيين وعباد الهوى في الشرق والغرب. قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ البقرة: ١٢٠.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الكهف: ١٠٣/١٠٤. وقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ البقرة: ١٣٥/١٣٨.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران: ٩٩/١٠١.

وعند البخاري من حديث أَبِي سَعِيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِي ﷺ

قَال: (لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لوْ سَلكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لسَلكْتُمُوهُ، قُلنَا: يا رَسُول اللهِ، اليهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَال: فَمَنْ) (١).

وروى البخاري من حديث أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَال: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُون قَبْلهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، فَقِيل: يا رَسُول اللهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَال: وَمَنْ النَّاسُ إِلا أُولئِكَ) (٢).

- **الوعيد الشديد لمن لم يلتزم بالنقل الصحيح.**

من المعلوم للعقلاء أن الصانع يضع شروطا دقيقة لضمان الصنعة ضد عيوب التشغيل، أو بمعنى آخر يضع شروطا دقيقة يلتزم فيها بأن صنعته لا يمكن أن تفسد إذا التزم المشتري في تشغيلها بدليل التشغيل، وإذا فسدت مع التزامه بالدليل، فإنه متكفل بإصلاحها، أو منحه منتجا جديدا بديلا عن سوء صنعته.

وغالبا ما يكون سبب فساد الصنعة كما نرى في واقعنا هو عدم الالتزام من قبل المشتري بدليل التشغيل، لاسيما إن كان المصنع معروفا بالجودة العالية، والتصنيع الدقيق الذي يدل على الكمال في

---

(٢) رواه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣/١٢٧٤ (٣٢٦٩).

(٣) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم ٦/٢٦٦٩ (٦٨٨٨).

الخبرة، والتقدم العلمي والتطور التكنولوجي.

ولا يمكن لمن أفسد الصنعة بسبب عدم التزامه بدليل التشغيل أن يطالب المصنع بإصلاح الصنعة مقابل أو تعويض، بل لابد أن يدفع التكلفة اللازمة لإصلاحها، فضلا عن إلزامه بأجر العاملين على إعادة تشغيلها.

وكذلك لم نر في واقع العمل مهندسا يدير مصنعا فيقصر في إدارته، ويتغافل عن متابعة أجهزته، ويعبث بها على ما يهواه حتى يفسدها، ويخرب المصنع لصاحبه، ثم لا يعاقبه صاحب المصنع بالحبس أو الغرامة، أو فقدان الوظيفة على سوء فعله وتقصيره، وعدم مراعاة مصلحته، أو مصلحة وكيله ومديره.

إذا كان ذلك معلوما واضحا في تعامل المخلوق مع المخلوق، فكيف نتعامى عند النظر إلى الإنسان الذي صنعه ملك الملوك، ووضع نظاما لحياته يسعده في الدنيا وبعد مماته، لاسيما أنه سبحانه عليم خبير ،غني بذاته عن كل مصلحة تعود عليه، وأنه ما وضع نظام الحياة للإنسان إلا لمصلحة تعود على الإنسان لا على ربه. هذا فضلا عن كون هذا الإنسان مستخلفا في أرض الله لا في أرضه، ومخولا من قِبَل الله في ملكه.

إذا كان ذلك معلوما واضحا لكل عقل صريح، ألا يستحق هذا الإنسان شديد العقاب لو أفسد صنعة الله، وظلم نفسه أو غيره باتباعه

نظاما باطلا من وضع إنسان عاجز فقير من أمثاله.

قال الله تعالى في بيان ما وضع من العقاب على مخالفة نظامه ومنهجه الشرعي: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم: ٤١.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ العنكبوت: ١٢/ ١٣. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الكهف: ٥٧.

وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المائدة: ٤٤.

وقال سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المائدة: ٤٥.

وقال: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ البقرة:١٦٥/١٦٦.

وروى البخاري من حديث عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيرِ ﷺ أَنَّ رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيرَ ﷺ فِي شِرَاجٍ مِنْ الحَرَّةِ، يسْقِي بِهَا النَّخْلَ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: اسْقِ يا زُبَيرُ، فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ ثمَّ أَرْسِلِ إلى جَارِكَ، فَقَال الأَنْصَارِي: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلوَّنَ وَجْهُ رَسُول اللهِ ﷺ، ثمَّ قَال: اسْقِ ثمَّ احْبِسْ يرْجِعَ المَاءُ إلى الجَدْرِ، وَاسْتَوْعَى لهُ حَقَّهُ، فَقَال الزُّبَيرُ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ الآية أُنْزِلتْ فِي ذَلكَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء:٦٥ [(١)].

وقال الله سبحانه: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران:٨٣ /٨٥.

---

(١) رواه البخاري في المساقاة، باب شرب الأعلى إلى الكعبين ٢/٨٢٣ (٢٢٣٣).

- **أسباب التعارض بين العقل والنقل.**

علمنا أنه من المحال أن يتعارض العقل الصريح الواضح مع النقل الصحيح الثابت، وأن السبب في ذلك سبب منطقي، وهو أن الذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده.

وأن كل ما ثبت من مسائل العقيدة في الكتاب والسنة يصدقها العقل الصريح، لأن العقل الصريح، لا يمكن أن يخالف المنقول الصحيح في دلالته، فالعقل والنقل وسيلتان لغايةٍ واحدةٍ هي الوصول إِلى الله، والوسائل التي تؤدِّي إِلى غاية واحدة، لا يمكن لها أن تتعارض.

قال ابن تيمية: (المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ما تنازع فيه الناس، فوجدت ما خالف النصوص الصريحة شبهات فاسدة، يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك. ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه السمع الذي يقال إِنه يخالفه: إِما حديث موضوعٌ، أو دلالةٌ ضعيفةٌ، فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إِذا خالفه صريح المعقول. ونحن نعلم أن الرسل لا يخبِرون بمحالات العقول، بل

بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته) [١].

ومن ثم إذا تعارض العقل والنقل فذلك لسببين لا ثالث لهما: أحدهما: أن النقل لم يثبت عن رسول الله ﷺ. والآخر: أن العقل لم يفهم النقل ولم يدرك خطاب الله على النحو الصحيح. ولا بد من تفصيل ذلك لأهميته في معرفة أصول العقيدة.

- **السبب الأول للتعارض عدم ثبوت النقل.**

إذا تعارض العقل مع النقل فالسبب الأول في التعارض أن النقل لم يثبت فينسب مدعي التعارض إلى دين الله ما ليس منه، كالذين يتمسكون بأحاديث ضعيفة، أو موضوعة، وينقلونها للناس دون تمحيص.

فماذا يصنع العاقل إذا سمع خطيبا يذكر مرة حديثا يرفعه إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ) [٢].

ثم يسمعه مرة أخرى يروى حديثا آخر يرفعه إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: (أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل. ثم قال: وعزتي

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/١٤٧، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر ٤/٢٢٥ (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٨٠).

وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك)[(١)].

ثم يسمع خطيبا ثالثا يروي حديث يرفعه إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: (أول ما خلق الله نورى)؟ [(٢)].

لا شك أن العاقل يقف حائرا بين تلك الروايات، ويساءل أي الأشياء خلق أولا؟ وسيبعث ذلك في نفسه شكا. كما أنه من الخطأ التوفيق بين هذه الروايات قبل البحث عن ثبوتها. وكان يجب على من نقل هذه الروايات أن يتثبت من صحتها أولا.

وبالبحث وجد أن الحديث الأول ثابت صحيح ونصه مرفوع إلى رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَوَّل مَا خَلَقَ الله القَلمَ، فَقَال لهُ: اكْتُبْ فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلى الأَبَدِ) .

أما الحديث الثاني وهو قوله: (أول ما خلق الله العقل). فموضوع باتفاق، كما ذكر العجلوني وغيره.

وأما الحديث الثاني وهو قوله: (أول ما خلق الله نورى). فهو حديث موضوع أيضا، رواه عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله ﷺ،

---

(١) المقاصد الحسنة للسخاوي (١/١٩٩)، واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (١/١٢٠)، وكشف الخفاء للعجلوني ١/٣٠٩ (٨٢٣) نشر مؤسسة الرسالة، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥/١٥٣)، قال ابن تيمية: والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث .

(٢) انظر كشف الخفاء ١/٣١١ (٨٢٧).

قال: (قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ قال: يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك، خلقه من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك، ولا سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا إنسي، فلما أراد أن يخلق الخلق، قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضيين، ومن الثالث الجنة والنار. ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله ..) [1].

وعلى هذا المنوال تأتينا اختراعات الصوفية، والأباطيل العاطفية، وما شابه ذلك من الأمور البدعية، لتخرب العقيدة الإسلامية في نفوس أصحاب الفطرة النقية من عوام الأمة الإسلامية.

فأمثال هذه الأحاديث التي يتناقلها غير الراسخين في العلم وغيرهم، هي التي تحدث الفوضى، وتدعو إلى تعارض العقل مع

---

(١) انظر الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لعبد الحي اللكنوي (٤٢/١).

النقل، فالعقل الصريح لا يمكن أن يعارض النقل الصحيح.

وينبغي على أهل العلم أن يتقوا الله في نقلهم للأحاديث الضعيفة والموضوعة وإن كانت حجتهم أنها ترغب الناس في الإيمان والطاعة، فإن من أبرز السلبيات التي تظهر من ذلك فتح باب البدعة على مصراعيه، وتشويه الوحي بمصدريه القرآن والسنة.

وقد ذكر العلامة ابن القيم أمثلة كثيرة للأحاديث الموضوعة تبين منافاتها للعقل الصريح، فينبغي على الداعي أن يحذر منها. ومن أمثلة ما ينافي العقل من هذه الموضوعات:

١. الحديث المكذوب الذي فيه: (من قال: لا إله إلا الله، خلق الله من تلك الكلمة طائرا، له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يستغفرون الله له) [١].

٢. وكذلك ما يروى في الحديث الموضوع: (إذا عطس الرجل عند الحديث فهو دليل صدقه) [٢].

قال ابن القيم: ولو عطس مئة ألف رجل عند حديث يروى عن النبي ﷺ لم يحكم بصحته بالعطاس، ولو عطسوا عند شهادة رجل لم

---

(١) المنار المنيف لابن القيم ص٥٠ نشر مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، تحقيق عبد الفتاح أبوغدة، وكشف الخفاء للعجلوني ٢/٥٥٧ نشر مؤسسة الرسالة.

(٢) كشف الخفاء للعجلوني ٢/٥٥٧، واللؤلؤ المرصوع للقاوقجي ١/٣٦ (٣١) نشر دار البشائر الإسلامية بيروت، والأسرار المرفوعة ١/٤٢٦.

يحكم بصدقه [١].

٣. الحديث الموضوع الذي فيه: (الباذنجان شفاء من كل داء). قال ابن القيم: (قبح الله واضعه، فإن هذا لو قاله بعض جهلة الأطباء لسخر الناس منه، ولو أكل الباذنجان للحمى والبرد وكثير من الأمراض لم يزدها إلا شدة، ولو أكله فقير ليستغني لم يفده غنى، أو جاهل ليتعلم لم يفده العلم) [٢].

قال ابن الجوزي: (هذا حديث موضوع على رسول الله، فلا سقى الغيث قبر من وضعه، لأنه قصد شين الشريعة بنسبة رسول الله إلى غير مقتضى الحكمة والطب) [٣].

٤. الحديث الموضوع الذي فيه: (عليكم بالعدس فإنه مبارك، يرقق القلب ويكثر الدمعة قدس فيه سبعون نبيا) [٤].

وقد سئل عبد الله بن المبارك عن هذا الحديث؟ وقيل له إنه يروى عنك فقال: وعني؟! ما أرفع شيئا في العدس، إنه شهوة اليهود. ولو قدس فيه نبي واحد لكان شفاء من الأدواء، فكيف بسبعين نبيا؟ وقد

---

(١) المنار المنيف ص٥١.

(٢) السابق، وانظر اللآلئ المصنوعة للسيوطي (١٨٩/٢).

(٣) الموضوعات لابن الجوزي (٢٠٣/٢) نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) رواه الطبراني في مسند الشاميين ٢٤٦/١ (٤٥٧)، وانظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني ١٦١/١، واللآلئ المصنوعة (١٧٩/٢)، والموضوعات (١٩٧/٢)، والسلسلة الضعيفة للألباني ٦/٢ (٥١٠).

سماه الله أدنى، وذم من اختاره على المن والسلوى، وجعله قرين الثوم والبصل [(١)].

يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ البقرة: ٦١.

٥. الحديث الموضوع الذي فيه: (بئس البقلة الجرجير، من أكل منها ليلا بات ونفسه تنازعه، كلوها نهارا، وكفوا عنها ليلا) [(٢)].

٦. وكذلك ما يروى في فضل الديك الأبيض وغيره وينسبونه إلى رسول الله ﷺ كقولهم: (من اتخذ ديكا أبيض، لم يقربه الشيطان ولا السحر) [(٣)]. ومثله حديث مكذوب جاء فيه: (إن لله ديكا عنقه مطوية تحت العرش، ورجلاه في التخوم) [(٤)].

٧. الحديث الموضوع الذي فيه: (من ولد له مولود فسماه محمدا

---

(١) المنار المنيف لابن القيم ص ٥٢.

(٢) الأسرار المرفوعة ٤٢٧/١، واللآلئ المصنوعة ١٨٨/٢، والموضوعات لابن الجوزي ٢٠١/٢، وكشف الخفاء للعجلوني ٥٥٨/٢.

(٣) المنار المنيف ص٥٥، والموضوعات لابن الجوزي (٢٠١/٢).

(٤) السابق ص٥٥، الأسرار المرفوعة٤٣١/١، والفوائد المجموعة ١٧٢/١، واللآلئ المصنوعة للسيوطي (١٩٣/٢).

تبركا، كان هو والولد في الجنة) [(١)].

٨. الحديث الموضوع الذي فيه: (ما من مسلم دنا من زوجته، وهو ينوي إن حبلت منه يسميه محمدا إلا رزقه الله ولدا ذكرا) [(٢)].

٩. ومن ذلك الحديث الموضوع الذي جاء فيه: (إن الناس يوم القيامة يدعون بأمهاتهم لا بآبائهم) [(٣)]. والأحاديث الصحيحة ورد بخلاف ذلك. قال البخاري في صحيحه: باب يدعى الناس يوم القيامة بآبائهم ثم ذكر حديث: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان) [(٤)]. وفي الباب أحاديث أخرى غير ذلك.

١٠. الحديث الموضوع الذي جاء فيه: (من عشق فكتم، وعف فمات، فهو شهيد) [(٥)].

١١. الحديث الموضوع الذي فيه السؤال بحق محمد ﷺ: (لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما

---

(١) السابق ص٦١.

(٢) السابق ص٦١.

(٣) الأسرار المرفوعة ١/٤٩٥، والمنار المنيف ص١٣٩.

(٤) رواه البخاري في الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم ٥/٢٢٨٥ (٥٨٢٣).

(٥) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق الكناني (٢/٣٦٤)، الأسرار المرفوعة ١/٣٥٢، وكشف الخفاء ٢/٣٤٥.

خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك) [(١)].

١٢. الحديث الموضوع الذي جاء فيه: (الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرام على أهل الله) [(٢)].

١٣. الحديث الموضوع الذي جاء فيه: (يأتي على الناس زمان هم فيه ذئاب، فمن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب) [(٣)].

١٤. الحديث الموضوع الذي اشتهر على ألسنة الناس: (من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني) [(٤)].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٣١٣/٦ (٦٥٠٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٦٧٢/٢ (٤٢٢٨) وقال الذهبي: موضوع، وانظر التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص١٠٥، ط ٣، المكتب الإسلامي بيروت.

(٢) قال الشيخ الألباني: موضوع، انظر السلسلة الضعيفة ١٠٥/١ (٣٢)، وانظر كشف الخفاء للعجلوني ٤٩٣/١.

(٣) الموضوعات٢٧٣/٢، واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢٤٥/٢، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق (٢٩٤/٢).

(٤) كشف الخفاء ٣٢٠/٢، والموضوعات ١٢٨/٢، وتنزيه الشريعة (١٧٢/٢).

• **السبب الثاني عدم فهم العقل للنقل.**

إذا صح النقل ولم يفهمه العقل، فلا بد من تنزيه كلام الله ورسوله ﷺعن التضارب والخطأ، ورد العيب إلى قصور العقل في إدراك الفهم الصحيح، فإن كتاب الله وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه فيتعارض ظاهرا أو من خلفه فيتعارض باطنا. قال تعالى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت:٤٢.

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء:٨٢.

سئل أبو بكر الصديق ﷺ عن تفسير الفاكهة والأبّ في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ عبس:٣١. فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم [(١)].

وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأها يوما على المنبر فقال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك يا ابن أمّ عمر أن لا تدري ما الأبّ. ابتغوا ما بُين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه، فَكِلوه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب من كره أن يفسر القرآن ١٣٦/٦ (٣٠١٠٧) ، وأبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص٢٢٧، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥٢/٢) نشر دار الكتب العلمية بيروت.

إلى ربه[(١)].

قال تعالى في بيان أن تعظيم كلام الله وخشيته وتقواه سبب في فتح الله على القلوب بالعلم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٨٢. وقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ النساء:١١٣.

ومن أمثله التعارض بين العقل والنقل، بسبب عدم فهم العقل لما صح في النقل:

١- ادعاء التعارض بين نصوص المعية والاستواء، وأن الله في السماء، كما زعم كثير من الأشعرية قديما وحديثا. قال الشيخ طه عبد الله عفيفي: (وليت شعري أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر؟ فيقولون: إن الله في السماء بمقتضي قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ الملك: ١٦. أم على العرش بمقتضي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. أم في الأفاق بمقتضي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد:٤)[(٢)].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في كتاب فضائل القرآن (٤٣) ، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن ، باب من كره أن يفسر القرآن ١٣٦/٦ (٣٠١٠٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير ٥٥٩/٢ (٣٨٩٧) ، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) كتاب حق الله على العباد وحق العباد على الله ص ٩٩ .

وقد وهم الشيخ طه حين ظن أن ظواهر النصوص في حق الله هي صورة الإنسان في كيفية استوائه ومعيته وعلوه، ثم أراد أن ينفي ما توهمه حتى لا يقع في الضلال بأنواع التأويل والمجاز والخيال. وقد أبطل أبو الحسن الأشعري رحمه الله مثل هذا الزعم منذ القدم فقال:

(إن قال قائل:ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواء يليق به.. فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات قال: أأمنتم من في السماء. لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، والعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: أأمنتم من في السماء. يعني جميع السماوات. وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: وجعل القمر فيهن نورا. ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا، وأنه فيهن جميعا، ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله ﷻ على العرش، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ،كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض) [1].

قال أبو عمر الطلمنكي: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ الحديد:٤. ونحو ذلك من القرآن أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السماوات بذاته مستو على عرشه

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص ١٠٥، نشر دار الأنصار.

كيف شاء، وقال أهل السنة في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة لا على المجاز) [(١)].

وقد جمع القرآن الكريم بين المعية والاستواء، وأن الله يعلم ما في الأرض والسماء في آية واحدة، فليس ثمة تعارض يذكر بين النصوص، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤﴾ الحديد:٤.

٢- ادعاء كثير من المستشرقين وأتباعهم من العلمانيين تعارض حديث الذباب مع العقل الصريح، وهو حديث صحيح رواه البخاري من حديث أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ، فَليغْمِسْهُ كُلهُ، ثمَّ ليطرَحْهُ؛ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيهِ شِفَاءً، وَفِي الآخَرِ دَاءً) [(٢)].

وقد بان على لسان الغربيين أنفسهم وظهر أنه من معجزات النبي ﷺ الطبية التي يجب أن يسجلها له تاريخ الطب بأحرف ذهبية؛ وذلك لذكره عامل المرض وعامل الشفاء محمولين على جناحي الذبابة، قبل اكتشافهما بأربعة عشر قرنا، وذكره لتطهير الماء إذا وقع

---

(١) انظر العلو للعلي الغفار للذهبي ص٢٤٦، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٢٦٠، ومعارج القبول للحكمي ١/٢٠٠.

(٢) رواه البخاري في الطب، باب إذا وقع الذباب في الإناء ٥/٢١٨٠ (٥٤٤٥).

الذباب فيه، وتلوث بالجراثيم الموجودة في أحد جناحيه، فما علينا إلا أن نغمس الذبابة في الماء لإدخال عامل الشفاء الذي يوجد في الجناح الآخر، الأمر الذي يؤدي إلى إبادة الجراثيم الموجودة بالماء.

وقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة الأسرار الغامضة التي في هذا الحديث، فهناك خاصية في أحد جناحي الذباب هي أنه يحول البكتريا إلى ناحية منه، وعلى هذا فإذا سقط الذباب في شراب، أو طعام، وألقى الجراثيم العالقة بأطرافه في ذلك الشراب أو الطعام، فإن أقرب مبيد لتلك الجراثيم، وأول واحد منها هو مبيد البكتريا، يحمله الذباب في أحد جناحيه.

٣- ادعاء بعض المستشرقين التعارض بين آيات القرآن في إثبات الهداية للنبي ﷺ ونفيها عنه. فقال الله مرة في إثباتها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ الشورى:٥٢.

وقال مرة أخرى في نفيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ القصص:٥٦.

ومعلوم أن الهداية المثبتة للنبي ﷺ هي الهداية الشرعية التكليفية الدينية، وهي هداية البيان والدلالة والإرشاد لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

وأما تلك الهداية المنفية عن النبي ﷺ فهي الهداية الكونية التي قدرها الله لمن شاء قبل خلق السماوات والأرض، وكتبها في اللوح المحفوظ إظهارا لقدرته، وأخفاها عن سائر الخلق إظهارا لحكمته، فلا يعلم عنها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

٤- ادعاؤهم التعارض في ضرب الأمثال لله، فمرة نجد القرآن يمنع ضرب الأمثال في حق الله فيقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ النحل:٧٤. ومرة أخرى يذكر المثل في حق الله فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الروم:٢٧. وكذلك ما ورد في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ النحل:٦٠.

ومعلوم أن هذا التعارض سببه عدم فهم العقل للنقل، فالمثل الذي لا يجوز ضربه في حق الله هو قياس التمثيل والشمول، وأما الجائز فهو قياس الأولى.

قال ابن تيمية: (العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي تستوي فيه أفراده؛ فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء؛ فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل تحت قضية كلية تستوي أفرادها. ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلي اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة

والاضطراب، لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها، ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولي، سواء كان تمثيلا أو شمولا كما قال تعالي: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ النحل:٦٠. ومثل هذه الطرق، هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب، كما استعمل نحوها الإمام أحمد، ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام، وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين في مسائل التوحيد والصفات والمعاد ونحو ذلك) [1].

٥- وقد زعم الفيلسوف ابن رشد أن أدلة السمع، أو أدلة النقل الصحيح متعارضة، واحتج على ذلك بذكر الحسنة والسيئة في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ النساء:٧٨/٧٩.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتي القدر ونفاته، هؤلاء يقولون الأفعال كلها من الله، لقوله تعالى: قل كل من عند الله. وهؤلاء يقولون: الحسنة من الله، والسيئة من نفسك، لقوله: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك. وقد يجيبهم الأولون بقراءة مكذوبة: فمن نَفْسُكَ؟ بالفتح

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢٩/١، نشر دار الكتب العلمية بيروت .

على معنى الاستفهام. وربما قدر بعضهم تقديرا: أي أفمن نفسك؟ وربما قدر بعضهم القول في قوله تعالى: ما أصابك. فيقولون: تقدير الآية: فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. فيحرفون لفظ القرآن ومعناه، ويجعلون ما هو من قول الله قول الصدق من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم، ويضمرون في القرآن ما لا دليل على ثبوته، بل سياق الكلام ينفيه، فكل من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذي تنصره [(١)].

وأما القرآن فالمراد منه بالحسنات والسيئات النعم والمصائب ليس المراد الطاعات والمعاصي. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ آل عمران: ١٢٠. وكقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوبة: ٥٠/٥١.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ الأعراف: ١٦٨. كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء: ٣٥. أي بالنعم والمصائب[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/١١٠.

(٢) السابق ٨/١١١.

وهذا بخلاف قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ الأنعام: ١٦٠.

وأمثال ذلك، فإن المراد بها الطاعة والمعصية، وفى كل موضع ما يبين المراد باللفظ، فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى إشكال، بل هو مبين، وذلك أنه إذا قال: ما أصابك، وما مسك، ونحو ذلك، كان من فعل غيرك بك، كما قال: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وكما قال تعالى: إن تصبك حسنة تسؤهم، وقال تعالى: وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم [١].

وإذا قال: من جاء بالحسنة، كانت من فعله، لأنه هو الذي جاء بها، فهذا يكون فيما فعله العبد، لا فيما فُعل به، وسياق الآية يبين ذلك فانه ذكر هذا في سياق الحض على الجهاد، وذم المتخلفين عنه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ النساء: ٧١/٧٣.

فأمر سبحانه بالجهاد، وذم المثبطين، وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه، وتارة من فضل الله فيه، كما أصابهم يوم أحد مصيبة فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ

---

(١) السابق ٨/١١٢.

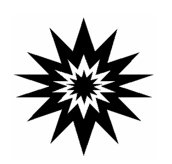
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران:١٦٥. وأصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأييده، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ آل عمران:١٢٣.

ثم إنه قال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ .. إلى قوله تعالى .. أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ النساء:٧٤/٧٨.

فهذا من كلام الكفار والمنافقين، إذا أصابهم نصر وغيره من النعم قالوا: هذا من عند الله، وإن أصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا: هذا من عند محمد، بسبب الذي جاء به، فإن الكفار يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان. وقد ذكر نظير ذلك في قصة موسى عليه السلام وفرعون. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف:١٣٠. ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يس:١٨. فأخبر الله تعالى، إن الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين، فإذا أصابهم بلاء جعلوه بسبب أهل الإيمان، وما أصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا

يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ النساء:٧٨ .

والله تعالى نزل أحسن الحديث، فلو فهموا القرآن، لعلموا أن الله أمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، أمر بالخير، ونهى عن الشر، فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سببا للشر، بل الشر حصل بذنوب العباد، فقال تعالى: ما أصابك من حسنة فمن الله. أي ما أصابك من نصر ورزق وعافية، فمن الله نعمة أنعم بها عليك، وإن كانت بسبب أعمالك الصالحة، فهو الذي هداك، وأعانك، ويسرك لليسرى، ومن عليك بالإيمان، وزينه في قلبك، وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان [١].



---

(١) السابق ٨/١١٣.

المطلب الثالث

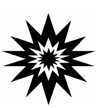
العقل والنقل بين السلف والخلف



- أيهما يقدم على الآخر العقل أم النقل؟
- العقل أصل في العلم بالنقل وليس أصلا في ثبوته.
- مثل العامي المستفتي مع الدال على المفتي.
- كثير ممن قدم العقل على النقل اعترف بحيرته وضلاله.
- من أعرض عن القرآن فجهله بسيط أو مركب.
- هل السلف أصحاب جمود عقلي؟ ومتى يقدم العقل؟
- تقديم العقل في باب الأمر يؤدي إلى بدع العبادات.
- بدع الاعتقادات سببها تقديم العقل في باب الأخبار.
- المقصود بمصطلح السلف والخلف.
- ذم السلف الصالح للمبتدعة وعلماء الكلام.
- طريقة الخلف ليست أسلم من طريقة السلف.

المطلب الثالث

العقل والنقل بين السلف والخلف



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

ففد دارت محاور المطلب السابق حول بعض المسائل المتعلقة بالعلاقة بين العقل والنقل، وبينا فيها أن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، وأن الهداية الحقيقية تكمن في قيادة النقل الصحيح للعقل الصريح.

وعلمنا أن الضلال الحقيقي يكمن في قيادة النقل الباطل للعقل الصريح، وأن من لم يلتزم بالنقل الصحيح وقدم على القرآن وصحيح السنة عقله ورأيه استحق الوعيد الشديد.

ثم تناول الحديث أسباب التعارض بين العقل والنقل، وأن ذلك مرده إلى سببين اثنين لا ثالث لهما، السبب الأول: عدم ثبوت النقل، وضربنا أمثلة على ذلك، والسبب الثاني: عدم فهم العقل للنقل، وضربنا أمثلة على ذلك أيضا.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتناول الحديث عن العقل والنقل بين السلف والخلف من خلال المحاور التالية:

• أيهما يقدم على الآخر العقل أم النقل؟

قال علماء الخلف من المتكلمين: العقل أصل في ثبوت النقل، فلا بد من تقديم العقل على النقل، فرد علماء السلف وقالوا: العقل أصل في العلم بالنقل، والنقل ثابت قبل العقل.

قال فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ): (إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية، فوجب تقديم العقل؛ لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه، كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا، ثم النقل إما أن يُتأول، وإما أن يفوض) [(١)].

وقد بالغ أبو حامد الغزالي في تقديسه للعقل، وقوانين المنطق التي استوردها من منطق المشركين كالمسمى أرسطو وأفلاطون، ومن بعده أفلاطين، فقال: (إن من لا يحيط به، فلا ثقة بعلومه) [(٢)].

---

(١) المحصول في علم الأصول للرازي (١١٢/٣).

(٢) القسطاس المستقيم ص١٠٤، ضمن مجموعة رسائل الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت. وأفلاطين رجل يهودي، أدخل الفلسفة في دين اليهود، وأخذ كلام أفلاطون وعدله وزاد فيه، كما فعل ابن رشد وأمثاله في الإسلام ويسمى مذهبه الأفلاطونية الحديثة، أما الأفلاطونية القديمة فهي لأفلاطون. وأفلاطين اليهودي كان قبل الميلاد بأكثر من قرنين، وقد أفسد على اليهود دينهم بهذه الفلسفة. نقلا باختصار عن شرح العقيدة الطحاوية للدكتور سفر الحوالي ٥٦٥/١.

وبالغ الغزالي وغالى غلوا كبيرا في تمجيده، حتى جعله ميزانا يزن به كل العلوم والمعارف الدينية وسواها، فقال: (لا أدعي أني أزن بها المعارف الدينية فقط، بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعة والفقهية والكلامية، وكل علم حقيقي غير وضعي، فإني أميز حقه عن باطله بهذه الموازين، وكيف لا، وهو القسطاس المستقيم ؟) (١).

وقد نقل بعض الأشعرية المعاصرين عن أبي حامد الغزالي ما يجيز به تأويل نصوص القرآن والسنة حتى لا توهم باطلا، فهي عنده ليست على ظواهرها، لأن الظاهر كما زعم يعارض العقل، ويحمل معاني التجسيم والضلال، فقال: (وقال أبو حامد الغزالي: من أخذ علمه من العبارات والألفاظ ضل ضلالا بعيدا، ومن رجع إلى العقل استقام أمره وصلح دينه) (٢).

وهذا الكلام العقلي الذي يقدمونه على النقل، قد جعله المتكلمون قانونا شاملا، أطلقوا عليه ما يسمى بالقواطع العقلية التي يقيسون عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

- **العقل أصل في العلم بالنقل وليس أصلا في ثبوته.**

إذا تعارض العقل والنقل لجهل العقل بما ورد في النقل، أو غاب عنه الفهم الصحيح للأدلة القرآنية والنبوية، وجب علي المسلم العاقل قبل

---

(١) السابق ص ١٠٥.

(٢) حق الله على العباد وحق العباد على الله لطه عبد الله العفيفي ص ١٠٤.

التعطيل، أو التأويل بغير دليل أن يتقى الله، ولا يقدم عقله وهواه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمهمة العقل تجاه النقل تصديق المنقول إن كان خبرا، وتنفيذه إن كان أمرا، وهذا شأن من صدق في إسلامه.

ومن ثم فإن الله إذا عرفنا بنفسه في النقل الصحيح، أو عرفنا بشيء مما في عالم الغيب، أو عالم الشهادة، وجب على كل إنسان مسلم عاقل أن يصدق بالمنقول عن الرسول ﷺ تصديقا جازما يبلغ حد اليقين الذي ينافي الشك، ولا يرد الأدلة ويعطلها زاعما أنه من أصحاب المدرسة العقلية التي تحكِّم العقل في كل شيء، حتى في قبول ما ورد من الغيبيات في باب الأسماء والصفات أو رده، فيوجب على الله بعقله أشياء، ويجوز له من الصفات ما يشاء، ويجعل ما نزل من السماء في الخبر عن الصفات، دربا من المحال أو الخيال أو المستحيلات.

قال ابن قيم الجوزية: (العقل الصريح موافق للنقل الصحيح، والشرعة مطابقة للفطرة، يتصادقان ولا يتعارضان، خلافا لمن قال: إذا تعارض العقل والوحي قدمنا العقل على الوحي.

فقبحا لعقل ينقض الوحي حكمه : ويشهد حقا أنه هو كاذب) [1].

كما أن النقل لا يتوقف ثبوته على حكم العقل بصدق النقل، فالنقل أو القرآن وصحيح السنة، أو الوحي ثابت في اللوح المحفوظ قبل وجود العقلاء، سواء صدق به العقلاء أو كذبوه.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ٣٠٢، نشر دار الفكر بيروت.

ولذلك قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ ﴾ الواقعة: ٧٥/٨٢.

وقال: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ الزخرف: ١/٤.

ولما كان الأمر كذلك، فإن النقل أو ما جاء في القرآن وصحيح السنة لا يتوقف ثبوته على حكم العقل بصدق الرسل، فإن تكذيب العقلاء لهم يضرهم، ولا يضر الرسل، ويؤثر في مصيرهم، ولا يؤثر في صدق الرسل وبلاغهم عن ربهم.

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (خَرَجَ عَلينا النبي ﷺ يَوْمًا، فقال: عُرِضَت عَلي الأُمَمُ، فَجَعَل يَمُرُّ النبي معه الرَّجُل، وَالنبِيُّ معه الرَّجُلان، وَالنبِيُّ معه الرَّهْطُ، وَالنبِيُّ ليس معه أَحَدٌ. وَرَأَيْت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْت أَن يكون أُمَّتي، فَقِيل: هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثمَّ قِيل لي: انظُرْ، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل لي: انظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل: هَؤُلاءِ أُمَّتك، وَمَعَ هَؤُلاءِ سَبْعُون أَلفًا يَدْخُلون الجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَتفَرَّقَ الناس، ولم يُبَين لهم، فَتذَاكَرَ أَصْحَابُ النبي ﷺ، فَقَالوا: أَمَّا نَحْن فَوُلِدْنا في الشِّرْكِ، وَلَكِنا آمَنا بِاللهِ

وَرَسُولِهِ، وَلَكِن هَؤُلاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنا، فَبَلَغَ النبي ﷺ، فقال: هُمْ الذِين لا يَتطَيرُون، ولا يَسْتَرْقُون، ولا يَكْتوُون، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلون، فَقَامَ عُكّاشَةُ بن مِحْصَن فقال: أَمِنهُمْ أنا يا رَسُول اللهِ؟ قال: نعم، فَقَامَ آخَرُ فقال: أَمِنهُمْ أنا؟ فقال: سَبَقَكَ بها عُكَاشَةُ) [(١)].

والشاهد من الحديث أن هذا النبي الذي جاء يوم القيامة، ولم يصدق عاقل واحد، ليس كاذبا في بلاغه عن ربه، أو إعلانه عن النقل الذي نزل عليه في وحيه، ولا يتوقف صدقه على إيمان العقلاء، ومن ثم فإن العقل ليس أصلا في ثبوت النقل، ولا يقدم بحال على النقل، وإنما العقل أصل في التعرف على النقل والعلم به.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ النحل:٤٣. فلو آمن صاحب العقل بالنقل، وصدق رسل الله في بلاغهم عن ربهم، فهو المنتفع المستفيد، وإلا فلا يلومن إلا نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (عدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها، فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فإنه ثابت سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه، ومن أرسله الله تعالى إلى الناس فهو رسوله، سواء علم الناس

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب من لم يرق ٥/٢١٧٠ (٥٤٢٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ١/١٩٩ (٢٢٠).

أنه رسول أو لم يعلموا، وما أخبر به فهو حق، وإن لم يصدقه الناس، وما أمر به عن الله، فالله أمر به، وإن لم يطعه الناس، فثبوت الرسالة، وثبوت صدق الرسول، وثبوت ما أخبر به، ليس موقوفا على وجودنا أو عقولنا) [(١)].

• مثل العامي المستفتى مع الدال على المفتي.

كما أن شأن العقل مع النقل، أو شأن العقل مع الوحي كشأن العامي المستفتى مع الشيخ العالم المفتي، فإذا عرف العامي المستفتى عالما يفتى الناس في أمور دينهم وعقيدتهم، فسأل الناس عن منزله فدله عليه أحد العامة، ثم اختلف المفتي مع العامي الذي دل المستفتي في حكم من الأحكام، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي، ورد كلام الذي دله على المفتي.

ولوا أن الرجل الذي دله على المفتي قال له: الصواب معي خذ برأي، ولا تأخذ برأي المفتى، لأنني أنا الأصل في علمك بأنه المفتي، فإذا قدمت قوله على قولي، طعنت في الأصل الذي عرفك بأنه المفتي، فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت بأنه المفتي، ودلتني عليه، شهدت بوجوب اتباعه دون اتباعك، وتقليده دون تقليدك.

كما أن موافقتي لك في الطريق إلى منزله، لا تستلزم موافقتي لك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي، الذي هو أعلم منك،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٨٧.

لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، فيجب عليك تقليد المفتي فيما لا مخالفة فيه لشرع الله، فالمفتي يجوز عليه الخطأ في فتواه، ولو علمنا خطأه، فالمعصوم في خبره عن الله هو رسول الله ﷺ [1].

والسلف الصالح لم يجوزوا أبد أن يكون النقل مطية للعقل بحيث يوجه الإنسان آيات القرآن في غير موضعها، ويحول أدلة السنة في غير مسارها الذي جاءت من أجله، كما فعل أصحاب المدرسة العقلية عندما وضعوا أنسقة وقواعد فكرية في أذهانهم، كفروض يعملون على إثباتها، وغايتهم من البحث في القرآن والسنة أن يجدوا بين الآيات والأحاديث، ما يؤيد عقلهم، ويقوى رأيهم، فيما ذهبوا إليه، ولو بتعسف مستهجن.

وإن وجدوا في الأدلة ما يخالف مذهبهم قاموا بتأويل الآيات والأحاديث تأويلا لا تحتمله النصوص، ولا يقوم على دليل واضح، أو قاموا برد الأحاديث الثابتة بالسند الصحيح بزعم أنها ظنية من رواية الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد.

وخلاصة الأمر عند التعارض بين العقل كما قرر علماء السلف في عقيدتهم أنهم يقدمون النقل على العقل؛ لأنه ثابت قبل وجود العقل، ولا يتوقف ثبوت النقل على تصديق العقل، فلو كذب جميع العقلاء بنبي من الأنبياء فكلام النبي حق وصدق.

---

(١) السابق ١/٨٠ بتصرف.

• كثير ممن قدم العقل على النقل اعترف بحيرته وضلاله.

كما أن كثيرا ممن قدم العقل على النقل، تأكد من حيرة العقل وضلاله، وتمسك بالنقل الصحيح، واعترف بفضله وحسنه وجماله. قال ابن تيمية: (القول بتقديم الإنسان لمعقوله علي النصوص النبوية قول لا ينضبط، وذلك لأن أهل الكلام والفلسفة الخائضين المتنازعين فيما يسمونه عقليات، كل منهم يقول: إنه يعلم بضرورة العقل، أو بنظره ما يدعي الآخر أن المعلوم بضرورة العقل أو بنظره نقيضه، وهذا من حيث الجملة معلوم، فالمعتزلة ومن اتبعهم من الشيعة يقولون: إن أصلهم المتضمن نفي الصفات والتكذيب بالقدر، الذي يسمونه التوحيد والعدل، معلوم بالأدلة العقلية القطعية، ومخالفوهم من أهل الإثبات يقولون: إن نقيض ذلك معلوم بالأدلة القطعية العقلية) [(١)].

وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة، بل وبالتصوف، الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول ﷺ تجدهم فيه حيارى. كما أعترف أبو عبد الله فخر الدين الرازي بضلال العقل وهداية النقل في باب الصفات فقال: (ومن الذي وصل إلي هذا الباب؟ أو ذاق من هذا الشراب؟ ثم أنشد قائلا:

نهاية إقدام العقول عقال : وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا : وحاصل دنيانا أذي ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا : سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) درء التعارض ١/١٥٦.

ثم قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠. واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ طه:١١٠. ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ مريم: ٦٥. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي [(١)].

وكان ابن أبي الحديد البغدادي من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسفة وله أشعار في هذا الباب كقوله:

فيك يا أغلوطة الفكر .. حار أمري وانقضى عمري

سافرت فيك العقول فما .. ربحت إلا أذى السفر [(٢)].

وهذا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال: عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم،

---

(١) ذكر فخر الدين الرازي هذا الكلام في كتاب أقسام اللذات الذي صنفه في آخر عمره، انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٩٦/٨، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥٠/٤، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٥٠٠/٢١، والصواعق المرسلة ١٦٧/١.

(٢) انظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ١٣٩/١ نشر دار الكتب العلمية بيروت، ودرء التعارض ١٦١/١، والصواعق المرسلة ٦٦٨/٢.

ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: عقيدة عجائز نيسابور [١].

قال ابن تيمية: (وقد حكي لي أن بعض الأذكياء ـ وكان قد قرأ علي شخص هو إمام بلده، ومن أفضل أهل زمانه في الكلام والفلسفة وهو ابن واصل الحموي ـ أنه قال: أضطجع علي فراشي، وأضع الملحفة علي وجهي، وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدله هؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء، ولهذا انتهي أمره إلي كثرة النظر في الهيئة لكونه تبين له فيه من العلم ما لم يتبين له في العلوم الإلهية) [٢].

وكذلك ابن الفارض الصوفي من متأخري الاتحادية الذين زعموا أن العباد في محبتهم لربهم تصل إلى اتحاد الذوات، وهو صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك. وقد نظم فيها الاتحاد نظما رائق اللفظ، فهو كما عبر ابن تيمية عنها أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك، الله أعلم بها، وبما اشتملت عليه، وقد بالغ أهل العصر في تحسينها، والاعتداد بما فيها من الاتحاد. هذا الصوفي الاتحادي لما حضرته الوفاة أنشد:

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٧٣، ومنهاج السنة النبوية ٥/٢٦٩، والصواعق المرسلة ٢/٦٦٤.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٥.

إن كان منزلتي في الحب عندكم : ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا : واليوم أحسبها أضغاث أحلام [(١)].

وكذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وكان ينشد:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها : وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر : على ذقن أو قارعا سن نادم [(٢)].

وقد أجابه الإمام العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني وبين له أنه أهمل أهم معهد وهو معهد الرسول الذي لا يحار فيه العقل بل يهتد ولا يندم أبدا فقال رحمه الله:

لعلكَ أهملت الطوافَ بمعهدِ الرسولِ ومن لاقاهُ من كلِّ عالِمِ
فما حارَ من يُهدى بهديِّ محمد : ولست تراهُ قارعاً سِنَّ نادِمِ [(٣)].

• **من أعرض عن القرآن فجهله إما بسيط أو مركب.**

وبسبب إعراض هؤلاء وتقديمهم لعقولهم على هداية ربهم، تجد

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ١١١/٤٦، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٧٤/٤.
(٢) ذكر الشهرستاني هذه الأبيات في أول كتابه نهاية الإقدام في علم الكلام ص٣، وانظر كذلك الملل والنحل ١٧٣/١ نشر دار المعرفة بيروت، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ١٤٠/١، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٤/٤، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٧٣/٤.
(٣) حاشية درء تعارض العقل والنقل، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ١٥٩/١.

كثيرا منهم إذا لم يتبين له الهدي في طريقته التي اختارها نكص على عقبيه، واشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله، ونحو ذلك، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه، وينشرح له صدره. وفي الحديث المأثور عن أبي بَرْزَةَ ﷺ عَن النبي ﷺ قال: (إن مِمَّا أغشى عَلَيْكُمْ، شَهَوَات الغي في بُطُونكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلاَّت الهَوَى) [(١)].

وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم هذا وهذا، اتباع شهوات الغي، ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله ﷺ. ولهذا أمرنا الله ﷻ أن نقول في كل صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ الفاتحة:٦/٧.

وكان علماء السلف الصالح يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فكيف إذا اجتمع في الرجل الضلال والفجور؟ [(٢)].

---

(١) مسند أحمد ٤/٤٢٣ (١٩٨٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/١٩٢، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وتهذيب الكمال للمزي ١١/١٦٨عن سفيان الثوري، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/١٩٧.

قال الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ طه:١٢٣/ ١٢٧.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقي في الآخرة ثم قرأ هذه الآية) [(١)].

قال ابن تيمية رحمه الله: (والمقصود هنا التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم، لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى، فإن الذين سلكوا هذه السبيل، كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه، والمسلمون يشهدون عليه بذلك، فثبت بشهادته، وإقراره علي نفسه، وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الأرض، أنه لم يظفر من أعرض عن الكتاب، وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن إليه، ولا معرفة يسكن بها قلبه) [(٢)].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٣٨٩.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٨.

وقال أيضا: (والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولا صريحا يناقض الكتاب، قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يدعي معارضته للكتاب من المعقول، ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح، إما بشهادة أصحابه عليه، وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورا لا ارتياب فيه، وإما بمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات، وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه) [١].

ويرد ابن تيمية على من قال: إن كل إنسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه، وما وجده معارضا لأقوال الرسول ﷺ من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. يرد ابن تيمية على ذلك بأنه معلوم أن هذا أكثر ضلالا واضطرابا، فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلي الغاية، وهم يكدحون ليلهم ونهارهم في معرفة هذه العقليات، ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء، ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه، لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط، أو جهل مركب. فالأول كما ورد في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) السابق ١/١٦٨.

كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ النور: ٣٩.

والثاني شأنه كما ورد في قوله: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ النور: ٤٠.

وأصحاب القرآن والإيمان الذين اتبعوا النور الذي أنزل على الرسول ﷺ في نور علي نور كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الشورى: ٥٢/٥٣.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٧.

فأهل الجهل البسيط من هؤلاء هم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعارضين للكتاب المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات، وآخرون ممن يعارضهم

يقول: المناقض لتلك الأقوال هو العقليات[(١)].

• هل السلف أصحاب جمود عقلي؟ ومتى يقدم العقل؟

وهنا سؤال أخير ربما يطرحه بعض المفتونين بالعقل من المتكلمين أو أصحاب المذاهب العلمانية، فربما يقول أحدهم: هل معنى ذلك أن العقيدة السلفية تحارب العقل وتجعله أسيرا للنقل؟ أين التفتح والانفتاح، أليس للعقل شيء مباح؟ لقد تقدم الغرب بالعقل ووصلوا إلى القمر، وهيمنوا علينا ونحن أمة في ذيل البشر؟ فأيهما يحكم على الأشياء بالحسن والقبح؟

يقال لهؤلاء: إن العقول تختلف في نظرتها إلى الأشياء حسنا وقبحا، فما يراه العاقل خيرا، يراه غيره شرا، ولذلك تتعارض المذاقات، وتشتعل الخلافات، فهل الكم بالحسن والقبح على الأشياء مرده إلى النقل فقط دون اعتبار للعقل؟ والجواب أن العقل مجاله النظر في الأسباب فيقال لهؤلاء العقلاء: اصعدوا إلى القمر لتكتشفوا أسرار الكون وعظمة الله، وأرسلوا المركبات والتلسكوبات الفضائية لمراقبة أعداء الله، وخذوا بأسباب القوة وسائر العلوم التي تنصروا بها دين الله.

أما أن يكون القصد من تقديم العقل هو مجاهرة الله بالعصيان، تشبها بالغرب في سلوكياتهم وأخلاقياتهم الماجنة، فهذا ليس بتقدم، فأنت أيها المتحرر الذي ترى في الغرب أسوة، هل تأسيت بهم في العلم المادي، أم

---

(١) درء التعارض ١/١٦٨

تشبهت بفسقهم وزعم أن ذلك هو التقدم الحضاري؟ فتفعل أفعال الذين يستحقرون ديننا، ويبغضون المؤمنين، وتسير خلفهم شبرا بشر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلته خلفهم، ولبست لباسهم، وتعريت مثلهم، وشربت خمرهم، وألفت سكرهم، وطعمت بيسراك طعامهم، وشاهدت في التلفاز رقصهم، ثم قلدتهم وقلد أولادك مجونهم، ونشرت أفكارهم، وقلدت أفعالهم، وخرجت عن وصفك، وواليتهم على بنى جنسك، ثم سميت ذلك حضارة، وعقلا وتحررا واستنارة.

ثم تزعم بعد ذلك أنك مسلم متحرر تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تقول: لن أغير تحرري وحياتي وسأبقى على هذا المسلك إلى يوم وفاتي؟ أتكذب على نفسك؟ أين الصدق في عهدك لربك؟

إن شهادة التوحيد ليست مجردَ كلمة خرجت من اللسان لا شروط لها ولا أركان، بل لا بد فيها من العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والانقياد والقبول والكفر بما يعبد من دون الله.

ومن ثم فإن الله ﷻ لما أنعم على الإنسان بنعمة العقل، وجعله محل التمييز وأساس الإدراك والفهم، وضع له سبحانه نظاما وحدودا وقيودا لا يتجاوزها، فإن تجاوزها أصبح العقل نقمة لا نعمة.

وعلماء السلف الصالح لما جوزوا إعمال الفكر والعقل جوزوه فيما يؤدى إلى إظهار الدين ونصرة المسلمين، والعمل بمقتضى القرآن والرد

على المخالفين، الذين يقدمون آراءهم على كتاب رب العالمين، وسنة سيد الأنبياء والمرسلين.

• **تقديم العقل على النقل في باب الأمر يؤدي إلى بدع العبادات.**

ومن سأل عن دور العقل في الإسلام؟ وهل عقيدة أهل السنة والجماعة تحارب العقل وتجعله أسيرا للنقل؟ فالجواب هنا يتعلق بفهمنا للأحكام الشرعية التكليفية، فالواجب والمستحب والمحرم والمكروه، هذه الأربعة السيادة فيها للنقل أو للقرآن وصحيح السنة، فالنقل هو الذي يحكم هنا بحسن الأشياء وقبحها، والعقل تابع فيها للنقل، يؤيده ويعضده، ولن يجد عاقل في فطرته ما يخالف الأحكام التكليفية أو يعارض الشريعة الإسلامية.

أما إذا قُدم العقل على النقل في الواجب والمستحب، والمحرم والمكروه من الأحكام، فسوف تظهر البدعة في الإسلام، وسوف تتغير ملامح الشريعة، وتصبح ألعوبة في يد المبتدع.

وأما دور العقل في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح، فهذا مقصور على المباح من الأحكام فقط، فالقيادة هنا للعقل الحكيم والنقل يؤيده ويعضده، فقد ثبت عند الإمام مسلم من حديث رافع بن خديج ﷺ أنه قال: (قَدِمَ نبِيُّ اللهِ ﷺ المَدِينةَ وَهُمْ يَأْبُرُون النخْل، يَقُولون: يُلقِّحُون النخْل، فقَال: مَا تصْنعُون؟ قَالوا: كُنا نصْنعُهُ، قَال: لعَلكُمْ لوْ لمْ تفْعَلوا كَان خَيْرًا فترَكُوهُ، فنفَضَت، أَوْ فنقَصَت، قَال: فذَكرُوا ذلكَ لهُ، فقَال:

إِنمَا أَنا بَشَرٌ، إذا أَمَرْتكُمْ بِشَيْءٍ مِن دِينكُمْ فَخُذوا بِهِ، وَإذا أَمَرْتكُمْ بِشَيْءٍ مِن رَأْيٍ، فَإِنمَا أَنا بَشَرٌ) (١).

وثبت عند الإمام مسلم أيضا من حديث أَنس بن مالك ﷺ أَن النبِي ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلقِّحُون فقَال: لوْ لَمْ تفعَلوا لصَلحَ، قَال: فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ، فَقَال: مَا لنخلكُمْ؟ قَالوا: قُلت كَذا وَكَذا، قَال: أَنتمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنيَاكُمْ (٢).

وهنا ترك الرسول ﷺ الحكم بالحسن والقبح إلى عقولهم واجتهادهم وخبرتهم في الحياة، فالرأي الحكيم مقبول ومقدم في المباحات من أمور الدنيا، دون بقية الأحكام الشرعية، أو التكليفات الدينية.

وأحكام العبودية هي درجات الأمر التكليفي بالفعل أو الترك، من حيث إلزام العبد بها، أو تخيره فيها، وهي الأحكام الشرعية التكليفية التي دل عليها كتاب الله سنة رسوله ﷺ، وتتمثل في خمسة أنواع:

١- الواجب: ويسمي أيضا بالفرض، وهو ما أمر به الحق تبارك وتعالى، أو أمر به رسوله ﷺ، وألزمنا بفعله إلزاما يقتضي العقاب لتاركه، كما أن فاعل الواجب يثاب على امتثاله لأمر الله.

ومثاله أن يصرح الشرع بلفظ كتب الدال على الإلزام كما في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، ٤/١٨٣٥ (٦٢٧٦)

(٢) السابق حديث رقم (٦٢٧٧).

قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ البقرة:١٨٣.

أو يصرح الشارع بلفظ فرض أو وجب، فإنه مصرح بدرجة الحكم وهي الفرضية أو الوجوب كما ورد عند البخاري ومسلم في قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (فَإِذا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَن اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَات فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلتهِمْ) [١].

أو كما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إذا التَقى الخِتانان، فقدْ وَجَبَ الغُسْل) [٢]. فالغسل هنا حكمه الوجوب لتصريح الشارع بذلك.

٢- المستحب: ويسمي أيضا بالمندوب أو السنة، وهو ما أمر به الحق تبارك وتعالى، أو أمر به رسوله ﷺ دون إلزام بفعله، بل يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه. ومن أمثلته ما ورد في الأمر بكتابة الدين في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ ﴾ البقرة: ٢٨٢.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ٢/٥٢٩ (١٣٨٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥١ (١٩).

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في وجوب الغسل إذا التقى الختانان ١/١٩٩ (٦٠٨)، وأحمد في مسنده ٦/٢٣٩ (٢٦٠٦٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/٢٥٩(١٢٦١).

ولكن جاءت قرينة أخرى في الآية التي بعدها بينت أن الله لا يريد منا الوجوب، ولكن يريد الندب والاستحباب، فقال تعالى:

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ البقرة: ٢٨٣ .

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالصلاة قبل المغرب ثلاث مرات على وجه الندب والاستحباب كما ورد في حديث عَبْد اللهِ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه فقَال النبي ﷺ: (صَلوا قَبْل صَلاةِ المَغرِبِ، قَال فِي الثالثةِ: لمَن شَاءَ، كَرَاهِيَةَ أَن يَتخِذهَا الناسُ سُنةً) (١) .

٣- المباح: وهو ما خيرنا فيه الشارع بين الفعل أو الترك ففعله كتركه، لا يثاب المرء على فعله، ولا يعاقب على تركه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الجمعة:١٠. فالأمر بالانتشار خارج المسجد للتخيير والإباحة، لأنه ورد بعد حظر ومنع، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الجمعة:٩.

٤- المكروه: وهو عكس المستحب، وتعريفه: هو ما نهي عنه

---

(١) البخاري في أبواب التطوع، باب الصلاة قبل المغرب ٣٩٦/١ (١١٢٨).

الشارع لا علي وجه الحتم والإلزام، أو هو ما يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، كَتَرْكِ صَلاةِ الضُّحَى مَثلا، لا لنهْيٍ وَرَدَ عَنهُ، وَلَكِن لكَثْرَةِ فَضْلهِ وَثوَابِهِ.

٥- المحرم: وهو ضد الواجب، وهو ما نهي عنه الشارع علي وجه الحتم والإلزام، والمحرم يثاب تاركه امتثالا، ويعرف الحرام أيضا إذا ورد التصريح بلفظ التحريم كقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ المائدة:٣. وقوله: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ النور:٣. فهذا التحريم تكليف من الله تعالى لعباده بالمنع. ويعرف الحرام أيضا بأن تكون الصيغة التي تدل على طلب الترك مقترنة بوعيد وعقاب، كالمنع من الجنة، أو الدخول في النار، أو اللعن، أو الغضب، أو الذم، أو القبح، أو ما شابه ذلك.

قال ابن تيمية رحمه الله: (من تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة، فهو ضال مبتدع، بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب) [(١)].

ومثال البدع المنتشرة بسبب التعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة قراءة الفاتحة عند زيارة القبر بدلا من التأسي بالسنة في الدعاء النبوي الذي ورد في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ:

---

(١) مجموع الفتاوى ١/١٦٠.

(السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِين، وَأَتاكُمْ مَا توعَدُون، غَدًا مُؤَجَّلون، وَإِنا إِن شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُون، اللهُمَّ اغْفِرْ لأَهْل بَقِيعِ الغَرْقَدِ) (١).

قال الإمام مالك رحمه الله: (مَن ابْتدَعَ في الإِسلام بدعة يَراها حَسَنَة؛ فَقَدْ زَعَمَ أَن مُحمّدا ﷺ خان الرّسالةَ؛ لأَن اللهَ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة:٣، فما لم يَكُن يَوْمَئذ دينا، فَلا يكُون اليَوْمَ دينا) (٢).

- **بدع الاعتقادات سببها تقديم العقل في باب الأخبار.**

كبدعة المعتزلة في القول بخلق القرآن التي فرضها الخليفة المأمون بن هارون، وقتل فيها المئات من المسلمين. فلما أصر المعتزلة على نفي صفة الكلام عن الله بعقولهم الفاسدة، تبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: إذا كان الله لا يتكلم، فهذا القرآن كلام من؟ ومن الذي تكلم به؟ فقالوا: تكلم به محمد ﷺ، ولما كان محمد ﷺ مخلوقا فكلامه مخلوق، وقد خلق الله محمدا ﷺ وخلق كلامه كما خلق سائر الأشياء. أما هو سبحانه فلا يتكلم، ولا يكلم أحدا من خلقه، وقد تخبط كثير منهم، فمرة ينسبونه إلى جبريل! ومرة ينسبونه إلى محمد ﷺ! ومرة يزعمون أن الله كان ولم يكن عرب ولا كلام عربي، فالله خلق القرآن كما خلق العرب! وغير ذلك من ألوان التخبط في الأدلة والتضارب في القول.

وقد أبطل علماء أهل السنة والجماعة بدعة الاعتزال العقلية، ووضعوا

---

(١) رواه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور ٢/٦٦٩ (٩٧٤).

(٢) انظر الاعتصام للشاطبي ١/٤٩، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

القواعد التي يردون بها على من قدم عقله في باب الصفات الخبرية وسائر الأمور الغيبية، وكان من أبرزهم الشيخ أبو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأزدي، حيث أدخل على الخليفة الواثق بن المعتصم أمير المؤمنين وهو مقيد بالسلاسل، وكان شيخا شاميا أمر قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد باعتقاله؛ لأنه كان يقول بقول الإمام أحمد بن حنبل في إثبات صفة الكلام لله تعالى، فسلم غير هائب ودعا فأوجز.

قال له الواثق: يا شيخ، ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظرك عليه. فقال الشيخ الأزدي: يا أمير المؤمنين هذا لا يقوى على المناظرة. فغضب الواثق لإهانته قاضي القضاة، وقال: أبو عبد الله بن أبي دؤاد يضيق، أو يقل ويضعف عن مناظرتك أنت؟! فقال: هوّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال الواثق: قد أذنت لك.

ثم التفت الشيخ الأزدي إلى أحمد بن أبي دؤاد وقال له: خبرني يا بن أبي دؤاد، أمقالتك تلك - يقصد بدعته في القول بخلق القرآن - واجبة في أصول الدين، فلا يكون كاملا إلا بما قلت؟ قال ابن أبي دؤاد: نعم. قال الشيخ أبو عبد الرحمن: هل ستر الرسول ﷺ شيئا مما أمر الله به المسلمين في أمر دينهم؟ قال ابن أبي دؤاد: لا. قال الشيخ: أفدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت بن أبي دؤاد! قال الشيخ الأزدي للخليفة الواثق: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

ثم قال: يا ابن أبي دؤاد أخبرني حين أنزل الله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة:٣، فقلت أنت الدين لا يكون تاما إلا بمقالتك في خلق القرآن، فهل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال الشيخ أبو عبد الرحمن لأمير المؤمنين الواثق: يا أمير المؤمنين ثنتان. ثم قال الشيخ أبو عبد الرحمن الأزدي: يا أحمد مقالتك هذه علمها رسول الله أم جهلها؟ قال: علمها. قال الشيخ: أفدعا الناس إليها؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال: يا أمير المؤمنين ثلاث.

ثم قال: خبرني يا أحمد، لما علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها، هل وسعه أن أمسك عنها أم لا؟ قال أحمد: علمها وسكت عنها. قال الشيخ الأزدي: وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة الله عليهم؟ قال: نعم.

قال أبو عبد الرحمن: أفوسع رسول الله ﷺ أن علمها، وأمسك عنها كما زعمت، ولم يطالب بها أمته؟ قال: نعم. فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الخليفة يقول: يا أمير المؤمنين إن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ السكوت عنه، فلا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه. قال الواثق: نعم، لا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه، فبكى الواثق وأمر بحل قيوده، فجاذب الشيخ أبو عبد الرحمن الحداد على القيود يود لو يحتفظ بها.

قال الواثق: ولم؟ قال: نويت أن تجعل بيني وبين كفني لأخاصم بها

هذا الظالم يوم القيامة، وبكى الشيخ أبو عبد الرحمن، وبكى الواثق، وبكى الحاضرون. قال الواثق: اجعلني في حل. قال: والله لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ إذ كنت رجلا من أهله. قال الواثق: تقيم معنا. قال الشيخ أبو عبد الرحمن الأزدي: ردك إياي إلى الموضع الذي أخذني منه هذا الظالم أجدى عليك وأنفع لي، ثم قام وخرج [(١)].

وبعد هذه المناظرة التي تعد قاعدة في هدم البدعة، رفعت المحنة عن العباد، فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ انتصر لأهل السنة وانتقم من المبتدعة، وكان من أفضل خلفاء بني العباس، لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون؛ فإنهم أساءوا إلى أهل السنة، وقربوا أهل البدعة.

- **ذم السلف الصالح للمبتدعة وعلماء الكلام.**

روى الدارمي عن عمر بن يحيى الهمداني قال: حدثني أبي قال: كنا نجلس على باب ابن مسعود ﷺ قبل الصلاة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري ﷺ فقال: أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ يقصد ابن مسعود ﷺ، قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعا، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد

---

(١) الشريعة للآجري ١/٥٤٠، نشر دار الوطن الرياض، وتاريخ بغداد ٧٦/١٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤٤/١٧.

آنفا أمرا أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيرا، قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قوما حُلُقَا جُلُوسا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. قال ابن مسعود لأبي موسى ﷺ: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئا، انتظرك رأيك، أو انتظر أمرك، فقال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيآتهم؛ فأنا أضمن لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء.

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، قال: فعدوا سيئاتكم؛ فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء. ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكَتكُم، هؤلاء أصحابه متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله، لا أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم. قال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك يطاعنونا يوم النهر مع الخوارج [1].

---

(١) صحيح، انظر السلسلة الصحيحة ١١/٥ (٢٠٠٥)، وحديث: (إن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية). أخرجه الدارمي في المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي ٧٩/١ (٢٠٤).

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: (إن من ورائكم فتن يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك أن يقول قائل: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإنما ابتدع ضلالة، واحذروا زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق) [١].

جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر؟ قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة في هذه؟ إنما هي أميال أريدها، قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ؟ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ النور:٦٣ [٢].

وأي فتنة أعظم من أن يرى المبتدع أن اختياره لنفسه خير من اختيار

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة ٢/٦١٢ (٤٦١١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد موقوف.

(٢) انظر كتاب حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر ﷺ للشيخ الألباني ص١١٠.

الله ورسوله ﷺ له، وأي فتنة أكبر من أنه خص نفسه بفضل لم يختص به رسول الله ﷺ.

واعلم أنه حيث ما ورد الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك بالحق قليلا، أو كان المخالف له كثيرا؛ لأن الحق هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما كانت عليه الجماعة الأولى وهم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ[1].

قال عمر بن ميمون الأودي: صحبت معاذ بن جبل ﷺ باليمن فما فارقته حتى واريته التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود، فسمعته يقول عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة. ثم سمعته يوما من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصل معهم فإنها لك نافلة. قال عمر بن ميمون لعبد الله بن مسعود: يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون؟ قال عبد الله: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول لي صل الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق الحق وأن كنت وحدك [2].

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص٢٠ بتصرف.

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/١٠٨.

وفي رواية قال عمرو بن ميمون ﷺ: (فقال ابن مسعود ﷺ ـ وضرب على فخذي: ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى) [١].

وقال نعيم ابن حماد: (قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وأن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة) [٢].

قال أبو عثمان إِسماعيل الصابوني: (وعَلامات أَهل البدَعِ عَلى أَهلها بادية ظاهرة، وأَظهرُ آياتهم وعَلاماتهم شدَةُ مُعاداتهم لحمَلَة أَخبار النبِيِّ ﷺ واحتقارهم لهُم، وتسميتهم حَشوية، وجَهلة، وظاهرية مُشبهة؛ اعتقادا منهُم في أخبار رسول الله ﷺ أَنها بمعزل عن العلم، وأَن العلم ما يُلقيهِ الشيطان إِليهِم من نتائجِ عُقولهم الفاسدة، ووساوس صُدورهم المُظلمَة) [٣].

قال الإمام أَحمد بن سنان القطان رحمه الله تعالى: (ليْسَ في الدنيا مُبْتدع؛ إِلا وهو يُبْغضُ أَهل الحَديث، فإِذا ابْتدَعَ الرجُل، نزِعَت حَلاوَةُ الحَديث من قَلبِه) [٤].

---

(١) السابق ١/١٠٩.

(٢) الباعث على إنكار البدع ص٢٢.

(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/١٠٦.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ١/٧٣، نشر دار إحياء السنة النبوية، أنقرة. وانظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٦/٢، نشر دار هجر.

وقد بين الإمام الشافعي حكم أَهل البدع والأَهواء وعلماء الكلام فقال: (حُكْمي في أَصْحابِ الكَلامِ أَن يُضربَوا بالجريد، ويُحمَلوا عَلى الإِبل، ويُطاف بهم في العشائرِ والقَبائل؛ ويقال: هذا جَزاءُ مَن ترَك الكتابَ والسنة، وأَخَذ في الكَلام) [١].

وقال الفضيل بن عياض: (صاحبُ بدعَة لا تأمَنه عَلى دينكَ، ولاَ تشَاورهُ في أَمْرِكَ، ولاَ تجلس إِليه، ومَن جَلسَ إِلى صاحِبِ بدعة أَوْرثهُ اللّهُ العَمَى) [٢]. وقال سفيان الثوري رحمه الله: (مَن أصغى سَمْعَهُ إِلى صَاحب بِدْعَة وهُو يَعْلمُ أَنهُ صاحِبُ بِدْعَةٍ؛ نزِعَت مِنهُ العِصْمَةُ، ووُكِل إِلى نفْسِه) [٣].

وقال إِمام أَهل السُّنة أَحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: (إِن أَهل البدَعِ والأَهْواءِ؛ لاَ يَنبَغي أَن يُسْتعان بِهِم في شَيء مِن أمورِ المُسْلمينَ؛ فإن في ذلكَ أَعْظَم الضرر على الدين) [٤].

وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى: (إِنه ليْسَ في أَصْحاب الأَهْواءِ شَر مِن أَصْحابِ جَهم؛ يُريدون عَلى أَن يَقُولوا: ليسَ في السَماءِ شَيء: أَرى وَاللهِ أَلا يُناكَحُوا، وَلاَ يُوَارثوا) [٥].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/١٣٨ (٢٦٤) نشر دار طيبة.

(٢) السابق ١/١٤٠ (٢٧٥).

(٣) حلية الأولياء ٧/٢٦، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٣٦ (٢٥٢).

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/٢٧٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١/٢٩٧).

(٥) السنة لعبد الله بن أحمد ١/١٥٧ (١٤٧)، ومجموع الفتاوى ٥/٥٣.

وعَن أَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ تعَالى أَنهُ قَال لبِشْرٍ المِريسِيِّ: (العِلمُ بِالكَلامِ هُوَ الجَهْل، وَالجَهْل بِالكَلامِ هُوَ العِلمُ، وَإِذا صَارَ الرَّجُل رَأْسًا فِي الكَلامِ قِيل: زِندِيقٌ، أَوْ رُمِيَ بِالزَّندَقَةِ) (١).

وَعَنهُ أَيْضا أَنهُ قَال: (مَن طَلبَ العِلمَ بِالكَلامِ تزَندَقَ، وَمَن طَلبَ المَال بِالكِيمْيَاءِ أَفْلسَ، وَمَن طَلبَ غَرِيبَ الحَدِيث كَذبَ) (٢).

• المقصود بمصطلح السلف والخلف:

السَّلف لغة هو الماضي، كما في قول الله ﷻ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ البقرة:٢٧٥. وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ النساء:٢٢.

قال ابن منظور: (سلف يسلف سلفا، مثال طلب يطلب طلبا، أي مضى. والقوم السلاف المتقدمون. سلف الرجل آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف .. ويجيء السلف على معان: القرض، والسلم، وكل عمل قدمه العبد) (٣).

ولما كان كل ماض سلف فقد شاع إطلاق مصطلح السلف على

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/٦١، وانظر الأنساب للسمعاني ٥/٢٦٧، والصواعق المرسلة لابن القيم ٤/١٤٢١.

(٢) أخبار القضاة لأبي بكر محمد بن حيان البغدادي ٣/٢٥٨، وانظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/١٥١.

(٣) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ٩/١٥٨، والتوقيف ١/٤١٢.

الجيل المؤسس الذي أقام الدين، وطبق منهج الإسلام، وهو جيل الصحابة ﷺ الذي تلقى عن رسول الله ﷺ البيان النبوي للبلاغ القرآني، ثم انضم إليهم من اهتدى بهديهم، واقتدى بسنة نبيهم، من التابعين وتابع التابعين، وأئمة المذاهب الفقهية الكبرى.

ويمكن تحديد من يدخل تحت اصطلاح السلف بصورة أكثر دقة من خلال أمرين أساسيين، أو عاملين مجتمعين، عامل زمني وآخر منهجي:

أولا: العامل الزمني.

ويتناول كل من أدرك عصر خير القرون. ويشير إلى ذلك ما رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (خَيْرُ الناس قَرْنِي، ثمَّ الذين يَلونهُمْ، ثمَّ الذين يَلونهُمْ ثمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينهُ، وَيَمِينهُ شَهَادَتهُ) [(١)].

والقرن أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويقال: إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة واحدة، أو مذهب أو عمل.

ويطلق القرن أيضا على مدة من الزمان. ذكر الجوهري أن مدة القرن بين الثلاثين والثمانين. وذكر ابن الأعرابي أنه من عشر إلى سبعين، ثم قال: (هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن،

---

(١) البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا ٥/٢٣٦٢ (٦٠٦٥) .

وهذا أعدل الأقوال، وهو مأخوذ من الأقران) [١].

قال ابن حجر العسقلاني: (وقد ظهر أن الذي بين البعثة وأخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة، أو دونها، أو فوقها بقليل، على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل، وإن اعتبر ذلك بعد وفاته ﷺ، فيكون مائة سنة، أو تسعين، أو سبعا وتسعين، وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها، كان نحوا من خمسين، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان، والله أعلم) [٢].

وإذا نظرنا إلى المدة الزمنية التي تحدد العامل الزمني في إطلاق مصطلح السلف على من أدركها، نجدها تنتهي بتغيير العقيدة المعتمدة على مستوى الخلافة الإسلامية من الطريقة السلفية إلى الطريقة البدعية الاعتزالية، وذلك إلى حدود العشرين ومائتين.

قال ابن حجر رحمه الله: (واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من عاش إلى حدود العشرين ومائتين. وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيرا

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني الشافعي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة ٧/٥ (١٣٧٩).

(٢) السابق ٧/٥.

شديدا، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وظهر قوله ﷺ: ثم يفشو الكذب، ظهورا بينا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات، والله المستعان) [(١)].

ومن ثم فإن العامل الزمني يقصد به تلك الفترة الزمنية، أو فترة العصر الذهبي التي تمثل نقاء الفهم والتطبيق لكل ما ورد في الكتاب والسنة، وذلك قبل ظهور المذاهب البدعية التي وفدت بعد الفتوحات الإسلامية، وأدخلت في الأمة مختلف الفلسفات العقلية.

وعليه فإن عصر السلف الصالح يمتد من زمن النبوة إلى زمن المحنة، عندما تولى أهل الاعتزال إدارة الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة المأمون بن هارون، من خلفاء بنى العباس، حيث فرض على الناس مذهبهم بقوة الدولة، وامتحن علماء السلف الصالح في قضية خلق القرآن وتعطيل الصفات الإلهية.

- **ثانيا: العامل المنهجي.**

وهو أساس في قيام مصطلح السلف، فمن تحقق فيه العامل الزمني السابق، وأدرك عصر السلف الصالح، لا يشمله اصطلاح السلف إلا بتحقيق العامل المنهجي، فطريقة السلف طريقة الإيمان والتسليم، يؤمنون بكل خبر ورد في القرآن، ويصدقون به تصديقا جازما يبلغ حد اليقين، وينفذون كل أمر شرعي تنفيذا كاملا، ويعلمون أن ما جاء في

---

(١) السابق ٦/٧.

القرآن وصحيح السنة، لا يمكن أن يعارض صريح العقل والحكمة، فالله ﷻ هو الذي خلق العقل، وهو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده، وقد تقدم الحديث عن ذلك.

ومن ثم فإن العامل المنهجي في تحديد مصطلح السلف وهو اعتقاد يكون فيه المسلم موافقا لطريقة السلف والأئمة ومنهم وفق ميلادهم:

١- الإمام أبو حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ).

٢- الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ)..

٣- الإمام سفيان الثوري (٩٧-١٦١هـ).

٤- الإمام سفيان بن عيينة (١٠٧-١٩٨ هـ).

٥- الإمام عبد الله بن المبارك (١١٨-١٨١هـ).

٦- الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ).

٧- الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (١٥٠-٢٢٤هـ).

٨- الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ).

٩- الإمام البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ).

١٠- الإمام الدارمي (٢٠٠-٢٨٠ هـ).

١١- الإمام أبو داود (٢٠٢-٢٧٥هـ).

١٢- الإمام مسلم (٢٠٤-٢٦١هـ).

١٣- الإمام الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ).

١٤- الإمام ابن ماجة (٢٠٩-٢٧٣هـ).

١٥- الإمام النسائي (٢١٥-٣٠٣ هـ).

هؤلاء وغيرهم من علماء السلف كانت طريقتهم هي الطريقة التي دل القرآن عليها وأرشد إليها، وهي أكمل الطرق وأصحها، يتوافق فيها العقل مع النقل، ولا يتخذون النقل مطية للعقل، بل يرون الحق فيما نزل من عند الله ﷻ، ويتهمون أنفسهم وعقولهم إذا عارضت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وصفهم وحالهم كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ سبأ:٦.

ومن ثم فإن كل من تحقق فيه هذا العاملان، فهو سلفي بالمعنى الاصطلاحي، وكل من أعقبهم، وجاء بعدهم، وسار على دربهم، واعتقد صحة نهجهم، فهو من خير خلف لخير سلف، وإن لم يدخل تحت السلف اصطلاحا. ومن هؤلاء على سبيل المثال وعلى حسب ترتيب ولادتهم:

١- أبو بكر بن خزيْمة (٢٢٣-٣١١هـ).

٢- أبو جعفر الطحاوي (٢٣٨-٣٢١هـ).

٣- أبو الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ).

٤- أبو عبد الله بن منده (٣١٠-٣٩٥هـ).

٥- شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمِية (٦٦١-٧٢٨هـ)..

٦- شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ).

٧- شمس الدين بن القيم (٦٩١ -٧٥١هـ).

٨- الحافظ ابن كثير القرشي (٧٠٠-٧٧٤هـ).

• مصطلح الخلف.

الخلف لغة القرن بعد القرن، يقال: هؤلاء خلف سوء لناس لاحقين بناس أكثر منهم، والخَلْفُ أيضا ساكن اللام ومفتوحها، ما جاء من بعد يقال: هو خلف سوء من أبيه، وخلف صدق من أبيه، إذا قام مقامه [١].

قال ابن المطرز: (خلف فلان فلانا جاء خلفه، ومنها خلفة الشجر، وهي ثمر يخرج بعد الثمر الكثير، وخلفة النبات، ما ينبت في الصيف بعدما ييس العشب، وكذلك ما زرع من الحبوب بعد إدراك الأولى يسمى خلفة، وخلفته خلافة، كنت خليفته) [٢].

أما الخلف في الاصطلاح فيمكن تحديده أيضا من خلال أمرين أساسيين، أو عاملين مجتمعين، عامل زمني، وآخر منهجي:

• أولا: العامل الزمني.

ويتناول كل من أعقب عصر السلف، ولم يدرك عصر خير القرون، وبدايته الرسمية منذ سيطرة المعتزلة على الخلافة الإسلامية في عصر المأمون بن هارون، وإن كان ظهور المنهج الكلامي أسبق من ذلك، إلا أنه لم يكن على مستوى الخلافة الإسلامية.

---

(١) مختار الصحاح ١/٧٨.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب لابن المطرز ١/٢٨٦.

- **ثانيا: العامل المنهجي.**

العامل المنهجي في تحديد مصطلح الخلف، هو اتباع أصحابه للمنهج الكلامي والمنطق اليوناني، واعتباره أصلا يسيرون على نهجه، وميزانا لقياس الأمور العقائدية، وما عارض ذلك من نصوص الوحي جعلوها أدلة ظنية لا تفيد اليقين، أو مجازات واستعارات خيالية لا حقيقة لها، وأن العقل عارضها فيجب تقديمه عليها، وأنها أخبار آحاد لا يجوز أن يحتج بها على أصولهم.

هذا الاتجاه هو ما عرف بمذهب الخلف قديما، ويصدق عليه من سار على دربهم حديثا. قال ابن حجر العسقلاني: (وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلا يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرها، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم، وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف) [١].

وقال أبو القاسم اللالكائي: (فلم تزل الكلمة مجتمعة، والجماعة متوافرة على عهد الصحابة الأول، ومن بعدهم من السلف الصالحين،

---

(١) فتح الباري ١٣/٢٥٣.

حتى نبغت نابغة في أول إمارة المروانية، تنازع في القدر وتتكلم فيه، حتى سئل عبد الله بن عمر، فروى له عن رسول الله ﷺ الخبر بإثبات القدر والإيمان به، وحذر من خلافه، وأن ابن عمر ممن تكلم بهذا أو اعتقده بريء منه وهم براء منه، وكذلك عرض على ابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهما، فقالا له مثل مقالته) [(١)].

• طريقة الخلف ليست أسلم من طريقة السلف.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجب على جميع الخلق في باب العقيدة والغيبيات هو الالتزام بقول الله تعالى ورسوله ﷺ وما ذكره السابقون الأولون وما قاله أئمة الهدى، فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وشهد له بأنه بعثه داعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا، فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخبر الله تعالى بأنه أكمل له ولأمته دينهم، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها، ولم يميز ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العلى وما يجوز عليه أو يمتنع، فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول.

ومن المحال مع تعليمه عليه السلام لأمته كل شيء، لهم فيه منفعة وإن دقت، أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم وقلوبهم في ربهم

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٦.

ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام؟!

ثم إذا كان قد وقع ذلك منه، فمن المحال أن خير أمته وأفضل القرون قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه. ثم من المحال أيضا أن تكون خير القرون الفاضلة، القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين ولا قائلين في هذا الباب بالحق المبين. فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم. ولا أن يعتقد أن الخلف أعلم من السلف، أو أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، ظنا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ذلك، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة [(١)].

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن الله سبحانه قد أخبر أنه أكمل له ولأمته به دينهم، وأتم عليهم به نعمته، ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق، وأرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، ونصبت عليه القبلة، وأسست عليه الملة، وهو باب الإيمان به ومعرفته، ومعرفة أسمائه

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٩.

وصفاته وأفعاله، ملتبسا مشتبها حقه بباطله، لم يتكلم فيه بما هو الحق، بل تكلم بما ظاهره الباطل، والحق في إخراجه عن ظاهره.

وكيف يكون أفضل الرسل ﷺ وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه، مبين له بأكمل البيان، موضح له غاية الإيضاح، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجل ما حصلته القلوب.

ومن أبين المحال أن يكون أفضل الرسل ﷺ قد علم أمته آداب البول قبله وبعده ومعه، وآداب الوطء، وآداب الطعام والشراب، ويترك أن يعلمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم، الذي معرفته غاية المعارف، والوصول إليه أجل المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم فيه بما ظاهره باطل وإلحاد، ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات، ومستنكرات المجازات، ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم، وتوجبه أراؤهم، هذا وهو القائل ﷺ: (تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) [1].

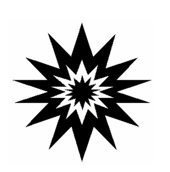
وكيف يتوهم من لله ولرسوله ودينه في قلبه وقار، أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم، ولم يتكلم فيه بالصواب،

---

(١) رواه ابن ماجه في باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/١٦ (٤٣)، وأحمد في المسند ٤/١٢٦ (١٧١٨٢)، وصححه شعيب الأرنئوط.

بل تكلم بما ظاهره خلاف الصواب، بل لا يتم الإيمان إلا باعتقاد أن بيان ذلك قد وقع من الرسول ﷺ على أتم الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يدع بعده لقائل مقالا، ولا لمتأول تأويلا.

ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأعلمها وأسبقها إلى كل فضل وهدى ومعرفة، قصروا في هذا الباب، فجفوا عنه، أو تجاوزوا فغلوا فيه، ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة، وورثة الصابئين، وأفراخ اليونان، الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك، وعدم العلم الذي يطمئن إليه القلب، وأشهدوا الله وملائكته عليهم به، وشهد به عليهم الأشهاد من أتباع الرسل، أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأعرف به ممن شهد الله ورسوله ﷺ لهم بالعلم والإيمان، وفضلهم على من سبقهم، ومن يجيء بعدهم إلى يوم القيامة، ما خلا النبيين والمرسلين، وهل يقول هذا إلا غبي جاهل، لم يقدر قدر السلف، ولا عرف الله ورسوله ﷺ وما جاء به [(١)].



(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ١/١٥٧: ١٦٢.

المطلب الرابع

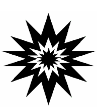
طريقة الصحابة في فهم العقيدة



- **مراتب الناس في تصديق الخبر.**
- **منهج الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة.**
- **موقف الصحابة من خبر الله ورسوله ﷺ.**
- **موقف الصحابة في باب الأمر والطلب.**
- **الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان.**
- **الإيمان في باب الأمر له ثلاثة أركان.**
- **اليقين المنافي للشك من شروط لا إله إلا الله.**
- **ما معنى الإيمان في حديث سفيان؟**

المطلب الرابع

طريقة الصحابة رضي الله عنهم في فهم العقيدة



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن قضية العلاقة بين العقل والنقل وأيهما يقدم على الآخر؟ ولماذا؟ وعلمنا أن العقل أصل في العلم بالنقل وليس أصلا في ثبوته كما ادعى المتكلمون، وبينا مثلا لذلك وهو مثل العامي المستفتى مع الدال على المفتي.

ثم علمنا أن كثيرا ممن قدم العقل على النقل اعترف بحيرته وضلاله، وأن من أعرض عن القرآن وعارضه فجهله جهل بسيط أو جهل مركب، وتناول الحديث الرد على من وصف السلف بأنهم أصحاب جمود عقلي؟ وبينا متى يقدم العقل على النقل عندهم؟

كما علمنا أن تقديم العقل على النقل في باب الأمر يؤدي إلى بدع العبادات، وأن بدع الاعتقادات سببها تقديم العقل على النقل في باب الأخبار والغيبيات.

ثم تحدثنا عن المقصود بمصطلح السلف والخلف، وكيف ذم السلف الصالح المبتدعة وعلماء الكلام؟ وبينا أن طريقة الخلف ليست أسلم ولا

أعلم ولا أحكم من طريقة السلف.

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن طريقة الصحابة والتابعين في فهمهم للعقيدة الإسلامية بفطرتهم النقية، دون عقليات كلامية أو تعقيدات فلسفية، من خلال المحاور التالية:

• **مراتب الناس في تصديق الخبر.**

الخبر هو ما يحتمل الصدق أو الكذب، ويتطلب التصديق، والأمر هو ما لا يحتمل الصدق أو الكذب، ويتطلب التنفيذ.

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابنِ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قَال: (لَمَّا نَزَلَت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الشعراء: ٢١٤، صَعِد النَّبي ﷺ عَلى الصَّفَا فَجعَل ينَادي: يا بنِي فِهْرٍ، يا بني عَدي لبطُون قُرَيش حَتى اجْتمَعُوا، فَجعَل الرَّجُل إذا لمْ يستَطِعْ أَنْ يخْرُجَ أَرْسَل رَسُولا لينْظُرَ مَا هُوَ، فَجاءَ أَبو لهَب وقُرَيشٌ، فقَال: أَرَأَيتكُمْ لوْ أَخبرْتكُمْ أَنَّ خَيلا بالوَادي تريد أَنْ تغِيرَ عَليكُمْ، أَكُنْتمْ مُصَدقِي؟ قَالوا: نَعَمْ مَا جَرَّبنَا عَليكَ إلا صِدقًا، قَال: فَإنِّي نَذيرٌ لكُمْ بينَ يدي عَذاب شَديد، فقَال أَبو لهَب: تبا لكَ سَائِرَ اليوْمِ أَلهَذا جَمَعْتنَا؟ فنَزَلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ المسد: ١/٢) [1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء ١٧٨٧/٤ (٤٤٩٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب في قول الله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين ١٩٣/١ (٢٠٨).

والشاهد من الحديث أن الخبر هو ما يتطلب التصديق، وهو واضح من قوله ﷺ: أَرَأَيتكُمْ لوْ أَخْبرْتكُمْ. وقولهم: مَا جَرَّبنَا عَليكَ إلا صِدقًا، وفي رواية أخرى عند البخاري: قالوا ما جربنا عليك كذبا [١].

ولما أخبر يوسف عليه السلام بمراودة امرأة العزيز له، تطلب الخبر التصديق أو التكذيب بإقامة البرهان عليه، فقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ يوسف:٢٥/٢٩.

وكذلك الهدهد لما ذكر خبره اليقيني لنبي الله سليمان عليه السلام، طلب سليمان التحقق من كونه صادقا أو كاذبا من خلال الدليل والبرهان.

قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ

(١) البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة المسد ٤/١٩٠٢ (٤٦٨٧).

ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ النمل:٢٢/٢٦.

وقد رد عليه سليمان عليه السلام بما يدل على التحقق من خبره، حيث أرسله إليهم وأمره أن ينتظر سماع جوابهم ليخبره به، فأخبر الله عز وجل عن صدق الهدهد بذكر جوابهم مباشرة، فقال: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ النمل:٢٢/٣١.

قال ابن هشام في بيان نوعي الكلام: (التحقيق أن الكلام ينقسم إلى خبر وإنشاء فقط، وأن الطلب من أقسام الإنشاء، وأن مدلول "قم" حاصل عند التلفظ به، لا يتأخر عنه، وإنما يتأخر عنه الامتثال، وهو خارج عن مدلول اللفظ) [(١)].

وقال السيوطي: (الفرق بين الخبر والإنشاء، أن الخبر هو الدال على أن مدلوله قد وقع قبل صدوره، أو يقع بعد صدوره، والإنشاء هو اللفظ الدال على أن مدلوله حصل مع آخر حرف منه) [(٢)].

والناس في مراتب التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ على ستة أنواع، ثلاثة منها لغير المسلمين، وثلاثة للمسلمين على تنوع أهل اليقين. فأما الثلاثة التي لغير المسلمين فهي مرتبة الوهم، ثم مرتبة الشك، ثم مرتبة

---

(١) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لعبد الله بن هشام ص٤٠.

(٢) شرح السيوطي علي سنن النسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٣١.

الظن. وأما الثلاثة التي للمسلمين فلا بد فيها من اليقين كشرط لازم من شروط لا إله إلا الله، وهي مرتبة علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، ولمزيد من البيان يمكن ترتيب تلك المراتب على النحو التالي:

- **أولا: مرتبة الوهم .**

إذا أخبرك أحد لأول مرة أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم، فإما أن تصدقه وإما أن تكذبه، فإن كان تكذيب القلب لهذا الخبر أكبر من التصديق، سمي ذلك عند علماء الأصول وهما.

كالذي يقول مثلا: كيف أن الأرض تدور؟ وليس هذا بمأثور ولا مذكور؟ ونحن في أماكننا لا نقع ولا ندور؟ أنا أستبعد مثل هذا الخبر.

فحقيقة الوهم ومقتضاه أن يكون عدم ثبات الأمر في القلب أرجح من ثباته. أو كما عرفه صاحب القاموس فقال: (بأنه مَرْجوحُ طَرَفَي المُترَدد فيه) [(١)].

والوهم يشبه النسيان إلى حد كبير، ولذلك سميت سجدة السهو بسجدة الوهم، كما ورد في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن مالك ﷺ: (أن رسول الله ﷺ، صَلي بهِمُ الظُّهْرَ، فَقَامَ فِي الرَّكْعَتينِ الأُوليينِ ولمْ يجْلسْ، فَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، حتى إذا قَضَي الصَّلاةَ، وَانْتظَرَ النَّاسُ تسْليمَهُ، كَبرَ وَهُوَ جَالسٌ، فَسَجَد سجدتي الوهم قَبل أَنْ يسَلمَ،

---

(١) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لزكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري ص٦٨ نشر دار الفكر المعاصر بيروت، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ص١٥٠٧.

ثمَّ سَلمَ) [١].

والمقصود هنا سجدتا السهو عند انعدام اليقين التثبت من الأمر، فالوهم أن يكون عدم ثبات الأمر في القلب أكبر من ثباته، وتكذيب الخبر أكبر في القلب من تصديقه.

قال ابن تيمية رحمه الله: (فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون: أن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه! لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به، ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير، وأن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيما محسوسا، وعقابا محسوسا، وإن كان الأمر ليس كذلك؛ لأن مصلحة الجمهور في ذلك، وإن كان كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور! وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل) [٢].

قال الآمدي: (يشتد وهم بعض الناس بحيث يقضي به على العقل، وذلك كمن ينفر عن المبيت في بيت فيه ميت لتوهمه أنه يتحرك أو يقوم، وان كان عقله يقضي بانتفاء ذلك) [٣].

---

(١) أصل الحديث رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب من لم ير التشهد الأول واجبا ٢٨٥/١ (٧٩٥)، وأما لفظ "سجدتي الوهم" فورد عند الدارمي في كتاب الصلاة، باب إذا كان في الصلاة نقصان ٤٢١/١ (١٥٠٠) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٩/١، وشرح العقيدة الطحاوية ص٥٩٥.

(٣) غاية المرام في علم الكلام، لسيف الدين الآمدي ص١٨٦، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

• **ثانيا: مرتبة الشك.**

أما لو تساوت نسبة التكذيب في القلب مع نسبة التصديق، واعتدل الترجيح بينهما في ثبوت الخبر، سمي ذلك شكا، كما ورد عند أبي داود من حديث أَبِي هُرَيرَة ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (مَا حَدثكُمْ أَهْل الكِتاب فَلا تصَدقُوهُمْ وَلا تكَذبوهُمْ، وَقُولوا: آمَنَّا باللهِ وَرُسُله، فَإِنْ كَانَ باطِلا لَمْ تصَدقُوهُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تكَذبوه) [(١)].

وقد روى النسائي وصححه الشيخ الألباني عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (إِذا شَكَّ أَحَدكُمْ فِي صَلاتِه، فَليلغِ الشَّكَّ وَليبنِ على اليقِينِ، فَإِذا استيقَنَ بالتمَام، فَليسْجُد سَجْدتين وَهُوَ قَاعِد، فَإِنْ كَانَ صَلى خَمْسًا شَفَعَتا لهُ صَلاتهُ، وَإِنْ صَلى أَرْبعًا كَانَتا ترْغِيمًا للشَّيطَانِ) [(٢)].

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذا كَانَ أَحَدكُمْ فِي المَسْجِد، فَوَجَد رِيحًا بينَ

---

(١) جزء من حديث رواه أبو داود في كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب ٣/٣١٨ (٣٦٤٤)، وأحمد في المسند ٤/١٣٦ (١٧٢٦٤) عن أبي نملة الأنصاري، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٨٠٠).

(٢) رواه النسائي في كتاب صفة الصلاة، باب إتمام المصلي على ما ذكر إذا شك ١/٣٦٨ (١١٦١) (١١٦٢)، وأصل الحديث عند مسلم في كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له ١/٤٠٠ (٥٧١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢/١٣٤ (٤١١)، وانظر صحيح الجامع (٦٣٢).

أَليتيهِ فَلا يَخْرُجْ حتى يسْمَعَ صَوْتا، أَوْ يجِد رِيحًا) [(١)].

قال عبد الله بن المبارك في معنى الحديث: (إذا شَكَّ فِي الحَدث، فَإِنَّهُ لا يجِب عَليهِ الوُضُوءُ حتى يستيقِنَ استيقَانًا يقْدرُ أَنْ يحْلفَ عَليهِ) [(٢)].

والشك يحدث الريبة في القلب كما قال تعالى عن مؤمن آل فرعون وهو ينصح قومه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ غافر:٣٤.

وقد ذكر الله تعالى أن قوم صالح عليه السلام لم يصدقوه وكانوا في شك وريبة مما أخبرهم به عن ربهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ هود:٦٢/٦٣.

وقال تعالى عن شك النصارى فيما هم عليه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ النساء:١٥٧.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من الريح ١/١٠٩(٧٥)، وصححه الألباني، وانظر صحيح الجامع (٧٥١).

(٢) ذكر الترمذي رحمه الله تعالى في سننه هذا القول عن ابن المبارك بعد ذكر الحديث السابق، انظر سنن الترمذي ١/١٠٩ (٧٥).

والآية صريحة في الدلالة على أن اليقين ينفي الشك والظن، وأن طوائف النصارى في العالم ليسوا على يقين من قصة الصلب والقتل التي زعموها في عيسى ، وإنما هم في مرتبة الشك أو مرتبة الظن.

والمقصود هنا أن القرآن دل على أن الشك هو أن يكون عدم ثبوت الأمر في القلب مستويا مع ثبوته.

- **ثالثا: مرتبة الظن .**

أما الظن فهو زيادة التصديق في القلب على التكذيب، حتى لو امتلأ القلب بالتصديق وبقي فيه من التكذيب شيء يسير؛ فإنه يسمي ظنا، ولا يبلغ المرء مع الظن حد اليقين اللازم للإيمان.

وقد ذكر الله ﷻ حال المشركين والكافرين واعتقادهم في يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الجاثية:٣٢.

هؤلاء ذكروا في وصفهم لأنفسهم وهم في الدنيا أن تكذيبهم بذلك اليوم أمر وارد على قلوبهم، لكنهم لما انتقلوا إلى ربهم، ورأوا العذاب بأبصارهم، اعترفوا بذنبهم، وندموا على ظنهم، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليبلغوا درجة اليقين اللازمة لكلمة لا إله إلا الله، والمنجية من عذاب الله، فقال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ السجدة:١٢.

وقد ورد في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير أنه

سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ يوسف: ١١٠ فقال: (قُلت: يا أم المؤمنين أَكُذِبوا أَمْ كُذِّبوا؟ قَالت: كُذِّبوا ، قُلت: فَقَد اسْتيقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذبوهُمْ، فَمَا هُوَ بالظَّنِّ، قَالت: أَجَل لعَمْري، لقَد اسْتيقَنُوا بذلكَ، فَقُلت لهَا: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَد كُذِبوا؟ ـ يعني: هل ظنوا أن الله خذلهم ولم ينصرهم على أعدائهم ـ قَالت: مَعَاذ الله، لَمْ تكُنِ الرُّسُل تظُنُّ ذلكَ برَبها، قُلت: فَمَا هَذهِ الآيةُ؟ قَالت: هُمْ أَتباعُ الرُّسُل الذينَ آمَنُوا برَبهِمْ وَصَدقُوهُمْ، فَطَال عَليهِمُ البلاءُ، وَاسْتأْخرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حتى إذا اسْتيأَسَ الرُّسُل مِمَّنْ كَذبهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّت الرُّسُل أَنَّ أَتباعَهُمْ قَد كَذَّبوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ الله عِنْد ذلكَ) [١] .

وقد عرف الجرجاني الظن بقوله: (الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك، وقيل: الظن أحد طرفي الشك، بصفة الرجحان) [٢].

وقد يطلق الظن على اليقين في بعض مواطن القرآن على اعتبار أن التصديق والتثبت من الحقيقة يزداد شيئا فشيئا، وفي المقابل يقل التكذيب أيضا شيئا فشيئا حتى يصل التثبت إلى منتهاه، فيمتلأ القلب تصديقا بوقوع الحقيقة فيكون عند ذلك يقينا، وإن كان ذلك لا ينفع الكافر

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة يوسف ٤/١٧٣١ (٤٤١٨).

(٢) التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني ١/١٨٧ (٩٣٤) نشر دار الكتاب العربي بيروت، وانظر التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (١/٤٩٢) نشر دار الفكر.

عند موته، كما ورد في قول الله تعالى عن المكذبين: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾ القيامة:٢٦/٣٥.

ولذلك فإن اليقين يرد على معنى الموت على اعتبار أن التثبت من حقيقته كائن في جميع القلوب دون شك فيه، وإن تغافل الناس عن تذكره والاستعداد لمواجهته، كقول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ الحجر:٩٩. فاليقين هنا هو الموت.

روى البخاري عن أم العلاء رضي الله عنها وهي امرأة من الأنصار أنها قالت في عثمان بن مظعون ﷺ حين موته: (رَحْمَةُ اللهِ عَليكَ أَبا السَّائِب، فَشَهَادتي عَليكَ، لقَد أَكْرَمَكَ اللهُ، فَقَال النَّبي ﷺ: وَمَا يدريكِ أَنَّ اللهَ قَد أَكْرَمَهُ، فَقُلت: بأَبي أَنْت يا رَسُول اللهِ فَمَنْ يكْرِمُهُ اللهُ؟ فَقَال: أَمَّا هُوَ فَقَد جَاءَهُ اليَقِينُ. وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو لهُ الخَيرَ. وَاللهِ مَا أَدري وَأَنَا رَسُول اللهِ مَا يفعَل بي، قَالت: فَوَ اللهِ لا أُزَكِّي أَحَدا بعْدهُ أَبدا) [1].

- **رابعا: مرتبة علم اليقين.**

اليقين ينفي الوهم والشك والظن، فإذا صدقت بقلبك تصديقا جازما كاملا، لا مجال للتكذيب فيه، فإن ذلك يسمى يقينا، وهو

---

(١) البخاري كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات ٢/٩٥٤ (٢٠٤١) .

المسمى في النصوص القرآنية والنبوية بعلم اليقين كما في قوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ التكاثر:٥/٦.

وعلم اليقين شرط من شروط لا إله إلا الله. فإذا أخبرك الله عن شيء، فلن تدخل في الإسلام إلا بهذا اليقين، فتصدق بخبر الله ورسوله ﷺ تصديقا كاملا، يمحو التكذيب بدرجاته المختلفة من القلب محوا شاملا. قال عَبد الله بنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

وَفِينَا رَسُول الله يتلو كِتَابَهُ : إِذا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ

أَرَانَا الهُدي بعْد العَمى فَقُلوبنَا : بهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَال وَاقِعُ

يبيت يجَافِي جَنْبهُ عَنْ فِرَاشِهِ : إِذا استْثقَلت بالمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ [1].

والمسلم لا يكون مسلما إلا بعلم اليقين، ولا يخرج عن اليقين، ولا يمكن أن ينزل إلى درجة الظن، أو الشك، أو الوهم؛ لأنه إن اتصف بشيء مما ينافي اليقين، انتفى شرط من شروط لا إله إلا الله.

وربما يضعف نور اليقين في قلب المسلم، وربما يسكن اليقين ويتمكن فيبصر حقائق الأمور بذلك النور. ومن هنا كان تصنيف اليقين في القلب على ثلاث درجات: علم اليقين، وعين اليقين، وحق

---

(١) البخاري في التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى ٣٨٧/١ (١١٠٤).

اليقين، فالأولى كعلمك بوجود العسل، وعين اليقين كرؤيتك له، وحق اليقين كشربك منه:

وعلم اليقين ورد في سورة التكاثر في قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾ التكاثر:١/٥.

والتكاثر هو جمع متاع الدنيا، حتى زُرْتمْ المَقَابر تنبيها على أن الزائر لابد أن ينتقل عن مزاره، فهو تنبيه على الموت والبعث، ثم بين سبحانه أن الناس سيعلمون سيعلمون، إما باختبار أو اضطرار. فعلم اليقين هو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حقائق الأمور بنفي الوهم والشك والظن، فلا يماري في صحتها، ولا يرتاب في ثبوتها، كعلم اليقين بالجنة والنار، وتيقنه أن الجنة دار المتقين، وفيها خلود المؤمنين، وأن النار دار المكذبين، وفيها خلود الكافرين والمشركين، وأن الرسل أخبروا عنها بلاغا عن ربهم، وأنهم بينوا للناس أمرها، فهذه الدرجة تسمى درجة علم اليقين.

- **خامسا: مرتبة عين اليقين.**

أما الدرجة الثانية فهي درجة عين اليقين، وهي درجة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ التكاثر:٧، وبين هذه الدرجة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وليس الخبر كالمعاينة .

لقد سأل الخليل إبراهيم ﷺ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؟ ليحصل له مع مرتبة علم اليقين عين اليقين وحق اليقين، فكان سؤال إبراهيم ﷺ زيادة لنفسه، وطمأنينة لحبه في قلبه، فيسكن القلب عند المعاينة بكمال قربه، ويوقن عند استجابة الحق له بكمال حبه في قلبه، فمن علامات المحبة الرغبة في النظر للمحبوب، وكذلك النظر في كمال أفعاله وجمالها، فكانت المحبة باعثا لموسى ﷺ في طلب رؤية الله، وكانت الخلة باعثا لإبراهيم ﷺ في طلبه من ربه أن يريه كيف يحي الموتى؟

قال تعالى عن نبيه موسى ﷺ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأعراف:١٤٣.

وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ البقرة:٢٦٠.

ومن وصل إلى هذا اليقين استلان ما يستوعره المترفون، وأنس مما يستوحش منه الجاهلون، ومن لم يثبت قدم يقينه على هذه الدرجة فهو ضعيف اليقين.

وعلامة اليقين انشراح الصدر بذكر الله، وطمأنينة القلب لأمر الله،

والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت وظلمة القبور [(١)].

وتلك الحالة التي كانت تحدث للصحابة الأخيار ﷺ إذا ذكرهم النبي ﷺ بالجنة أو النار، فقد روى الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبي عُثْمَان النَّهْدي عَنْ حنظله الأسَيِّدي ﷺ أنه قَال: (لقِينِي أَبو بكْرٍ الصديق فقَال: كَيفَ أَنْت يا حَنْظَلَةُ؟ قُلت: نَافَقَ حنظله. قَال سُبحَانَ الله مَا تقُول؟ قُلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا أبا بكر. نَكُونُ عِنْد رَسُول الله ﷺ يذكرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْي عَينٍ، فَإِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيعَات، فَنَسِينَا كَثيرًا. قَال أَبو بكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لنَلقَي مِثل هَذا. فَانْطَلَقْت أَنَا وَأَبو بكْرٍ حتى دخَلنَا على رَسُول الله ﷺ. قُلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسُول الله. فَقَال رَسُول الله ﷺ: وَمَا ذاكَ؟ قُلت: يا رَسُول الله نَكُونُ عِنْدكَ تذكرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْي عَينٍ، فَإِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيعَات نَسِينَا كَثيرًا. فَقَال رَسُول الله ﷺ: وَالذي نَفْسِي بيدهِ لوْ تدومُونَ على مَا تكُونُونَ عِنْدي وَفِي الذكْرِ، لصَافَحَتكُمُ المَلائِكَةُ على فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةَ) [(٢)].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٤٩ بتصرف.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة ٤/٢١٠٦ (٢٧٥٠)، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٦ (٢٥١٤)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٩٤٨).

ومعنى ساعة وساعة أي يتقلب في تلك الأوقات بين منازل اليقين، فتارة في علم اليقين ليتابع حياته في البيع والشراء، وابتلاء الله ﷻ له بالسراء والضراء، وتارة في عين اليقين ينظر إلى ملكوت السماوات، ويعتبر بما فيها من حكم وآيات، وتارة في الذكر والصلاة يشعر بلذة القرب في الطاعة والمناجاة.

وليس كما يفسرها بعض العوام فيقولون: ساعة لقلبك، وساعة لربك. ويقصدون بذلك التنوع بين ساعة للعصيان، وساعة للطاعة والإيمان، وهذا باطل؛ لأن اليقين يرفع مقام المؤمنين، فمن ثمراته أن القلب إذا استيقن ما أخبر الله ﷻ به من كرامة لأوليائه، ومهانة لأعدائه، نظر إلى ذلك كحقيقة مرئية من وراء حجاب، إذا زال ذلك الحجاب رأى تلك الحقائق عيانا، وعندها تزول عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون، ويلين له ما استوعره المترفون [١].

- **سادسا: مرتبة حق اليقين.**

وأما الدرجة الثالثة لليقين فهي مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام، فعلم اليقين كعلمك بوجود العسل، وعين اليقين رؤيتك له بالبصر، رؤية تحملق فيه العينان، وحق اليقين إحساسك بمذاقه على اللسان.

وقد روى النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث عائشة رضي

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٤٩ بتصرف .

الله عنها أن النبي ﷺ قال: (يا أُمَّةَ مُحَمَّد، وَاللهِ لوْ تعْلمُونَ مَا أَعْلمُ، لضَحِكْتمْ قَليلا، ولَبكَيتمْ كَثيرًا) [١].

وفي رواية: (وَمَا تلذذتمْ بالنِّسَاءِ على الفُرُشَات، وَلخَرَجْتمْ إلى الصُّعُدات تجْأَرُونَ إلى اللهِ) [٢].

وقد ذكر الله مرتبة حق اليقين في القرآن في سورتين من أسماء يوم القيامة، وهما الواقعة والحاقة، فقال في سورة الواقعة: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ الواقعة:٧٥/٧٦. قسم عظيم يعلم قدره المتخصصون في النجوم، فإنهم يقولون: إن ما نراه في السماء من نجوم هي في حقيقتها مواقع للنجوم. أما النجوم فقد ذهبت في مساراتها، وتحركت في مداراتها، فنظرا لعظم المسافات بيننا وبين وبينها فإننا لا نرى النجوم أبدا، ولكننا نرى مواقع مرت بها، فحينما ينبثق الضوء بسرعته من النجم إلى أن يصل إلينا يكون النجم قد تحرك من موقعه، وذهب عن موضعه، ليس هذا وفقط، بل إن الضوء كما

---

(١) رواه البخاري في الكسوف، باب الصدقة في الكسوف ٣٥٤/١ (٩٩٧)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف ٦١٨/٢ (٩٠١)، والنسائي في كتاب كسوف الشمس والقمر، باب نوع من صلاة الكسوف ٥٧١/١ (١٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢) جزء من حديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ١٤٠٢/٢ (٤١٩٠)، وأحمد في المسند ١٧٣/٥ (٢١٥٥٥) عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، وحسنه الألباني، انظر: المشكاة (٥٣٤٧)، والسلسلة الصحيحة (١٧٢٢).

ذكر العلماء ينحني في صفحة السماء، فحينما يصل إلينا منحنيا يراه البصر موقعا وهميا غير الموقع الحقيقي للنجم، ولذلك أقسم الله بالنجوم ليبين عجزنا، ويثبت صدق القرآن بأنواع البيان فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الواقعة:٧٩/٧٧.

قال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، أما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، قال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وليس هو كما يزعمون أنه سحر مبين، أو شعر على بحر متين، أو كهانة تنزلت بها الشياطين، بل هو الحق الذي أنزله رب العالمين.

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ الواقعة:٩٥/٨١.

وليس بعد مرتبة حق اليقين إلا الخشوع التام وتسبيح الموحدين الموقنين فقال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ الواقعة:٩٦.

وعلى المنهج ذاته في آيات سورة الواقعة جاءت آيات سورة الحاقة فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ الحاقة:٣٨/٥١.

- **منهج الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة.**

حقيقة الإسلام في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب كانت ممثلة في تصديق الصحابة ﷺ لخبر الله وتنفيذ أمره، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام.

وهذا المنهج يعتبر منهجا إيمانيا فطريا مبنيا على الفهم الدقيق لحقيقة الإسلام والإيمان، فهم كانوا ﷺ يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن. وكانوا ينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية .

ذلك المبدأ، أعني مبدأ تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، بعيدا عن الفلسفات العقلية والآراء الكلامية التي أحدثتها مختلف الفرق الإسلامية، هو غاية من جاء بعدهم، وسلك دربهم في مختلف العصور، مهما تنوعت كلماته، أو بدت اعتقاداته في توحيد الله ﷻ، والعمل بأحكامه.

كان المسلم في عصر خير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله؛ فإنه يكون قد عقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك

حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان.

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن أساس التوحيد والهداية التي منَّ الله ﷻ بها على عباده، يقوم على تصديق خبر الله ﷻ من غير اعتراض شبهة، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة، ثم يقول: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر) [1].

ولما كان الصحابة ﷺ هم أهل الفصاحة واللسان، وقد خاطبهم الله ﷻ بنوعي الكلام في القرآن؛ فإن منهجهم في مسائل التوحيد والإيمان هو تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، فلو أخبرهم الله عن شيء صدقوه تصديقا جازما يبلغ حد اليقين.

وهذا ما عرف لاحقا عند المتمسكين بمنهج السلف الصالح بتوحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو غير ذلك من مسميات واصطلاحات، تتنوع في دلالتها وتتكامل في بيان حقيقتها، ولا تتضارب في معانيها.

ولو أمر الرسول ﷺ صحابته ﷺ بشيء نفذوه تنفيذا كاملا بالقلب واللسان والجوارح. وهو ما عرف لاحقا بتوحيد العبادة، أو توحيد الإلوهية، أو توحيد القصد والطلب؛ لأن غاية التوحيد العظمى، وطريقة السلف المثلى، التي جاهدوا المخالفين لإلزامهم بها، أن يثبتوا لله ﷻ ما أثبته الله ﷻ لنفسه بتصديق خبره، وأن يطيعوا الله ﷻ فيما أمر به على

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٤٠.

لسان نبيه ﷺ .

وقد أجمع الصحابة ﷺ إجماعا سكوتيا دون مخالف، أن يصدقوا خبر ربهم وبلاغ نبيهم، وأن ينفذوا أمر معبودهم عن خضوع وتسليم، ومحبة وتعظيم، ولم يكن بينهم من دان بغير ذلك، ومن شك في ذلك فما قدرهم حق قدرهم، وما أدرك حقيقة إيمانهم وإسلامهم فرضي الله عن الصحابة أجمعين.

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله باب قال فيه: (باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآنا عربيا، بلسان عربي مبين) [١].

ويذكر أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ) أن حقيقة الإيمان والتوحيد تكمن في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر، لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب، والأمر والنهي كل واحد منهما، قول يتردد بين أن يطاع قائله وبين أن يعصي. فمن سمع خبرا واعتقد أنه حق وصدق به، فقد آمن به، ومن سمع أمرا أو نهيا فاعتقد الطاعة له، فكأنما آمن في نفسه به.. فالإيمان بالله ﷻ إثباته، والاعتراف بوجوده، والإيمان له، والقبول عنه، والطاعة له) [٢].

قال ابن تيمية: (وأما الدين فجماعه شيئان تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وصدقه، والمؤمن معه من

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب ١٩٠٦/٤.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٥/١ .

الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب. وأما طاعة الأمر فإن من كان ما يؤمر به صلاحا وعدلا ونافعا يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع، وهذا من الفرق بين الحق والباطل) [(١)].

• **موقف الصحابة من خبر الله ورسوله.**

روى البخاري من حديث أَبي سَعِيد الخدري ﷺ أَنَّ رَجُلا أَتى النَّبي ﷺ فَقَال: (أَخِي يشْتكِي بطْنَهُ؟ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتى الثانِيةَ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتاهُ الثالثةَ، فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتاهُ فقَال: قَد فعَلت، فَقَال: صَدقَ اللهُ، وَكَذب بطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلا، فَسقَاهُ فبرَأ) [(٢)] .

وفي رواية: (جَاءَ رَجُل إِلى النَّبي ﷺ فقَال: إِنَّ أَخِي اسْتطْلقَ بطْنُهُ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، فَسقَاهُ، فقَال: إِنِّي سَقَيتهُ فَلمْ يزِدهُ إِلا اسْتطْلاقًا، فَقَال: صَدقَ اللهُ وَكَذب بطْنُ أَخِيكَ) [(٣)].

والرسول ﷺ يعني التصديق بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾ النحل:٦٩.

بل كان رسول الله ﷺ يذكر في فضل أبي بكر وعمر رضي الله

---

(١) قاعدة في المحبة ص١٥٥.

(٢) رواه البخاري في الطب، باب الدواء بالعسل ٥/٢١٥٢ (٥٣٦٠).

(٣) السابق، باب دواء المبطون ٥/٢١٦١ (٥٣٨٦) .

عنهما أنهما يؤمنان بكل ما أخبر به النبي ﷺ ثقة منه فيهما، كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنه قال: (صَلى رَسُول اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبحِ، ثمَّ أَقْبل عَلى النَّاسِ فَقَال: بينَا رَجُل يسُوقُ بقَرَةً، إذ رَكِبهَا فَضرَبهَا، فَقَالت: إنَّا لمْ نُخْلقْ لهَذا، إنَّمَا خُلقْنَا للحَرْث. فَقَال النَّاسُ: سُبحَانَ اللهِ، بقَرَةٌ تكَلمُ؟ فَقَال: فَإنِّي أُومِنُ بهَذا، أَنَا وَأَبو بكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثمَّ؟ وَبينَمَا رَجُل فِي غَنَمِهِ إذ عَدا الذئْب، فَذهَب مِنْهَا بشَاةٍ، فَطَلَب حَتى كَأَنَّهُ اسْتنْقَذهَا مِنْهُ، فَقَال لهُ الذئْب: هَذا اسْتنْقَذتهَا مِنِّي، فَمَنْ لهَا يوْمَ السَّبعِ، يوْمَ لا رَاعِي لهَا غَيري، فَقَال النَّاسُ: سُبحَانَ اللهِ ذئْب يتكَلمُ؟ قَال: فَإنِّي أُومِنُ بهَذا أَنَا وَأَبو بكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثمَّ) [١].

وعند ابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: (إنَّ المَيت يصِيرُ إلى القَبرِ، فَيجْلسُ الرَّجُل الصَّالحُ فِي قَبرِهِ غَيرَ فَزِعٍ وَلا مَشْعُوفٍ، ثمَّ يقَال لهُ: فِيمَ كُنْت؟ فَيقُول: كُنْت فِي الإسْلامِ، فَيقَال لهُ: مَا هَذا الرَّجُل؟ فَيقُول: مُحَمَّد رَسُول اللهِ ﷺ، جَاءَنَا بالبينَات مِنْ عِنْد اللهِ فَصَدقْنَاهُ، فَيقَال لهُ: هَل رَأَيت اللهَ؟ فَيقُول: مَا ينْبغِي لأَحَد أَنْ يرَى اللهَ، فَيفْرَجُ لهُ فُرْجَةٌ قِبل النَّارِ، فَينْظُرُ إليهَا يحْطِمُ بعْضُهَا بعْضًا، فَيقَال لهُ: انْظُرْ إلى مَا وَقَاكَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ٤/١٨٥٧ (٢٣٨٨) .

اللهُ، ثمَّ يفْرَجُ لهُ قِبل الجنَّةِ، فَينْظُرُ إلى زَهْرَتها وَمَا فِيهَا، فيقَال لهُ: هَذا مَقْعَدكَ. وَيقَال لهُ: عَلى اليقِينِ كُنْت، وَعَليهِ مُت، وَعَليهِ تبعَث إنْ شَاءَ اللهُ. وَيجْلسُ الرَّجُل السُّوءُ فِي قَبرِهِ فَزعًا مَشْعُوفًا، فيقَال لهُ: فِيمَ كُنْت؟ فَيقُول لا أَدري، فيقَال لهُ: مَا هَذا الرَّجُل؟ فَيقُول: سَمِعْت النَّاسَ يقُولونَ قَوْلا فقُلتهُ، فَيفْرَجُ لهُ قِبل الجنَّةِ، فينْظُرُ إلى زَهْرَتهَا وَمَا فِيهَا، فَيقَال لهُ: انْظُرْ إلى مَا صَرَفَ اللهُ عَنْكَ، ثمَّ يفْرَجُ لهُ فُرْجَةٌ قِبل النَّارِ، فَينْظُرُ إِليهَا يحْطِمُ بعْضُهَا بعْضًا، فَيقَال لهُ: هَذا مَقْعَدكَ عَلى الشَّكّ كُنْت، وَعَليهِ مُت، وَعَليهِ تبعَث إِنْ شَاءَ اللهُ تعَالى) [1].

- **موقفهم الصحابة في باب الأمر والطلب.**

وكما صدق الصحابة ﷺ نبيهم في كل ما أخبرهم عن الله ﷻ، فآمنوا بتوحيد العلم والخبر، فإنهم أيضا أطاعوه في كل ما أمر، وكانوا يبايعونه على ذلك.

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث جَرِيرِ بنِ عَبد ِاللهِ ﷺ أنه قال: (بايعْت النَّبي ﷺ على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَلقَّنَنِي فقال: فِيمَا اسْتطَعْت، وَالنُّصْحِ لكُل مُسْلمٍ) [2].

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى ٢/١٤٢٦ (٤٢٦٨)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني، كتاب الإيمان، باب إثبات عذاب القبر (١٣٩).

(٢) رواه البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٤ (٦٧٧٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/٧٥ (٥٦).

وعنده من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (عَلى المَرْءِ المُسْلمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَب وَكَرِهَ، إِلا أَنْ يؤْمَرَ بمَعْصِيةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بمَعْصِيةٍ، فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ) (١).

وروى البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنه قال: (بايعْنَا رَسُول اللهِ ﷺ عَلى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي العُسْرِ وَاليسْرِ وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلى أَثرَةٍ عَلينَا، وَعَلى أَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلهُ، وَعَلى أَنْ نَقُول بالحَقِّ أَينَمَا كُنَّا، لا نَخَافُ فِي اللهِ لوْمَةَ لائِمٍ) (٢).

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في موقفه من طاعة الله ورسوله مع ما ألم به من الجوع وشدته، وأمر النبي ﷺ بدعوته أهل الصفة فقال ﷺ: (أَاللهِ الذي لا إِلهَ إِلا هُوَ إِنْ كُنْت لأَعْتمِد بكَبدي عَلى الأَرْضِ مِنْ الجُوعِ. وَإِنْ كُنْت لأَشُد الحَجَرَ عَلى بطْنِي مِنْ الجُوعِ. وَلقَد قَعَدت يوْمًا عَلى طَرِيقِهِمْ الذي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبو بكْرٍ، فَسَأَلتهُ عَنْ آيةٍ مِنْ كِتاب اللهِ، مَا سَأَلتهُ إِلا ليشْبعَنِي، فَمَرَّ وَلمْ يفْعَل، ثمَّ مَرَّ بي عُمَرُ، فَسَأَلتهُ عَنْ آيةٍ مِنْ كِتاب اللهِ، مَا سَأَلتهُ إِلا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٦/٢٦١٢ (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ (١٨٣٩) واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٣ (٦٧٧٤) ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٧٠(١٧٠٩).

ليشْبعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يفْعَل. ثَمَّ مَرَّ بي أَبو القَاسِمِ ﷺ، فَتبسَّمَ حِينَ رَآنِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي، ثمَّ قَال: يا أَبا هِرٍّ، قُلت: لبيكَ يا رَسُول اللهِ، قَال: الحَقْ، وَمَضَى فَتبعْتهُ، فَدخَل فَاسْتأْذنَ، فَأَذنَ لي، فَدخَل فَوَجَد لبنًا فِي قَدحٍ، فَقَال: مِنْ أَينَ هَذا اللبنُ؟ قَالوا: أَهْداهُ لكَ فُلانٌ أَوْ فُلانَةُ، قَال: أَبا هِرٍّ، قُلت: لبيكَ يا رَسُول اللهِ، قَال: الحَقْ إِلى أَهْل الصُّفَّةِ فَادعُهُمْ لي.

قَال: وَأَهْل الصُّفَّةِ أَضْيافُ الإِسْلامِ، لا يأْوُونَ إِلى أَهْل وَلا مَال، وَلا عَلى أَحَد، إِذا أَتتهُ صَدقَةٌ بعَث بهَا إِليهِمْ، وَلَمْ يتنَاوَل مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذا أَتتهُ هَديةٌ أَرْسَل إِليهِمْ، وأصاب مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا. فَسَاءَنِي ذلكَ فَقُلت: وَمَا هَذا اللبنُ فِي أَهْل الصُّفَّةِ، كُنْت أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيب مِنْ هَذا اللبنِ شَرْبَةً أَتقَوَّى بهَا، فَإِذا جَاءَ أَمَرَنِي، فَكُنْت أَنَا أُعْطِيهِمْ وَمَا عَسَى أَنْ يبلغَنِي مِنْ هَذا اللبنِ، وَلَمْ يكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولهِ ﷺ بد. فَأَتيتهُمْ فَدعَوْتهُمْ، فَأَقْبلوا، فَاسْتأْذنُوا، فَأَذنَ لهُمْ، وَأَخَذوا مَجَالسَهُمْ مِنْ البيت، قَال: يا أَبا هِرٍّ، قُلت: لبيكَ يا رَسُول اللهِ، قَال: خُذ فَأَعْطِهِمْ، قَال: فَأَخَذت القَدحَ، فَجَعَلت أُعْطِيهِ الرَّجُل فَيشْرَب حَتى يرْوَى، ثَمَّ يرُد عَلي القَدحَ فَأُعْطِيهِ الرَّجُل فَيشْرَب حَتى يرْوَى، ثَمَّ يرُد عَلي القَدحَ فَيشْرَب حَتى يرْوَى، ثَمَّ يرُد عَلي القَدحَ حَتى انْتهَيت إِلى النَّبي ﷺ وَقَد رَوِي القَوْمُ كُلهُمْ، فَأَخَذ القَدحَ فَوَضَعَهُ عَلى يدهِ، فَنَظَرَ إِلي فَتبسَّمَ، فَقَال: أَبا هِرٍّ، قُلت: لبيكَ يا رَسُول اللهِ، قَال: بقِيت أَنَا وَأَنْت، قُلت: صَدقْت يا رَسُول اللهِ، قَال:

اقْعُد فَاشْرَب، فَقَعَدت فَشَرِبت، فَقَال: اشْرَب فَشَرِبت، فَمَا زَال يقُول اشْرَب حَتى قُلت: لا وَالذي بعَثكَ بالحَقِّ، مَا أَجِد لهُ مَسْلكًا، قَال: فَأَرِنِي، فَأَعْطَيتهُ القَدحَ، فَحَمِد اللهَ وَسَمَّى وَشَرِب الفَضْلَةَ) (١).

وروي الإمام مالك عَنِ ابنِ أَبي مُليكَةَ أَنَّ عُمَرَ ﷺ مَرَّ بامْرَأَةٍ مَجْذومَةٍ وَهِي تطُوفُ بالبيت فَقَال لهَا: يا أَمَةَ اللهِ لا تؤْذي النَّاسَ، لوْ جَلسْت فِي بيتكِ فَجَلسَت؟ فَمَرَّ بهَا رَجُل بعْد ذلكَ فَقَال لهَا: إنَّ الذي كَانَ قَد نَهَاكِ قَد مَات، فَاخْرُجِي، فَقَالت: مَا كُنْت لأُطِيعَهُ حيا، وأَعْصِيه مَيتا (٢).

وقد بين جعفر بن أبي طالب ﷺ لملك الحبشة موقف الصحابة ﷺ مما جاء به النبي ﷺ من التوحيد، سواء في باب الأخبار، أو في باب الأوامر. فمن حديث أُم سَلمَةَ رضي الله عنها أن جَعْفر بن أَبي طَالب ﷺ كلم النجاشي فقال له:

(أَيهَا المَلكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْل جَاهِليةٍ، نَعْبد الأَصْنَامَ، وَنَأْكُل المَيتةَ، وَنَأْتي الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، يأْكُل القَوي مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا على ذلكَ حتى بعَث اللهُ إِلينَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبهُ، وَصِدقَهُ، وَأَمَانَته، وَعَفَافَهُ، فَدعَانَا إلى اللهِ لنُوَحِّدهُ وَنَعْبدهُ، وَنَخْلعَ مَا كُنَّا نَعْبد

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا ٥/٢٣٧٠ (٦٠٨٧).

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب جامع الحج ١/٤٢٤ (٩٥٠).

نَحْنُ وَآباؤُنَا مِنْ دونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثان، وَأَمَرَنَا بصِدق الحَديث، وَأَداءِ الأَمَانَةِ، وَصِلةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَار، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْل الزُّورِ، وَأَكْل مَال اليتيمِ، وَقَذفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبد اللّهَ وَحْدهُ، لا نُشْرِكُ بهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيام، وعَدد عَليهِ أُمُورَ الإِسْلام، فَصَدقْنَاهُ وَآمَنَّا بهِ، وَاتبعْنَاهُ على مَا جَاءَ بهِ، فَعَبدنَا اللّهَ وَحْدهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلينَا، وَأَحْللنَا مَا أَحَل لنَا، فَعَدا عَلينَا قَوْمُنَا، فَعَذبونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دينِنَا ليرُدونَا إلى عِبادةِ الأَوْثان مِنْ عِبادةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتحِل مَا كُنَّا نَسْتحِل مِنَ الخَبائِث، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلينَا، وَحَالوا بيننَا وَبينَ دينِنَا، خَرَجْنَا إلى بلدكَ، وَاخْتَرْنَاكَ على مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدكَ)[1].

وقول جعفر ﷺ فَصَدقْنَاهُ وَآمَنَّا بهِ وَاتبعْنَاهُ على مَا جَاءَ بهِ، يتبدي منه بوضوح ركنان، أحدهما يتعلق بتصديق الأخبار، والآخر يتعلق بالطاعة وتنفيذ الأمر.

وقد قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور:٦٣.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/٢٩٠ (٢٢٥٥١)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في فقه السيرة ص١١٥.

• الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان.

الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان وردت في حديث عمر ين الخطاب ﵁ حيث قال: (بينَمَا نَحْنُ عِنْد رَسُول اللهِ ﷺ ذات يوْمٍ، إذ طَلَعَ عَلينَا رَجُل، شَديد بياضِ الثياب، شَديد سَوَاد الشَّعَر، لاَ يرَى عَليهِ أَثرُ السَّفَرِ، وَلاَ يعْرِفُهُ مِنَّا أَحَد، حَتى جَلسَ إلى النَّبي ﷺ فَأَسْنَد رُكْبتيهِ إلى رُكْبتيهِ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلى فَخِذيهِ، وَقَال: يا مُحَمَّد أَخْبرْني عَنِ الإِسْلامِ؟ فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: الإِسْلاَمُ أَنْ تشْهَد أَنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُول اللهِ، وَتقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتؤْتىَ الزَّكَاةَ، وَتصُومَ رَمَضَانَ، وَتحُجَّ البيت إن اسْتطَعْت إليهِ سَبيلاً. قَال: صَدقْت. قَال: فَعَجِبنَا لهُ يسْأَلهُ وَيصَدقُهُ. قَال: فَأَخْبرْني عَنِ الإيمان؟ قَال: أَنْ تؤْمِنَ باللهِ وَمَلائِكتَهِ وَكُتبهِ وَرُسُلهِ وَاليوْمِ الآخِرِ وَتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، قَال جبريل: صَدقْت) [(١)].

هذه ستة أركان للإيمان تتعلق بتصديق الأخبار، وما جاء في القرآن والسنة عن عالم الغيب. وهي تمثل توحيد العلم والخبر، أو المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وقد أخبرنا الله في كثير من النصوص عن الأسماء والصفات التي عرفنا فيها بنفسه، وأبان لنا عن وصفه، وكل ذلك من الغيبيات التي تتطلب التصديق بشرط اليقين، وأخبرنا عن ملائكته وخلقتهم ووصفهم

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

وفعلهم، ودورهم الذي يتعلق بالإنسان، وذلك يتطلب منا الإيمان بهم، وكذلك أخبرنا عن كتبه ورسله، ما علمنا منهم وما لم نعلم، وليس لنا إلا الإيمان بهم والتصديق بوجودهم، وأخبرنا عن اليوم الأخر، وما فيه من أحوال وأهوال، وتلك الأخبار تتطلب التصديق أيضا، وأخبرنا عن القدر خيره وشره، وحلوه ومره، وأنه فعل الله للابتلاء وترتيب الجزاء، وهذه أخبار عن الله تتطلب التصديق وعلم اليقين.

وبنظرة عميقة نجد أن الترتيب النبوي لأركان الإيمان اشتمل على دور الإنسان في الحياة، وارتباطه بتقدير الله ﷻ، فالمعنى الموضوع بين أركان الإيمان، أن تؤمن بالله الذي أنزل ملائكته بكتبه على رسله ليحذروا العباد من اليوم الآخر، فإذا انتهى الناس بعد العرض والحساب، واستقروا في الآخرة للثواب والعقاب، عندها يكون المصير مطابقا لسابق التقدير الذي دون في أم الكتاب، قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. فأركان الإيمان في باب الأخبار أَنْ تؤْمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتهِ، وَكُتبهِ، وَرُسُلهِ، وَاليوْمِ الآخِرِ، وَتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّه، ولا يكون الإيمان بهذه الأركان إلا باليقين الذي لا شك فيه، وهو التصديق الجازم الذي لا تكذيب فيه.

- **الإيمان في باب الأمر له ثلاثة أركان:**

وكما أن الإيمان له في باب الأخبار ستة أركان، كذلك له ثلاثة أركان في باب الأوامر، وهي تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح، وهي تتعلق بتنفيذ الأمر وتحقيق المطلوب، والسعي في رضا

المحبوب، وهذا توحيد العبودية لله ﷻ، أو توحيد القصد والطلب.

قال ابن القيم: (رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة، واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح) [١].

وهذا الكلام من أدق وأشمل ما قيل في توحيد العبودية، لأن أركان الإيمان الأساسية باعتبار تنفيذ أحكام العبودية عند السلف ثلاثة أركان، وهي تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان [٢].

قال العلامة ابن منده (ت:٣٩٥هـ): (الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالأركان، يزيد وينقص) [٣].

وكل واحد من هذه الأركان يستقل بتنفيذ أحكام العبودية بأنواعها الخمسة التي تقدمت، وقد يشترك القلب مع اللسان فقط في تنفيذ حكم واحد، أو يشترك القلب مع الجوارح، أو يشترك القلب واللسان والجوارح جميعا في تحقيق أحكام العبودية.

والقصد أنه إذا تم هذا الإيمان بنوعيه المتعلقين بتصديق الخبر وتنفيذ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/١٠٩.

(٢) انظر الاستذكار لابن عبد البر ٣/١٠٤، والجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٨.

(٣) الإيمان لابن منده ١/٣٤١.

الأمر، ظهر كمال الدين وصدق اليقين، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: (اليقين الإيمان كله) (١).

من أجل ذلك أيضا كلف الله الإنسان بالتصديق الجازم لأركان الإيمان، وكل خبر ورد ذكره في القرآن، فقال الله تعالى في تقرير تلك المعان: ﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾ البقرة:١/٥.

- **اليقين المنافي للشك شرط من شروط لا إله إلا الله.**

يلزم كل من شهد ألا إله إلا الله أن يكون مستيقنا بمدلولها، قد أيقن بها في قلبه يقينا جازما ينفي الوهم والشك والظن.

كما قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ ﴾ الحجرات:١٥.

فاشترط في صدق إيمانهم بالله وسوله ﷺ ألا يرتابوا، أي لا يشكوا، فالمرتابون هم المنافقون الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ

---

(١) رواه الإمام البخاري معلقا في كتاب الإيمان ١/٧، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/١٢٣ (٩٧١٦).

يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ التوبة:٤٥.

قال ابن جرير في معنى قوله تعالى لم يرتابوا: (ثم لم يشكوا في وحدانية الله، ولا في نبوة نبيه ﷺ، وألزم نفسه طاعة الله وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليه من فرائض الله، بغير شك منه في وجوب ذلك عليه) [١].

روى البخاري في صحيحه من حديث أَسْمَاء بنت أبي بكر رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قَال: (أُوحِي إلي أَنَّكُمْ تفتْنُونَ فِي قُبورِكُمْ مِثل فِتنَةِ المَسِيحِ الدجَّال، يقَال للميت: مَا عِلمُكَ بهَذا الرَّجُل؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ أَوِ المُوقِنُ فَيقُول: هُوَ مُحَمَّد رَسُول الله، جَاءَنَا بالبينَات وَالهُدي، فَأَجَبنَا وَاتبعْنَا، هُوَ مُحَمَّد، ثلاثا، فَيقَال: نَمْ صَالحًا. قَد عَلمْنَا إنْ كُنْت لَمُوقِنًا بهِ، وَأَمَّا المُنَافِقُ أَوِ المُرْتاب فَيقُول: لا أَدرِي سَمِعْت النَّاسَ يقُولونَ شَيَئًا فَقُلتهُ) [٢].

وروى مسلم من حديث أبي هُرَيرَة ﷺ أنه قال: (كُنَّا قُعُودا حَوْل رَسُول الله ﷺ، مَعَنَا أَبو بكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ من الصحابة. فَقَامَ رَسُول الله ﷺ مِنْ بين أَظْهُرِنَا، فَأَبطَأَ عَلينَا وَخَشِينَا أَنْ يقْتطَعَ دونَنَا، وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا، فَكُنْت أَوَّل مَنْ فَزِعَ، فَخرَجْت أَبتغِي رَسُولَ الله ﷺ، حتى أَتيت حَائِطًا للأَنْصَارِ لبنِي النَّجَّارِ ، فَدرْت بهِ، هَل أَجِد لهُ بابا؟ فَلمْ أَجِد، فَإِذا

---

(١) تفسير الطبري ١١/٤٠٢.

(٢) البخاري في العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/٤٤ (٨٦).

رَبيعٌ يدخُل فِي جَوْفِ الحَائِطٍ مِنْ بئْرٍ خَارِجَةٍ [١]، فَاحْتفَزْت كَمَا يَحْتفِزُ الثعْلب. فَدخَلت على رَسُول الله ﷺ فَقَال: أبو هُرَيرَةَ؟ فقُلت: نَعَمْ يا رَسُول الله، قَال: مَا شَأْنكَ؟ قُلت: كُنْت بينَ أَظْهُرنَا، فقُمْت فأَبطَأْت عَلينَا، فَخَشِينَا أَنْ تقْتطَعَ دونَنَا، ففَزِعْنَا، فكُنْت أَوَّل مِنْ فَزِعَ، فَأَتيت هَذا الحَائِطَ فَاحْتفَزْت كَمَا يَحْتفِزُ الثعْلب، وَهَؤُلاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فقَال: يا أَبا هُرَيرَةَ، وأَعْطَانِي نَعْليهِ، قَال: اذهَب بنَعلي هَاتين، فَمَنْ لقِيت مِنْ وَرَاءِ هَذا الحَائطِ يشْهَد أَنْ لا إِلهَ إِلا الله مُسْتيقِنًا بهَا قَلبهُ فَبشِّرْهُ بالجَنَّةِ. فكَانَ أَوَّل مَنْ لقِيت عُمَر بن الخطاب، فقَال: مَا هَاتان النَّعْلان يا أَبا هُرَيرَةَ؟ فَقُلت: هَاتان نَعْلا رَسُول الله ﷺ بعَثنِي بهمَا، مَنْ لقِيت يشْهَد أَنْ لا إِلهَ إِلا الله مُسْتيقِنًا بهَا قَلبهُ بشَّرْتهُ بالجَنَّةِ، فَضَرَب عُمَرُ بيدهِ بينَ ثديي، فَخَرَرْت لإسْتي[٢]، فقَال: ارْجِعْ يا أَبا هُرَيرَةَ، فَرَجَعْت إلى رَسُول الله ﷺ فَأَجْهَشْت بكَاءً، ورَكِبنِي عُمَرُ [٣]، فَإِذا هُوَ على أَثرِي، فقَال لي رَسُول الله ﷺ: مَا لكَ يا أَبا هُرَيرَةَ؟

قُلت: لقِيت عُمَرَ فَأَخبَرْتهُ بالذي بعَثتنِي بهِ، فَضَرَب بينَ ثديي ضَرْبةً خَرَرْت لإسْتي، قَال: ارْجِعْ، فقَال لهُ رَسُول الله: يا عُمَرُ، مَا حَمَلكَ على مَا فَعَلت؟ قَال: يا رَسُول الله، بأَبي أَنْت وأُمِّي، أَبعَثت أَبا هُرَيرَةَ بنَعْليكَ، مَنْ لقِي يشْهَد أَنْ لا إِلهَ إِلا الله مُسْتيقِنًا بهَا قَلبهُ بشَّرَهُ بالجَنَّةِ؟

---

(١) الحائط هو السور المقام حول المزرعة ، والرَّبيع هو الجدول أو قناة الماء الصغيرة.

(٢) يعني وقع على مقعدته من شدة الدفع.

(٣) يعني تبعه عمر ﷺ في المسير وأدركه عند النبي ﷺ لحظة وصوله.

قَال: نَعَمْ، قَال: فَلا تفْعَل، فَإِنِّي أَخْشَي أَنْ يتكِل النَّاسُ عَليهَا، فَخَلهِمْ يعْمَلونَ، قَال رَسُول الله ﷺ: فَخَلهِمْ) (١).

والشاهد من الحديث أن من شهد بشهادة التوحيد عن يقين في قبله بأنه على استعداد لتصديق خبر الله وتنفيذ أمره دخل الجنة.

• **ما معنى الإيمان في حديث سفيان؟**

وقد كان إرشاد النبي ﷺ لأصحابه ﷺ يهدف إلى تأسيس عقيدة التسليم للوحي والإيمان به دون نزاع، وأن صلاحهم يكمن في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلت: يا رَسُول اللهِ، قُل لي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَل عَنْهُ أَحَدا بعْدكَ؟ وَفِى حَديث أَبى أُسَامَةَ، غَيرَكَ، قَال: قُل آمَنْت باللهِ فَاسْتقِمْ) (٢).

وأصل الاستقامة الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم. ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أخبار، والتسليم لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر؛ فإن التقصير في جانب سيؤدي إلى المبالغة أو الانحراف في جانب آخر.

---

(١) مسلم في الإيمان، باب أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١/٥٩ (٣١).

(٢) السابق، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨).

روى الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَطَّ لنَا رَسُول اللهِ ﷺ خَطّا ثمَّ قَال: هَذا سَبيل اللهِ، ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يمينِهِ وَعَنْ شِمَاله، ثمَّ قَال: هَذهِ سُبل عَلى كُل سَبيل مِنْهَا شَيطَانٌ يدعُو إليهِ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ الأنعام:١٥٣) [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الكلام في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات. والكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة، الدائر بين الإرادة والمحبة، وبين الكراهة والبغض، نفيا وإثباتا.

والإنسان يجد في نفسه الفرق بين النفي والإثبات، والتصديق والتكذيب، وبين الحب والبغض، والحض والمنع، حتى إن الفرق بين هذا النوع وبين النوع الآخر، معروف عند العامة والخاصة، ومعروف عند أصناف المتكلمين في العلم، كما ذكر ذلك الفقهاء في كتاب الأيْمان، وكما ذكره المقسمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان، فذكروا أن الكلام نوعان: خبر وإنشاء، والخبر دائر بين النفي والإثبات، والإنشاء أمر أو نهى أو إباحة.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤٣٥/١ (٤١٤٢)، والنسائي في سننه في كتاب التفسير، سورة الأنعام ٣٤٣/٦ (١١١٧٤)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٦٦).

وإذا كان كذلك، فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال، وينفى عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال، ولا بد له في أحكامه من أن يثبت خلقه وأمره، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل، وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له، وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل.

والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول، كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد، ودل على الآخر سورة قل يا أيها الكافرون، وهما سورتا الإخلاص، وبهما كان النبي ﷺ يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر، وركعتي الطواف، وغير ذلك) (١).

وقد ظل أمر السلف الصالح في القرون الفاضلة على نهج الوسطية والاعتدال والشمولية، يسيرون بفضل الله على درب نبيهم، يلتزمون بالسنة لا يقصرون فيها، ولا يهونون منها، ويحذرون من البدعة وينبهون على خطورتها.

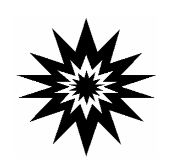
وقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ثم يبلغه ويبينه لهم، وهم يتلقونه بالقبول، ويفهمونه ويؤمنون به، ولم يعرف عن أحد منهم أنه تردد أو استشكل شيئا من ذلك.

---

(١) مقدمة الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٢٠.

قال عبد الله بن عباس ﷺ: (ما رأيت خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن، يسألونك عن المحيض. ويسألونك عن الشهر الحرام. ويسألونك عن اليتامى. ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم) (١).

وقد ظلت أمور العقيدة على هذا الحال، صافية نقية، وأبناء الأمة الإسلامية يؤدون حقيقة العبودية التي أرادها الله ﷻ منهم، يطبقون المناهج المثلى، والنظم العليا لقيادة الإنسان الذي استخلف الله ﷻ في أرضه واستأمنه في ملكه، حتى ظهر أثر الحاقدين في التشويش على عقيدة المؤمنين، وبرز فكر الجاهلين الذين يقدمون آراءهم وأهواءهم على كل نص قرآني أو حديث نبوي، فكان من أبرزهم في التاريخ الإسلامي، عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي أسهم في تفرق الأمة الإسلامية، وكان سببا مباشرا في ظهور الشيعة والخوارج، كأبرز فرقتين ضالتين بين الطوائف الإسلامية .



(١) تفسير ابن جرير الطبري ٣/٤٠.

المطلب الخامس

تاريخ المذهب العقلي وظهور الجهمية

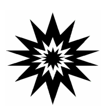
- بدعة الجهمية وظهور المدرسة العقلية.
- مناظرة الجهم بن صفوان للسمنية.



- الرد السلفي على شبهة السمنية.
- ظهور المعتزلة وقوة انتشار المدرسة العقلية.
- التوحيد الاعتزالي ستروا تحته تعطيل الصفات.
- العدل الاعتزالي ستروا تحته خلق العباد لأفعالهم.
- المنزلة بين المنزلتين وحكم مرتكب الكبيرة في الدنيا.
- إنفاذ الوعيد وحكم مرتكب الكبيرة في الآخرة.
- الشفاعة عند الله لها شروط لازمة.
- المعروف والمنكر والدعوة لأصول المعتزلة.
- كيف ظهرت البدعة الكبرى؟

المطلب الخامس

تاريخ المذهب العقلي وظهور الجهمية



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن منهج الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة، وبينا مراتب الناس في تصديق الخبر، سواء كانت لغير المسلمين، وهي الوهم والشك والظن، أو كانت للمسلمين، وهي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

وعلمنا بالدليل النقلي موقف الصحابة ﷺ من خبر الله ورسوله ﷺ، وأنهم كانوا يصدقونه تصديقا كاملا ينفي الوهم والشك والظن، وأن موقفهم في باب الأمر والطلب، أنهم كانوا ينفذونه تنفيذا كاملا، وكانوا يتقلبون في إيمانهم بين مراتب اليقين.

كما تحدثنا عن الإيمان، وأنه في باب الأخبار له ستة أركان، وفي باب الأمر له ثلاثة أركان، وأن اليقين المنافي للشك شرط من شروط كلمة التوحيد والإيمان، ثم بينا معنى الإيمان في حديث سفيان؟

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتناول الحديث عن تاريخ المذهب العقلي

في الإسلام، وكيف ظهرت بدعة الجهمية، وأثرت في ظهور الفرق والتنازع بين الطوائف الإسلامية؟ وذلك من خلال المحاور التالية:

- **بدعة الجهمية وظهور المدرسة العقلية**

أساس البلاء والشقاء، وحامل لواء مقدمي العقل والآراء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، رجل يدعى الجهم بن صفوان الخرساني الذي توفى في نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري [1].

وكان الجهم (ت:١٢٨هـ) متحذلقا كثير الكلام والجدال، ولم يكن له علم، ولا مجالسة لأهل العلم، بل كلامه وجداله أساسه التفلسف في الرأي، والسفسطة بالهوى. ويذكر العلماء أن الجهم بن صفوان استمد فكره من طريقين:

أحدهما: طريق يهودي.

والآخر: طريق وثني.

---

(١) انظر ترجمته في أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي ص٢٣٠. وإثبات صفة العلو لابن قدامة ص١٣١. وإيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لمحمد القاسمي ص٢٨٩. والتحفة المدنية في العقيدة السلفية لحمد آل معمر ص١٦٦. والرد على القائلين بوحدة الوجود لعلي الحنفي ص٣٠. والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/١٠٥. وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٣. ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري ص٥٤٢. والبداية والنهاية لابن كثير ٩/٣٥٠.

فقد تربّى الجهم بن صفوان على يد أستاذه الجعد بن درهم، وهو رجل من المنكرين لأوصاف الله بحجة نفي التشبيه والتجسيم، أخذ جل أفكاره وآراءه عن أبان بن سمعان، الذي كان تلميذا لطالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وهو الساحر اليهودي الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة.

قال ابن تيمية: (أصل مقالة التعطيل للصفات، إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين، فان أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام، أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى استولى، ونحو ذلك، هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه. وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي، الساحر الذي سحر النبي ﷺ. وكان الجعد بن درهم هذا فيما قيل: من أهل حران. وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة، بقايا أهل دين نمرود والكنعانيين، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم) [1].

وقد تجلى حقد اليهود بعد هزيمتهم، والقضاء عليهم، في إقدامهم على إيذاء النبي ﷺ بسحرهم، وطرقهم المعهودة في الغدر، والوقيعة بين

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٢٠.

أبناء الأمة حتى حدثت الفتنة التي قتل فيها الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ .

روى الإمام البخاري من حديث عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا أنها قَالتْ: (سَحَرَ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُل مِنْ بَنِي زُرَيْق، يُقَال لهُ لبِيدُ بْنُ الأعْصَم، حتى كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يُخيَّل إِليْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَل الشَّيْءَ، وَمَا فَعَلهُ، حتى إِذا كَانَ ذاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذاتَ ليْلةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثمَّ قَال: يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ الله أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلان، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْليَّ، فَقَال أَحَدُهُمَا لصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُل؟ فَقَال: مَطْبُوبٌ، قَال: مَنْ طَبَّهُ؟ قَال: لبِيدُ بْنُ الأَعْصَم، قَال: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَال: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلعِ نَخْلةٍ ذكَرٍ، قَال: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَال: فِي بِئْرِ ذرْوَانَ، فَأَتَاهَا رَسُول اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَال: يَا عَائِشَةُ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَال: قَدْ عَافَانِي اللهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثوِّرَ على النَّاسِ فِيهِ شَرًّا، فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ) (١).

وقول عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، تقصد الجماع وتأثره في قدرته على المعاشرة حيث

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب السحر ٥/٢١٧٤ (٥٤٣٠)، ومسلم في كتاب السلام، باب السحر ٤/١٧١٩ (٢١٨٩).

يظن النبي ﷺ أنه على جنابة والأمر ليس كذلك. وفي رواية أخرى عند البخاري: (فَقُلتُ: اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَال: لا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذلكَ على النَّاسِ شَرًّا، ثُمَّ دُفِنَتِ البِئْرُ) [١].

ذلك السحر إنما صدر عن حقد يهودي، امتد ليفرق كلمة الأمة بظهور عبد الله بن سبأ اليهودي، ثم امتد ليصل إلى الجعد بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان، فعقائد الجهم ونظرياته إنما هي تشكيك في العقيدة، واعتراض على الوحي، استقاها من أسس يهودية بعيدة كل البعد عن منهج الصحابة في العقيدة الإسلامية.

- **مناظرة الجهم بن صفوان للسمنية.**

وأما الطريق الثاني الذي استمد منه الجهم بن صفوان فكره فهو طريق وثني، ظهر إثر احتكاكه بالمشركين، فالجهم لقي أناسا من المشركين، يقال لهم السمنية، نسبة إلى قرية بالهند تسمى سُومَنَات. وهي فرقة تعبد الأصنام، وتقول بتناسخ الأرواح، وتنكر الوحي والدين، جرت بينهم وبين الجهم مناظرة عقلية.

لما عرفوا الجهم قالوا له: نكلمك ونناظرك، فإن ظهرت حجتنا عليك، دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا، دخلنا في دينك، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألست تزعم أن لك إلها؟ قال الجهم: نعم. قالوا له: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سمعت

---

(١) رواه البخاري في بدأ الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٢ (٣٠٩٥).

كلامه؟ قال: لا. قالوا: فهل شممت له رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له حسا؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ فتحير الجهم، فلم يدر من يعبد أربعين يوما [(١)].

وقد استدرك الجهم بن صفوان حجة كحجة النصارى، الذين يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو الله، وأن الله يحل فيه، فإذا أراد الله أمرا، دخل في عيسى فتكلم على لسانه، فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار، فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، وقال لمن ناظره من السمنية: ألست تزعم أن فيك روحا؟

قال السمني: نعم، فقال له: هل رأيت روحك؟ قال: لا. قال: فسمعت كلامها؟ قال: لا، قال: فوجدت لها حسا؟ قال: لا. قال: فكذلك الله لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، وهو في كل مكان، فالمخلوقات بمثابة الجسد، والله ﷻ في داخلها بمثابة الروح [(٢)].

شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوما، وقال: لا أصلي لمن لا أعرفه. ثم اشتق هذا الكلام، فأنكر عليه الوالي فقال: إذا ثبت

---

(١) انظر الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل (١/١٩) نشر المطبعة السلفية، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٣١٨)، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/٢١٨)، ودرء التعارض لابن تيمية (٢/٤٠٩).

(٢) السابق ١/١٩.

عندي من أعبده صليت له، فضرب عنقه [١].

قال أبو معاذ البلخي: (كان جهم على معبر ترمذ ـ بلد من نواحي إيران ـ وكان رجلا كوفي الأصل، فصيح اللسان، لم يكن له علم، ولا مجالسه لأهل العلم، وكان قد تناقل كلام المتكلمين، وكلمه السمنية، فقالوا له: صف لنا ربك الذي تعبده؟ فدخل البيت لا يخرج كذا وكذا، ثم خرج عليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء، مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء) [٢].

• الرد السلفي على شبهة السمنية.

وكان يكفي الجهم بن صفوان في الرد على السمنية أن يقول: إن الله يُرى في الآخرة، ولا يُرى في الدنيا؛ لأنه اختبرنا فيها، وابتلانا بها فاستخلفنا في أرضه، واستأمننا في ملكه، فلو رأيناه، أو رأينا ملائكته، أو رأينا جنته أو عذابه دون حجاب، لما كان لقيام السماوات والأرض بهذه الكيفية، أو بهذا الوضع الذي فطرنا عليه أي معنى يذكر، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملك:٢.

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي (١١/١٦١) نشر دار إحياء التراث، بيروت.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي ٣/٣٨٠ (٦٣٥) نشر دار طيبة، والعلو للعلي الغفار للذهبي (١/١٥٥) نشر مكتبة دار السلف بالرياض، والأسماء والصفات للبيهقي (٢/٣٣٧)، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة ص٣٤ نشر دار السلام.

وقال تعالى أيضا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ إبراهيم:١٩، فكيف يتحقق معنى الابتلاء أو الإيمان بالله ونحن نراه؟

وإذا كان الله ﷻ لا يرى في الدنيا ابتلاءا، فإنه يرى في الآخرة جزاء وإكراما لأهل طاعته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة:٢٢/٢٣، وقد تواترت الأحاديث النبوية الصحيحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

ومن ثم فإن العلة في عدم إدراك الكيفية ليست عدم وجودها ولا استحالة رؤية الله ﷻ، ولكن العلة قصور الجهاز الإدراكي البشري في الحياة الدنيا عن إدراك حقائق الغيب، فقد خلق الله الإنسان بمدارك محدودة لتحقيق علة معينة تمثلت في حقيقة الابتلاء كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ الإنسان:٢.

وما يعنينا الآن أنه بهذا الفكر العقلي الخبيث الذي زعم به الجهم بن صفوان أن الله ﷻ حل في مخلوقاته، وهو بذاته في كل مكان، نظر في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما توهم بظنه السيئ أنه يوافق رأيه من النصوص احتج بها، وما توهم أنه يخالف مذهبه منها، أنكرها وعطلها عن مدلولها، وإن كانت تلك النصوص من السنة الصحيحة فالويل لها منه، فقد اتهمها بأنها أمور ظنية وآحاد مروية لا تدل على اعتقاد، فوجد قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد:٤. فأخذه حجة لرأيه في الحلول والاتحاد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ الأنعام:١٠٣. فبنى عليه نفي صفات الله وتعطيلها.

ووجد قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾ طه:٥. وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ المعارج:٤. يخالف ما ذهب إليه من القول بالحلول. ماذا صنع الجهم بتلك النصوص؟

قال أبو نعيم البلخي وكان قد أدرك جهما: (كان للجهم صاحب يكرمه ويقدمه على غيره، فإذا هو قد هجره وخاصمه، فقلت له: لقد كان يكرمك، فقال: إنه جاء منه ما لا يتحمل، بينما هو يقرأ سورة طه والمصحف في حجره، إذ أتى على هذه الآية : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾ طه:٥. قال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت، فاحتملت هذه. ثم إنه بينما يقرأ آية أخرى إذ قال: ما أظرف محمدا حين قالها. ثم بينما هو يقرأ القصص والمصحف في حجره، إذ مر بذكر موسى عليه السلام فدفع المصحف بيديه ورجليه، وقال: أي شيء هذا؟ ذكره هنا فلم يتم ذكره، وذكره هنا فلم يتم ذكره!) [(١)].

(١) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١/١٦٧ (١٩٠) نشر دار ابن القيم بالدمام، وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت، والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص١٥٤.

وقد أخذ الجهم بن صفوان كما ذكرنا مقالة التعطيل عن أستاذه الجعد بن درهم، الذي قال بنفي أوصاف الله ﷻ، وعطل الآيات عن مدلولها وقال بخلق القرآن.

قال أبو القاسم اللالكائي: (ولا خلاف بين الأمة، أن أول من قال القرآن مخلوق، جعد بن درهم، ثم جهم بن صفوان) [١].

والجهم بن صفوان إليه تنسب طائفة الجهمية، وهم الذين قالوا لا قدرة للعبد أصلا، بل هو بمنزلة الجمادات، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما، حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى.

وقال أبو الحسن الأشعري: (قول الجهمية الذي تفرد به جهم، القول بأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودارت السفينة، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والسفينة والشمس الله سبحانه وتعالى، وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [٢].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٣١٢.

(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص ٢٧٩، نشر دار إحياء التراث العربي، وانظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/٤١٩، وإيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة ص٣٤.

وكان جهم يقف على الجذامى ويشاهد ما هم فيهم من البلايا ويقول: (أرحم الراحمين يفعل مثل هذا) [١]. وهو يعني أنه ليس هناك رحمة في الحقيقة، ولا حكمة، وأن الأمر راجع إلى الجبر، وإلى محض المشيئة الخالية عن الحكمة والرحمة.

وقد قتل الجعد بن درهم حدا لكفره الصريح بآيات الله وتكذيبها، فقد قتله خالد بن عبد الله القسري أمير بلاده في يوم عيد الأضحى، بعد أن استفتى علماء زمانه، حيث خطب الناس وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم؛ فإنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسي تكليما، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بعد أن استفتى علماء زمانه من السلف الصالح [٢].

ويذكر الذهبي: (أن الجعد بن درهم هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا، ولا كلم موسى تكليما، وأن ذلك لا يجوز على الله. قال المدائني: كان زنديقا. وقال له وهب: إني لأظنك من

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٨/٤٦٠، ومنهاج السنة النبوية ٣/٣٢، نشر مؤسسة قرطبة، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ٢/١٧٧.

(٢) ذكر ذلك اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٣١٩. والدارمي في الرد على الجهمية ١/٢٠٩، نشر دار ابن الأثير، الكويت. والبخاري في خلق أفعال العباد ١/٢٩. وانظر العلو للعلي الغفار للذهبي ١/١٣١. وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات للكرمي ص٧٧. وسير أعلام النبلاء للذهبي ٥/٤٣٢.

الهالكين، لو لم يخبرنا الله أن له يدا، وأن له عينا، ما قلنا ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن قتل وصلب) [١].

أما الجهم بن صفوان انتقل إلى ترمذ أحد البلدان في إيران، وبدأ الدعوة لمذهبه، فانتشرت فيها عقائد الإنكار والتعطيل لكلام الله. ثم وجد لدعوته أتباعا ومريدين من العامة والدهماء في مدن أخرى من مدن إيران. ثم انتشرت أفكاره في بغداد وبقية البلدان. فالجهمية فرقة ظهرت في أواخر الحكم الأموي، ومؤسسها الجهم بن صفوان الترمذي السمرقندي. وقد مات مقتولا، قتله سالم بن الأحوز في آخر أيام الدولة الأموية [٢].

وقد تفرعت من فرقة الجهمية فرق عديدة، انقسمت إلى أكثر من عشر فرق، كل فرقة اتخذت لنفسها مسلكا فكريا خاصا، وعقيدة مستقلة، لكن أبرز عقائد الجهمية، هي القول بنفي صفات الله ﷻ، وأن الإنسان لا يقدر على شيء، وهو مجبور مسير، مقهور في فعله، لا يوصف بالاستطاعة والقدرة، وأن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو معرفة الله حتى لو كفر الإنسان باللسان، وقالوا أيضا: بأن القرآن مخلوق [٣].

---

(١) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي ٣٣٨/٧،نشر دار الكتاب العربي، بيروت،

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي ١٦٠/١١. وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٣/٥، الملل والنحل للشهرستاني ٢٠/١.

(٣) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية لطاهر الإسفراييني ص١٠٧ :١٠٨.

والقصد مما سبق أن الجهم بن صفوان زعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ فهو مشبه، وأن التوحيد يكمن في نفي هذه الصفات، متمسكا في زعمه كسائر أتباعه الجهمية من المعتزلة والأشعرية بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١. سواء كان النفي نفيا واضحا، أو كان بتأويل القرآن على غير معناه، ولي أعناق النصوص بغير ما تحتمل، فزعم الجهم أن الله في كل مكان كما الروح في الجسد.

وهذا كلام باطل من جميع الوجوه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحل في مخلوقاته، فقد ثبت أنه بذاته في السماء فوق العرش، وعرشه فوق الماء، والماء فوق السماء السابعة، وهو سبحانه في سمائه يدبر أمر مخلوقاته، ويعلم ما هم عليه.

قال أبو عمر الطلمنكي: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد:٤. ونحو ذلك من القرآن أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء. وقال أهل السنة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز) [1].

وقال أبو زرعة الرازي: (إن الله ﷻ على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ بلا كيف، أحاط بكل

---

(١) انظر العلو للعلي الغفار ص٢٤٦، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٢١٩.

شيء علما، وإنه تبارك وتعالى يرى في الآخرة، يراه أهل الجنة بأبصارهم ويسمعون كلامه، كيف شاء، وكما شاء) [١].

وقال أبو نعيم الأصبهاني: (طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة. ثم قال: فما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش، واستواء الله يقولون بها، ويثبتونها من غير تمثيل، ولا تشبيه ولا تكييف، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم، ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمائه، دون أرضه وخلقه .. وقال أيضا: وأجمعوا أن الله فوق سماواته، عال على عرشه مستو عليه، لا مستول عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان، خلافا لما نزل في كتابه) [٢].

وقال أبو الحسن الأشعري في قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الملك:١٦. في الجمع بين الاستواء وكونه في السماء : (السماوات فوقها العرش، ولما كان العرش فوق السماوات، قال أأمنتم من في السماء لأنه على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني جميع السماوات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات) [٣].

---

(١) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٤٥، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٥/٦٠، والعلو للعلي الغفار للذهبي ص٢٤٣. والصواعق المرسلة لابن القيم ٤/١٢٨٦.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص١٠٥.

وقال يحي بن معاذ الرازي: (إن الله على العرش بائن من خلقه، قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، لا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء، أو هالك مرتاب، يمزج الله بخلقه، ويخلط منه الذات بالأقذار والأنتان) [1].

وقد أضل الجهم بن صفوان خلقا كثيرا، وتبعه على قوله رجل يقال له واصل بن عطاء. وآخر يقال له عمرو بن عبيد، وإليهما ينسب مذهب المعتزلة، فما هي قصة المعتزلة؟ وكيف نشأت؟ وما أصولهم في العقيدة؟ وكيف دعوا الناس إلى القول بخلق القرآن؟ وكيف امتحنوا أئمة أهل السنة، وقتلوا كثيرا من أهل الإيمان؟

- **ظهور المعتزلة وقوة انتشار المدرسة العقلية.**

علمنا مما سبق أن الجهم بن صفوان قدم عقله ورأيه على الأدلة القرآنية والنبوية، عندما أجاب السمنية بجهله إجابة خاطئة كاذبة، وزعم أن الله بذاته في كل مكان، وأنه لا صفة له حتى لا يشبه الإنسان، ثم نظر هذا المفتون إلى نصوص القرآن، فما تصور أنه يوافق مذهبه جعله حجة وبرهانا كدليل ثان، وما خالفه صرح برده وتعطيل نصه من القرآن.

وقد تبنى فكر الجهمية واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وإليهما

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٤٩، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٧٠. والعلو للعلي الغفار للذهبي ص١٩٠.

ينسب مذهب الاعتزال، فالمعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء الغزال (ت: ١٣١هـ) الذي كان تلميذا للحسن البصري. وكان متكلما مفوها بليغا، على الرغم من كونه كان عاجزا عن النطق ببعض الحروف، فكان ينطق الراء غينا. فينطق: شراب بارد، شغاب باغد.

ومن عجيب ما كان من واصل بن عطاء الغزال، أنه كان يخلص كلامه وينقيه من حرف الراء، لقدرته العجيبة على انتقاء الكلام حتى قال أحد الشعراء من أتباعه يمدحه:

عليم بإبدال الحروف وقامع:
لكل خطيب يقلب الحق باطله [١].

وقال آخر:

ويجعل البر قمحا في تصرفه:
وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يُطِقْ مطرا والقَول يَعْجُله:
فعاذ بالغيث إشفاقا من المطر [٢].

كان واصل بن عطاء ضمن الطلاب في حلقة شيخه الحسن البصري، وهو من علماء السلف الصالح، فجاء إلى الحلقة رجل من

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان ٦/٧، وانظر معجم الأدباء لياقوت الحموي (٥/٥٦٨)، والكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد (٣/١٤٣).

(٢) السابق ٦/٨، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/٤٦٤، والكامل في اللغة ٣/١٤٣.

عامة المسلمين يسأل عن الحكم الشرعي في مرتكب الكبيرة؟

ومعلوم أن أهل السنة والجماعة يقولون بأن مرتكب الكبيرة مسلم فاسق، لا يخرج عن الملة. والخوارج يقولون: مرتكب الكبيرة كافر بالله العظيم مخلد في النار، وقبل أن يجيب الشيخ البصري قام واصل بن عطاء دون أدب ولا حياء، وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا هو مؤمن ولا هو كافر، هو في منزلة بين المنزلتين [١].

أجاب واصل بن عطاء بعقله دون احترام لشيخه، ودون علم أو نظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، عند ذلك رده الحسن البصري وبين حكم مرتكب الكبيرة. وبدلا من أن يرجع إلى شيخه ويعتذر عن سوء أدبه أخذته العزة بالإثم، واعتزل الحسن البصري، وجلس إلى سارية من سواري المسجد في البصرة، وانضم إليه بعد ذلك رجل آخر يقال له عمرو بن عبيد، واجتمع إلى واصل بن عطاء أراذل الناس من أتباع الجهم بن صفوان، فكان الحسن البصري يقول: اعتزلنا واصل، اعتزلنا واصل، وكان بقية طلاب العلم من تلاميذ الحسن البصري يطلقون عليهم المعتزلة، فارتسم عليهم هذا الاصطلاح عند عامة المسلمين [٢].

وكان هؤلاء المعتزلة يدعون الزهد والصلاح، والنصح والإصلاح، وكان لهم صلة بالحكام في الدولة العباسية. تلك الصحبة أو الصداقة بين

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/٤٦، والنجوم الزاهرة ١/٣١٤ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ١/١٥٩ بتصرف.

رؤوس المعتزلة والخلفاء من بني العباس، أثارت حفيظتهم في الحث على الأخذ بمشورتهم والعمل بنصيحتهم في التزام مذهبهم. وقد أدت هذه الثقة إلى بدعة كبرى وطامة عظمى مرت بالأمة الإسلامية وعصفت بها في القرن الثالث الهجري، ولا زالت تعاني من آثارها حتى الآن.

وقد أسس المعتزلة مذهبهم على خمسة أصول رنانة، وشعارات فتانة، اغتر بها كثير من المسلمين في الماضي وكثير من العلمانيين في الحاضر، وكل أصل من أصولهم ستروا تحته من أصلا من أصول البدعة، يمكن اختصار ذلك فيما يلي:

- **التوحيد الأصل الأول وستروا تحته تعطيل الصفات.**

الأصل الأول من أصولهم الخمسة التوحيد وستروا تحته تعطيل الصفات، فقد زعموا فيه أنهم أهل التوحيد وخاصتُه، والمنزهون لربهم عن التشبيه، وخلاصة رأيهم في التوحيد أن الله تعالى لا صفة له؛ لأنه منزه عن الشبيه والمثيل كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١، وهذا توحيد يناقض الفطرة، ولا ينطلي إلا على أذهان السفهاء، بل هو توحيد يسخر منه جميع العقلاء، فهل يصح أن تقول مثلا، ولله المثل الأعلى: الأمير لا نظير له أبد، فيقال لك في ماذا؟ أو ما الذي انفرد به؟ فتقول: ولا شيء، أو لا صفة له أصلا.

ولا نظن أن عاقلا سوف يقبل ذلك على نفسه فضلا عن ربه،

فالعقلاء يمدحون غيرهم بإثبات الصفات التي تليق بهم. والموحدون لله حقا يحمدون ربهم بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا. أما توحيد المعتزلة فتوحيد معكوس، يزعمون فيه أنهم يمدحون ربهم وهم في حقيقة أمرهم يذمونه ويصفونه بصفات النقائص التي لا يرضاه عاقل لنفسه، وقد أداهم توحيدهم هذا إلى القول بنفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، والقول بخلق القرآن، وزعموا أنه مخلوق كسائر المخلوقات [1].

- **العدل الأصل الثاني وستروا تحته خلق العباد لأفعالهم.**

ومعناه على رأيهم الباطل أن الله لا يخلق أفعال العباد لو كانت شرا، فعطلوا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات:٩٦. وستروا تحت شعار العدل هذا نفي التقدير وعلم المقادير، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم عذبهم عليه، كان ذلك جورا وظلما، والله تعالى لا يظلم ولا يجور.

وقد يفتن العامة بأصلهم هذا كما فعل العلمانيون والماديون الذين لا يؤمنون بالتقدير وجريان المقادير، أو كما هو منتشر بين العامة من العبارات التي يرددها الفاسقون، كقول بعضهم: قدر أحمق الخطى سحقت هامتي خطاه. وهذه الكلمة كفيلة وحدها بإخراج قائلها من

---

(١) انظر المزيد عن هذا الأصل في التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين المالطي ص٣٧، نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

ملة الإسلام، إن كان يدرك معناها ويفهم لوازمها.

وعقيدة أهل السنة والجماعة هي الإيمان بعموم المشيئة الإلهية، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ الإنسان:٣٠. وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير:٢٩. وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ الأنعام:١١١. وقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ الكهف:٢٣/٢٤.

وهذا الأصل الفاسد الذي رفعوا فيه شعار العدل، يلزمهم فيه أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه سبحانه بالعجز في مقابل وصفهم بالمشيئة والحرية، ونفي كونها مشيئة محدودة ومقيدة بالاختيار بين طريقين، طريق الخير أو الشر، أو طريق الإيمان أو الكفر، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ الإنسان:٢/٣.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ التغابن:٢.

- **المنزلة بين المنزلتين وفيه حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا.**

الأصل الثالث من أصول المعتزلة هو ما يعرف بالمنزلة بين المنزلتين، ويقصدون به أن مرتكب الكبيرة في الدنيا في منزلة بين الإيمان والكفر، خرج من الإيمان، ولم يدخل الكفر، فليس بمؤمن ولا كافر. وقد قرر ذلك الأصل واصل بن عطاء رأس المعتزلة لما رد على السائل في حلقة الشيخ الحسن البصري.

أما حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة فهم يتفقون في ذلك مع الخوارج حيث يقولون بأنه مخلد في النار، ولا يخرج منها أبدا، ولا تجوز فيه شفاعة النبي ﷺ. والفرق بين المذهبين أن الخوارج يقولون بأن مرتكب الكبيرة في الدنيا كافر خارج من الملة، والمعتزلة يقولون هو في منزلة بين المنزلتين، أو بين الإيمان والكفر [١].

وقول أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة أنهم لا يحكمون على عليه بالكفر، بل هو مسلم فاسق، ولا يكفرون أحدا بذنب ما لم يستحله، ويقولون إن مرتكب الكبيرة مثل الزنا والسرقة وغير ذلك من الكبائر، تحت المشيئة يوم القيامة، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه .

والدليل على أن الكبيرة لا تُخرج صاحبها من الإيمان قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ

---

(١) انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٣٧ بتصرف.

بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ النساء:١١٦.

قال أبو الحسن الأشعري: (وأجمعوا على أن المؤمن بالله تعالى وسائر ما دعا إليه النبي ﷺ، أن الإيمان به لا يخرجه عنه شيء من المعاصي، ولا يحبط إيمانه إلا الكفر، وأن العصاة من أهل القبلة مأمورون بسائر الشرائع، غير خارجين عن الإيمان) [1].

قال أبو عثمان الصابوني: (ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبا كثيرة، صغائر كانت، أو كبائر، فإنه لا يكفر بها. وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله ﷻ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالما غانما غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب واكتسبه، ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار) [2].

قال أبو بكر الإسماعيلي: (ويقولون: إن أحدا من أهل التوحيد، ومن يصلي إلى قبلة المسلمين، لو ارتكب ذنبا، أو ذنوبا كثيرة، صغائر أو كبائر، مع الإقامة على التوحيد لله، والإقرار بما التزمه وقبله عن الله ؛ فإنه لا يكفر به، ويرجون له المغفرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ

---

(١) رسالة أهل الثغر ص٩٤.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٧١ : ص٧٢.

أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾النساء:١١٦) [(١)].

• **إنفاذ الوعيد وفيه حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة.**

الأصل الرابع من أصول المعتزلة إنفاذ الوعيد، ويقصدون به حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة، ويعني عندهم أن الله ﷻ يجب عليه أن يعاقب مرتكب الكبيرة من المسلمين، ويخلده في النار أبد الآبدين، ولا يجوز أن يخرجه من النار بشفاعة أحد من المؤمنين، حتى لو كان الشافع هو سيد الأنبياء والمرسلين. وهم يشبهون الخوارج في قولهم: إذا توعد الله بعض عبيده وعيدا، فلا يجوز ألا يعذبهم، أو يخلف وعيده. وكأنه سبحانه مقيد لا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يشاء، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [(٢)].

وأصل ضلالهم أنهم يقيسون الله ﷻ على خلقه أولا، ثم يعطلون أوصاف الله وأفعاله ثانيا، وهذا ما فعلوه في أحكام الشفاعة طبقوا نظام البشر فيها على الله، وشتان بين الشفاعة عند الناس، والشفاعة عند الله، فالشفاعة في الدنيا، قد يؤثر فيها الشافع على من يشفع عنده لعدة أسباب:

١- منها صلة القربى بين الشافع والمشفوع فيه؛ فالإنسان يشفع لأخيه وبنيه، أو لأمه وأبيه، حتى يتغاضى المشفوع عنده عن خطأه

---

(١) اعتقاد أئمة أهل الحديث ص ٦٤.

(٢) السابق ص٣٨ بتصرف.

وجرمه، ويعفوا عن وزره وذنبه، ولو خالف اللوائح والقوانين، أو قدم من لا يستحق على سائر المستحقين.

وإذا كان الإنسان ملكا، أو أميرا، أو حاكما، أو وزيرا، فمعلوم أن قرابته لهم الحظوة والقربة، ومصالحهم تقضى في لحظة، وغيرهم من الناس يقفون في الصفوف مساكين، قلقين منتظرين، ولا يجرؤ أحدهم على مخالفة القوانين، ومن هنا تظهر الفوضى والمحسوبية التي نراها في الشفاعة بين الناس.

أما رب الناس ملك الناس إله الناس فهو واحد أحد، وتر صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. من ادعى لله ولدا فقد شتمه وأذاه، وبسبب وحدانية الإله في الدنيا ويوم القيامة، لا ينفع الإنسان أخاه، أو ينفع أمه وأباه، ولا يشفع وقتها إلا بإذن الله، فعلاقة الأنساب والأرحام بين الأفراد، لا تسري على العلاقة بين الرب والعباد.

وروى البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قال: (قامَ رَسُول اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ الشعراء:٢١٤. قَال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلبِ، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُول اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلينِي مَا شِئْتِ مِنْ

مَالي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا) [(١)].

٢- ومن الأمور المؤثرة في قبول الشفاعة في الدنيا، والتي لا تقاس بها شفاعة رب العالمين، اجتماع الرعية على تنصيب حكامهم، أو قدرة المملوك علي تنحية الملك من سلطانه. فمن المعلوم أن الناس إذا اجتمعوا على خلع حاكم، أو ملك خلعوه، وإذا وُجد الرأي العام على تولية حاكم أو ملك ولوه. ولا يمكن لرئيس أو أمير أو ملك أن يصل إلى ملكه بمفرده، أو يعلو على عرشه حسب أمنيته ورغبته؛ فلا بد من وجود أعوان نصروه وإخوان أيدوه، أو صفوة من الناس أحبوه وانتخبوه، حتى أصبح رئيسا عليهم بجهدهم، أو ملكا مطاعا بعونهم، من أجل ذلك فإن الحاكم أو الملك يقبل الشفاعة ممن عاونوه بغير إرادته، ويصدر أوامره بغير ما يراه بمشيئته، وإنما يُؤثِّرون بسلطانهم على سلطانه وقدرته، فيقبل منهم الشفاعة تعطيلا للأحكام وظلما لرعيته، وربما يكون مرغما في فعله مجبورا، أو ذليلا عاجزا مقهورا، أو خائفا من خلعة عن كرسيه مذعورا. أما رب العزة والجلال فمن هو صاحب الفضل عليه؟ ومن الذي ساعده في إنشاء الخلق أو افتقر إليه؟ ومن الذي يغير شيئا من مشيئته وقدرته؟ أو يؤثر على حوله وقوته؟

٣- ومن الأمور المؤثرة في قبول الشفاعة في الدنيا والتي لا تقاس بها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ٣/١٠١٢ (٢٦٠٢).

شفاعة رب العالمين، صفه النقص التي تعترى الحكام أو الأمراء والملوك، فقد يتحكم بعض الرعية في مَلِك من الملوك بسبب نقاط ضعفه وإذاعة أخباره، أو كشف ما هو مستور من سوء أسراره، فيضطر الحاكم إلى المقايضة في مقابل السكوت، ويقبل الشفاعة من المملوك أو المحكوم، ويتغاضى عن العدل ولا ينصف المظلوم.

أما رب العزة والجلال فله في ذاته وصفاته غاية العلو والكمال، وغاية الحسن والجمال، منزه عن كل نقص وعيب، وليس فيه ما يحد من علوه وعظمته، أو هيمنته وقوته، سبحانه لا سمى له في وصفه، ولا شريك له في ملكه، ولا ظهير له في تدبير شئون خلقه، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه. كما أن جميع الخلق لو أعرضوا عن الحق أو كفروا به، فإن ملك الملوك لا يزول عن ملكه، كما هو حال الملوك في الدنيا، فإنه رب العرش العظيم، الذي لا ينعزل عن عرشه، وهو أزلي أبدي باسمه ووصفه، فالضرر والزوال يعود على من كفر بالله، ولا يعود على الله لأنه سبحانه الغنيُّ عمن سواه .

وعلى ذلك فإن الشفاعة عند الله لا يمكن أن تقاس بقياس المماثلة الذي يستخدمه الخوارج والمعتزلة، وأصحاب الملل الباطلة في قياس عالم الغيب بأحكام عالم الشهادة، فنفيهم للأدلة التي أثبتت حصولها للنبي ﷺ يدل على اعتقادهم التشبيه فيها، وأنهم لم يوحدوا الله ﷻ ويفردوه عمن سواه في مسألة الشفاعة.

• **الشفاعة عند الله لها شروط لازمة.**

ومن ثم كانت الشفاعة عند الله دليلا على توحيده وإثبات انفراده، لأن الشافع لا بد أن يقر بحقيقة التوحيد أولا، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والتدبير، وله الكمال في أسمائه وأوصافه، وله حق العبودية وحده دون سواه، ولذلك فإن الشفاعة عند الله لها عدة شروط لازمة دلت عليها النصوص القرآنية والنبوية:

١- منها أن يكون الشافع والمشفوع له كلاهما من أهل التوحيد، فإن الكافر أو المشرك لا شفاعة له أو فيه. أما الدليل على شرط التوحيد للشافع فلأن الله لا يقبل الشفاعة في المشركين، فكيف يقبل الشفاعة منهم لغيرهم؟ وأما الدليل على كون الشفاعة إنما تكون في الموحدين فقط، ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: (قِيل يَا رَسُول اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُني عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّل مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَال لاَ إِلهَ إِلاّ اللهُ، خَالصًا مِنْ قَلبِهِ أَوْ نَفْسِهِ) [١].

٢- من شروط الشفاعة الإذن للشافع، فليس لأحد حق أو فضل على الله ليشفع عنده بغير إذنه.

٣- ومنها الإذن للمشفوع فيه، لأن الناس يوم القيامة تستشفع إلى

---

(١) البخاري في العلم، باب الحرص على الحديث ١/٤٩ (٩٩).

ربها، فتطلب من يشفع لها، خوفا من ردها وعدم قبولها لو أنها ذهبت إليه بمفردها.

٤- ومنها الإذن بنوعية الشفاعة، فالنبي ﷺ يُحَد له حد يتضمن نوعية الشفاعة لكل فرد، وهي أنواع كثيرة مذكورة في مواضعها.

قال ابن القيم رحمه الله: (رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وكذبوا بها، وقالوا: لا سبيل لمن دخل النار إلى الخروج منها بالشفاعة ولا غيرها، ولما بهرتهم نصوص الشفاعة، وصاح بهم أهل السنة بسهام الرد عليهم، أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط، لا على الخروج من النار، فردوا السنة المتواترة قطعا، وصاروا مضغة في أفواه الأمة، وعارا في فرقها، فإن أمر الشفاعة أظهر عند الأمة من أن يقبل شكا أو نزاعا، وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما، مما يُعلم إخبار الرسول به قطعا، ولكن إنما أُتى القوم لأنهم في غاية البعد عما جاء به الرسول ﷺ، أجانب عنه ليسوا من الورثة) [١].

قال أبو الحسن الأشعري: (الإجماع الثاني والأربعون، وأجمعوا على أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وعلى أنه يخرج من النار قوما من أمته بعدما صاروا حمما، فيطرحون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل) [٢].

---

(١) طريق الهجرتين ١/٥٦٩.

(٢) رسالة إلى أهل الثغر ص٢٨٨.

وقال أيضا: (ونرجو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين، أجارنا الله منها بشفاعة سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ. ونقول: إن الله ﷻ يخرج قوما من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة رسول الله ﷺ تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ) (١).

وقال أبو سعيد الشافعي: (وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: لا يجوز الشفاعة لأهل الكبائر، وشفاعته لرفع الدرجات، لا لغفران السيئات، والدليل على بطلان قولهم، أن قبول الشفاعة للعصاة ليس مما يحيله العقل، فإن من عصى مالكه وخالقه لا يستقبح في العقل أن تتشفع إليه بعض المختصين به حتى يعفوا عنه، وإذا كان جائزا في العقل، فالسنة المستفيضة قد وردت بموجب الإيمان به، فإن حملوه على الشفاعة لرفع الدرجات، لم يصح؛ لأن في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، وفي خبر آخر أنه يجيء إليهم، فيخرجهم من النار والمطيعين لا يكونوا في النار عندهم) (٢).

وقال الآمدي: (وأما إنكار الشفاعة للمذنبين والعصاة من المسلمين، فذلك إنما هو فرع مذهب أهل الضلال في القول بوجوب الثواب ولزوم العقاب على الله تعالى، وقد بينا ما في ذلك من الخلل، وأوضحنا ما فيه من الزلل، فإن الثواب من الله تعالى ليس إلا بفضله، والعقاب

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ١/٢٠.

(٢) الغنية في أصول الدين ص١٧٢.

ليس إلا بعدله، وهو المتحكم بما يشاء في خلقه) [١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن أنكر شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، فهو مبتدع ضال، كما ينكرها الخوارج والمعتزلة، ومن قال: إن مخلوقا يشفع عند الله بغير إذنه، فقد خالف إجماع المسلمين ونصوص القرآن) [٢].

• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه الدعوة لأصولهم.

الأصل الخامس من أصول المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الشعار الرنان الذي يفتتن به كل إنسان، يقصدون به الدعوة إلى أصولهم الخمسة، فالمعروف عندهم هو من اعتنق أصولهم ودان بها، والمنكَر عندهم هو اتباع مذهب السلف أهل السنة والجماعة، وقد أدى بهم هذا الأصل أن يجوزوا مسلك الخوارج في الخروج على حكام المسلمين وخلفائهم بالسيف [٣].

• كيف ظهرت البدعة الكبرى؟

لما تأصلت فكرة الجهم عند المعتزلة في استقلال العقل بإثبات الصفات أو نفيها، وتشبعوا بالرغبة في تعطيل النصوص وردها، محتجين بأن إثباتها يدل على التشبيه وأنواع المحال، وأن ظاهر النصوص باطل

---

(١) غاية المرام في علم الكلام ٢/٣٠٩ .

(٢) السابق ٢٧/٣٤١ .

(٣) مجموع الفتاوى١٣/١٢٦ بتصرف.

واعتقاده كفر وضلال، رتبوا على هذا الأصل نفي أوصاف الكمال، فنفوا رؤية رب العزة والجلال، وردوا الأخبار وأنكروا الآثار التي ثبتت في رؤية الله يوم القيامة، وقالوا أيضا بنفي صفة الكلام عن الله، وجعلوه عاجزا عن التكلم بالقرآن، بحجة أنه لو كان متكلما في زعمهم، لكان له فم ولسان، وأن إثبات صفة الكلام تشبيه لله بالإنسان.

وقد استفحل أمرهم، وكثر عددهم، وانتشر في البلاد خبرهم، ومن المؤسف أن بعض خلفاء الدولة العباسية قربوهم، وجعلوهم في أعلى المناصب القيادية، متعللين بأنهم كانوا يجادلون المخالفين مجادلة عقلية، وكانوا يغلبون الزنادقة والشيعة والجبرية في كثير من المناظرات الكلامية، وأن شيوخ الحديث تعجز عن ذلك.

وفي بداية القرن الثالث الهجري تصادق المأمون بن هارون ـ وهو من أبرز خلفاء الدولة العباسية ـ تصادق مع بعض دعاة المعتزلة، وذلك قبل أن يكون خليفة المسلمين، فقرب إليه رجلا يقال له بشر بن غياث المريبيسي، ذا أصل يهودي، وكان هذا الرجل قد نظر في صفات الله بالفكر الجهمي، فغلب عليه، وقال به، وانسلخ من دواعي التقوى والإيمان، وأعلن القول بخلق القرآن، ودعا إليه حتى كان عينَ الجهمية في عصره، وكان عالَمهم المقتدى بأمره، فمقته أهل العلم وناظروه، وحكم عليه بعضهم بالفسق وكفروه.

تقوم فكرة الجهمية في القول بخلق القرآن على منهجهم في نفي الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومنها صفة الكلام،

فهم زعموا أن الله لو كان متكلما لكان له فم ولسان، ومن ثم لا بد من نفي صفة الكلام عنه طلبا للتوحيد.

وقد وصل الأمر ببعضهم إلى محاولته تحريف القرآن حتى لا يؤمن بتلك الصفة، فقال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريدك أن تقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. بنصب لفظ الجلالة، وذلك ليكون موسى عليه السلام هو المتكلم، أما الرب عنده فلا يتكلم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بفم ولسان حسب زعمه، فقال أبو عمرو: هب أني وافقتك في ذلك، فماذا تفعل بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الأعراف:١٤٣. فبهت المعتزلي![1].

ومعلوم عند السلف أن الله يتكلم بكيفية تليق بجلاله، يعلمها هو ونجهلها نحن، لأننا ما رأيناه، وما رأينا له نظيرا؛ فهو سبحانه كما قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١.

ولا يلزم من إثبات صفة الكلام التشبيه والتجسيم، كما هو اعتقاد المعتزلة، بل أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بعض المخلوقات تتكلم بدون فم أو لسان، فقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ يس:٦٥. فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، قد أنطقها الله كما أنطق كل شيء.

---

(١) السابق١٦٨.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ فصلت:٢١. فالأيدي والأرجل والجلود تتكلم بلا فم يخرج منه الصوت المعتمد على مقاطع الحروف، ولكن قياس الخالق على المخلوق، قياس تمثيلي، أو قياس شمولي، قياس فاسد، لا يجوز في باب العقائد الغيبية.

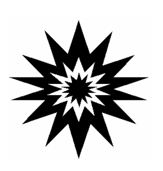
كما أن صفة الكلام من لوازم الكمال، وضدها من أوصاف النقص، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته، ولهذا ذم بني إسرائيل لاتخاذهم عجلا إلها من دون الله، وأول عيبة ذكرها الله له، كونه لا يتكلم، فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأعراف:١٤٨، فكان عجز العجل عن الكلام من صفات النقص التي يستدل بها على عدم ألوهيته، ومن ثم إذا كان الكلام وصف كمال لدى المخلوق، فالخالق أولى بوصف الكلام والكمال منه.

وقد أثبتت نصوص القرآن والسنة صفة الكلام لله ﷻ، فالآيات والأحاديث التي لا حصر لها تدل على أن الله يتكلم متى شاء، وإذا شاء وكيف شاء، وأنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت يسمع، سمعه جبريل من الله ﷻ، وسمعه موسى عليه السلام، وسمعه محمد ﷺ، فلا عبرة بقول المعتزلة في زعمهم إن القرآن مخلوق، خلقه الله، ولم يتكلم به؛ فإنهم

يعارضون القرآن وما جاء في صريح النصوص كقوله تعالى:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ البقرة:٢٥٣. وآيات القرآن أكثر من أن تحصى.

وعند البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمهُ ربهُ، ليس بينَهُ وبينَهُ ترجمان، فينظرُ أيمنَ منهُ، فلا يرى إلاّ ما قدَّمَ من عمله، وينظرُ أَشْأَمَ منه، فلا يَرَى إلا ما قدَّمَ، وينظرُ بين يديه، فلا يرى إلاَّ النارَ تِلقاء وجهه، فاتَّقوا النار ولو بِشقِّ تمرة) [١].



(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٦/٢٧٢٩ (٧٠٧٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث علي الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة ٢/٧٠٣ (١٠١٦).

المطلب السادس

علم التوحيد
في عصر النبوة وأنواعه وتصنيفاته

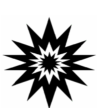
- المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا.
- توحيد العبادة اصطلاح منذ عصر النبوة .
- المصطلحات التي تدل على علم التوحيد .
- مفهوم الإلوهية عند السلف الصالح.
- مفهوم الإلوهية عند الخلف.
- مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية.



- مفهوم الإلوهية عند الفلاسفة.
- التوحيد نوعان باعتبار وثلاثة باعتبار.
- الأسماء التي أطلقت على النوع الأول من التوحيد.
- الأسماء التي أطلقت على النوع الثاني من التوحيد.

المطلب السادس

علم التوحيد في عصر النبوة وأنواعه وتصنيفاته



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن الجهمية وابتداعاتهم العقلية، وكيف ظهرت المدرسة العقلية؟ وبينا أوجه الرد السلفي على شبهة السمنية، وكيف ظهرت المعتزلة على الساحة الإسلامية؟

ثم تناول الحديث قوة انتشار المدرسة العقلية بظهور الأصول الخمسة عند المعتزلة وتبني بعض خلفاء بني العباس لها، وكيف ظهرت البدعة الكبرى حين ألزم الخليفة المأمون بن هارون سائر العلماء الأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن ونفي الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان من أبرزها نفي صفة الكلام عن الله.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن علم التوحيد في عصر النبوة، وأنواعه وتصنيفاته، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا.**

التوحيد لغة مصدر وحد يوحد أي أفرد الشيء يفرده، فالمتوحد هو المنفرد بوصفه المباين لغيره، والمقصود بتوحيد الصحابة ﷺ لربهم أنهم

أفردوا الله ﷻ عن غيره بما أثبته لنفسه من أنواع الكمال في العبودية والربوبية والأسماء والصفات، فهو وحده رب العالمين المستحق للعبادة، كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة:٥. وهو المتوحد في أسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. فهم يؤمنون بأنه سبحانه وتعالى منفرد بالخلق والتدبير، وإليه يرجع الأمر والتقدير، وشهدوا ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه.

أما علم التوحيد في الاصطلاح: هو علم يعرف به طريقة الصحابة والتابعين في توحيد الله بالعبودية، وإثبات العقائد الإيمانية بأدلتها النقلية والعقلية، والرد على المبتدعين في العبادات، والمخالفين في الاعتقادات بالأدلة النقلية والعقلية [١].

• توحيد العبادة اصطلاح سائد بين السلف منذ عصر النبوة.

يعتبر علم التوحيد اصطلاحا سائدا بين السلف منذ عصر النبوة، فالصحابة ﷺ كانوا علي دراية تامة بما يجب معرفته في توحيد الله، وكيفية الدعوة إليه، ومناقشة المخالفين فيه.

---

(١) انظر في ذلك: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٤٠٢/٢، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي بيروت. وقارن ما ورد في العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لعبد الحميد بن باديس ص٦٥، نشر دار الفتح، الشارقة. وانظر أيضا التعريفات لعلى بن محمد بن على الجرجاني ص٩٦، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت دار الكتاب العربي.

وقد أفرد الإمام البخاري رحمه الله (ت:٢٥٦هـ) بابا في الصحيح في كتاب التوحيد، قال فيه: (باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى). ثم عقب بحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إِلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالى، فَإِذا عَرَفُوا ذلكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذا صَلوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلى فَقِيرِهِمْ، فَإِذا أَقَرُّوا بِذلكَ، فَخُذ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَال النَّاسِ) (١).

ولا شك أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان خبيرا في علم التوحيد بالصورة التي تناسب إتمام الدعوة التي بعث من أجلها. والتي يترتب علي نجاحها دخول الآلاف من أهل الكتاب في دين الله وإلا ما كلفه النبي ﷺ بهذا الأمر العظيم. وفي رواية أخرى عند البخاري توضح أن التوحيد الذي يعلمه معاذ رضي الله عنه هو توحيد العبادة لله، قال رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ أَهْل كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إِليْهِ، عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ .. الحديث) (٢).

وفي رواية ثالثة عند البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا توضح

---

(١) البخاري في التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله ٦/٢٦٨٥ (٦٩٣٧).

(٢) البخاري في الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس ٢/٥٢٩ (١٣٨٩).

أن توحيد العبادة هو معنى شهادة ألا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ: (ادْعُهُمْ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ وَأَنِّي رَسُول اللهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لذلكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُل يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .. الحديث)[1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَال لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ)[2].

وروى البخاري من حديث أبي سفيان ﷺ لما سأله هرقل ملك الروم عن النبي ﷺ قال: (مَاذا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلتُ: يَقُول اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُول آبَاؤُكُمْ. وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالصِّلةِ)[3].

ولذلك يسمى هذا التوحيد بتوحيد الإلوهية، وتوحيد الغاية، وتوحيد العبادة. سمي بذلك عند السلف لأنه المقصود بقول العبد لا إله إلا الله، فالإله هو المعبود بحق، الذي يدعى وحده لا شريك له.

---

(١) البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٠٥ (١٣٣١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥٣ (٢٣).

(٣) رواه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٧ (٧)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/١٣٩٤ (١٧٧٣).

وتوحيد الإلوهية عندهم هو توحيد العبادة لله وتجريدها له وحده، وتلك هي الغاية التي دعت إليها الرسل، ونزلت من أجلها الكتب.

وإنما قلنا بأن هذا اعتقاد السلف في معنى الإلوهية، لأن السلف اعتمدوا في تقرير ما ذهبوا إليه على نص كتاب الله ﷻ وما صح في سنة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل:٣٦.

وقال سبحانه عن صالح ودعوته لتوحيد الإلوهية: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ هود:٦١.

وقال ﷻ عن جميع الرسل ودعوته لهذا التوحيد: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء:٢٥.

- **المصطلحات التي تدل على علم التوحيد .**

وقد تتابع أهل العلم عبر القرون المختلفة على التأليف في هذا الفن تحت مصطلح التوحيد، سواء كانوا من السلفيين، أو كانوا ممن خالفهم من المتكلمين، فالإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت:٣١١هـ) ألف كتابا على نهج السلف الصالح عنون له: "كتاب

التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ". وكتب أبو منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ) كتابا سماه: "التوحيد". وانتهج فيه طريقة المتكلمين الذين يقدمون العقل في إثبات الحجج والبراهين.

وقد بقي اصطلاح "علم التوحيد" دائرا بين المتقدمين والمتأخرين منذ عصر النبوة إلى وقتنا هذا. وتجدر الإشارة إلى كتابين أُلفا تحت ذلك الاصطلاح في القرنين الماضيين، وهما: "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد"، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت:١٢٠٦هـ) ، حيث وضعه على نهج السلف الصالح لما انتشر شرك الجاهلية في الجزيرة العربية. وفي المقابل نجد على مذهب المتكلمين الأشعرية "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده (ت:١٣٢٣هـ).

وقد أطلقت عدة اصطلاحات أخرى على هذا العلم من قبل علماء السلف، أو المخالفين لهم، يتمثل أبرزها فيما يلي:

١- علم العقيدة: فالعقيدة هي عقد القلب على تصديق خبر الرب وتنفيذ أمره، والإيمان به إيمانا لا يقبل الشك، مع الثبات عليه.

وكثير من علماء السلف والخلف استخدم هذا الاصطلاح، كل على وجهته أو منهجه في التعامل مع النصوص، فمن علماء السلف: الإمام أحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ) له كتاب بعنوان: "العقيدة". وكذلك كتاب: "العقيدة الطحاوية" للإمام أبي جعفر بن سلامة الأزدي الطحاوي (ت:٣٢١هـ). وكتاب: "اعتقاد أئمة الحديث"، لأبي بكر

الإسماعيلي (ت:٣٧١هـ).

وقد اشتهر مصطلح العقيدة بين المتمسكين بمنهج السلف حتى اقترن بهم، وأصبح التعرف على العقيدة سمتهم بين الناس، وميزانهم المقدم في مسألة الولاء والبراء. كما برزت فيما بعد كتب أخرى كثيرة على منهج السلف الصالح اشتهرت شهرة واسعة بين الناس ككتاب: "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث" للإمام البيهقي (ت:٤٥٨هـ). وكتاب "العقيدة الواسطية" لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ). وكتاب: "عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة" للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت:١٢٠٦هـ). وغير ذلك كثير ممن كتبوا في العقيدة على منهج السلف الصالح.

كما تردد هذا المصطلح أيضا بين المنتهجين لطريقة الخلف من المتكلمين، فكتب أبو حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ) كتابه المسمي: "قواعد العقائد". وكذلك "العقيدة الأصفهانية" التي ألفها الشيخ أبو عبد الله شمس الدين الأصفهاني (ت:٦٨٨هـ)، وهو أحد رؤوس علماء الكلام وقد شرحها شيخ الإسلام ابن تيمية، وخالفه فيها في كتابه المعروف "شرح العقيدة الأصفهانية".

٢- الفقه الأكبر: في بداية القرن الثاني الهجري ظهرت عقيدة الجهمية بظهور أصلها الجعد بن درهم (ت:١٢٥هـ)، فهو أول من قال بخلق القرآن، ونفي أوصاف الله بحجة التنزيه والتوحيد ونفي التشبيه. وقد تبني فكره تلميذه الجهم بن صفوان (ت:١٢٨هـ)، إلا أن الجعد لم

ينل شهرة الجهم. وقد كان مصطلح الفقه عند السلف يعني العلم بالدين وأحكام العبودية التي وردت بها الأدلة القرآنية والنبوية ، ثم جاء المتأخرون من الفقهاء وغيرهم وحصروه بمعرفة الأحكام الشرعية التكليفية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، دون تعرض منهم لتفصيل مسائل العقيدة، فظهر في المقابل مصطلح الفقه الأكبر لبيان أهمية التوحيد قبل القول والعمل، والرد على الجهمية وأتباعهم.

ويعتبر الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثاب (ت: ١٥٠هـ) أول من أطلق هذا اللفظ في كتابه "الفقه الأكبر"، حيث قال رحمه الله في الكشف عن ذلك المعنى الاصطلاحي: (الفقه الأكبر في الدين خير من الفقه في العلم، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه ﷻ، خير من أن يجمع العلم الكثير) [١].

قال أبو مطيع الحكم البلخي: (قلت: فأخبرني عن أفضل الفقه؟ قال: يتعلم الرجل الإيمان، والشرائع والسنن، والحدود واختلاف الأئمة.. وذكر مسائل في الإيمان، ثم ذكر مسائل في القدر) [٢]. ونسب بعضهم الفقه الأكبر لأبي مطيع الحكم البلخي الذي ذكر فيه أراء أبي حنيفة وأقواله في التوحيد، وهو متن صغير شرحه الكثير من الأحناف [٣].

---

(١) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٤ ، ومجموع الفتاوى ٥/٤٧ بتصرف.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٤/٣٩٤.

(٣) انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ٢/١٢٨٧، نشر دار الكتب العلمية.

غير أن الشاهد هنا أن اصطلاح الفقه الأكبر بعد أن ظهر في القرن الثاني الهجري، اشتهر على ألسنة العلماء، وأصبح مرادفا لعلم التوحيد والعقيدة عند السلف الصالح وأتباعهم.

٣- السنة: بمعنى سنة الدلالة والطريقة المسلوكة، وقد أُطلق لفظ السنة على علم التوحيد، وعرف به في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث، وذلك حين بلورت المعتزلة آراءها الفكرية في خمسة أصول عقلية، كان أولها ادعاء التوحيد، فقد رتبوا عليه القول بخلق القرآن وتعطيل السنة، وردوا ما ثبت عن رسول الله ﷺ في باب الصفات، وعطلوه بحجة أنها من أخبار الآحاد التي لا تدل على اليقين في أمور الاعتقاد.

وتلك البدع الاعتزالية دفعت أهل السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ) أن يطلقوا مصطلح السنة على مسائل التوحيد والعقيدة تمييزا لها عن أصول المعتزلة، التي أسفرت عن تعطيل السنة وردها، فألف الإمام أحمد بن حنبل كتابه "أصول السنة"، حيث قال في مقدمته:

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والإقتداء بهم، وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات في الدين. والسنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول، ولا الأهواء، إنما هو الاتباع وترك الهوى. ومن السنة اللازمة التي من

ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها، لم يكن من أهلها، الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟) [١].

وكذلك الإمام الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (ت:٢٨٧هـ) كتب في الرد على المعتزلة كتابا سماه: "السنة" حيث جاءت مسائله عن الإيمان بالقدر، ورؤية الله تعالى في الآخرة، ومسائل أخرى في صفات الله ﷻ يقف منها أهل الاعتزال موقف التعطيل.

وعلى الوتيرة نفسها جاء لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ) كتابه "صريح السنة"، قال فيه: (فأول ما نبدأ بالقول فيه من ذلك عندنا، القرآن كلام الله وتنزيله إذ كان من معاني توحيده، فالصواب من القول في ذلك عندنا، أنه كلام الله غير مخلوق، كيف كتب، وحيث تلي، وفي أي موضع قرئ.. فمن قال غير ذلك، أو ادعي أن قرآنا في الأرض، أو في السماء سوى القرآن الذي نتلوه بألسنتنا ونكتبه في مصاحفنا، أو اعتقد غير ذلك بقلبه، أو أضمره في نفسه، أو قاله بلسانه دائنا به، فهو بالله كافر، حلال الدم، بريء من الله، والله منه بريء) [٢].

وكذلك أيضا كتاب: "السنة" لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي

---

(١) أصول السنة، نشر دار المنار، من ص١٤، السعودية الخرج سنة ١٤١١هـ.

(٢) صريح السنة ص١٨، تحقيق بدر يوسف المعتوق، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي الكويت ١٤٠٥هـ .

(ت:٢٩٤هـ)، ومثله كتاب: "السنة" لأبي بكر الخلال (ت:٣١١هـ)، وكتاب: "شرح السنة" لأبي محمد الحسن البربهاري (ت:٣٢٩هـ).

وكل هؤلاء العلماء يؤكدون على أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر، وأن من السنة لزوم الجماعة، ومن رغب غير الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وكان ضالا مضلا، وأن الأساس الذي بنيت عليه الجماعة، هم أصحاب محمد ﷺ رحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم فقد ضل وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلال وأهله في النار [1].

وهناك كتب كثيرة باسم السنة كاصطلاح يرادف معنى التوحيد والعقيدة، وكلها كما هو ملاحظ ألفت في القرن الثالث الهجري وحتى منتصف القرن الرابع، وهو عصر سيطرة المعتزلة، وولادة المذهب الأشعري، وظهور أركانه واستقرار بنيانه.

٤- الإيمان: أطلق مصطلح الإيمان على مسائل التوحيد والعقيدة لأنها قضايا تتعلق بتصديق القلب، واستعداده للعمل. وهذان ركنان أساسيان في صلاح الإنسان.

وقد تداول علماء السلف ذلك الاصطلاح منذ وقت مبكر، وأطلقوه على مؤلفاتهم، فمن ذلك كتاب: "الإيمان ومعالمه وسننه واستكمال

---

(١) انظر بتصرف كتاب شرح السنة لأبي محمد البربهاري، ص٢١ تحقيق د. محمد سعيد سالم القحطاني، نشر دار ابن القيم، الدمام ١٤٠٨هـ.

درجاته"، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت:٢٢٣هـ)، وكتاب "الإيمان" لمحمد بن يحيي بن أبي عمر العدني (ت:٢٤٣هـ)، وكتاب "الإيمان" لمحمد بن إسحاق بن يحيي بن منده (ت:٣٩٥هـ)، وكتاب: "الإيمان وأصوله" لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت:٤٢٩هـ)، وكتاب "شعب الإيمان" لأبي بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ).

ثم كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) وهما "الإيمان الأوسط" "والإيمان الأكبر"، وأيضا كتاب: "تنبيه الوسنان إلى شعب الإيمان" للشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبي (ت:٩٣٦هـ) وغير ذلك كثير [(١)].

٥- أصول الدين: الأصول جمع أصل، وهو في اللغة ما يُفتقر إليه، ولا يَفتقر هو إلى غيره، وفي الشرع ما يُبني عليه غيره، ولا يُبني هو على غيره. وعلى هذا فأصول الدين قوام أركانه، وأساس بنيانه [(٢)].

ومن العجب أن اصطلاح "أصول الدين" الذي اشتهر ولا يزال مشتهرا حتى سميت باسمه الكليات الجامعية في سائر البلاد الإسلامية هو في حقيقته من صنع المبتدعة من المعتزلة والمتكلمين الأشعرية.

فإذا كان مصطلح الأصول قد اشتهر بين السلف مرتبطا بالفقه، إلا أن اقترانه بالدين كان جهمي المنشأ والتكوين، فالمعتزلة أطلقوه على

---

(١) كشف الظنون ١/٤٤٨.

(٢) انظر التعريفات للجرجاني ص٤٥، والمبدع في شرح المقنع ٤/١٥٨،لأبي إسحاق بن مفلح الحنبلي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٠هـ.

أصولهم الخمسة، وجعلوا تلك الأصول أساسا للدين، لا يقبل إلا من خلالها، وإن لم يكن الاصطلاح مشتهرا في عصرهم.

أما أغلب الذين استعملوه من متكلمي الأشعرية، فكانوا يرغبون أن تكون أصولهم العقلية متميزة عن الأصول الخمسة عند المعتزلة، حيث اعتبروا أنفسهم أهل السنة والجماعة، الذين جمعوا حسب زعمهم بين عقيدة السلف، أو جمعوا بين أصحاب المدرسة النقلية وعقيدة المعتزلة أصحاب المدرسة العقلية، فابتدعوا أصولا عقلية أخرى، أثبتوا بها سبع صفات فقط لإرضاء للسلف، وعطلوا باقي النصوص التي تدل على الصفات الخبرية بما يسمى عندهم بالصفات السلبية لإرضاء للمعتزلة، رافعين شعار المجاز والبلاغة والتأويل لكل النصوص التي يتوهمون فيها التشبيه والتمثيل، وظاهرها عندهم تجسيم باطل مستحيل، ثم أطلقوا على أصولهم في التوحيد الذي ابتدعوه مصطلح: "أصول الدين".

وأول من عرف عنه هذا الاصطلاح في كتاب مدون، هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد البلخي (ت:٣١٩هـ) إذ أنه ألف كتابا سماه: "أوائل الأدلة في أصول الدين"، وقام أبو بكر بن فورك الأصبهاني (ت:٤٠٦هـ) بشرحه، وكلاهما ضليعان في المذهب الأشعري [(١)].

وقد ألف أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد النيسابوري (ت:٤٧٨هـ)

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢٠٠/١٢.

كتابا سماه: "الغنية في أصول الدين"، نسجه أيضا على طريقة الأشعرية ومنهجهم، قال في بدايته: (فصل في بيان العبارات المصطلح عليها بين أهل الأصول منها: العالم هو اسم لكل موجود سوى الله تعالى، وينقسم قسمين: جواهر وأعراض، فالجوهر كل ذي حجم متحيز، والحيز تقدير المكان، ومعناه أنه لا يجوز أن يكون عين ذلك الجوهر حيث هو، وأما العرض؛ فالمعاني القائمة بالجواهر كالطعوم والروائح والألوان، والجوهر الفرد هو الجزء الذي لا يتصور تجزئته عقلا، ولا تقدير تجزئته وهما، وأما الجسم، فهو المؤلف، وأقل الجسم، جوهران بينهما تأليف.. الخ) [(١)].

ثم بدأ يطبق تلك الأصول العقلية، أو الفلسفية اليونانية على ذات الله ﷻ وصفاته وأفعاله، فينفي بها ما يشاء ويثبت، مستخدما منهج التأويل، سواء تيسر له الدليل، أو لم يتيسر، فالهدف الأعلى هو التعطيل لأن الإثبات في اعتقاده تشبيه وتمثيل.

وعلى الوتيرة نفسها ألف جمال الدين أحمد بن سعيد (ت:٥٩٣هـ) كتابا سماه: "أصول الدين" انتهج فيه مذهب المتكلمين من الأشعرية وطريقتهم في الغيبيات، ومما جاء فيه: (فصل، صانع العالم لا يقال له: أين هو؟ لأن أين يستخبر به عن المكان، ولا مكان له) [(٢)].

هكذا زعم أن صانع العلم لا يسأل عنه بأين، وكأن رسول الله ﷺ

---

(١) الغنية، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ص٣٩.

(٢) أصول الدين تحقيق عمر وفيق الداعوق ص٦٠، ص٨١.

لم يحسن أن يسأل الجارية: أين الله؟ روى مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه قال: (وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله، فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: اعتقها فإنها مؤمنة) [(١)].

وقال حاجي خليفة عن كتاب فخر الدين الرازي: ("الأربعون في أصول الدين" للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت:٦٠٦هـ)، ألفه لولده محمد ورتبه على أربعين مسألة من مسائل الكلام) [(٢)].

ومعلوم أن الرازي من أبرز المدافعين عن المذهب الأشعري قبل توبته وعودته لمذهب السلف. وقال ياقوت الحموي في ترجمة الجويني (ت:٤٧٨هـ): (أبو المعالي عبد الملك بن يوسف الجويني إمام الحرمين، أشهر من علم في رأسه نار، كان قليل الرواية، معرضا عن الحديث، وصنف التصانيف المشهورة، نحو الشامل في أصول الدين على مذهب الأشعري، والإرشاد وغير ذلك) [(٣)].

٦- الشريعة: قال محمد بن الحسين الآجري رحمه الله في كتابه

---

(١) مسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١ (٥٣٧).

(٢) كشف الظنون ١/٦١.

(٣) معجم البلدان لأبي عبد الله ياقوت الحموي ٢/١٩٣،نشر دار الفكر بيروت.

"الشريعة": (كتاب الإيمان والتصديق بأن الله ﷻ كلم موسى عليه السلام، الحمد لله المحمود على كل حال، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم. أما بعد فإنه من ادعى أنه مسلم، ثم زعم أن الله ﷻ لم يكلم موسى فقد كفر، يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإن قال قائل: لم؟ قيل: لأنه رد القرآن وجحده، ورد السنة، وخالف جميع علماء المسلمين، وزاغ عن الحق، وكان ممن قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ النساء:١١٥. وأما الحجة عليهم من القرآن: فإن الله ﷻ قال في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ النساء:١٦٤. وقال ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الأعراف:١٤٣. وقال ﷻ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ الأعراف:١٤٤) [(١)].

وقال في نهاية الكتاب: (وبهذا وبجميع ما رسمته في كتابنا هذا، وهو كتاب الشريعة، ثلاثة وعشرون جزءا ندين الله ﷻ وننصح إخواننا من أهل السنة والجماعة، من أهل القرآن، وأهل الحديث، وأهل الفقه، وجميع المستورين في ذلك؛ فمن قبل فحظه من الخير إن شاء الله، ومن رغب عنه، أو عن شيء منه، فنعوذ بالله منه، وأقول له كما قال نبي من أنبياء الله ﷻ لقومه لما نصحهم، فقال: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ

---

(١) الشريعة للآجري ٥/٢٥٦٦، نشر دار الوطن ، الرياض.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ غافر: ٤٤).

٧- علم الكلام: لما ظهرت مذاهب الضلال في باب العقيدة على يد الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية، وبنوا أصول عقيدتهم على الحجج العقلية، والكلام الفاسد في باب الغيبيات ونفي الصفات، ولم يستندوا إلى ما ورد في الأدلة القرآنية والنبوية إلا باعتبارها دليلا ثانويا وليس دليلا أساسيا في إثبات العقائد، بل ما وافقهم منها أخذوه، وما خالفهم عطلوه، أطلق هؤلاء وغيرهم على مسائل التوحيد والعقيدة علم الكلام لكثرة الجدل بين الطوائف المختلفة في مسائله، أو لأن أعظم مسألة من قضايا هذا العلم كثر فيها النزاع كانت مسألة الحديث عن كلام الله، وهل هو مخلوق أم غير مخلوق؟

وهذه التسمية غير معتمدة عند السلف الصالح الذين يعبرون بحق عن أهل السنة والجماعة، بل آراؤهم مجتمعة على ذم الكلام وأهله الذين عارضوا به الكتاب والسنة. وتجدر الإشارة إلى أن السلف لم يمنعوا الاحتجاج بالأدلة العقلية لتأييد الأصول القرآنية والنبوية، وشرح مضمونها وبيانها، وإنما منعوا أن تكون تلك الأصول هي التي يقيم عليها المسلم عقيدته في الغيبيات أو توحيد الأسماء والصفات والأفعال، أو يعارض بها الأدلة النقلية القرآنية والنبوية.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (وقد تنوعت أحوال المتكلمين، وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك، وببعضهم إلى الإلحاد، ولم تسكت القدماء

من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزا، ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلا، ثم يرد الصحيح عليلا، فأمسكوا عنه، ونهوا عن الخوض فيه، حتى قال الشافعي رحمه الله: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.. وقال: حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام، وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبدا، علماء الكلام زنادقة) [(١)].

وقد حذر أتباع السلف الصالح من علم الكلام، وألفوا كتبا في ذمه وتقبيحه، منها كتاب "تحريم النظر في كتب الكلام" لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، وفي المقابل تجد من كَتَب ليحذر من صعوبة علم الكلام، وأنه علم راق لا يصلح إلا للخواص، كما فعل أبو حامد الغزالي في كتابه: "إلجام العوام عن علم الكلام" .

وقد ألفت كتب كثيرة من قبل المتكلمين في هذا العلم، معتبرين إياه علم التوحيد الأمثل الذي نزل به جبريل على محمد بن عبد الله ﷺ، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر كتاب: "نهاية الإقدام في علم الكلام" لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ). وكذلك كتاب: "الداعي إلى الإسلام في أصول علم الكلام"، لأبي البركات بن محمد الدفع (ت:٥٧٧هـ). وأيضا كتاب: "مطية النقل

---

(١) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٠٢. وقواعد العقائد لأبي حامد الغزالي ص٨٥. وتحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة المقدسي ص٤١.

وعطية العقل في علم الكلام"، لمحمد بن إبراهيم الصوفي (ت:٦٢٢هـ)، وكتاب: "غاية المرام في علم الكلام" لسيف الدين أبي الحسن الآمدي (٦٣١هـ). وكتاب: "زبدة الكلام في علم الكلام" لصفي الدين الهندي (ت:٧١٥هـ). وكذلك: "علم الكرام في علم الكلام"، للشيخ زين الدين المالطي (ت:٧٨٨هـ). "والمواقف في علم الكلام"، للعلامة عضد الدين الإيجي (ت:١٠٠٠) [1].

تلك أغلب المصطلحات التي وردت عَلَما على علم التوحيد تعبر عن التطور التاريخي للمراحل التي مر بها. وقد كان السلف الصالح على أعلى درجات التوحيد والإيمان، وكان المصطلح الشائع بينهم مصطلح الإسلام والإيمان، تعبيرا عن خضوعهم لله وحده، وعدم الإشراك به، والإيمان بكل ما ورد في الكتاب والسنة، مما يتعلق بالغيبيات وبذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

- مفهوم الإلوهية عند السلف الصالح.

توحيد الإلوهية سمي بذلك عند السلف لأنه المقصود بقول العبد لا إله إلا الله، فالإله هو المعبود بحق، الذي يدعى وحده لا شريك له. وتوحيد الإلوهية عندهم هو توحيد العبادة لله، وتجريدها له وحده، وتلك هي الغاية التي دعت إليها الرسل، ونزلت من أجلها الكتب.

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٦/٤٠، وكشف الظنون ١/٧٢٨ ، ٢/١١٦٠.

وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣١.

وقال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ القصص: ٨٨.

وقال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ غافر: ٦٥. وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ المزمل: ٩.

ومما ورد في السنة في بيان معنى لا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، ما تقدم ذكره، مما ثبت فيه أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل ﷺ إلى أهل الكتاب في اليمن قال له: (فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تعالى) [١]. وفي رواية أخرى بينت أن المقصود بالتوحيد هو توحيد العبادة وأنه معنى لا إله إلا الله [٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: (لا إله إلا أنت، فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته، ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد، هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزمك أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية

(١) انظر ص٢٣٣.

(٢) البخاري في الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس ٢/٥٢٩ (١٣٨٩).

الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل) [١].

- **مفهوم الإلوهية عند الخلف وعلماء الكلام.**

قد يتنوع معنى لا إله إلا الله، أو مفهوم الإلوهية عند قائليه، ولا يعني به المعنى الذي يقصده السلف الصالح، فمنهم من جعل الإلوهية بمعنى الربوبية وحصرها في إفراد الله بالخالقية. ومنهم من يعني أنه لا موجود إلا الله على اعتبار أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق حالة ظهوره بأشكال متعددة، وكثرة متنوعة. ومنهم من يعني بها العلة الأولى، أو العقل الفعال، فليس كل من قال لا إله إلا الله، يعني بها ما أراده الله في كتابه أو أراده رسوله ﷺ في سنته [٢].

والإلوهية عند الخلف الأشعرية والماتريدية، المعروفين بأهل النظر والكلام، الذين اتبعوا فلاسفة اليونان، جعلوها بمعنى الخالق، أو القادر على الاختراع[٣]. وجعلوا غاية التوحيد عندهم إثبات أن صانع العالم واحد، وأن الواحد الحقيقي هو الشيء الذي لا ينقسم.

واحتجوا على وحدانية الإله بما يسمي بدليل التمانع، وهو من الأدلة العقلية على إثبات توحيد الربوبية، وملخصه أنا لو قدرنا إلهين

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٤٩/١٠، ودقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٣٦٤/٢) نشر مؤسسة علوم القرآن دمشق، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٤٥٩/١ بتصرف.

(٣) كتاب المواقف لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ٣٠٦/٣، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة،، نشر دار الجيل بيروت سنة ١٩٩٧م.

اثنين، وفرضنا أمرين متضادين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الأمرين، وإرادة الثاني للثاني، فلا يخلو من أمور ثلاثة:

١- إما أن تنفذ إرادتهما.

٢- وإما لا تنفذ إرادتهما.

٣- وإما تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر.

ويستحيل أن تنفذ إرادتهما لاستحالة اجتماع الضدين، كما يستحيل أيضا ألا تنفذ إرادتهما لتمانع الإلهين، وخلو المحل عن كلا الضدين.

وإذا بطل القسمان تعين الثالث، وهو أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، فالذي لا تنفذ إرادته هو المغلوب المقهور المستكره، والذي نفذت إرادته هو الإله القادر على تحصيل ما يشاء، وذلك عندهم مضمون ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ الأنبياء:٢٢ [(١)].

قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية معقبا على الاستدلال بالآية السابقة كحجة على دليل التمانع:

(وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان.. الخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه

---

(١) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة ص ٩٩، لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق د. فوقية حسين نشر عالم الكتب بيروت ١٩٨٧م، وانظر أيضا الغنية في أصول الدين ص٦٧.

أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل: أربابا، وأيضا فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما، وهما موجودتان آلهة سواء لفسدتا، وأيضا فانه قال: لفسدتا، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا) [١].

وقد بين أيضا في معرض الرد على هؤلاء، أن الآية دلت على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا واحدا، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن فساد السماوات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت السماوات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد [٢].

وقد بين الله ﷻ أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وكانوا يعتقلون أن الله خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم كما قال تعالى في شأنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١. فالقلوب مفطورة على الإقرار بالخالق أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٨٧.

(٢) السابق ص ٨٧.

ولم يذهب إلى غير ذلك طائفة معروفة من بني آدم، بل الأمر كما قالت الرسل لأممهم، وكما ذكر الله ﷻ في شأنهم: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبراهيم: ١٠ .

وهذا فرعون الذي تظاهر بإنكار الصانع وتجاهله كان مستيقنا بالله في الباطن كما قال له موسى ؑ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٢. وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل: ١٤ [(١)].

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن هؤلاء المتكلمين المتأخرين الذين خلطوا الفلسفة بالكلام كثر اضطرابهم، وازدادت شكوكهم وحيرتهم، بحسب ما ازدادوا به من ظلمة هؤلاء المتفلسفة.. وأخرجوا من التوحيد ما هو منه، كتوحيد الإلهية، وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته، ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه، وهذا التوحيد كان يقر به المشركون، وهم مع هذا يعبدون غيره. وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الإلوهية المتضمن لتوحيد الربوبية، وأن يعبد الله وحده، لا يشركون به شيئا، فيكون الدين كله لله، ولا يخاف إلا الله، ولا يدعى إلا الله، ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، فيحبون لله، ويبغضون لله، ويعبدون الله،

---

(١) انظر السابق ص ٧٧.

ويتوكلون عليه [١].

ومن ثم فإن توحيد الربوبية والأسماء والصفات في عرف السلف من قبيل الوسيلة إلى الغاية، وليس من قبيل الغاية، فمعرفة المعبود، والإقرار بأن الله ﷻ خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان، هو حق لا ريب فيه، ولكن ذلك وسيلة إلى توحيد العبادة، وتحقيق الغاية من خلق الإنسان، فمعني لا إله إلا الله عند السلف الصالح، لا معبود بحق إلا الله، وعند الخلف معناها لا خالق إلا الله.

- مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية.

أما مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية، فإنها تعني لا موجود إلا الله، حيث ذهب فريق من الصوفية يتزعمهم محي الدين بن عربي الأندلسي (ت:٦٣٨) إلى أن الله هو هذا الوجود بعينه، وهو ظاهر في أشكال متعددة، وكثرة متنوعة، وأنه لا موجود إلا هو.

أما الكثرة المشاهدة في العالم من أنواع المخلوقات فهي على زعمهم وَهْمٌ، يحكم أصحاب العقول القاصرة، وهي في حقيقتها مظاهر لله فقط، أو مرآة يري نفسه فيها، ويتعين لنفسه وللآخرين من خلالها، أو أثواب يلبسها ويخلعها وقتما يشاء، فهو السماء بما فيها من شمس وقمر ونجوم، وهو السحاب الذي نراه بين السماء والأرض عند الصفاء

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢٨٨/٣ بتصرف، وانظر أيضا تحقيق هذه المسألة في مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣٦/١، ١١/٢ ، ١٠٠/٣.

والغيوم، لا فرق بين الأنداد والأضداد، ولا فرق بين الرب والعباد، فالعابد عندهم هو المعبود، والذاكر هو المذكور، والإنسان هو ربنا الرحمن، وربنا المنان الديان هو هذا الإنسان، كما يقول ابن عربي عليه من الله ما يستحق: (ما في الوجود مثل، ما في الوجود ضد، فإن الوجود حقيقة واحدة، والشيء لا يضاد نفس) [١].

ويقول أيضا:

فإنا أعبدٌ حقا : وإن الله مولانا
وإنا عينه فاعلم : إذا ما قلت إنسانا
فلا تحجب بإنسان : فقد أعطاك برهانا:
فكن حقا وكن خلقا : تكن بالله رحمانا [٢].

ويزعم هؤلاء الغلاة أنه كلما فنيت صورة من وجود الله وخلعها عن نفسه لبس صورة أخرى، وكذلك يظل يلبس صورة ويخلع أخرى بلا انقطاع، وهذا حكم منه اقتضاه لظهور هذا الوجود لكي، لا يكون موجود إلا هو.

ويلزم على هذا المذهب الخبيث، تأليه جميع الأشياء وعبادتها، فلا مانع عند ذلك أن يكون المعبود إنسانا، أو وحيوانا، أو ملكا، أو شيطانا، أو صنما، أو أوثانا، ولذلك يري هؤلاء الزنادقة أن الأديان

---

(١) فصوص الحكم لابن عربي شرح عبد الرزاق الكاشاني ص ٩٢.

(٢) السابق ص ١٤٣.

كلها حق، وأن المجوس عابدي النيران، والمشركين عابدي الأوثان، والنصارى عابدي الصلبان، وغيرهم من أهل الشرك والطغيان، ليسوا كفار ضلالا، بل مذاهبهم هي عين التوحيد والإيمان، لأنهم حين عبدوا النيران، والحجارة والصلبان، ما عبدوا إلا الله ﷻ، تعالى الله عن قولهم، فتلك المعبودات عندهم تجليات ظهرت بها الذات الإلهية.

والتوحيد في زعمهم أن تعبد جميعا، وأن تعظم جميعا، والشرك الضلال عندهم أن تخصص بعض هذه المظاهر بالعبادة دون بعض، فالكفر عندهم ليس هو عبادة غير الله، ولكنه ستر حقيقة المعبود بتخصيص بعض مجاليه بالعبادة دون البعض الآخر.

وحكم هؤلاء الزنادقة أيضا بأن إمام الموحدين هو فرعون، لأنه كان يشاهد عين الحقيقة حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولم يكن كاذبا في دعواه أنه هو الله، بل كان في أعلى مقامات التوحيد.

وقد أغرق في البحر تطهيرا له من الشرك عندما هم بالإسلام في لحظاته الأخيرة وتوهم الغيرية. وزعموا أيضا أن موسي ﵇ لم يلم قومه على عبادة العجل ولم ينكرها عليهم [(١)].

---

(١) انظر المزيد عن عقيدة الصوفية في وحدة الوجود: ابن تيمية وفلاسفة التصوف للدكتور محمد سليمان داود،، وابن الفارض والحب الإلهي للدكتور محمد مصطفي حلمي، وانظر أيضا مصطلحات ابن عربي وأصحاب وحدة الوجود في المعجم الصوفي للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني.

ومعلوم أن تلك العقيدة كفر صريح بآيات القرآن التي نطقت بموت فرعون على الكفر، وأنه لم ينفعه إيمانه حين أدركه الغرق، وأن الله إنما نجاه ببدنه ليكون عبرة ماثلة للأجيال من بعده. فهؤلاء الغلاة من الصوفية يشهدون ألا إله إلا الله ويضعونها على هذا المعنى الخبيث، فيغتر الجاهل بشهادتهم، ويظن أنهم يقصدون ما قصده أصحاب محمد بن عبد الله ﷺ ومن سار على دربهم.

- **مفهوم الإلوهية عند الفلاسفة.**

وعلى شاكلة الصوفية في تأويلاتهم الباطنية فسر الفلاسفة كابن سينا والفارابي وغيرهما معنى الإلوهية في كلمة التوحيد، فالإله عندهم هو بذاته علة تامة أزلية للعالم بما فيه من الحوادث المتجددة، وقد فاضت المخلوقات عن الذات الإلهية، أو ما يسمونها بالعلة الأولية، أو المبدأ الأول، أو واجب الوجود، فاضت تلك المخلوقات بالعلل والمعلولات بعدها، وكل علة عندهم أكسبت معلولها قوة الإيجاد والإعداد لما بعدها في تسلسل متصل، وليس العالم عندهم ناتجا عن علم وإرادة وقدرة اتصف بها خالقه، ولكنه صدر عنه صدور المعلول عن علته، فهو سبحانه وتعالى عندهم العلة الأولى التي لا يقوم بها شيء من الصفات والأفعال.

ولما قرروا أن العالم معلول لعلة قديمة أزلية، قالوا أيضا بقدم العالم، وأنه لم يزل مع الله أزلا وأبدا، فالرب والعالم على أصلهم متلازمان، كل منهما شرط في الآخر، والرب محتاج إلى العالم، كما أن العالم

محتاج إلى الرب، تعالى الله عن قولهم.

وتلك عقيدة فلسفية باطلة، تؤدي إلى هدم التوحيد، ونسف حقيقة الإلوهية التي اتصف بها الإله الحق؛ لأن الله تعالى لم يزل ذا قدرة ومشيئة وعلم وحياة، ولم يزل فعالا متكلما إذا شاء وكيف شاء، والله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره، وليس معه شيء من خلقه، فكيف يقترن الخالق والمخلوق اقتران العلة بمعلولها؟ فهؤلاء استخدموا الأقيسة التي تحكم الأسباب في عالم الشهادة في الحكم على خالقهم الذي ليس كمثله شيء.

ومعلوم أن الله ﷻ لا يخضع لقياس تمثيلي يستوي فيه الفرع والأصل، أو قياس شمولي يستوي فيه مع بقية أفراده، كما أنهم أيضا سلبوا عن رب العزة والجلال ما ثبت له في القرآن والسنة من أوصاف الكمال، عندما جعلوه علة تامة أزلية، لا يحدث فيها ولا منها شيء، وجعلوه ذاتا خاملة لا حراك فيها، ولا علم لها ولا مشيئة، ولا قدرة ولا حكمة، ولا عزة ولا رحمة، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، فالله ﷻ عاب المشركين أنهم عبدوا الحجارة والأصنام، ونعي عليهم أنها لا تخلق ولا تتكلم.

وفضلا عن أن عقيدة السلف في معني الإلوهية تدور حول إفراد الله ﷻ بالعبودية، وهي تختلف عن عقيدة المتكلمين الأشعرية والفلاسفة والصوفية، إلا أنهم يجعلون المرجعية في حدوث المخلوقات هو الكمال المطلق في الصفات التي تقوم بالذات الإلهية، كالعلم والإرادة

والقدرة، والحياة والغني والقوة، والعزة الرحمة والحكمة، والخلق والتقدير، والإبراء والتصوير، وكل ما يلزم لإيجاد المخلوقات من الأسماء والصفات عملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس:٨٢ .

ومن ثم فإن الله ﷻ صانع كل شيء بقدرته، وعلة كل شيء صُنْعُه، ولا علة لصنعه، وهو سبحانه وتعالى واحد أحد، وتر صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وليس الإله علة وجود الأشياء، وإنما العلة صفاته الفاعلة [(١)].

- **التوحيد عند السلف نوعان باعتبار وثلاثة باعتبار.**

إذا علمنا أن توحيد الإلوهية عند السلف يعني توحيد العبادة، فيجدر بنا أن نذكر أنواع التوحيد عند السلف الصالح حتى يمكن التعرف على عقيدتهم ومنهجهم وأدلتهم في تصنيف التوحيد، فالتوحيد عند السلف نوعان، وقد يقسم إلى ثلاثة أنواع على اعتبار آخر سوف يأتي تفصيله.

أما تصنيف التوحيد إلى نوعين، والأسماء التي قد يرد بها كل نوع

(١) انظر في التوحيد عند الفلاسفة: الرسالة العرشية لابن سينا ص١٠: ١٢، وانظر تهافت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي ص٣٧، نشر دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٢م، والتعليقات ص٢٠. وهي رسالة من رسائل الفارابي ضمن أحد عشر رسالة، طبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند سنة ١٩٢٦م.

في كتب العقيدة، فبيانه كالتالي:

الأول: هو توحيد الغاية، ويسمى أيضا توحيد الإلوهية، وربما يطلق عليه أيضا توحيد العبادة، وتوحيد القصد والطلب، وتوحيد الشرع والقدر، وتوحيد الإرادة.

الثاني: هو توحيد الوسيلة، ويسمى توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو يطلق عليه توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد العلم والخبر، وهذا النوع كما تقدم يمثل غاية المطلوب في توحيد الله عند كثير من الخلف، أهل النظر والكلام، وطائفة كبيرة من الصوفية.

- الأسماء التي أطلقت على النوع الأول من التوحيد.

أما النوع الأول فسمي توحيد الغاية، وتوحيد العبادة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ الذاريات:٥٦. فعبادة الله وحده لا شريك له هي الغاية التي خلق الناس من أجلها، وهي أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وقد بينت الآية العلة في خلق العباد بلام التعليل في قوله: "إلا ليعبدون" .

ولما جعل أهل الضلال من الجهمية وأصحاب الاعتزال غايتهم في التوحيد تدور حول إثبات الأسماء ونفي الصفات، وكذلك الأشعرية من بعدهم الذين صنفوا التوحيد بقسمة عقلية مبنية على ما يجب للذات من الصفات والأفعال، وجعلوا ذلك غايتهم من التوحيد، كان رد الفعل الطبيعي عند الصادقين من الموحدين أتباع السلف أن

يبينوا لجميع المسلمين الفرق بين توحيد الغاية وتوحيد الوسيلة، وأن توحيد الغاية هو توحيد العبادة، الذي من أجله نزلت الكتب، وبعثت الرسل.

أما التوحيد عند هؤلاء ففضلا عن كون تصنيفاتهم له تخالف النصوص القرآنية والنبوية، إلا أنها وما يدور حولها من موضوعات لم تكن محلا للخلاف بين الرسل وأممهم: لأن الله ﷻ أودع في نفوس البشر من الإقرار بعظمته في ذاته وصفاته وأفعاله وربوبيته لخلقه ما أقر به المشركون في الجاهلية، فقد كانوا يعلمون أن الله ﷻ خالقهم ورازقهم، وأنه عظيم في ذاته، لا يماثل شيئا من معبوداتهم التي يعظمونها. فالنوع الأول هو توحيد الغاية، أو توحيد العبادة.

ويسمي أيضا توحيد الإلوهية أو الإلهية، كلاهما صحيح، وذلك لأنه معنى قول العبد: لا إله إلا الله، فقد تقدم أن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم، وجميع أنواع العبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (توحيد العبادة هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام، فإن الإسلام يتضمن أصلين: أحدهما: الاستسلام لله، والثاني: أن يكون ذلك له سالما، فلا يشركه أحد في الإسلام له، وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه) [1].

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/٢٥٠.

ويُسمي توحيد القصد والطلب؛ لأنه يتعلق بنية المسلم ومطلبه في الحياة، روى البخاري في صحيحه من حديث عُمَر بْن الخَطاب ﷺ أنه سمع رَسُول اللهِ ﷺ يقول: (إِنَّمَا الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لكُل امْرِئ مَا نَوَي، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه) [(١)].

ومعلوم أن العبادة تتضمن الطلب والقصد، والإرادة والمحبة، وهذا لا يتعلق بمعدوم، فإن القلب يطلب موجودا، فإذا لم يطلب ما فوق العالم طلب ما هو فيه[(٢)].

وهذا النوع من التوحيد يُسمي أيضا توحيد الإرادة، فالإرادة في الأصل من راد يرود إذا سعي في طلب الشيء، وهي قوة مركبة في قلب الإنسان جعلت اسما لشروع النفس إلى الشيء، مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أولا يفعل [(٣)].

والإرادة قريبة من القصد والنية والعزم على الفعل، وكلها من أعمال القلوب ومنطقة الكسب، كقوله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) البخاري في كتاب بدء الوحي ١/١ (٤٥).

(٢) انظر بتصرف الفتاوى الكبرى لا بن تيمية ٢/٢٩٨.

(٣) المفردات ص٢٠٦/٢٠٧، ولسان العرب ٣٦٢/١.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ الإسراء:١٨/١٩.

وقد سُمّي هذا التوحيد توحيد الإرادة لتوافق الإرادات، فالعبد إذا حققه توافقت إرادته مع الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية، فالمؤمن الذي كمل إيمانه تتوافق فيه الإرادات. والكافر تتخلف فيه إرادة الله الشرعية فقط، وهي إرادة بمعنى الأمر الشرعي الموجه إلى المكلفين، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ البقرة:١٨٥. وكقوله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ المائدة:٦.

وتلك الإرادة قد تتخلف وقد يعصيها الإنسان، أما إرادة الله الكونية القدرية فهي مشيئة الله النافذة، وهي بمعنى القضاء والقدر والحكم المنتهى، والقضاء المبرم، والتقدير الحتمي الواقع، فمتى قيل: أراد الله كذا على المعنى الكوني، فمعناه شاءه وقضاه وقدره وخلقه وكونه، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ البروج:١٦.

وكقوله أيضا: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ المائدة:١٧ .

سئل سهل بن عبد الله التستري (ت:٢٩٣هـ) عن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ البقرة:٣٤ . فقيل له: لما أمر إبليس بالسجود، أراد

منه ذلك أم لا؟ فقال: أراده، ولم يرده [١].

وهو يقصد بذلك أنه سبحانه أراده شرعا، وإظهارا عليه إيجابا وتكليفا، وهي إرادة الله الشرعية المظهرة للحكمة في اسمه الحكيم، ولم يرده منه وقوعا وكونا، إذ لا يكون في ملكه إلا ما أراد الله تعالى، وهذا وصف القدرة إظهارا لاسمه القدير، فلو أراد كونه لكان، ولو أراده فعلا لوقع، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس:٨٢. فلما لم يكن السجود عُلم أنه لم يرده بقدرته، فقد كان الأمران معا، إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته ألا يسجد، ولذلك أراده، ولم يرده، فلم يقدر أن يمتنع من ألا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع أن يؤمن [٢].

وكما سمي هذا النوع بتوحيد الإرادة، فإنه يسمي أيضا توحيد الشرع والقدر؛ لأن عقيدة السلف عقيدة وسط بين الجبرية والقدرية، فالمسلم يجب أن يسلم لله في تدبيره الشرعي وتدبيره الكوني معا، فيعمل بشرعه ويؤمن بقدره، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، ومعنى ذلك أن المسلم إذا وفقه الله إلى الطاعة واجتهد في أحكام العبودية، وأدى توحيد الإلوهية، نسب الفضل في طاعته إلى ربه، وأنها كانت بمعونته وتوفيقه لما سبق في حكمه وقضائه وقدره، ولا ينسب الفضل إلى نفسه، أو يمن به على ربه.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ص١٢٨.

(٢) السابق ١/١٢٨.

قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجرات:١٧.

هذه أغلب الأسماء والمصطلحات التي تطلق على النوع الأول من التوحيد في كتب العقيدة.

- **الأسماء التي أطلقت على النوع الثاني من التوحيد.**

أما النوع الثاني وهو المسمي توحيد الوسيلة، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد العلم والخبر، فقد سمي توحيد الوسيلة لأن إثباته لله، أو الإيمان به فقط، لا يكفي لدخول الجنة، وعلة ذلك أن الله ﷻ حدد الغاية من خلق الإنسان فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات:٥٦.

ومن ثم فإن عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل هي الطريق إلى الجنة، وهي الغاية التي خلق الناس من أجلها، فالحصول على الجنة سببه الطاعة والعبادة.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كُل أُمَّتِي يَدْخُلونَ الجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَي، قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، وَمَنْ يأبى؟ قَال: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَل الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَي) [١].

أما من يجعل غايته من التوحيد البحث عن وجود الله، والتعرف على

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله(٦/٢٦٥٥) (٦٨٥١).

أوصافه بقوانين العقل، أو التواجد والذوق، كما هو الحال عند الجهمية والصوفية، وأحفادهم من المعتزلة والأشعرية والماتريدية، أو حتى بالرجوع إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فهذا كله عند السلف وسيلة لتحقيق العبادة من خلال معرفة المعبود، فتوحيد العبادة يدل على توحيد الربوبية بالتضمن، وعلى الأسماء والصفات بالتلازم.

قال ابن القيم: (وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع، ولهذا كان حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) [(١)].

ويسمي النوع الثاني من التوحيد أيضا توحيد الربوبية والأسماء والصفات، لأن موضوعه يدور حول إثبات الوحدانية في ربوبية الله ﷻ من خلال الأدلة النقلية والعقلية، وإثبات أنه سبحانه المنفرد بالخلق والتقدير، والملك والتدبير، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا موت، ولا حياة، ولا إضلال، ولا هدي، ولا سعادة، ولا شقاوة إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالك ولا ملك إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، فهذه حقيقة الربوبية، ومعنى كونه رب العالمين [(٢)].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٣٠.

(٢) شفاء العليل ١/٤٤ بتصرف.

وكذلك فإن هذا النوع يدور أيضا حول الطريقة المثلى في معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقيقة المنهج الصحيح الذي لم يتلوث بشيء من أفكار المخالفين، ودنس الشبهات التي تؤدي إلى هدم التوحيد في قلوب المسلمين، وكيف أثبت السلف الصالح لربهم حقائق الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات؟

وكيف أن مذهبهم في ذلك مذهب وسط بين مذهبين، وهدي بين ضلالتين، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين، و من بين المجهلين والمشبهين، كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين؟

وكيف وضعوا ضابطا يحكم منهجهم ويبين عقيدتهم في الأسماء والصفات؟ عندما قالوا بإثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وعندما قالوا: لا نعطل، ولا نؤول، ولا نمثل، ولا نجهل، ولا نقول: ليس لله يدان، ولا وجه، ولا سمع، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا استواء على عرشه. ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوق، ووجه كوجوههم، وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم. بل قالوا: له ذات حقيقية ليست كسائر الذوات، وله صفات حقيقية ليست كسائر الصفات، وليست دربا من المجازات أو نوعا من التخييلات. وكذلك قولهم في وجهه تبارك وتعالى ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه، ولم يمنعهم ذلك أن يفهموا المراد

من تلك الصفات وحقائقها [١].

هذا مع التعرف على فقه الأسماء الحسنى وتمييزها بنصوصها النقلية التوقيفية الثابتة في أدلتها، وحفظها وفهم دلالتها على الصفات، مطابقة وتضمنا والتزاما، ودعاء الله بها، دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وتأثير ذلك في سلوك المسلم واعتقاده .

وهذا النوع يسمي أيضا توحيد العلم والخبر، لأن تحصيل العلم به ورد فيما أخبرنا الله به في كتابه وسنة رسوله ﷺ، فغاية ما للعقل من جهد محدود في هذا الباب، إثبات الخالق ووصفه بأوصاف العظمة، سواء بالنظر إلى الأسباب المشهودة في الآفاق، أو بالنظر إلى النفس وتركيبة الإنسان في دقائق الأعماق، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت:٥٣ .

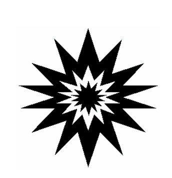
أما لو تَرك الإنسان لعقله العنان في وصف المعبود، فسوف يضع الأقيسة والقواعد والقيود، وسوف يتجاوز الحدود لا محالة في حكمه على ذات الله تعالى، أو حكمه على صفاته وأفعاله، كما فعل أصحاب المدارس العقلية، المنتهجين لفكر الجهمية، وقد كانت النتيجة الحتمية أن وقعوا بجهلهم في الزيغ والضلال، ووصفوا الله تعالى بالعجز والمحال .

(١) الصواعق المرسلة ٢/٤٢٦ بتصرف.

وتوحيد العلم والخبر يُسمي أيضا توحيد المعرفة والإثبات؛ لأن المسلم مطالب بمعرفته، وإثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ، فالتوحيد بغير إثبات الصفات، هو في حقيقته نقص ومذمة، كما هو الحال في الأصل الأول من أصول المعتزلة.

ذلك لأن المتوحد المنفرد عن غيره، لا بد أن ينفرد بصفة يتميز بها، ولا يشاركه فيها أحد سواه، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا، ولا متوحدا ولا متميزا، فالله وله المثل الأعلى، أثبت لنفسه أوصاف الكمال التي انفرد بها دون غيره، ونفي عن نفسه أوصاف النقص، ليثبت توحده في ذاته وصفاته وأفعاله.

وهذا منهج القرآن، فبعد أن بدأ الله ﷻ بالتوحيد أولا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١. اتبع ذلك بإثبات الصفات العليا التي تليق به فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. فالتوحيد يستلزم إثبات الصفات وهذا هو المناسب للفطرة السليمة والعقول المستقيمة، ومن أجل هذا سمي هذا النوع من التوحيد بتوحيد المعرفة والإثبات.



المطلب السابع

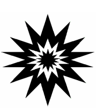
العلة في تصنيف
التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة



- العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين.
- التوحيد نوعان على معنى الإسلام والإيمان.
- التوحيد نوعان لتمييزه عن توحيد المعتزلة.
- التوحيد نوعان لدلالة النقل جملة وتفصيلا.
- التوحيد نوعان باعتبار الخبر والطلب.
- التوحيد نوعان باعتبار استخلاف الإنسان في الأرض.
- العلة في تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع.
- تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع عند الأشعرية.
- مناقشة الأشعرية في تصنيفهم التوحيد وبيان بطلانه.
- أبو الحسن الأشعري سلفي المعتقد مخالف للأشعرية.

المطلب السابع

العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا، وأن توحيد العبادة كان الاصطلاح السائد بين علماء السلف الصالح منذ عصر النبوة، وقد بينا حقيقة المصطلحات التي وردت في كتب التراث وأطلقت على علم التوحيد، كما دار الحديث أيضا عن مفهوم الإلوهية عند السلف وعند الخلف وعلماء الكلام، وكذلك مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية والفلاسفة.

كما بينا أن تصنيف التوحيد عند السلف ورد على نوعين باعتبارات معينة، وصنف إلى ثلاثة أنواع باعتبارات آخرى، كان أغلبها الرد على أهل البدعة من أتباع الجهمية، ودلالة النصوص القرآنية والنبوية جملة وتفصيلا، وتحدثنا عن الأسماء الاصطلاحية التي أطلقت على كل نوع من نوعي التوحيد.

وفي هذا المطلب يدور الحديث بإذن الله عن العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين أو ثلاثة أنواع، وذلك من خلال المحاور التالية:

• **العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين عند السلف.**

كان المعروف والمشتهر بين الصحابة والتابعين مصطلح الإسلام، والإيمان، والإحسان، بل علمهم جبريل ﷺ تلك المصطلحات من خلال حوار أجراه مع النبي ﷺ وهو مع أصحابه ﷺ.

روى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، قَالَ: مَا الإِسْلامُ؟ قَالَ: الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ؟ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلا اللهُ ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ.. الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ) [١].

وقد عرف النبي ﷺ الإسلام بالأركان الخمسة، وعرف الإيمان بالأركان الستة، وجعل الإحسان رابطا بينهما، بمعنى أن يكون

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١/٢٧ (٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو؟ وبيان خصاله ١/٣٩ (٩).

الإسلام الحق عن عقيدة وإيمان. ولا يعني ذلك أن نوعي التوحيد لم يكونا معروفين بين الصحابة والتابعين، فقد سبق وعلمنا أن توحيد العبادة لله هو ما تداوله الصحابة ﷺ فيما بينهم كمعنى وحيد لشهادة التوحيد، وأن إيمانهم بتوحيد الربوبية هو إيمان ضمني مفطور في نفوسهم بمقتضى شهادتهم أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ الزخرف:٩.

وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١. وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزمر:٣٨.

- **صنف التوحيد إلى نوعين على معنى الإسلام والإيمان.**

كان أصحاب النبي ﷺ يعلمون أن مصطلح الإسلام الذي ورد تعريفه في حديث جبريل عليه السلام هو في حقيقته توحيد العبادة لله، وإفراده بها، فالإسلام هو الخضوع والاستسلام للمعبود على وجه المحبة والتعظيم، وهذا تعريف العبادة. أما توحيد العبادة فظاهر من الشهادة التي هي أول ركن من أركان الإسلام، فكلهم يعلمون أن الإسلام لا يصح إلا بالتوحيد، وأن توحيد العبادة لله هو الإسلام .

كما أن أركان الإيمان التي وردت في حديث جبريل عليه السلام هي في حقيقتها توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وما يجب على المسلم اعتقاده في باب الغيبيات. وتلك الأركان التي ذكرها النبي ﷺ في مصطلح الإيمان بنيت على الإقرار بما نزل في القرآن من تقرير للحقائق العظمى في حياة الإنسان.

كلهم كانوا على عقيدة واحدة في توحيد الله بالعبودية، والإقرار بما جاء من عنده، سواء في توحيد الربوبية، أو الأسماء والصفات وسائر الغيبيات، فتصنيف السلف الصالح للتوحيد يتوافق مع النقل والعقل والفطرة السليمة. غير أن الأمر يتطلب مزيدا من البيان للعلة التي من أجلها صَنَّف السلف الصالح توحيد الله إلى نوعين .

ويمكن بيان العلل التي تكشف بجلاء ووضوح صدق ما عليه السلف، وبهتان ما يدعيه الخلف من تصنيفات عقلية فلسفية لتوحيد الله عز وجل، وأبرز تلك العلل يتمثل في النقاط التالية:

- **صنف التوحيد إلى نوعين لتمييزه عن توحيد المعتزلة.**

صُنِّف التوحيد إلى نوعين بناء على رد فعل السلف على المخالفين، فلما ظهرت الجهمية والمعتزلة كنبتة لا أصل لها في عصر السلف، ابتدعوا للتوحيد في اصطلاحهم معنى جديدا غير ما استقر في اعتقاد الصحابة والتابعين وعلماء السلف، فقالوا: إن التوحيد هو إثبات الأسماء ونفي الصفات، فجعلوا القرآن عضين، يقبلون منه ما يوافق

آراءهم الفاسدة، ويعطلون ما يخالفها.

وهذا هو الأصل الأول عند المعتزلة والمسمى بالتوحيد، وقد زعموا فيه أنهم أهل التوحيد وخاصتُه، وأنهم المنزهون لربهم عن التشبيه والتجسيم، وخلاصة رأيهم في التوحيد أن الله تعالى لا صفة له، لأنه منزه عن الشبيه والمثيل، كما قال سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورى:١١.

وهذا توحيد يناقض الفطرة، ولا ينطلي إلا على أذهان السفهاء، بل هو توحيد يسخر منه جميع العقلاء، لا يقبله عاقل على نفسه، فكيف يقبله على ربه؟ فالعقلاء يمدحون غيرهم بإثبات الصفات التي تليق بهم، والموحدون لله حقا يحمدون ربهم بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وهذا ما دعا علماء السلف الصالح أن يبينوا حقيقة توحيد الأسماء والصفات، وأن ما جاء به القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة ﷺ في هذا الباب هو إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ دون تعطيل للأدلة، أو تأويل لها بما لا تحتمل، ودون تشبيه الله بخلقه، أو قياسه على المخلوق.

وكثر الحديث بين عامة الناس عن توحيد الأسماء والصفات أيام سيطرة المعتزلة، وشاع في الخلافة الإسلامية حتى أصبح الحديث فيه يكشف عن هوية المتكلم، ويحدد نوعية الشخصية المسلمة، واستمر

ذلك حتى عصرنا، بحيث يستطيع الناظر المحقق أن يعلم هوية المتكلم، إن كان من أتباع السلف، أم من أتباع الخلف.

كما أن الأصل الثاني عند أهل الاعتزال أداهم إلى الشرك بالله في الربوبية ،حيث رفعوا شعار العدل لينطلي على الجهال والدهماء. وهم يريدون بذلك أن الله لا يخلق أفعال العباد خيرها وشرها، فعطلوا قوله تعالى في إفراده بالربوبية، وإفراده بالخلق والتدبير: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات: ٩٦.

وكذلك عطلوا قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأنعام:١٠٢.

وعطلوا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فاطر:٣.

وكذلك عطلوا قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ غافر:٦٢. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ الزمر:٦٢.

وقد ستروا تحت شعار العدل نفي التقدير، وعلم الله السابق بالمقادير، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم عذبهم عليه كان ذلك جورا وظلما، والله تعالى عدل لا يظلم، ولا يجور، فجعلوا أفعال الله أسيرة، أو مرهونة بأفعال عباده.

وهذا ما دعا علماء السلف الصالح أن يبينوا حقيقة توحيد الربوبية، وأن ما جاء به القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة ﷺ في هذا الباب، هو إفراد الله بأفعاله، وأن كل صغيرة وكبيرة في الكون واقعة بقضائه وقدره، وأن الخالق عند أهل التوحيد واحد، وأن ما سواه مخلوق، فالله ﷻ هو خالق كل شيء، وأن هذا الأمر متفق عليه بين الرسل، اتفقت عليه الكتب الإلهية، والفطرة البشرية، وجميع الأدلة العقلية، فليس في الوجود أمر إلا بمشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولم يخالف في ذلك إلا مجوس الأمة من المعتزلة القدرية، الذين أشركوا في الربوبية، وزعموا أن العبد يخلق فعله من دون الله وقدرته.

- **صنف التوحيد إلى نوعين لدلالة النقل جملة وتفصيلا.**

صُنف التوحيد إلى نوعين بناء على دلالة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية جملة وتفصيلا، ففي الجملة كل نص ورد في الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية شاهد لأحد نوعي التوحيد، فالنصوص التي تضمنت الحديث عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يتعلق بتدبيره الكوني، أو تحدثت عن عالم الغيب وما فيه من مخلوقات، أو ما يحدث في القبر، أو سيحدث من أمور الساعة والبعث، والحساب والجنة والنار، وسائر أمور الجزاء، أو كل ما يجب على المسلم اعتقاده والإيمان به، كل هذه النصوص تمثل شواهد نصية لتوحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو آثار الإيمان

بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والنصوص التي تضمنت الحديث عن تدبير الله الشرعي، وحكمه الديني، أو منهج التكليف في الحياة، وكيفية عبادة الله، من أمر أو نهي على سبيل الحتم والإلزام، أو أمر أو نهي لا على سبيل الحتم والإلزام، أو موقف الناس من تلك الأحكام، وجزاؤهم في الدنيا والآخرة، كلها شواهد لتوحيد الإلوهية والعبادة، وتحقيق لمقتضى النطق بالشهادة التي بعث النبي ﷺ من أجلها.

أما على وجه التفصيل فهذه شواهد نذكرها للتدليل والتمثيل، يمكن أن يُحتذي بها في معرفة الدليل على نوعي التوحيد، ففي أول سور القرآن، ورد ما يدل على أن التوحيد نوعان، توحيد الإلوهية والعبادة كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة:٥، وتوحيد الربوبية في رد الاستعانة إلى الله الواحد الأحد قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يعني إياك نوحد ونخاف، ونرجوك ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك، وعلى أمورنا كلها) [(١)].

ويذكر ابن القيم رحمه الله في هذين الأصلين العظيمين أن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى ألوهيته، والثاني من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإنابة، وإجلالا

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ١/٣٧، نشر دار الفكر بيروت.

وإكراما وتعظيما، وذلا وخضوعا، وخوفا ورجاء وتوكلا، والرب هو الذي يربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه، فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه. وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ هود: ١٢٣. وقوله عن نبيه شعيب ﷺ: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود:٨٨. وقوله ﷻ: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ الفرقان:٥٨.

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ ﴾ المزمل:٨/٩. وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الرعد:٣٠.

وقوله عن أتباع إبراهيم ﷺ: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ الممتحنة:٤. فهذه سبعة مواضع، تنظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة [(١)].

وتأمل كيف شبه المشركون المخلوق بالخالق، وأشركوا في الربوبية والإلوهية معا عندما عظموا الأحبار والرهبان، وأطاعوهم في معصية

(١) انظر بتصرف إغاثة اللهفان ١/ ٢٧.

الله، وجعلوا أمرهم مقدما على أمره، كما ورد في قوله ﷻ:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ ﴾ التوبة: ٣١.

كانت الأحبار والرهبان أعظم مكانة في قلوبهم من ربهم، وأعلى منزلة وطاعة من خالقهم، فلم يوحدوا الله في الربوبية، وبمفهوم المخالفة كان الواجب عليهم إفراد الله بالربوبية واعتقاد أن ما سواه مهما علا فإنما هو عبد لله، وهم مأمورون على ألسنة رسلهم بتوحيد العبودية لله، وأن يعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو، ولكنهم وقعوا في شرك الربوبية والعبودية معا. وهذه الآية يماثلها في الدلالة على نوعي التوحيد قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾ آل عمران: ٦٤. ففيها دعوة إلى توحيد الإلوهية، وإفراد الله بالعبودية، وفيها دعوة إلى توحيد الربوبية، ونفي أوصافها عن الذات البشرية.

وكثير من آيات القرآن جاءت بنوعي التوحيد في عبارات بليغة، وترتيبات منظمة، ودلالات محكمة، شاهدة لتوحيد الربوبية والعبودية معا كقوله تعالى عن عيسى ؑ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١ ﴾ آل عمران: ٥١. فتأمل توحيد الربوبية في قوله تعالى:

إن الله ربي وربكم. وتأمل توحيد العبادة في قوله: فاعبدوه، أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه [(١)].

وهذان النوعان من التوحيد من شك فيهما، أو اعتقد في عيسى عليه السلام الربوبية، أو توجه إليه بشيء من العبودية، فقد انطبق عليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ المائدة:٧٢.

وكثير من الآيات يترابط فيها التوحيد بنوعيه، فإما أن يكون أحدهما متضمنا للآخر، أو يكون أحدهما ملزما للآخر، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأنعام:١٠٢، فالله خالق كل شيء وقائم على تدبير أمره، فمن الواجب على عبده إفراده بالعبادة، وهذا توحيد ربوبية يوجب توحيد الإلوهية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ يونس:٣.

قال ابن كثير: (أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، أفلا

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/٤٣، نشر دار الفكر، بيروت.

تذكرون أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله إلها غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق) [(١)].

وعلى الوتيرة نفسها جاء قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ مريم: ٦٥.

وقوله سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ فاطر: ١٣.

وكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ غافر: ٦٢/٦٥. والآيات في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

وأما السنة فبابها واسع في الدلالة على نوعي التوحيد، فتأمل توحيد الربوبية في حديث ابن عباس ﷺ عندما قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: اللهُمَّ لكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لكَ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٤٠٧ نشر دار الفكر بيروت.

الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ) [١].

وتأمل توحيد العبودية في قوله ﷺ بعد ذلك: (اللهُمَّ لكَ أَسْلمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَليْكَ تَوَكَّلتُ، وَإِليْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِليْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلهَ إِلا أَنْتَ، أَوْ لا إِلهَ غَيْرُكَ) [٢].

وصح عن أبي هريرة ﷺ أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: (يَا رَسُول اللهِ، مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. قَال: قُل: اللهُمَّ عَالمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُل شَيْءٍ وَمَليكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، قَال: قُلهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ) [٣].

فاشتمل الدعاء على الثناء على الله ﷻ بذكر توحيد الربوبية، وشمولية علم الله وملكه للخلق، ثم إقراره بالحق وتوحيد العبودية،

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد ، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل: ومن الليل فتهجد به نافلة لك ٣٧٧/١ (١٠٦٩) .

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٤٦٧/٥ (٣٣٩٢) وقال: هذا حديث حسن صَحِيح ، وأبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٣١٦/٤ (٥٠٦٧)، وأحمد في المسند ٩/١ (٥١) ، وصححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة (٢٧٥٣.

والاستعاذة به من جماع أسباب الشر كله، المتمثلة في هوى النفس وشبهات الشيطان.

ومثله أيضا دعاء سيد الاستغفار، فقد روى البخاري من حديث شَدَّاد بْن أَوْسٍ ﷺ أن النَّبِيّ ﷺ قال: (سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تقُول: اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلهَ إلا أَنْتَ، خَلقْتَنِي، وأَنَا عَبْدُكَ، وأَنَا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لكَ بِنِعْمَتِكَ على، وأَبُوءُ لكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ، قَال: وَمَنْ قَالهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْل أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْل الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالهَا مِنَ الليْل وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْل أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْل الجَنَّةِ) [١].

والأمثلة على ذلك كثيرة، وفيما تقدم كفاية لذوي البصيرة في دلالة النصوص على نوعي التوحيد.

• **صنف التوحيد إلى نوعين باعتبار الخبر والطلب.**

علمنا أن غاية التوحيد العظمى، وطريقة السلف المثلى، التي جاهدوا من أجل إثباتها في توحيدهم لربهم، أن يثبتوا ما أثبته الله لنفسه بتصديق خبره، وأن يطيعوا الله فيما أمر على لسان نبيه ﷺ، فالأول عندهم هو ما أُطلق عليه توحيد الوسيلة، أو توحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. والثاني هو ما أُطلق

---

(١) البخاري في الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٥/٢٣٢٣ (٥٩٤٧).

عليه توحيد الغاية، أو توحيد الإلوهية، أو توحيد العبادة، أو توحيد الإرادة، أو توحيد الشرع والقدر، فهم بقولهم: لا إله إلا الله، قد عقدوا في أنفسهم عقدا، أن يكون الله ﷻ هو المعبود الحق، الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان.

ويذكر أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ) أن حقيقة الإيمان والتوحيد، تكمن في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر؛ لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب، والأمر والنهي كل واحد منهما قول يتردد بين أن يطاع قائله، وبين أن يعصي، فمن سمع خبرا، واعتقد أنه حق، وصدق به، فقد آمن به، ومن سمع أمرا أو نهيا، فاعتقد الطاعة له، فكأنما آمن في نفسه به [١].

وقد بين ابن القيم أن جماع الدين شيئان: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، وأن أساس التوحيد والهداية التي من الله بها على الموحدين، يترتب على تصديق خبر الله، من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله.

ثم قال رحمه الله: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران، وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه، المانعة من كمال التصديق، وأن لا

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ١/٣٥.

يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه، المانعة من كمال الامتثال) [١].

ومن نازع في تقسيم التوحيد إلى هذين النوعين، فيقال له: لنكن على تصديق الخبر تصديقا جازما، وتنفيذ الأمر تنفيذا كاملا، فنصدق كل خبر ورد عن الله ﷻ وصح عن رسوله ﷺ، ونؤمن به على ظاهره الذي أراده الله ورسوله ﷺ، ونمرره قرآنا عربيا إلى سائر الناس، دون تدخل منا بتعطيله أو بادعاء مجاز، فلا نسعى بتأويله إلى تحريف الكلم عن مواضعه، ولا نزعم بتفويضه أنه كلام بلا معنى، ولا نعبث في الإيمان به كما فعلت يهود حين جعلوا القرآن عضين، فلا يليق أن يؤمن بعضا بما يوافق أصوله الكلامية في الصفات السلبية والمعنوية، ويؤول الصفات الخبرية أو يفوضها ويزعم أنها بلا معنى. بل نؤمن بالكتاب كله كما جاءنا عن الله ورسوله ﷺ.

• **التوحيد نوعان باعتبار استخلاف الإنسان في الأرض.**

وهذا الوجه واضح وضوح الشمس، فالله ﷻ قال عن العلة من خلق الإنسان ووجوده في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. فالآية دلت على أنه مستخلف في أرض الله. والخلافة في أصلها اللغوي تعني النيابة عن الغير. ولا بد فيها من استخلاف المستخلِف بكسر اللام، للمستخلَف بفتحها،

(١) مفتاح دار السعادة ١/٤٠.

وتخويله وإذنه له بها، ولا تصح في اللغة بغير هذا [١].

قال ابن حزم: (ومعني الخليفة في اللغة هو الذي يستخلفُه، لا الذي يخْلُفُه دون أن يستخلفَه هو، لا يجوز غير هذا البتة في اللغة بلا خلاف، تقول: استخْلفَ فلانٌ فلانا يستخلفُه، فهو خليفَتُه ومستخلفُه، فإن قام مكانه دون أن يستخْلفُه هو، لم يُقَل إلا خلف فلان فلانا، يخلفه فهو خالف) [٢].

وإذا كانت الخلافة بمعنى التخويل والإنابة، فهل الإنسان خليفة ينوب عن الله في أرضه؟ أم يخلف من سبق بعد موته؟ وحتى نصل إلى مرادنا في ضرورة تصنيف التوحيد إلى نوعين من خلال معنى الاستخلاف، لا بد أن ندرك أن الاستخلاف يأتي على معنيين:

١- استخلاف عن نقص الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان، ويكون عند عجز المستخلف عن القيام بملكه، أو تدبير أمره، إما لغيابه أو قلة علمه، وإما لمرضه أو موته، كاستخلاف القائد نائبا على جنده أو قومه، كما ورد في قوله تعالى عن موسي عليه السلام:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ الأعراف:١٤٢.

---

(١) التوقيف علي مهمات التعاريف للمناوي ٣٢٢/١ نشر دار الفكر ، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص١٥٦ نشر دار القلم ، دمشق.

(٢) الفصل في الملل والنحل ٨٨/٤، ومنهاج السنة النبوية ٤٩٤/١.

٢- استخلاف عن كمال الأوصاف، وذلك إذا كان لتشريف الإنسان وإكرامه، أو اختباره وامتحانه، وليس لعجز المستخلف عن القيام بشؤونه.ولله المثل الأعلى لما قال سبحانه للملائكة في شأن الإنسان: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. تحقق في الخلافة المعنيان، أحدهما أن يخلف بعضهم بعضا على وجه النقص، والثاني أن يكون خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والامتحان.

وكذلك يقال في كل آية ورد فيها استخلاف الله للإنسان، فإنها تدل على المعنيين معا، أنه خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، وخليفة لله على وجه الكمال وتنفيذ الأحكام الشرعية، غير أنه لا حول له ولا قوة في أي معنى من معاني الربوبية.

ومن هنا يظهر السر في تصنيف التوحيد إلى نوعين فالله ﷻ استخلف الإنسان في أرضه، وهو معه من فوق عرشه، يتابعه، ويراه ويسمعه، ولكنه سبحانه بين لنا أن استخلافه في هذه الدار، إنما هو على وجه الابتلاء والاختبار، والأمانة التي يحاسب عليها بجنة أو نار، فهو استخلاف ليس عن غيبة المستخلف أو عجزه، لأن الاستخلاف وإن اقتضى غياب المستخلف بين الناس في العادة، إلا أنه هنا يكشف سر الإيمان وحقيقة التوحيد في العبادة، بظهور عالم الغيب والشهادة، فالله ﷻ غيب بالنسبة للإنسان، لأنه ﷻ جعل مداركه محدودة، فهما غيب وشهادة ليس بالنسبة لعلم الله ﷻ بخلقه، ولكن بالنسبة لرؤية الإنسان لربه، ومدى علمه بكيفية ذات الله ﷻ ووصفه وفعله، فقال

سبحانه في شمولية علمه، لكل صغيرة وكبيرة في خلقه: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ الرعد:٨/١٠.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ السجدة:٦.
وقال سبحانه في المقابل عن حدود علم المستخلف ومدي ضعفه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء:٨٥. وقال: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ النمل:٦٥. فعلم الإنسان مهما بلغ محدود، لأن حواسه عليها غطاء وقيود.

ومن ثم كان النطق بشهادة الحق أمرا وتكليفا، وترك الزور وقول الصدق مدحا وتشريفا، فمن الجهل والعيب ادعاء الإنسان لعلم الغيب، أو القول على الله ﷻ بلا علم. ومن أجل ذلك أيضا ظهر تكليف المسلم بالتصديق الجازم لكل خبر ورد عن ذات الله ﷻ وأسمائه وصفاته، وكل ما ورد في القرآن والسنة عن أركان الإيمان، وأن يثبت ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وما أثبته رسول الله ﷺ، وحرم عليه أن يتقول على ربه، بوضع أقيسة عقلية يحكم بها على الأدلة النقلية، فيأخذ منها ما يشاء، ويعطل ما يشاء وفق فلسفة الأهواء، فيقع في التمثيل والتكييف، والتعطيل والتحريف، وهذا هو النوع الأول من

نوعي التوحيد.

أما النوع الثاني فقد ارتبط باستخلاف الإنسان، من جهة أن الاستخلاف مقيد بالخضوع لأمر الله ﷻ فيما استخلفه واسترعاه، وإظهاره لتوحيد العبودية والعمل في أرض الله ﷻ بالشريعة الإسلامية. وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله ﷻ في معاني الربوبية، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية، سبحانه وتعالى أن يتخذ شريكا له في ملكه، أو يتخذ وليا من الذل وينعزل عن خلقه، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١. وقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ الرعد:١٦.

• العلة في تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع .

كل من أقر بتصنيف التوحيد إلى نوعين على اعتبار تنفيذ الأمر وتصديق الخبر، أو على اعتبار توحيد الغاية والوسيلة، أو توحيد القصد والطلب، وتوحيد العلم والخبر، أو توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فسوف يقر ضرورة بتصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع، لو اعتبرنا توحيد الربوبية والأسماء والصفات نوعان، وليس نوعا واحدا كما سبق، فعند الفصل بينهما تظهر أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع اشتهرت بين المتبعين لنهج السلف الصالح بحيث غطت شهرتها علي التصنيف السابق بنسبة كبيرة، وقد كان الباعث على تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع يتمثل في النقاط التالية:

الأمر الأول: صُنِّفَ التوحيد عند السلف إلى ثلاثة أنواع على اعتبار وجود تصنيف مبتدع، أحدثه المتكلمون من الأشعرية منذ وقت مبكر، وأذاعوه بين الناس، وانتشر بحكم السطوة والقربة لدى الساسة والأمراء والخلفاء، كما حدث من المعتزلة عندما أداروا البلاد الإسلامية في عهد مجموعة من خلفاء بني العباس، فغيروا وبدلوا في معنى التوحيد.

هذا في مقابل ضعف السلف وزهدهم وبعدهم عن قصور الخلفاء والأمراء وأصحاب الأهواء، فالأشعرية صنفوا التوحيد إلي ثلاثة أنواع مبنية لا علي أدلة قرآنية ونبوية، كما هو الحال عند السلف، ولكن على دلالات عقلية سقيمة، وآراء فلسفية باطلة أطلقوا عليها مصطلح أصول الدين.

قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ) في بيان أنواع التوحيد عند الأشعرية: (وأما التوحيد، فقد قال أهل السنة وجميع الصفاتية: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له) [(١)].

---

(١) الملل والنحل ١/٤٢.

وفضلا عن ادعائهم أن الأشعرية هم أهل السنة، وسلبهم هذا الوصف عن المنتهجين لطريقة السلف، فقد صنفوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع محدثة، لا دليل عليها من كتاب أو سنة، فلم يكن بد من رد الفعل الطبيعي لهذا التقسيم المحدث، بنشر تصنيف السلف لأنواع التوحيد وإذاعته، وتركيز الضوء على أدلته المبنية في جوهرها على الأصول القرآنية والنبوية.

وسواء صنف التوحيد إلي نوعين، أو ثلاثة أنواع عند العلماء المخلصين أتباع السلف، فإن الغاية المرجوة عندهم نشر التوحيد الحق، ورد ما أحدثه الآخرون من البدعة والباطل.

وقد ظهرت سلسلة من الردود المتوالية في مؤلفات كثيرة، تدافع عن مذهب السلف، وتعيد الناس إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الباع الأكبر في ذلك، فقد صنفا حشدا هائلا من الردود والمصنفات في خدمة العقيدة السلفية، ويمكن القول إن من أتى بعدهما كان عالة عليهما، وعلى ما تركاه من مصنفات.

الأمر الثاني: صُنِّفَ التوحيد عند السلف إلى ثلاثة أنواع على اعتبار معنى التوحيد عندهم، وما يتبعه بالضرورة من إثبات معاني الكمال التي انفرد بها رب العزة والجلال عمن سواه، فالتوحيد كما تقدم هو الإفراد، ولا يكون التوحيد توحيدا إلا مع الإثبات، فما

الذي انفرد به رب العزة والجلال مما ورد في الآيات من إثبات؟ عند الحصر والاستقصاء لجميع الأدلة في القرآن والسنة، يتبين أن الله انفرد بثلاثة أشياء جامعة لا يشاركه فيها غيره:

أولها: انفراده سبحانه وتعالى بالربوبية، فلا رب سواه، ولا خالق ولا مدبر للكون إلا الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف:٥٤. وثلث آيات القرآن تقريبا، يدور حول هذا النوع من التوحيد وما يدل عليه.

ثانيا: أنه سبحانه انفرد بالإلوهية والعبادة، فلا يقبل الشركة فيها، فإما يُعْبَد وحده بإخلاص، وإما يَرُد عبادة المشركين عليهم. أما أن يَقْبَل من عباده أن يعبدوه ثم يعبدوا غيره معه في آن واحد، فهذا قد يقبله أحد الطواغيت والمعبودات الباطلة، أما رب العزة والجلال فهو أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معه غيره، تركه وشركه. هكذا جاء الحديث مرفوعا عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) [1].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ

(١) مسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ النساء:٤٨. وهذا النوع هو حقيقة الشهادة، وتجريد التوحيد والعبادة، وثلث ما ورد في آيات القرآن تقريبا يدور حول هذا النوع من التوحيد.

ثالثا: أنه انفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى، فكما أنه انفرد بالربوبية والإلوهية، فإنه أيضا انفرد بالأسماء والصفات، فلا سمي له ولا نظير، ولا ند له ولا مثيل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١.

الأمر الثالث: صنف التوحيد إلى ثلاثة أنواع بناء على دلالة النصوص القرآنية والنبوية، فالقرآن والسنة إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الأسماء والصفات، أو خبر عن قضائه وقدره، وحكمته ومشيئته، وكمال قدرته، وملكه لخلقه، وتدبيره لكونه، ووصفه لفعله، وهذا توحيد الربوبية، وكلاهما مستلزم للآخر متضمن له.

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، وذلك من خلال أمر بالعبادات، ونهي عن المخالفات، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين، متضمن لهما أيضا. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في

العقبى من الوبال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد [١].

ومن الضرورة أن نبين أن كل مسلم يكفيه أن يصدق بخبر الله تصديقا جازما، دون شك أو تكذيب، وأن ينفذ أمره عن خضوع ومحبة وتعظيم، كما كان الحال في عهد النقاء والصفاء زمن السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ ولكن مع انتشار الأوبئة الفكرية في المستنقعات التي أحدثها أتباع الجهمية في البيئة الإسلامية حتى عصرنا، يلزم المسلم الصادق أن يحصن نفسه في التوحيد بمضادات اعتقادية، وتحصينات قرآنية نبوية، كمناعة لهم وحماية من أفكار المخالفين.

- **تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع عند الأشعرية.**

الأشعرية في عصرنا يمثلون الأغلبية في العالم الإسلامي، وذلك ليس عن رغبة معتنقيه من أهل العلم في هذا المذهب، ولكن لكونه واقعا مفروضا في أغلب المؤسسات التعليمية في مرحلة التلقي والتعليم منذ الصغر، فهذا المذهب الذي يطلق عليه معتنقوه على زعمهم مذهب أهل السنة، ما زال مقررا في أغلب المدارس والجامعات في البلاد الإسلامية إلا من رحم ربك.

وطالب العلم يدخل منذ نعومة أظفاره إلى المدارس والمعاهد وهو

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، نشر مكتبة الرياض الحديثة ص١٧ وما بعدها، بتصرف.

خالي الذهن، فيجد مقررا منفرا غريبا في مادة التوحيد، ويجد المدرسين يلقنونه ويحفظونه أنواعا من التوحيد مبنية على أدلة عقلية بعيدة عن طريقة السلف المعتمدة على ما ورد في الكتاب والسنة.

ويستمر الطالب في دراسته حتى يصبح أستاذا جامعيا، وهو يجهل حقيقة ما عليه السلف، ولو نُوقش في ذلك إما أن يستنكف عن الخضوع للحق؛ لأنه أستاذ صاحب هيبة ومكانة، وقبول الحق عنده يعني إقراره بلوازم يصعب تصورها، أو الالتزام بها، وإما يزداد إصرارا على صدق الطريقة الأشعرية، ويتمادى في الدفاع عنها بحجج عقلية حتى يستحيل معه النقاش.

والحق يقال: إن بعض من يقوم على التدريس للطلاب، أو يلخص لهم بعض ما جاء في المقررات أو الكتاب، ربما يشعر بشيء من المسئولية عند فهمه للطريقة السلفية، فينبه طلابه على أن ما يدرسونه يجب أن يكون للنجاح في الامتحان، وليس للاعتقاد والإيمان، الذي يقابل به رب العزة والجلال يوم القيامة.

وقد رأيت ذلك بعيني في بعض الملخصات الخارجية التي تباع للطلاب، مما أثلج صدري، وأثار في نفسي العجب والاستغراب، ومن هنا كانت أهمية التعرف على التوحيد وتصنيفاته عند الأشعرية، والرد عليهم من باب النصيحة لإخواننا من جهة، وتحصين طلاب العلم من جهة أخرى.

لقد اعتمد السلف الصالح في اعتقادهم على الاستسلام لأمر الله وتنفيذه على وجه الكمال، والتصديق بخبره وإثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فالله ﷻ أعلم بنفسه ووصفه منا، ونحن ما رأيناه، وما رأينا له مثيلا فكيف نحكم على كيفيته بعقولنا القاصرة؟

وليس هناك من خيار أمام من يدافع بإصرار عن استخدام عقله في وصف ربه إلا أن يقع في المحذور، ويستخدم أقيسة التمثيل والشمول، فيقول: لو كان الله كذا، لكان كذا، ويجب عليه كذا، لأجل كذا، ولو قلنا في وصفه بكذا، لكان كذا وكذا، وهو في حقيقة مبدئه يعتبر ربه فردا من أفراد ذلك القياس، ينطبق عليه ما ينطبق على سائر الناس. ولذلك كان مذهب السلف في التوحيد مذهبا حاسما، قطع الطريق على هؤلاء بمنع الأقيسة العقلية المبنية على اجتهادات فكرية في التعرف على الغيبيات، أو كيفية الذات والصفات، سواء كانت أقيسة تمثيلية أو شمولية.

لكن إصرار الأشعرية على استخدام حصيلتهم العقلية، والتي جمعوها من أفكار فلسفية كلامية يونانية وثنية في وصف الله ﷻ، وزعمهم أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أداهم إلى أن يصنفوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع أساسية، فقالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له. وقد تقدم ما ذكره الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ) في وصف الأشعرية

بأنهم أهل السنة والجماعة، وأن التوحيد عندهم منقسم إلى تلك الأنواع السابقة.

والسؤال الذي يطرح نفسه على العقلاء: على أي أساس عقلي صنف هؤلاء المتكلمون التوحيد إلى ثلاثة أنواع؟ هل استندوا إلى حكم العقل بأن الله أعلم بنفسه ووصفه منا، فجاء هذا التصنيف مستندا على كتاب ربهم وسنة نبيهم؟ أو أنهم استندوا إلى فهم الصحابة والتابعين وأئمة السنة المقبولين عند جميع المسلمين، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم؟

في الحقيقة لم يستندوا في تصنيفهم للتوحيد لا إلى هذا ولا إلى ذاك، وإنما جعلوا الأمر مشاعا عقليا لكل من يدلي بدلوه في الموضوع، فأشبه الأمر استفتاءا شعبيا، واستبيانا فكريا لسائر العقلاء، كان مضمونه: أيها العقلاء الذين لم تروا ربكم، ولم تروا له مثيلا، خمنوا وبينوا لنا ما يجب في حق الله، وما يجوز له، وما يستحيل عليه، وسنأخذ في النتيجة النهائية برأي الأغلبية، لأننا نعلم أنه من المستحيل اتفاق الكل على استفتاء عادي، فضلا عن استفتاء فكري، ولكن سنعتبر رأي الأغلبية أصولا عقلية، ثم نعتبرها بعد ذلك أصولا لديننا وعقيدتنا. فقبلت مجموعة كبيرة من كبار المتكلمين العقلاء المشاركة في هذا الاستفتاء، ثم خرج بعضهم بنتيجة غريبة، لا يعرف فيها مقياس لفرز الآراء، ولا عدد الذين اتفقوا عليها من ذوي الأصوات العقلية الصحيحة.

المهم أن رأيا عاما ظهر في تلك النتيجة، نسبوه إلى زعيم من الزعماء، هو أبو الحسن الأشعري، وقد ظنوا أنه شارك معهم في هذا الاستفتاء، والواقع أنه لم يكن معهم أصلا عند ظهور تلك الآراء، لكنهم على كل حال توصلوا إلى هذه النتيجة، واعتبروا أنها تمثل الدستور الحق ومعيار الصدق في باب الاعتقاد، وأن من دان بها فهو من أهل السنة والجماعة، أو من أهل الحق والتحقق في الدين الخالص وبلوغ الحقيقة، فكان من بنود هذا الاتفاق تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع، بناء على الحيثيات التالية:

النوع الأول: أن الله واحد في ذاته، لا ينقسم، وليس له أجزاء وأبعاض، لأنه إن كان له أجزاء، لم يخل إما أن يكون كل جزء منه حيا عالما قادرا، أو كان بعض الأجزاء مختصا بالحياة والعلم والقدرة، فإن كان كل جزء منه حيا عالما قادرا، كان في ذلك إثبات آلهة متعددة، ويُستدل على بطلانه، وإن كانت الحياة والقدرة والعلم في جزء مخصوص، لم يكن الجزء الثاني حيا عالما قادرا، لاستحالة وجود العلة في محل، وثبوت حكمها في محل آخر [١].

النوع الثاني: أن الله واحد في صفاته لا شبيه له، لأنه يخالف الحوادث، والحوادث لا تقوم به، والدليل على استحالة قيام الحوادث بذات الباري تعالى، أنها لو قامت به لم يخل عنها، ومن لم يخل عن

---

(١) لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة للجويني ص ٩٨ بتصرف.

الحوادث فهو حادث، فالرب متقدس عن الاختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة، لا تحيط به الأقطار، ويجل عن قبول الحد والمقدار، والدليل على ذلك أن كل مختص بجهة شاغل لها متحيز، وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها، ويرتب على ذلك تعاليه عن الاختصاص بمكان، وملاقاة أجرام وأجسام [(١)].

النوع الثالث: أن الله واحد في أفعاله لا شريك له، والدليل على وحدانية الإله، دليل التمانع، وفحواه كما تقدم أننا لو قدرنا إلهين اثنين، وفرضنا عرضين ضدين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الضدين، وإرادة الثاني للثاني، فلا يخلو من أمور ثلاثة، إما أن تنفذ إرادتهما، أو لا تنفذ إرادتهما، أو تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، والنتيجة النهائية تنفيذ إرادة واحد فقط، هو الإله القادر على تحصيل ما يشاء.

كما ظهرت ضمن هذا الاستفتاء الكلامي العقلي بنود أخرى كثيرة، تضاف إلى تقسيم التوحيد عند الأشعرية منها:

١- أن أول ما يجب على المكلف القصد إلى النظر الصحيح المؤدي إلى العلم بحدوث العالم، وإثبات العلم بالصانع، والدليل عليه إجماع العقلاء على وجوب معرفة الله تعالى، وعلمنا عقلا أنه لا يُعلم حدوث العالم ولا الصانع إلا بالنظر والتأمل، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب [(٢)].

---

(١) السابق ص ١٠٦.

(٢) الغنية في أصول الدين ص٥٥.

٢- يجب في حق الله القدم، والبقاء، والقيام بالنفس، والوحدانية، ونفي التركيب وحلول الحوادث، وهي خمس صفات سلبية. وله سبع صفات نفسية فهو بذاته مريد بإرادة، عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، وهذه كلها معان وجودية أزلية. وقد ثبتت له هذه المعاني عندهم بناء على ما جاء في النتائج العقلية التي اختارها أغلب المتكلمين. ودليلهم العقلي فيها أن الفعل الحادث يدل على القدرة، والتخصيص يدل على الإرادة، والإتقان يدل على العلم، وهذه الثلاثة لا تكون إلا في حي، والحي لابد أن يكون سميعا بصيرا متكلما [(١)].

٣- النصوص الخبرية الواردة في الآيات القرآنية وصحيح الأحاديث النبوية التي وردت في صفات الله، هي عندهم موهمة للتشبيه والجسمية، وظاهرها أمور كفرية باطلة ومستحيلة وغير مراد لله في كلامه، والواجب عندهم إما أن تؤول، وإما أنها من أخبار الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد [(٢)].

تلك أغلب الآراء التي نتجت عن ذلك الاستفتاء من قبل عقلاء المتكلمين من الأشعرية وغيرهم. وقد اعتبروها أصول الدين،

---

(١) انظر بتصرف رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص١٧ وما بعدها، وكتاب أصول الدين ص٦٣، لجمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد تحقيق عمر وفيق الداعوق، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت سنة ١٩٩٨.

(٢) انظر بتصرف المختار من شرح البيجوري علي جوهرة التوحيد ص ١٠٩.

والقواطع العقلية، والفيصل المبين في النظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما وافق تلك الأصول من النصوص والآيات فهو دليل ثانوي لهم، يقدمونه فقط عند الكتابة في المؤلفات، أو عند المحاجة في المخاصمات والمناظرات، حتى يشعر المخاطب أنهم يعتمدون على نصوص الوحي في إثبات الصفات والاعتقاد في الغيبيات، وما خالف أصولهم وتقسيمهم للتوحيد، فينبغي التعامل معها بأي وسيلة، وأن يبذل لها المرء كل حيلة، بادعاء مجاز أو تأويل، أو تهوين وتعطيل، أو تقبيحها في نفس السامع حتى تبدو ضربا المستحيل، المهم عندهم أن يقر بأن ظاهرها الذي ورد في التنزيل ظاهر باطل ومستحيل، ويجب صرفه إلى شيء آخر.

- **مناقشة الأشعرية في تصنيفهم التوحيد وبيان بطلانه.**

قول الأشعرية في التوحيد: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له. فيه ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ، وفيه ما يخالفه، وليس الحق الذي فيه هو الغاية التي جاء بها الرسول ﷺ. بل التوحيد الذي أُمِرَ به يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا الكلام ضرب من التلبيس الذي اختلط فيه الحق بالباطل؛ لأن الإنسان لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدا، بل ولا مؤمنا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، ويقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة

الله وحده لا شريك له، فإنهم إذا قالوا الله واحد في ذاته لا قسيم له ولا جزء له ولا شبيه له، فهذا اللفظ وإن كانت نيتهم تحمل معنى صحيحا، فإن الله ليس كمثله شيء في ذاته أو صفاته أو أفعاله، وهو سبحانه منزه عن تفرق ذاته أو فسادها، أو تحولها إلى ذات أخرى، بل هو واحد أحد وتر صمد.

والصمد هو الذي لا جوف له، وهو السيد الذي كمل سؤدده، لكنهم يدرجون تحت هذا التوحيد المزعوم، وتحت شعار أنه لا ينقسم نفي علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، الذي أخبر به عن نفسه، ومباينته لمصنوعاته، ونفي ما ينفونه من صفاته، ويقولون إن إثبات ذلك يقتضي أن يكون مركبا منقسما مشابها للحوادث [1].

قال فخر الدين الرازي وهو من أعمدة المذهب الأشعري في نفي علو الله على خلقه، وتعطيل استوائه على عرشه: (لو كان الله مختصا بالمكان، لكان الجانب الذي في يمينه، يلي ما على يساره، فيكون مركبا منقسما، فلا يكون أحدا في الحقيقة، فيبطل قوله: قل هو الله أحد) [2].

وهم لما نفوا الاستواء وعطلوا علو الفوقية بهذه الحجج العقلية، ساءت حجتهم عند عامة المسلمين، فالله ﷻ يقول صراحة هو على

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٢٢٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر أساس التقديس الفخر الرازي ص ٢٠٣.

العرش، وهم يقولون صراحة ليس على العرش، فما المخرج من هذه الورطة التي وضعوا أنفسهم فيها؟

والجواب في قول أحدهم: (لو سئلنا عن قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥؟ لقلنا المراد بالاستواء القهر والغلبة والعلو، ومنه قول العرب استوى فلان على المملكة، أي استعلى عليها واطردت له، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق : من غير سيف ودم مهراق) [١].

والعجب كل العجب أن قوة احتجاج الأشعرية بهذا البيت على نفي الاستواء أقوى من قوة الاحتجاج بكلام الله على إثباته. مع أن الأخطل النصراني الذي يعتقد الانقسام والتثليث في الذات الإلهية، هو القائل في شعره مستهزئا بالصلاة والصيام والأضاحي:

ولست بصائم رمضان يوما : ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزائر بيتا بعيدا : بمكة ابتغي فيه صلاحي

ولست بقائم كالعير أدعو : قبيل الصبح حي على الفلاح [٢].

---

(١) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة ص ١٠٨ بتصرف.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٣٢/١) ، نشر دار صادر بيروت. والبداية والنهاية لابن كثير (٢٦٣/٩) نشر مكتبة المعارف بيروت. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي ٣٦/٧، تحقيق محمد ومصطفي عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٢هـ.

وتأويل الاستواء بالاستيلاء تحريف للكلم عن مواضعه في ثوب التأويل، فالتأويل يُقبل إن كان بدليل صحيح، لكن العرب لا تعرف أبدا استوى بمعنى استولى، بل إن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب.

قال الحافظ ابن كثير في التعقيب علي هذا البيت: (هذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل علي ذلك، ولا أراد الله ﷻ باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، ولا نجد أضعف من حجج الجهمية حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلي بيت هذا النصراني المقبوح)[1].

وقال أبو سليمان الخطابي وهو من أئمة اللغة المعروفين بتحقيق مصادرها، وأصول الاحتجاج بها: (وزعم بعضهم أن الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء، ونزع فيه إلى بيت مجهول لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله، ولو كان الاستواء ها هنا بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة؛ لأن الله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء وكل بقعة من السماوات والأرضين وتحت العرش، فما معنى تخصيصه العرش بالذكر؟! ثم إن الاستيلاء إنما يتحقق معناه عند المنع من الشيء، فإذا وقع الظفر به قيل استولى عليه، فأي منع كان هناك

(١) انظر البداية والنهاية ٩/٢٩٥.

حتى يوصف بالاستيلاء بعده!) [(١)].

ومن ثم فإن تصنيف التوحيد عند الأشعرية على معنى أن الله ﷻ واحد لا ينقسم، وأن الواحد هو المجرد عن الصفات تحميل للفظ الواحد ما لا يحتمل، وهو ضرب من التحريف. ومعلوم أن كل تأويل لا يحتمله اللفظ في أصل وضعه، وكما جرت به عادة الخطاب بين العرب، هو نوع من التزوير والتدليس، والخلط والتلبيس الذي يضيع ثوابت القول وقواعد الكلم، فأهل العلم يعلمون أن إثبات الاستواء والنزول والوجه واليد والقبض والبسط وسائر صفات الذات والفعل، لا يسمى في لغة العرب التي نزل بها القرآن تركيبا، ولا انقساما، ولا تمثيلا.

وكان أولى بالصحابة والتابعين، وهم أئمة اللغة، وأسياد الفهم، أن يعترض واحد منهم على الأقل ويقول: كيف نؤمن بهذه الصفات التي تدل على التركيب والانقسام في الذات الإلهية؟ ولكن الصحابة والتابعين لم يأت إلى أذهانهم شيء من أصول الكلام عند الأشعرية.

كما أن الكلام في المصطلحات التي أحدثوها كالجسم، والعرض، والجوهر، والمتحيز، وحلول الحوادث، وأمثال ذلك، معاونة على نشر البدع، لأن هذه الألفاظ المبتدعة يدخلون في مسماها الذي ينفونه

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية ٢/٤٣٨، نشر مطبعة الحكومة، مكة المكرمة سنة١٣٩٢هـ. وانظر مختصر الصواعق المرسلة علي الجهمية والمعطلة ١/٣٧ وما بعدها، حيث فند العلامة ابن القيم ادعاء الأشعرية بأن الاستواء بمعنى الاستيلاء من اثنين وأربعين وجها، وبين ضلال من اعتقد ذلك.

أمورا مما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فيقولون: إن الله لا يتكلم بصوت يسمع، وإلا كان محلا للحوادث، فكلامه عندهم معنى واحد، وإشارات مجملة، يفهمها جبريل عليه السلام بلغة الإشارة، ثم يعبر عنها بلغة كل رسول، فإذا عبر عنها بالعربية كان الكلام قرآنا، وإن عبر عنها بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنها بالسريانية كان إنجيلا. وهم في الحقيقة يفرون على ظنهم من تشبيه الله بالمتكلم السوي إلى تشبيه بالأخرس العاجز، فينسب الكمال في القول إلى جبريل عليه السلام، ويسلبه عن رب جبريل.

وبهذه المصطلحات أيضا نفت المعتزلة رؤية الله في الآخرة؛ لأن رؤيته على اصطلاحهم لا تكون إلا لجسم متحيز في جهة، ثم يقولون: والله منزه عن ذلك، فلا تجوز رؤيته، وقالت الأشعرية قولا أعجب وأغرب من قول المعتزلة في النفي، فقالوا: يُرى لا في جهة، لا أمام الرائي، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره، ولا فوقه، ولا تحته. ولا يدري عاقل كيف يلج مثل هذا الكلام إلى أم رأسه؟!

وهذه الألفاظ المجملة التي ابتدعوها وأحدثوها كالجسم، والعرض، والجوهر، والمتحيز، وحلول الحوادث، وأمثال ذلك، ينبغي للمسلم العاقل أن يفصل فيها ويقول: ماذا تريدون بتلك الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن والسنة فنحن مع القرآن والسنة، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت، أو يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا. ولا عليه إن امتنع عن التكلم بها معهم

القرآن والسنة ونسبوه إلى العجز والانقطاع، لأنه إن تكلم بها معهم دون تفصيل نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقا وباطلا، وأوهموا الجهال بموافقته لهم على اصطلاحاتهم، وحينئذ تتخلف المصلحة في بيان الحق [١].

قال ابن أبي العز الحنفي: (والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق، والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين، فضلا عن علمائهم. ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل، كثر المراء والجدال، وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح، ما يضيق عنه المجال) [٢].

- **أبو الحسن الأشعري سلفي المعتقد مخالف للأشعرية.**

وها هنا حقيقة هامة ربما تخفى على كثير من الدارسين للمذهب الأشعري، تلك الحقيقة التي نستطيع الجزم بها، أن أبا الحسن الأشعري الذي ينتسب إليه جميع الأشعرية في البلاد الإسلامية اليوم، يدين لله في

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣٢ بتصرف.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٤.

أغلب أمور العقيدة بغير ما يدين به هؤلاء، فطريقته في التوحيد طريقة سلفية تنطق بما نطقت به الأصول القرآنية والنبوية.

وهذا كتابه الإبانة عن أصول الديانة، وهو من أواخر ما كتب في بيان عقيدته، ولا يجرؤ أحد من الأشعرية التشكيك في نسبته، لتواتر تلك النسبة إليه عند كل من ترجم لشخصيته، وقد جاء فيه بلا لبس أو غموض، أو تعصب أو جمود، جاء فيه التصريح بأن عقيدته التي يدين لله بها هي بذاتها وعينها ونفسها عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وقد أثبت فيها علو الله على خلقه، واستوائه بذاته على عرشه، وأنه تعالى في السماء، وأثبت جميع ما ورد في صفات الذات والأفعال على عكس طريقة الأشعرية في عصرنا، المنتهجين لطريقة الجهمية والمعطلة.

قال رحمه الله: (فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة، فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون. قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ، وبسنة نبينا محمد ﷺ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام

مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم) [(١)].

ثم سرد عقيدته التي يدين بها، وقد جاء فيها أن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك، قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد [(٢)].

وقال رحمه الله عن عقيدته في الاستواء وعلو الله على خلقه: (إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواء يليق به كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وقد قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ النساء:١٥٨، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ السجدة:٥. وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الملك:١٦، فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السموات، وكل ما علا فهو سماء

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص١٩.

(٢) السابق ص٢١.

والعرش أعلى السماوات.

وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني جميع السماوات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ نوح:١٦. ولم يرد أن القمر يملؤهن جميعا، وأنه فيهن جميعا. ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله ﷻ على العرش، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطّونها إذا دعوا إلى الأرض) [١].

ثم أبطل رحمه الله قول القائلين من الجهمية وأتباعهم بأن معنى استوى استولى، وأبطل تأويلهم معنى الاستواء بالقدرة، وأنه ملك وقهر، وأن الله تعالى في كل مكان، وشنع على جحدوهم أن يكون الله ﷻ مستويا على عرشه بالكيفية الحقيقية التي يعلمها هو، كما قال أهل الحق، ثم فند أقوالهم، وكشف عورتهم، وأبان للجميع سوأتهم.

كما أنه أثبت من الصفات الخبرية ما يعتبره الأشعرية من بعده حتى اليوم تشبيها وتجسيما، وظاهرا باطلا مستحيلا، يجب صرفه عندهم بالتأويل إلزاما، فأثبت لله وجها بلا كيف، ويدين بلا كيف، وعينين بلا كيف، وغير ذلك من الصفات الخبرية على اصطلاح الأشعرية [٢].

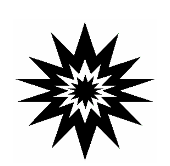
---

(١) السابق ٢٢.

(٢) السابق ص١٢٥.

وهو يعني بوضوح شديد أن إثبات الوجه بلا كيف، واليدين بلا كيف، والعينين بلا كيف، هو إثبات حقيقة الصفة الذاتية لله، وأن المراد بقوله: "بلا كيف" هو ما يعنيه الإمام أحمد بن حنبل من نفي العلم بكيفية الصفة الذاتية الحقيقية الملازمة للموصوف، لا أنه يعني بقوله: "بلا كييف" نفي وجود الصفة، كما حاول بعضهم أن يشيع ذلك عن علماء السلف، وحاول أن يجعل نفي الكيفية نفيا لإثبات وجود الصفة، وهذا كذب على علماء السلف؛ لأنه لا خلاف بينهم أن الكيفية الغيبية كيفية حقيقية موجودة، وهي كيفية معلومة لربنا، مجهولة لنا، وأن الله سبحانه هو وحده الذي يعلم كيفية وجهه ويديه وعينيه، فهذا مراد أبي الحسن الأشعري من قوله: وجه ويد وعين "بلا كييف" .

فأين هذا ممن يوجب تأويل الصفات بحجة أنها موهمة للتشبيه والجسمية، ويوجب تأويلها بأي صورة مجازية، أو يُسأل عن الاستواء ويصر على أن معناه استيلاء وقهر، وأنه سبحانه في كل مكان، وليس على عرشه كما ورد في الكتاب والسنة؟!



المطلب الثامن

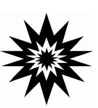
أنواع الدلالات
وتعلقها بالأسماء والصفات



- دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على ما عناه المتكلم.
- دلالة التضمن هي اللفظ على بعض ما عناه المتكلم.
- دلالة اللزوم هي دلالة الشيء على سببه.
- دلالة الالتزام هي دلالة الشيء على نتيجته.
- هل لازم القول قول يحاسب عليه الإنسان؟
- اللازم من الوحي إذا صح أن يكون لازما فهو حق.
- دلالة الأسماء الحسنى على العلمية والوصفية.
- أمثلة لأنواع الدلالات في الأسماء الحسنى.

المطلب الثامن

أنواع الدلالات وتعلقها بالأسماء والصفات



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في محاور المطلب السابق عن العلة في تصنيف التوحيد إلى نوعين عند السلف، وبينا أنه صُنف إلى نوعين استنادا إلى معنى الإسلام والإيمان، ولتمييزه عن التوحيد المبتدع عند المعتزلة، ولدلالة النصوص جملة وتفصيلا على هذين النوعين، وكذلك صنف التوحيد إلى نوعين باعتبار تصديق الخبر، وتنفيذ الطلب، وباعتبار استخلاف الإنسان في الأرض.

وتناول الحديث أيضا العلة في تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع عند المتبعين لنهج السلف، وبينا أن تصنيف التوحيد إلى ثلاثة أنواع عند الأشعرية تصنيف محدث، لا يقوم على كتاب أو سنة، وإنما يقوم على النظر العقلي في التعرف على الغيبيات، ومعارضة العقل ما جاء في النقل من السمعيات، واعتبارها ما ثبت من الصفات من الظواهر المستحيلة التي يوجبون على أتباعهم فيها كل أنواع التأويلات والمجازات، ولو كانت مستكرهة قبيحة.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن أنواع الدلالات

وتعلقها بالأسماء والصفات، وفهم دلالة الألفاظ على معانيها، مطابقة وتضمنا والتزاما، لما لها من أهمية في فهم عقيدة أهل السنة والجماعة، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على ما عناه المتكلم.**

الدلالة المقصودة هنا هي الدلالة اللفظية الوضعية، وهي فهم المعنى عند إطلاق اللفظ، أو هي العلم بالمعنى المقصود، أو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام عند صدوره من المتكلم(١).

وتنقسم هذه الدلالة عند العلماء إلى ثلاثة أقسام كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: (الماهية التي يعنيها المتكلم بلفظه، دلالة لفظه عليها دلالة مطابقة، ودلالته على ما دخل فيها دلالة تضمن، ودلالته على ما يلزمها وهو خارج عنها دلالة الالتزام)(٢). وبيان تلك الدلالات مفصلة على النحو التالي:

١- دلالة المطابقة: وهي دلالة اللفظ على ما عناه المتكلم ووضعه له، أو هي دلالة اللفظ على الحقيقة والمعنى المقصود، مثل دلالة لفظ البيت على مجموع الجدران والسقف والأبواب والنوافذ (٣).

من المعلوم أن الألفاظ، أو الأسماء تطلق على الأشياء لتتميز بها عن

---

(١) تحرير القواعد المنطقية لقطب الدين محمود الرازي ص٢٩ بتصرف.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/٤٥٣.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١٠/١٢، وانظر الصفدية ٢/١٥٤.

غيرها، وكل اسم أو لفظ في أي لغة، وعلى أي لسان، ينطبق في دلالته بين العقلاء على شيء متعارف عليه، سواء بالوضع اللغوي، أو لغة التخاطب التي فُطرت عليها الإنسانية، أو الوضع الشرعي، المرتبط بسائر الشرائع الدينية، كلفظ الصلاة، والزكاة، والصيام، والركوع، والسجود في الإسلام، أو الوضع العرفي الذي يصطلح عليه أهل بلد ما، أو قرية، أو قبيلة، أو الوضع الاصطلاحي الذي يتعارف عليه أهل علم من العلوم؛ فالألفاظ المنطوقة، أو المكتوبة، لها مدلولات معينة يعيها القلب ويدرك معناها، ولها في الواقع مدلولات من قبل المتكلم.

قال ابن تيمية رحمه الله: (والمعنى المدلول عليه باللفظ، لا بد أن يكون مطابقا للفظ؛ فتكون دلالة اللفظ عليه بالمطابقة.. وليست دلالة المطابقة دلالة اللفظ على ما وضع له، كما يظنه بعض الناس.. بل يجب الفرق بين ما وضع له اللفظ، وبين ما عناه المتكلم باللفظ، وبين ما يحمل المستمع عليه اللفظ، فالمتكلم إذا استعمل اللفظ في معنى، فذلك المعنى هو الذي عناه باللفظ. وسمي معنى لأنه عني به، أي قصد وأريد بذلك، فهو مراد المتكلم ومقصوده بلفظه.. وكل لفظ استعمل في معنى فدلالته عليه مطابقة؛ لأن اللفظ طابق المعنى بأي لغة كان، سواء سمي ذلك حقيقة أو مجازا) [(١)].

ومن أمثلة دلالة المطابقة، دلالة لفظ المسجد على مسماه في أي وضع شرعي، أو عرفي، أو اصطلاحي، إذ يدل في الوضع الشرعي على

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/٤٥٢.

شيء معين، جعل للصلاة والجماعة والجمع، فلو قال أحدهم لأخيه: انتظرني في المسجد؛ فإنه لا ينتظره في السوق؛ لعلمه أن المسجد لفظ يدل على مكان معلوم، جعل للصلاة والعبادة، وأن لفظ السوق يدل على مكان آخر، وضع للبيع والشراء.

وأيضا لو قال المشتري للبائع: أعطني تفاحا، فإن البائع يعطيه شيئا معينا، أو فاكهة معلومة يطلق عليها هذا اللفظ. وليس إذا قال له: أعطني تفاحا أعطاه عنبا أو برتقالا، أو جزرا أو خيارا؛ لأن الله ﷻ فطر العقلاء على أن يتعلموا الأسماء، وما تنطبق عليه من مدلولات في واقعهم، فالمشتري والبائع يعلمان أن لفظ التفاح يدل على شيء معين غير الذي يدل عليه لفظ البرتقال، لكن لو قلت للبائع: أعطني خيارا فأعطاك برتقالا، فذلك إما لأنه لم يسمع، فيعاد اللفظ؛ أو لأنه لم يعقل، ومثل هذا لا يعد من العقلاء، ولا يصلح للبيع والشراء.

وإذا قيل: محمد رسول الله ﷺ؛ فإن المسلم يعلم أن ذلك ينطبق على خاتم الأنبياء، ولا ينصرف ذهنه إلى عيسى ؑ، أو موسى ؑ أو غيرهما من الأنبياء،؛ لأن كل لفظ أو اسم، ينطبق على شيء معين دون غيره، وإذا قيل: الخالق هو الله ﷻ، فإن الذهن يفهم من دلالة الاسم أنه ينطبق على ذات الله تعالى المتصفة بصفة الخلق، ولا ينصرف إلى ذات أخرى إلا عند من فسدت فطرتهم، ونسبوا الخالقية لغيره.

كما أن الذهن لا ينصرف أيضا عند النطق بلفظ الخالق إلى صفة أخرى غير صفة الخلق، لأن اسم الله الخالق يدل بالمطابقة على ذات الله

وصفة الخلق معا، فلا ينصرف إلى صفة الرزق، أو القوة، أو العزة، أو الحكمة، أو غير ذلك من الصفات؛ لأن صفة الخلق تدل على شيء غير الذي تدل عليه صفة الرزق، وصفة القوة يفهم منها شيء غير الذي يفهم من صفة العزة، أو صفة الحكمة، إلا عند من فسد إدراكهم في فهم دلالة اللفظ على معناه، وقالوا بأن أسماء الله الحسنى التي تعرف الله بها إلى عباده في الكتاب والسنة، لا تدل بالمطابقة إلا على ذات الله فقط، ولا تدل على شيء من الصفات البتة، فعندهم اسم الله السميع يدل على ذات الله فقط، ولا معنى لاسمه السميع، بل معنى السميع عندهم هو معنى الملك الخلاق، القدير الرزاق إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى التي أمر عباده بأن يدعوه بها.

والله ﷻ لما علم آدم عليه السلام الأسماء كلها كما قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة:٣١، علمه إمكانية وضع الأسماء كألفاظ تدل بالمطابقة على تمييز الأشياء، والعلم بخصائصها، والتعرف على حقائقها، ذاتا وصفة، مطابقة وتضمنا والتزاما، وليس الذي تعلمه آدم عليه السلام كما يفهم البعض، هو مجرد ألفاظ، أو كلمات يستعملها هو وأبناؤه.

بل إنه تعلم الشيء واسمه وخاصيته، وأنواع دلالاته مطابقة وتضمنا والتزاما، فالذي عرضه الله سبحانه على الملائكة أعيان الأشياء بذواتها وصفاتها، وليست معان أو كلمات لا مدلول لها ولا حقيقة، وإنما علم الله آدم عليه السلام الشيء المادي المحسوس، الذي يمكن أن يحمل الاسم المعين، وكذلك تأثير كل شيء في غيره، وما ينشأ عن ذلك من المعاني والعلوم،

وهذا واضح بيِّن، بدليل أن الله جل شأنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة:٣١.

قال ابن القيم: (فكانت حكمة ذلك التعليم، تعريف مراد المتكلم، فلو لم يحصل له المعرفة، كان في ذلك إبطال لحكمة الله، وإفساد لمصالح بني آدم، وسلب الإنسان خاصيته التي ميزه بها على سائر الحيوان) [(١)].

ودلالة المطابقة هي الدلالة الأصلية في الألفاظ التي وضعت لمعانيها، وهي تكشف عن نية القائل بمجرد صدور اللفظ؛ فلا يستفصل فيها عن مراده، وسميت بالمطابقة لمطابقة المعنى للفظ وموافقته، كقولهم: طابق النعل النعل إذا توافقا، والمراد من تطابق اللفظ والمعنى، هو عدم زيادة اللفظ على المعنى، أو قصوره عنه [(٢)].

• **دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على بعض ما عناه المتكلم.**

٢- دلالة التضمن: وهي دلالة اللفظ على بعض المعنى المقصود من قبل المتكلم، أو هي دلالة اللفظ الموضوعة من قبل المتكلم على جزء المعنى المقصود، أو هي دلالة اللفظ الوضعية على جزء مسماه [(٣)].

كدلالة لفظ الشجرة على الأوراق؛ فإن الشجرة تضمنت الأوراق وغيرها، فالذهن يتصور الأوراق وبقية الأجزاء مباشرة عند النطق

---

(١) الصواعق المرسلة ٢/٦٤٣.
(٢) انظر بتصرف البحر المحيط للزركشي ٢/٢٧٢.
(٣) انظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٧٦.

بلفظ الشجرة، فيتصور بدلالة التضمن فروعها، وخشبها، وثمارها، وجميع ما حوت من أجزاء.

ومثال ذلك أيضا دلالة لفظ المدرسة على الفصول والتلاميذ والمدرسين؛ فإن الذهن يتصور مباشرة أن لفظ المدرسة ينطبق على عدة أشياء يطلق عليها مجتمعه هذا اللفظ.

وكذلك أيضا دلالة لفظ الصلاة في الاصطلاح الشرعي على الوقوف والركوع والسجود والجلوس بهيئة مخصوصة، وغير ذلك من الحركات والسكنات التي تضمنتها الصلاة؛ فلفظ الصلاة يدل على كل جزء من أجزائها بالتضمن.

وسميت دلالة التضمن بذلك لكون الجزء ضمن المعنى الموضوع له، وعليه فإن دلالة المطابقة تشمل عموم ما دل عليه اللفظ، ودلالة التضمن موضوعة لخصوصه[1].

أما بالنسبة لأسماء الله تعالى، فكل اسم يدل على الذات وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن؛ فاسم الله العزيز يدل على صفة العزة وحدها بالتضمن، كما يدل أيضا على ذات الله وحدها بالتضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة العزة معا بالمطابقة.

قال ابن القيم: (الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات

---

(١) انظر في بيان المزيد حول دلالة التضمن: المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم للدكتور عوض الله جاد حجازي ص٤٧.

والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن) [1].

• **دلالة اللزوم هي دلالة الشيء على سببه.**

٣- دلالة اللزوم: وهي دلالة الشيء على سببه، أو هي دلالة اللفظ على معنى يخرج عن دلالة المطابقة والتضمن، وهو لازم لوجوده لزوماً عقليا يتصوره الذهن عند ذكر اللفظ، وسمي لازما لارتباطه بمدلول اللفظ، وامتناع انفكاكه عنه [2].

ومثال ذلك: دلالة الشيء على سبب وجوده، كدلالة البعرة على البعير، والأثر على المسير، وكدلالة الحمل على الزواج أو الزنا، إلا في بعض الخوارق الاستثنائية.

ولذلك لما جاء الملك إلى مريم وأعلمها أنها ستحمل وتلد، أخبرته أن الولد لا يكون إلا من طريق مشروع أو ممنوع بدلالة اللزوم، ولم يحدث أنها تزوجت، أو وقع منها الاحتمال الثاني، فهذا ليس شأنها، فأخبرها أن هذا خارج عن اللوازم العقلية، أو استثناء من دلالة اللزوم.

وقد بين القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ مريم:١٩/٢١.

---

(١) بدائع الفوائد ص١٧٠.

(٢) انظر التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص٦١٥ بتصرف.

ومن ثم فإن دلالة اللزوم مبنية على فهم العقل لترابط الأسباب، بحيث ترتبط العلة بمعلولها، والنتيجة بسببها، فدلالة السقف على الأعمدة دلالة لزوم؛ لأن العاقل يعلم أن السقف لا يوجد إلا بعد وجود الحائط أو الأعمدة، فالذهن لا يتصور السقف إلا مرفوعا على شيء، فلفظ السقف دلنا على الأعمدة باللزوم، مع ملاحظة أن الأعمدة ليست مما دل عليه لفظ السقف بالمطابقة أو بالتضمن، فدلالة اللزوم من الدلالات العقلية والقواعد الشمولية التي تصح بها لغة التخاطب بين الإنسانية، وتسلم من خلالها طرق الاستدلال على توحيد الربوبية؛ فالذي يعلم بدلالة اللزوم أن السقف يلزمه أعمدة، يوقن عند ذلك بقدرة الخالق، وأنه ليس كمثله شيء عندما يقرأ قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الرعد:٢.

والله ﷻ كثيرا ما يدعو العقلاء للنظر إلى ما في الكون من آيات تدل على عظمة أوصافه، وكمال أفعاله بدلالة اللزوم .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ آل عمران:١٩٠.

- **دلالة الالتزام هي دلالة الشيء على نتيجته.**

إذا كانت دلالة اللزوم هي دلالة الشيء على سببه، فإن دلالة الشيء على نتيجته، وتوقع حدوثه تسمى دلالة التزام، كدلالة الغيوم على اقتراب المطر، وكدلالة الفعل على رد الفعل، فلكل فعل رد فعل

بدلالة الالتزام، وكل رد فعل ناشئ عن فعل باللزوم، ودلالة الالتزام من إضافة المسَبِّب إلى السبب [(١)].

وكما أن الأسماء الحسنى تدل على الصفات بالمطابقة والتضمن فإنها أيضا تدل على الصفات بدلالة اللزوم، كدلالة اسم الله الخالق على صفة العلم والقدرة؛ فاسم الله الخالق يدل على ذات الله وصفة الخالقية بالمطابقة، ويدل على أحدهما بالتضمن، ويدل على العلم والقدرة باللزوم؛ لأن العاجز أو الجاهل لا يخلق.

ولذلك لما ذكر الله خلق السماوات والأرض، عقب بذكر ما دل عليه وصف الخلق باللزوم، فذكر صفتي القدرة والعلم، فالذي يصنع مثل هذا العالم لا بد أن يكون عليما قديرا. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ الطلاق:١٢.

ولذلك ذكر الله بطلان إلوهية ما سواه بدلالة اللزوم في مواضع كثيرة، وأن عجز تلك الآلهة عن الخلق والتدبير لازمه عجز ذاتي في أوصافهم، ودليل ظاهر على افتقارهم واحتياجهم.

قال الله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟

(١) انظر بتصرف حاشية الصبان على شرح الملوي ص ٥٣.

دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ فاطر:١٣/١٤.

والشاهد هنا أن تلك الآلهة المزعومة إن كانت لا تملك من قطمير فكيف لها أن تغني فقير؟ أو تستجيب لصاحب الحاجة إذا التجأ إليها وطلب العون والمدد منها، فتحكم بدلالة اللزوم على نقص أوصافهم من خلالها، وأنهم ومن دعاهم في الفقر والحاجة سواء .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأعراف:١٤٨.

والشاهد بدلالة اللزوم أن عجز العجل عن مخاطبتهم، دليل على عجزه عن هدايتهم وتلبية احتياجاتهم وقت الشدة وغيرها، فكيف يكون إلها يعبد من دون الله؟

وقس على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ الحج:٧٣/٧٤.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ يونس: ٣٤/٣٥.

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ النحل: ٢٠/٢١.

قال النسفي: (نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين، وأحياء لا يموتون، وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق، بأنهم مخلوقون، أموات جاهلون بالبعث، ومعنى أموات غير أحياء، أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة، لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت، وأمرهم بالعكس من ذلك) [١].

ومن وفقه الله لفهم دلالة اللزوم المتعلقة بالأقوال والأفعال، كانت أقواله صادرة عن حكمة، وكانت أفعاله عن روية وفطنة، ووزن جميع أموره بدقة، بحيث يقدر المنفعة والمضرة، ويتخير الأحسن والأفضل على الدوام، فقد وفق إلى خير كثير كما قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ البقرة: ٢٦٩.

وأغلب ما يحل بالإنسان من بلاء وشقاء سببه الغفلة عن لازم قوله وفعله. وقد ثبت عند الإمام البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ العبدَ ليَتكلمُ بالكلمةِ، ما يَتبَينُ فيها، يَزل بها في النار أبعدَ مما بينَ المشرق) [٢].

---

(١) تفسير النسفي ٢/٢٥٣.

(٢) البخاري في الرقاق باب حفظ اللسان ٥/٢٣٧٧ (٦١١٢).

وعند البخاري في رواية أخرى: (وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَطِ الله، لا يُلقي لهابالاً، يهوي بها في جهنم) [١].

- **هل لازم القول قول يحاسب عليه الإنسان؟**

اختلفوا في لازم القول، هل هو قول يحاسب عليه الإنسان؟ فقال بعضهم: إذا كان هذا اللازم لازماً من قوله، لزم أن يكون قولاً له محاسبا عليه، لأن ذلك هو الأصل لاسيما، إذا قرب التلازم.

ورد آخرون ذلك، وقالوا هذا مردود بأن الإنسان بشر، وله حالات نفسية وخارجية توجب الذهول عن اللازم، فقد يغفل، أو يسهو، أو ينغلق فكره، أو يقول القول في مضايق المناظرات من غير تفكير في لوازمه [٢].

وكثير من العامة يغفلون عن لوازم كلامهم، إما لجهلهم، أو سرعة اندفاعهم، أو ما شابه ذلك من تقلب الأحوال، ولو حوسبوا على ذلك، لعجز من يحصي لوازم الأقوال والأفعال.

روي أن أعرابيا خرج إلى الحج مع أصحابه، فلما كان في طريق العودة إلى أهله، لقيه بعض أقربائه؛ فسأله عن أهله ومنزله، فقال: لما خرجت إلى الحج بعد ثلاثة أيام، وقع في بيتك حريق أتى على أهلك ومنزلك، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء وقال: ما أحسن هذا يا رب،

---

(١) الموضع السابق حديث رقم (٦١١٣).

(٢) مجموع الفتاوى ٢/٢١٧.

تأمرنا بعمارة بيتك، وتخرب علينا بيوتنا [١].

وكذلك خرجت أعرابية إلى الحج، فلما كانت في بعض الطريق عطبت راحلتها، فرفعت يديها إلى السماء وقالت: يا رب أخرجتني من بيتي إلى بيتك، فلا بيتي ولا بيتك [٢]. ومثل هذا الكلام لوازمه كفر، لكن القائل في الغالب غافل عن لازم قوله.

أخذ الحجاج أعرابيا سرق، فأمر بضربه، فلما قرعه السوط قال: يا رب شكرا ،حتى ضرب سبعمائة سوط، فلقيه أشعب فقال له: تدري لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط؟ قال: لا، قال: لكثرة شكرك، فإن الله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم:٧، قال الأعرابي: وهذا في القرآن؟ قال: نعم، فقال: يا رب لا شكرا فلا تزدن، أسأت في شكري فاعف عنى، باعد ثواب الشاكرين منى[٣].

وسمع أعرابي إماما يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ البقرة:٢٢١. قرأها بفتح التاء، فقال الأعرابي: ولا إن آمنوا أيضا فقيل له: إنه يلحن، وليس هكذا يقرأ؟ فقال: أخروه قبحه الله، لا تجعلوه إماما، فإنه يحل ما حرم الله [٤].

---

(١) جمهرة خطب العرب ٣/٣٤٠.

(٢) السابق ٣/٣٤٠.

(٣) السابق ٣/٣٨.

(٤) السابق ٣/٣٤٢، وهو يقصد أن اللواط محرم.

قال ابن تيمية: (فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظا أو يثبتونها، بل ينفون معاني أو يثبتونها، ويكون ذلك مستلزما لأمور هي كفر، وهم لا يعلمون بالملازمة، بل يتناقضون، وما أكثر تناقض الناس، لاسيما في هذا الباب، وليس التناقض كفراً) [١]. ثم فصل المسألة، وبين أن لازم قول الإنسان نوعان:

أحدهما: لازم قوله الحق، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه، فإن لازم الحق حق، ويجوز أن يضاف إليه إذا علم من حاله أنه لا يمتنع من التزامه بعد ظهوره، وكثير مما يضيفه الناس إلى مذهب الأئمة من هذا الباب.

الثاني: لازم قوله الذي ليس بحق، فهذا لا يجب التزامه، إذ أكثر ما فيه أنه قد تناقض، وقد ثبت أن التناقض واقع من كل عالم غير النبيين، ثم إن عرف من حاله أنه يلتزمه بعد ظهوره له فقد يضاف إليه، وإلا فلا يجوز أن يضاف إليه قول، لو ظهر له فساده لم يلتزمه [٢].

- **اللازم من النقل الصحيح إذا صح أن يكون لازما فهو حق.**

ولما كان قول الله حق، وليس فيه اختلاف ظاهر، أو تناقض مضمر كما قال تعالى عن كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ فصلت: ٤١/٤٢.

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٣٠٦.

(٢) السابق ٢٩/٤٢/والفتاوى الكبرى ٣/٤٢٥.

وكذلك لما كان قول رسول الله ﷺ حق، حيث قال الله تعالى في شأنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم:٣/٤. فإن اللازم من النقل الصحيح، إذا صح أن يكون لازما، فهو نقل صحيح أيضا، أو بعبارة أخرى، إن اللازم من كلام الله ورسوله ﷺ إذا صح أن يكون لازماً فهو حق، وذلك لأن لازم الحق حق، والله ﷻ عالم بما يكون لازما من كلامه وكلام رسوله ﷺ، وأن العقلاء سوف يدركون ذلك بدلالة اللزوم [(١)].

ومن ثم فإن في دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة والتضمن واللزوم، فالاسم يدل على الذات والصفة بدلالة المطابقة، ويدل على ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن، ويدل باللزوم على أوصاف أخرى غير الوصف الذي اشتق منه الاسم، فالرحمن يدل على ذات الله وعلى صفة الرحمة بدلالة المطابقة، ويدل على الذات وحدها بدلالة التضمن، وعلى صفة الرحمة وحدها بالتضمن، ويدل على الحياة والعلم والقدرة التزاما، وهذا ينطبق على جميع الأسماء الحسنى ودلالتها على الصفات [(٢)].

وتجدر الإشارة إلى أن الأسماء الحسنى عند المعتزلة تدل على الذات بالمطابقة فقط، لأنهم ينفون الصفات، فالأسماء عندهم تنعدم فيها دلالة التضمن واللزوم، مع كونها أدلة عقلية صحيحة تؤيد صحيح المنقول،

---

(١) انظر بتصرف القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص١٤.

(٢) شرح قصيدة ابن القيم ٢/٢٥٠، وبدائع الفوائد ١/١٧٠.

فما أعجب تناقضهم، إذ يدعون تعظيم العقل، ويزعمون أنهم هم أهل التوحيد والعدل، وحقيقة أمرهم أنهم أبعد الناس عن صريح المعقول.

ومن ثم لا بد أن ننبه على خطأ غير مقصود في ذكر دلالة الأسماء على الصفات ذكره الشيخ حافظ حكمي رحمه الله، وتناقله كثير من الدعاة دون تحقق في فهم المسألة حيث قال رحمه الله: (فدلالة اسمه تعالى الرحمن على ذاته ﷻ مطابقة، وعلى صفة الرحمة تضمنا، وعلى الحياة وغيرها التزاما، وهكذا سائر أسمائه تبارك وتعالى) [١].

وقوله بأن الرحمن يدل على ذات الله بالمطابقة هو في حقيقته مذهب المعتزلة، والصواب أنه يدل على الذات بالتضمن، وعلى صفة الرحمة بالتضمن، وعليهما معا بالمطابقة، والشيخ لا يقصد مذهب المعتزلة؛ لأنه أثبت الصفات وهم ينفونها، فتنبه.

• دلالة الأسماء الحسنى على العلمية والوصفية.

تعريف الاسم كاصطلاح يتردد بين علماء العقائد هو ما دل على علم لتمييزه عن غيره، أو اللفظ الدال على المسمى، وهو إما مشتق من السمو، وهو العلو، أو من السمة وهي العلامة، ويقال لصاحبه مسمى، فالاسم يظهر به المسمى ويعلو، فيقال للمُسَمِّى: سَمِّهِ، أي أظهره، وأعلي ذكره بالاسم، والاسم له خصائص منها جواز الإسناد إليه، ودخول حرف التعريف، والجر والتنوين، والإضافة وسوف يأتي تفصيل

---

(١) معارج القبول ١/١١٩.

ذلك إن شاء الله [١].

أما الصفة عندهم فهي ما دل على معنى، أو دلت على شيء يقوم بذات الموصوف، ولا يمكن أن يقوم بنفسه، أو ينفصل عن موصوفه، كالسعادة والقوة والجمال، والعزة والقدرة والكمال، وغير ذلك من صفات الذات والأفعال، فهذه الصفات لا تقوم بنفسها، ولكنها ملازمة للموصوف، وتتبعه في الحكم، فيقال: سعيد متصف بالسعادة، والقوي متصف بالقوة، والجميل متصف بالجمال وهكذا. قال ابن فارس: (الصفة الأمارة اللازمة للشيء) [٢].

وإذا كان الاسم في اللغة هو ما تميز بعلامات الاسمية المعروفة، فإنه أيضا يتناول الصفة والموصوف والفاعل والمفعول والعلة والمعلول وصيغ المبالغة وأفعل التفضيل[٣]، فمثلا قولنا: سعيد سعيد، هذان اسمان من الناحية اللغوية، لكن الأول يراد به العلمية، والثاني يراد به الوصفية إن كان خبرا، ولم يكن اسما لوالد الأول.

وقولنا: سعيد في منتهى السعادة، فالأول والأخير اسمان من الناحية اللغوية، لكن الأول للعلمية، والثاني للوصفية، فالسعادة لا تقوم بنفسها ولابد من قيامها بموصوف، شأنها في ذلك شأن الأسباب في إضافتها لمن قام بها، فكما لا يصح أن نقول ضرب السوط فلانا، ولا قتله

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦/١٩٥.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة ٥/٤٤٨، والتعريفات ص١٣٣.

(٣) انظر نتائج الفكر للسهيلي ص٦٣.

السيف، بل السوط والسيف كلاهما اسمان لغويان لا يستقلان بفعل ذاتي، بل يفعل بهما، ويضاف الفعل إلى من فعل بهما، فكذلك لا يصح أن نقول الرحمة استوت على العرش، أو العزة والقدرة نصرت المؤمنين وهزمت الكافرين، بل يقال: الرحمن على العرش استوى، أو الرحمن علم القرآن، والعزيز القدير نصر المؤمنين وهزم الكافرين، فالصفة تقوم بموصوفها ولا يمكن أن تقوم بنفسها.

كما أن الأسماء البشرية يراد بها في الأصل العلمية مع الرغبة في وجود الوصفية، وقياس ذلك على أسماء الخالق هو أصل الضلال. ولذلك لما خلط أهل الاعتزال بين الأحكام المتعلقة بعالم الغيب وعالم الشهادة، وشبهوا الخالق بالمخلوق حدث اللبس والغموض في مسألة الاسم والمسمى، هل هو عينه أو غيره؟ وهل الصفات زائدة علي الذات أم لا؟ وغير ذلك من القضايا التي زعموا فيها أن التوحيد هو إثبات الأسماء ونفي الصفات، وقد تخبطوا هم أنفسهم في فهمها، قبل بيانها وشرحها للآخرين.

لكن عقيدة السلف لما كانت مبنية على أن التوحيد هو إفراد الله ﷻ بما ثبت له من الأسماء والصفات، وأن الله متوحد عن الأقيسة التمثيلية، والقواعد الشمولية التي تحكم ذوات المخلوقات؛ فإنهم وفقوا إلى الفهم الصحيح في باب الأسماء والصفات، فعندهم أن الأسماء في حق الله علمية ووصفية معا، علمية من جهة الدلالة على الذات، ووصفية من جهة المعنى الذي تضمنه كل اسم، فاسم الله

القدير، وكذلك العلي الرحمن القوي العزيز الحكيم السميع العليم، وغير ذلك من الأسماء دلت على إثبات صفة القدرة والعلو والرحمة والقوة والعزة والحكمة والسمع والعلم، فهي أعلام لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الإسراء:١١٠. كلها تدل على ذات واحدة ومسمى واحد، وهي أيضا أوصاف لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ الأعراف:١٨٠.

والله ﷻ ذكر من أسمائه الحسنى الغفور الرحيم، وكلاهما علم على ذاته، كما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ يونس:١٠٧. وقوله أيضا: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾ الحجر:٤٩.

وقد بين في موضع آخر أن الاسم يتضمن الوصف، وأن الغفور ذو مغفرة، والرحيم ذو رحمة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾ الرعد:٦. وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ الكهف:٥٨. ومن أسمائه الحسنى اسمه القوي حيث ورد علما مطلقا على ذات الله فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ هود:٦٦. وفي موضع آخر بين أنه متصف بالقوة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ الذاريات: ٥٨.

ومن ثم فإن الأدلة قاطعة في أن الله سبحانه رحيم برحمة، قوي بقوة، عزيز بعزة، وكذلك أيضا قدير بقدرة حكيم بحكمة، سميع بسمع، عليم بعلم، وغير ذلك من الأسماء ودلالتها على الصفات، ولا يشبه في

وصفه حال المخلوق، كما نقول سعيد بلا سعادة، أو صالح بلا صلاح أو فالح بلا فلاح، أو سعيد وهو حزين كاسم بلا مسمى، أو منصور وهو مهزوم، أو صالح وهو طالح، فالسلف الصالح أثبتوا أسماء الله ﷻ أعلاما وأوصافا بعكس المعتزلة كما تقدم.

قال ابن القيم رحمه الله: (وقد اختلف النظار في هذه الأسماء، هل هي متباينة نظرا إلى تباين معانيها؟ وأن كل اسم يدل على غير ما يدل عليه الآخر؟ أم هي مترادفة لأنها تدل على ذات واحدة؛ فمدلولها لا تعدد فيه، وهذا شأن المترادفات؟.. والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى الذات، متباينة بالنظر إلى الصفات. وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة، وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام) [(١)].

وقال أيضا: (أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية؛ فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميتُه وصفيتَه، فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، ورود الاسم علما، وكذلك فإن الأسماء مشتقة من الصفات، إذ الصفات مصادر الأسماء الحسنى) [(٢)].

---

(١) جلاء الأفهام لابن قيم الجوزية ص١٧٧.

(٢) بدائع الفوائد ١/٢٨.

ومن المعلوم أن فطرة البشر مجبولة على طلب الأوصاف الحميدة والانتساب للنعوت الجميلة، والأفعال الجليلة، ومن ثم فإن أسماء الله ﷻ من باب أولى دالة على أوصاف الجلال، ومعاني الكمال والجمال.

• أمثلة لأنواع الدلالات في الأسماء الحسنى.

١- اسم الله الملِك يدل على ذات الله وعلى صفة الملك بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة الملك وحدها بالتضمن، فالملِك من بيده الملك المطلق التام، الذي لا يشاركه أحد فيه، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ الملك:١.

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ الفرقان:٢. وقال أيضا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ فاطر:١٣.

واسم الله الملِك يدل باللزوم على الحياة والقيومية، والعلو والأحدية، والسيادة والصمدية، والعلم والمشيئة والقدرة، والسمع والبصر والقوة، والعدل والحكمة والعظمة، فلا يتصور ملِك أول آخر ظاهر باطن له الملك التام المطلق أزلا وأبدا بغير هذه الصفات، وغير ذلك من صفات الكمال، فالملك الحق هو الذي يستغني بذاته وصفاته عن كل ما سواه، ويفتقر إليه كل موجود سواه.

ومن أهم القضايا المتعلقة بدلالة اللزوم، إثبات علو الملِك وفوقيته، واستوائه على عرشه، فإذا كان كل ملك في الدنيا يلزمه لإثبات ملكه

أن يستوي على عرشه، مع دوام فوقيته وعلوه، فالملِك الخالق أولى بالكمال من المخلوق؛ لاسيما أن الله أثبت ذلك لنفسه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥، فإثبات استواء الله على عرشه من لوازم توحيده في اسمه الملِك، ولذلك قال تعالي: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦﴾ المؤمنون:١١٦. واسم الله الملك دل على صفة من صفات الذات.

٢- اسم العزيز يدل على ذات الله وعلى صفة العزة بدلالة المطابقة، وعلى أحدهما بالتضمن، فالله ﷻ له العزة كوصف ذات، والإعزاز كوصف فعل، أما صفة الذات فلأنها صفة قائمة به يستحيل وصفه بضدها. قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ المنافقون:٨، وقال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ الصافات:١٨٠.

وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (العِزُّ إِزَارُهُ، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ)[(١)].

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لاَ تَزَال جَهَنَّمُ تَقُول: هَل مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ،

(١) مسلم في البر والصلة والأدب، باب تحريم الكبر ٤/٢٠٢٣ (٢٦٢٠).

فَتَقُول: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ)(١).

وروى النسائي وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يَجِيءُ الرَّجُل آخِذًا بِيَدِ الرَّجُل، فَيَقُول: يَا رَبِّ هَذَا قتلني، فَيَقُول الله لهُ: لمَ قَتَلتَهُ؟ فيَقُول: قَتَلتُهُ لتَكُونَ العِزَّة لكَ، فَيَقُول: فَإِنَّهَا لي، ويجيء الرَّجُل آخِذًا بِيَدِ الرَّجُل، فَيَقُول إنَّ هَذَا قتلني، فَيَقُول الله لهُ: لمَ قَتَلتَهُ؟ فيَقُول: لتَكُونَ العِزَّةُ لفُلاَنٍ، فَيَقُول: إِنَّهَا ليْسَتْ لفُلاَنٍ، فَيَبُوءُ بِإِثمِهِ)(٢).

وفي رواية: (يجيء المقتول آخذا قاتله، وأوداجه تشخب دما عند ذي العزة، فيقول: يا رب سل، هذا فيم قتلني؟ فيقول: فيم قتلته؟ قال: قتلته لتكون العزة لفلان، قيل: هي لله) (٣).

وأما الإعزاز كوصف الفعل فالله ﷻ يمنح العزة لمن شاء من خلقه، فيعز من يشاء، ويذل من يشاء، كما قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته ٦/٢٤٥٣ (٦٢٨٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤/٢١٨٨ (٢٨٤٨).

(٢) رواه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم ٢/٢٨٦ (٣٤٦٠)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر السلسلة الصحيحة ٦/٤٤٥ (٢٦٩٨) صحيح الجامع (٨٠٢٩).

(٣) السابق ٢/٢٨٨ (٣٤٦٨)، وانظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٤٨)، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ آل عمران:٢٦.

وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَال، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ الله) [1].

وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (اللهمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بأبي جَهْل، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ) [2].

واسم الله العزيز يدل باللزوم على الحياة والقيومية، والعلم القدرة والأحدية، والسيادة والحكمة والصمدية، والكبرياء والعظمة والقدسية، وغير ذلك من صفات الكمال.

٣- اسم الله الخالق يدل على ذات الله وعلى صفة الخالقية بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ آل عمران:٤٧.

---

(١) مسلم في البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع ٤/٢٠٠١ (٢٥٨٨).

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب عمر ﷺ ٥/٦١٧ (٣٦٨١)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح السيرة النبوية ص ١٩٣، ورواه أحمد في المسند ٢/٩٥ (٥٦٩٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين غير خارجة بن عبد الله الأنصاري وقال عنه ابن معين لا بأس به.

وقال سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الشورى:٤٩. وقال ﷻ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ ﴾ القصص:٦٨.

واسم الله الخالق يدل باللزوم على الحياة والقيومية والسمع والبصر والعلم والمشيئة والحكمة والقدرة والغنى والقوة والعزة وغير ذلك من الصفات الذاتية والفعلية، ولما وصف الله نفسه بالخالقية فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ الطلاق:١٢. قال بعدها في بيان دلالتها على الصفات باللزوم: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ الطلاق:١٢. واسم الله الخالق دل على صفة من صفات الأفعال.

٤- اسم الله العظيم يدل على ذات الله وعلى صفة العظمة بدلالة المطابقة، وعلى أحدهما بالتضمن. روى البخاري من حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: (ثمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَال: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُل يُسْمَعْ، وَسَل تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُول: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لي فِيمَنْ قَال لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، فَيَقُول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَال لاَ إِلهَ إِلاَّ الله) [1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة(٧٥١٠)، ومسلم بلفظ آخر في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة (٥٠٠).

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللهُ ﷻ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ) [١].

وقد ورد وصف العظمة أيضا عند أبي داود وصححه الألباني من حديث عوف بن مالك ﷺ أنه قال: (ثُمَّ رَكَعَ ﷺ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يقُول فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ) [٢].

واسم الله العظيم يدل باللزوم على الحياة والقيومية، والسيادة والصمدية، والعزة والأحدية، وانتفاء الشبيه والمثلية، وكذلك يدل على السمع والبصر والعلم والحكمة والمشيئة والقدرة، وغير ذلك من صفات الكمال، والاسم دل على صفة من صفات الذات والأفعال.

٥- اسم الله القدير يدل على ذات الله وعلى صفة القدرة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بدلالة التضمن، وعلى القدرة وحدها بالتضمن.

روى الحاكم وحسنه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال عن رب العزة في الحديث

---

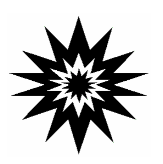
(١) رواه أبو داود في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر ٤/٥٩ (٤٠٩٠)، ورواه أحمد ٢/٤١٤ (٩٣٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٨).

(٢) السابق، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ١/٢٣٠ (٨٧٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٦).

القدسي: (مَنْ عَلمَ مِنْكُمْ أَني ذو قُدْرَةٍ عَلى مَغْفِرَةِ الذنُوب، غَفَرْتُ لهُ وَلاَ أُبَالي، ما لم يُشْرك بي شَيْئا) (١).

واسم الله القدير يدل باللزوم على الحياة والقيومية، والعزة والأحدية، والسمع والبصر والعلم والمشيئة والحكمة والغنى والقوة، وغير ذلك من صفات الكمال اللازمة لمعاني القدرة.

وقد اقترن اسم الله القدير باسمه العليم في غير موضع من القرآن لأن العلم من لوازم القدرة. قال الله تعالى: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى: ٥٠.



(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة ٤/٢٩١ (٧٦٧٦)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ١١/٢٤١ (١١٦١٥)، وحسنه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع حديث (٤٣٣٠).

المطلب التاسع

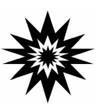
توحيد الصفات
ونفي قياس التمثيل وقياس الشمول

- التوحيد أساس الاعتقاد السلفي في باب الصفات.
- لا بد للتوحيد من نفي قياس التمثيل والشمول.
- ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق.
- شرح ابن أبي العز للقدر المشترك والقدر الفارق.
- الاتفاق في اللفظ المجرد لا يوجب التماثل.
- قياس الشمول يستوي فيه الأفراد تحت حكم واحد.
- خطورة استخدام قياس التمثيل والشمول في حق الله.
- المعطلة ضلوا في فهم القدر المشترك والقدر الفارق.
- ما معنى خلق الله آدم على صورته؟
- هل الظاهر مراد أو غير مراد؟



المطلب التاسع

توحيد الصفات ونفي قياس التمثيل وقياس الشمول



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في محاور المطلب السابق عن أنواع الدلالات وتعلقها بالأسماء والصفات، وبينا أن دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على ما عناه المتكلم ووضعه له، وأن دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على بعض ما عناه المتكلم ووضعه له.

كما علمنا أن دلالة اللزوم هي دلالة الشيء على سببه، ودلالة الالتزام هي دلالة الشيء على نتيجته، وبينا أن اللازم من النقل الصحيح إذا صح أن يكون لازما فهو حق؛ لأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما أن كلام النبي ﷺ وحي من الله ﷻ لا ينطق فيه عن الهوى .

وبينا أن الأسماء الحسنى تدل على العلمية والوصفية معا، وليس كما ذهبت المعتزلة إلى أن أسماء الله أعلام بلا أوصاف، وضربنا أمثلة لأنواع الدلالات المختلفة لبعض أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب

والسنة.

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن توحيد الصفات ونفي قياس التمثيل وقياس الشمول، وبيان بعض القواعد الأساسية لفهم منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **التوحيد أساس الاعتقاد السلفي في باب الصفات.**

القاعدة الأولى التي قام عليها اعتقاد السلف الصالح في التعرف على أوصاف الله ﷻ هي توحيده وإفراده عمن سواه، فهم يتميزون عن سائر الناس بهذه الصفة، صفة التوحيد، سواء كان ذلك في إيمانهم بربوبية الله تعالى وإفراده بالخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف:٥٤.

أو كان في عبادتهم له سبحانه، فلا يخضعون لأحد عن إخلاص ومحبة ورغبة إلا لله، ولا يشركون معه في العبادة سواه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ البينة:٥.

أو كان في إيمانهم بما أثبته الله لنفسه من أنواع الكمالات في الأسماء والصفات، فالتوحيد يُقصد به في باب الصفات إفراد الله سبحانه بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم.

والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١.

والشاهد من الآية أن الله سبحانه بين انفراده عن أوصاف المخلوقين وكل ما يحكمهم، بجميع ما ثبت له من أوصاف الكمال والجمال، وعلو شأنه فيها بأنواع الحسن والجلال.

وقال تعالى في أول سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الإخلاص:١، وقال في نهايتها مبينا معنى الأحدية: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ الإخلاص:٤. أي أن الأحد هو المنفرد بأوصاف الكمال، الذي لا مثيل له فنحكم على كيفية أوصافه من خلاله، ولا يستوي مع سائر الخلق، فيسري عليه قانون، أو قياس، أو قواعد تحكمه كما تحكمهم، لأنه الذي اتصف بالتوحيد، وانفرد عن أحكام العبيد.

وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ مريم:٦٥، والمعنى الذي دلت عليه الآية، هل تعلم لله شبيها مناظرا يدانيه أو يساويه، أو يرقي إلي سمو ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى ذلك فلا يمكن بحال من الأحوال أن تخضع أوصاف الله لما يحكم أوصاف البشر من قوانين.

ومن هنا يمكن القول، إنه من البلاهة العقلية أن نطبق قوانين الجاذبية الأرضية على استواء الله على عرشه، أو على حملة العرش، أو على نزوله إلي السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل؛ لأن ذلك ينطبق على الكائنات الأرضية، ولا ينطبق على رب البرية، فهو منفرد

متوحد عن قوانين البشر بذاته وصفاته وأفعاله.

ومعلوم أننا لم نر الله، ولم نر له مثيلا، أو شبيها، أو نظيرا، والشيء لا يعرف إلا برؤيته، أو برؤية نظيره، فكيف نقول كما قالت الجهمية والمعتزلة والمتكلمون الأشعرية لو كان الله على العرش لكان محمولا؟!

ولذلك فإن السلف الصالح فرقوا بين النصوص التي تدل على المخلوق، والنصوص التي تدل على الخالق، فالنصوص التي تدل على المخلوق تليق به، وظاهرها مراد في حقه، وهي معلومة المعني لورودها في القرآن والسنة باللغة العربية، وكذلك معلومة الكيفية؛ لأننا نراها بحواسنا ومداركنا، أو نري نظيرها، فنحكم عليها بالتشابه أو المثلية.

أما النصوص القرآنية والنبوية التي تدل على الخالق فهي معلومة المعني أيضا؛ لأن الله ﷻ خاطبنا باللغة العربية، لا باللغة الأعجمية، فلا يمكن القول إن كلام الله بلا معني، أو إن كلام الله يشبه كلام الأعاجم والألغاز التي لا تفهم.

أما الكيفية الغيبية للصفات الإلهية التي دلت عليها تلك النصوص فهي كيفية حقيقية، معلومة لله، وتليق به، لكنها مجهولة لنا، لا نعلمها، لأننا ما رأينا الله ﷻ. روى مسلم أن النبي ﷺ: (تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَي أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ ﷻ حتى يَمُوتَ) [1].

وكذلك ما رأينا لكيفيته سبحانه وتعالى نظيرا، أو مثيلا نحكم عليها

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد ٤/٢٢٤٥ (١٦٩).

من خلاله إذ يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١.

• **لا بد للتوحيد من نفي قياس التمثيل والشمول.**

من الأمور الهامة التي ينبغي الحذر منها صيانة للقاعدة الأولى، وحتى لا يُهدم التوحيد في قلب المسلم، أو تشوبه شائبة، أن يحذر من نوعين من القياس حرمهما الله ﷻ على من استخدمهما في حقه، وقد وقع فيهما أهل الضلال من الممثلة والمشبهة الذين جسدوا في أذهانهم صورا للمخلوقات، وزعموا أن أوصاف الله التي وردت بها النصوص في الكتاب والسنة على هذه الكيفية. وقد استخدم الممثل النوع الأول من القياس، وهو قياس التمثيل، والنوع الثاني استخدمه المشبه، وهو قياس الشمول، وأحيانا يطلق عليه المكيف.

قال ابن تيمية رحمه الله: (وأعظم المطالب، العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأمره ونهيه، وهذا كله لا تنال خصائصه لا بقياس الشمول، ولا بقياس التمثيل، فإن الله تعالى لا مثل له فيقاس به، ولا يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، فلهذا كانت طريقة القرآن، وهي طريقة السلف والأئمة، أنهم لا يستعملون في الإلهيات قياس تمثيل وقياس شمول تستوي أفراده، بل يستعملون من هذا وهذا قياس الأولى، فإن الله له المثل الأعلى) [١].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٣١٨/٧، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

النوع الأول: قياس التمثيل، وهو إلحاق فرع بأصل في حكم جامع لعلة؛ فالممثل جعل صفة الإنسان التي لا يعرف غيرها أصلا، وجعل صفة الله ﷻ التي دلت عليها النصوص فرعا، ثم طابق الفرع على الأصل، وحكم بينهما بالتماثل.

ولو سئل عن السبب في هذا التمثيل؟ لقال: لأن الله له أوصاف، والإنسان له أوصاف قد ذكرت بنفس الألفاظ، فهذا يوجب التماثل، ومن أجل ذلك حكمت بأن استواء الله على العرش يماثل استواء الإنسان، ووجه الله يماثل وجه الإنسان، ويد الله تماثل يده، وهكذا في سائر أوصاف الله وأوصاف الإنسان.

قيل له: (ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق، فمن نفى القدر المشترك فقد عطل، ومن نفى القدر الفارق فقد مثل) [١].

- **ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق.**

لقد علم العقلاء أن قول الممثل باطل، لا يتوافق مع العقل السليم، فلو قيل: نملة قوية، وسفينة قوية، فهل صورة النملة كصورة السفينة، لاشتراكهما في لفظ قوية؟

وإذا كانت أوصاف البشر مختلفة، فهناك فرق كبير بين عرش بلقيس وعرش سليمان، ووجه يوسف ﵇ ووجه غيره من بني الإنسان، فإن الفرق أعظم وأكبر من باب أولى بين أوصاف الخالق سبحانه وتعالى

---

(١) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٦٩.

وأوصاف المخلوق، وسيقر المسلم في خشوع وخضوع أن استواء الله ليس كاستواء البشر، ووجهه تعالى ليس كوجوههم، وسائر أوصافه ليست كأوصافهم، وأن الله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، وتلك طريقة الموحدين.

أما الممثل لأوصاف الله بأوصاف البشر فهو ظالم لنفسه، متقول على ربه ما ليس له به علم، فهو في الحقيقة تخيل في ذهنه أن صفة الله الواردة في نصوص الكتاب والسنة كصورة إنسان، ثم عظمها له الشيطان، فعبدها على أنها المقصودة عند ذكره لأوصاف الرحمن، وهو في الحقيقة إنما يعبد صنما، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في وصف حال الممثل: الممثل يعبد صنما [١].

• **شرح ابن أبي العز للقدر المشترك والقدر الفارق.**

ذكر ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية أن أهل السنة اتفقوا على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولكن لفظ التشبيه ونفيه عن الله، قد صار في كلام الناس لفظا مجملا، يراد به المعنى الصحيح ويراد به معنى باطل[٢].

أما المعنى الصحيح لنفي التشبيه عن الله، والذي يتداوله عامة

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٤٨/٦، والأربيلية لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ١٩٦/٥ ،ومسألة تحسين العقل وتقبيحه لابن تيمية ضمن الفتاوى ٤٣٢/٨.

(٢) انظر بتصرف شرح العقيدة الطحاوية ص٩٨.

الناس فهو ما نفاه القرآن، ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تبارك وتعالى، لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته سبحانه، فقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ الشورى:١١. رد على الممثلة المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبه المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النصارى في كفرهم لما جعلوا عيسى عليه السلام إلها متصفا بصفات الخالق[1].

وأما المعنى الباطل لنفي التشبيه عن الله الذي يتداوله العامة، فالمراد منه أنهم لا يثبتون لله شيئا من الصفات، فلا يقال له قدرة، ولا علم، ولا حياة؛ لأن العبد موصوف بهذه الصفات! ولازم هذا القول أنه لا يقال له: حي عليم قدير؛ لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك.

وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود حي عليم قدير، والمخلوق يقال له موجود حي عليم قدير، ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل، فإن الله سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى صفات خلقه ببعضها، وليس المسمى

---

(١) السابق بتصرف ص٩٨.

كالمسمى. فسمى نفسه، حيا، عليما، قديرا، رؤوفا، رحيما، عزيزا، حكيما، سميعا، بصيرا، ملكا، مؤمنا، جبارا، متكبرا. وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء [1].

فقال: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾الروم:١٩.

وقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾الذاريات:٢٨.

وقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ الصافات:١٠١.

وقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ التوبة:١٢٨.

وقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾الإنسان:٢.

وقال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ يوسف:٥١.

وقال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ الكهف:٧٩.

وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ السجدة:١٨.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ غافر:٣٥.

ومعلوم أنه لا يماثل الحي الحي، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء .

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ البقرة:٢٥٥.

وقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ النساء:١٦٦.

وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ فصلت:٤٧.

---

(١) السابق بتصرف ص٩٩.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ الذاريات:٥٨.

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فصلت:١٥.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخَارَةَ في الأُمورِ كلها كما يعلمنا السورَةَ من القرآن، يقول: إذا هم أَحدُكم بالأمرِ، فليركع ركعتين من غَيرِ الفرِيضَةِ، ثم ليقل: اللهم إِني أَستخِيرُك بعلمك، وأَستقدِرُك بقدْرَتك، وأَسأَلك من فضْلك العظِيم، فإِنك تقدِرُ ولا أَقدِرُ، وتعلم ولا أَعلم، وأَنت علام الغُيوب، اللهم إِن كنت تعلم أَن هذا الأَمرَ خَيرٌ لي في دِيني ومعاشِي وعاقبةِ أَمرِي، أَوْ قال: عاجِلِ أَمرِي وآجِله، فاقدُرْه لي، ويسرْه لي، ثم بارِك لي فيه، وإِن كنت تعلم أَن هذا الأمرَ شَرٌّ لي في دِيني ومعاشِي وعاقبةِ أَمرِي، أَوْ قال: عاجِلِ أَمرِي وآجِله فاصرِفه عني، واصرِفني عنه، واقدُرْ لي الخَيرَ حيث كان، ثم رَضِّني به، ويسمي حاجَته) [1].

وفي حدِيث عمارِ بن ياسرٍ ﷺ الذي رواه النسائِي وغيره عن النبي ﷺ، أَنه كان يدعو بهذا الدعاء: (اللهم بعلمك الغَيب وقدْرَتك على الخَلق، أَحيني ما كانت الحياةُ خَيرًا لي، وتوفني إِذا كانت الوفاةُ خَيرًا لي، اللهم إِني أَسأَلك خَشْيتك في الغَيب والشَّهادَةِ، وأَسأَلك كلمةَ الحق في الغَضَب والرِّضَا، وأَسأَلك القصدَ في الغِنى والفقرِ، وأَسأَلك نعيما لا ينفدُ، وقرَّةَ عين لا تنقطع، وأَسأَلك الرِّضَا بعدَ القضَاء،

---

(١) رواه البخاري في التطوع، باب ما جاء في التطوع ٣٩١/١ (١١٠٩).

وأَسأَلك برْدَ العيشِ بعدَ الموْت، وأَسأَلك لذةَ النظَرِ إِلى وجْهك الكرِيم، والشَّوْق إِلى لقائِك، في غَيرِ ضَرَّاء مضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مضِلةٍ، اللهم زَينا بزِينةِ الإِيمان، واجْعلنا هدَاة مهتدِين) [1].

فقدْ سمى الله ﷻ ورسوله ﷺ صفات الله علما وقدرة وقوة. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ الروم:٥. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ يوسف:٦٨.

ومعلوم أَنه ليس العلم كالعلم، ولا القوةُ كالقوةِ، ونظَائِرُ هذا كثيرَةٌ. فالله تعالى مخْتص بوُجُودِه وعلمه وقدْرَته وسائِرِ صفاته، والعبدُ لا يشْركه في شَيء من ذلك. والعبدُ أَيضًا مختص بوُجُودِه وعلمه وقدْرَته، والله تعالى منزَّه عن مشَاركةِ العبدِ في خَصائِصه [2].

وإِذا اتفقا في مسمى الوُجُودِ والعلم والقدْرَةِ، فهذا القدر المشترك عند التجرد عن الإضافة إلى الخالق أو المخلوق، هو أمر مطلق كلي يُوجَدُ في الأذهان فقط، ولا يوجد في الأعيان، والموْجُودُ في الأَعيان مخْتص بمن أضيف إليه فقط ولا اشْترَاك فيه [3].

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى في كتاب صفة الصلاة ٣٨٧/١ (١٢٢٨)، وأحمد في المسند ٢٦٤/٤ (١٨٣٥١)، وصححه الألباني والأرنؤوط، وانظر مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني (٢٤٩٧).

(٢) السابق بتصرف ص١٠٠.

(٣) السابق بتصرف ص١٠٢.

• **الاتفاق في اللفظ المجرد لا يوجب التماثل.**

وهذا موضع اضطرب فيه كثيرٌ من علماء الكلام، حيث توهموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشْياء عند التجرد، يُوجِب التماثل والتشابه وأن يكون الوُجُودُ الذي للرب ﷻ كالوُجُودِ الذي للعبدِ [(١)].

وأَصل الخَطأ والغلط توهمهم أَن هذه الأَسماء العامة المشتركة الكلية عند التجرد، يكون مسماها المطلق الكلي عند الإضافة والتخصيص هو بعينه ثابت في هذا الشخص المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإِن ما يوجَدُ في الواقع، لا يوجَدُ إِلا معينا مختصا بصاحبه، وبينه وبين غيره عند الإضافة والتخصيص قدر فارق ولا بد.

وهذه الأسماء إِذا سمي الله ﷻ بها كان مسماها مخْتصا به يليق بالله، فإِذا سمي بها العبدُ كان مسماها مخْتصا به يليق به. فوُجُودُ الله ﷻ وحياته لا يشَارِكه فيها غيرُه، بل وُجُودُ هذا المخلوق يختلف عن وجود مخلوق آخر من نفس النوعية، لا يشْرَكه فيها غَيرُه، فكيف بوُجُودِ الخَالق ووجود المخلوق؟

وبهذا ومثله يتبين لك أَن المشَبهة أَخَذوا هذا المعنى المشترك العام عند التجرد، وزَادُوا فيه على الحق بإلغاء القدر الفارق فضَلوا، وأَن المعطلةَ أَخَذوا نفي المماثلةِ بوجْه من الوُجُوه، وزَادُوا فيه على الحق بإلغاء القدر المشترك عند التجرد حتى ضَلوا، وأَن كتاب الله ﷻ دَل

---

(١) السابق بتصرف ص١٠٣.

على الحق المحضِ الذي تعقله العقول السليمةُ الصحيحةُ، وهو الحق المعتدِل الذي لا انحرَاف فيه. فالنفاةُ أَحسنوا في تنزِيه الخَالق سبحانه عن التشْبيه بشَيء من خَلقه، ولكن أَساءوا في نفي المعاني الثابتةِ لله تعالى عند التخصيص والتقييد، والمشَبهةُ أَحسنوا في إِثبات الصفات، ولكن أَساءوا بزِيادَةِ التشْبيه[١].

واعلم أَن المخَاطب لا يفهم المعاني المعبرَ عنها باللفظِ إِلا أَن يراها بعينه، أَوْ يرى ما يشبهها، وإِلا فلا يمكن تفهم المخَاطبين بدُون هذا قط، حتى في أَول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الأَلفاظِ المفرَدَةِ، مثل ترْبيةِ الصبي الذي يُعلَّم البيان واللغَة، يُنطق له بلفظِ ويشَارُ له إِلى مدلوله إِن كان مشْهودا بالإِحساس الظّاهرِ أَوِ الباطن، فيقال له: لبن، خُبزٌ، أُم، أَب، سماء، أَرْضٌ، شَمس، قمرٌ، ماء، ويشَارُ له مع العبارَةِ إِلى كل مسمى من هذه المسميات، وإِلا لم يفهم معنى اللفظِ ومرَادَ الناطق به.

وليس أَحدٌ من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي، كيف وآدَم أَبو البشَرِ أَول ما علمه الله تعالى أُصول الأَدِلةِ السمعيةِ، وهي الأَسماء كلها، وكلمه وعلمه بخِطاب الوحي ما لم يعلمه بمجَرَّدِ العقل. فدَلالةُ اللفظِ على المعنى هي بواسطةِ دَلالته على ما عناه المتكلم وأَرَادَه[٢].

---

(١) السابق بتصرف ص١٠٣.

(٢) السابق بتصرف ص١٠٤.

والرَّسول ﷺ لما بين لنا أُمورًا لم تكن معرُوفة قبل ذلك، وليس في لغة العرب لفظٌ يدُل عليها بعينها، أَتى بأَلفاظٍ تناسب معانيها تلك المعاني، وجَعلها أَسماء لها، فيكون بينها قدْرٌ مشْترَك، كالصلاةِ، والزَّكاةِ، والصوْم، والإِيمان، والكفرِ.

وكذلك لما أخبرنا بأُمورٍ تتعلق بالإِيمان بالله واليوْم الآخِرِ، وهم لم يكونوا يعرِفونها قبل ذلك حتى يكون لهم أَلفاظٌ تدُل عليها بعينها، أَخَذ من اللغَةِ الأَلفاظَ المناسبةَ لتلك بما تدُل عليه من القدْرِ المشْترَك بين تلك المعاني الغَيبيةِ، والمعاني الشُّهودِيةِ التي كانوا يعرِفونها، وقرَن بذلك من الإِشَارَةِ ونحوِها ما يعلم به حقيقةُ المرَادِ، كتعليم الصبي[1].

وأَما ما يُخبْرُ به الرَّسول ﷺ من الأُمورِ الغَائِبةِ، فقدْ يكون مما أَدْرَكوا نظِيرَه بحسهم وعقلهم، كإِخْبارِهم بأَن الرِّيح أَهلكت عادًا، فإِن عادًا من جِنسهم، والرِّيح من جِنس رِيحهم، وإِن كانت أَشَدَّ. وكذلك غَرَق فرْعوْن في البحرِ، وكذا بقيةُ الأَخْبارِ عن الأُمم الماضِيةِ، ولهذا كان الإِخْبارُ بذلك فيه عبرَةٌ لنا، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يوسف: ١١١.

وقدْ يكون الذي يخْبرُ به الرَّسول ﷺ مما لم يدْرِكوا مثله، أو لم يوافق ما رأوه في الحقيقةِ من كل وجْه، لكن في مفرَدَاته ما يشبْه مفرَدَاتهم من بعضِ الوُجُوه. كما إِذا أَخْبرَهم عن الأُمورِ الغَيبيةِ

(١) السابق بتصرف ص١٠٤.

المتعلقةِ باللهِ واليوْمِ الآخِرِ، فلا بدَّ أَن يعلموا معنى مشْترَكا عاما عند التجرد عن الإضافة، وتشبيها بين مفرَدَات تلك الألفاظِ وبين مفرَدَات الألفاظِ مما علموه في الدُّنيا بحسهم وعقلهم.

فإِذا أخبرنا عن الأُمورِ الغَائِبةِ، فلا بدَّ من تعرِيفنا المعاني المشْترَكة بينها وبين الحقائِق المشْهودَةِ، والاشْتباه الذي بينهما، وذلك بتعرِيفنا الأُمورَ المشْهودَةَ. ثم إِن كانت مثلها، لم نحتجْ إِلى ذكرِ الفارِق، كما تقدَّم في قصص الأُمم، وإِن لم تكن مثلها، بُين ذلك بذكرِ الفارِق، بأَن يقال: ليس ذلك مثل هذا، ونحو ذلك.

وإِذا تقرَّرَ انتفاء المماثلةِ، كانت الإِضَافةُ وحدَها كافية في بيان الفارِق، وانتفاء التساوِي لا يمنع منه وُجُودُ القدْرِ المشْترَك، الذي هو مدْلول اللفظِ المشْترَك عند التجرد [(١)].

• **قياس الشمول يستوي فيه الأفراد تحت حكم واحد.**

النوع الثاني من الأقيسة التي حرمها الله في حقه هو قياس الشمول، وهو القانون الشامل، أو الأحكام العامة التي تطبق على جميع الأفراد، أو كما عرفوه بأنه قياس كلي على جزئي، فالمكيف أو المشبه الذي يستخدم قياس الشمول، جعل الكيفية التي تحكم أوصاف الإنسان قانونا يحكم به على أوصاف الرحمن، كقوله: لو كان الله متصفا بالكلام، لكان له فم ولسان، لأنه لم ير المتكلم في

---

(١) السابق بتصرف ص١٠٥.

أحكام الدنيا إلا على هذه الكيفية، وكقوله: لو كان على العرش لكان محمولا، فطبق قانون الجاذبية الأرضية على كيفية استواء الخالق كما يطبقها على استواء الإنسان، أو حمله للأشياء.

ومعلوم أن صاحب الفطرة السليمة يأبى أن يقال مثل هذا في أوصاف الله ﷻ، بل يعلم أن هذه الأحكام ربما لا تطبق على الإنسان خارج نطاق الجاذبية الأرضية، مثل أماكن انعدام الوزن، أو المحطات الفضائية، أو ربما يسمع صوتا من غير فم أو لسان، كما يري المسجل يعيد الصوت ويكرره كأنه إنسان.

وإذا قيل: لا يدخل قاعة الاختبار في الكلية إلا طلاب السنة النهائية، علم العقلاء أن ذلك لا ينطبق على الأساتذة المراقبين، أو القائمين على النواحي الإدارية. وإذا قيل: لا يدخل المصنع إلا العاملون، علم العقلاء أن ذلك لا ينطبق على صاحب المصنع ومن رافقه من أولاده وأهله وأصحابه.

وهكذا يعلم العقلاء وأصحاب الفطرة السليمة أن القوانين التي تحكم أوصاف البشر لا تنطبق على ربهم، وأن الله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

- **خطورة استخدام قياس التمثيل والشمول في حق الله.**

وعلى ذلك يلزم الاحتراز من استخدام هذين النوعين من القياس في حق الله ﷻ، وهما قياس التمثيل وقياس الشمول، لأن النتيجة

المترتبة على استخدام الممثل لقياس التمثيل، واستخدام المكيف أو المشبه لقياس الشمول تتمثل فيما يلي:

١- تعطيل العلم الصحيح بأوصاف الحق التي وردت في نصوص الكتاب والسنة تحت ستار التمثيل والتشبيه، فالممثل عطل الصفة الحقيقية لله ﷻ، ولذا قال ابن تيمية: كل ممثل معطل[1].

٢- الافتراء على الله تعالى حيث ادعى في وصف الله ما لا علم له به، وزعم أن أوصاف الله تشبه أوصاف البشر، وهي في الحقيقة ليست كذلك، وقد حرم الله ﷻ ذلك على عباده فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأعراف:٣٣.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦.

قال فخر الدين الرازي في بيان السبب الأول لوجوب تغيير ما دل عليه الكتاب والسنة من أمور حقيقية إلى أشياء معنوية مجازية: (ورد في القرآن ذكر الوجه، وذكر العين، وذكر الأيدي، وذكر الساق الواحدة، فلو أخذنا بالظاهر يلزمنا إثبات شخص له وجه واحد، وعلى

---

(١) انظر الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٧، ٣/٤٩. وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية٢/٩٥، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة مكة المكرمة،سنة ١٣٩٢هـ.

ذلك الوجه أعين كثيرة، وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحدة، ولا نرى في الدنيا شخصا أقبح صورة من هذه الصورة المتخيلة) [١].

لقد تخيل الرازي في ذهنه صورة قبيحة لربه، رسمتها حسب زعمه الآيات القرآنية، فحاول أن ينفي تلك الصورة بالتحامل على القرآن وادعاء أن ظاهره يفيد البطلان، فوقع في عدة محاذير:

١- أنه رسم صورة لربه كصورة الإنسان، وجعل صورة الإنسان هي أصل القياس لصورة الرب سبحانه وتعالى، وزعم أن ظاهر الآيات القرآنية الواردة في صفات الله ﷻ رسمت صورة لربه هي أقبح من صورة البشر.

٢- أن ظاهر كلام الله ﷻ يلزم بتكوين تلك الصورة التي فهمها، وهذا بهتان عظيم، فالحق تبارك وتعالى لا يقول كلاما لازمه أنه سبحانه وتعالى بهذه الكيفية القبيحة التي يعتقدها الرازي، والتي حاول نفيها حتى لا يقع في هذا اللازم.

٣- أن هذه اللوازم خفيت على رسول الله ﷺ إذ لم يثبت عنه أنه غير معناها إلى أمور معنوية، لا تدل على حقيقة أو وجود الكيفية، وهذا يقتضي أنهم أعلم من رسول الله ﷺ، وهذا محض افتراء.

٤- أن رسول الله ﷺ لو علم تلك اللوازم وتركها، وأوجب التأويل

---

(١) أساس التقديس ص ١٠٥.

والتبديل من أجلها، دون نص ثابت صرح فيه ﷺ بوجوب التأويل، فما بلغ البلاغ المبين، إذ كيف يترك الناس قرونا في الضلال حتى يأتي الرازي وأمثاله من الأشعرية، ليوضحوا للناس أن الرسول ﷺ وصف ربه بالنقص، ومن ثم يجب أن نغير كلامه بالتأويل حتى يدل على الكمال الواجب في حق الله؟!

٥- يلزمه وصف أصحاب رسول الله ﷺ بضيق الأفق، وعدم الفهم لأنه خفيت عليهم هذه الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية لربهم. أما إن علم أصحاب رسول الله ﷺ أن القرآن قد دل على ما يصبوا إليه الرازي من التمثيل، ولم يغيروا المعني إلى أمور معنوية كما فعل هو، فيلزمه وصفهم بالنقص؛ لأنهم رضوا بالباطل، وآمنوا بالرسول ﷺ وهم يعلمون أن خالقهم بهذه الصورة القبيحة.

• المعطلة ضلوا في فهم القدر المشترك والقدر الفارق.

أساس مذهب الأشعرية وكل أتباع الجهمية في تعطيل الصفات أو نفيها سوء فهمهم لمعنى التوحيد، وتخبطهم في إدراك القدر المشترك والقدر الفارق عند التعبير عن الأشياء، فمن المعلوم أنه ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقدر فارق، فمن نفى القدر الفارق فقد مثل، ومن نفى القدر المشترك فقد عطل [1].

---

(١) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٦٩.

قال ابن تيمية: (سمى الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه، لا يشركه فيها غيره. وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما، ولم يلزم من اتحاد الاسمين عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص) [(١)].

ومن ثم فإن الأسماء من جهة اللغة عند التجرد عامة مشتركة، تتخصص دلالتها عند العقلاء بالإضافة والتقييد، فلو قال قائل: هذا فيل كبير، وقال آخر: هذا طائر كبير، فالمشترك بين القولين بعد اسم الإشارة لفظ كبير، وهو عند سائر العقلاء من حيث الدلالة له ثلاثة معان ظاهرة:

الأول: عند إضافته إلى الفيل، فأي عاقل يتصور من دلالته معنى معينا يستوعبه الذهن، حيث يتصور فيلا كبيرا بين بني جنسه من الفيلة.

والثاني: عند إضافته إلى الطائر، فإن العاقل يتصور من دلالته معنى آخر غير المعنى السابق، فهو طائر كبير بين الطيور، ولا يزعم عاقل أنه عندما يسمع قول القائل: طائر كبير، فإنه يتصور جبلا، أو جملا،

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/١٠.

أو فيلا، أو بغلا، أو غير ذلك.

والثالث: إذا قطع لفظ كبير عن الإضافة، وكان وحده مجردا، فإن له معنى آخر يتصور الذهن فيه شيئا عاما، يمكن اشتراك الكل فيه، وإن كانت الألفاظ لا تطلق مجردة بين العقلاء، فلا نرى عاقلا يمشى بين الناس، ويردد لفظ "كبير" عشرات المرات، ولو سئل من تعني بالكبير؟ فيقول: كلمة أرددها، خرجت عن غير قصد، ولا أعنى بها شيئا. فيقال: هذا يهذي، أو به جنون، لأن العقلاء لا يتكلمون بألفاظ مجردة عن الإضافة إلى مسمياتها، أو غير مخصصة بأصحابها أو معانيها.

والله ﷻ له المثل الأعلى، إذا قال في كتابه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ الإنسان:٢، وقال عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ النساء:٥٨، فإن السميع والبصير كاسمين أو لفظين من مفردات اللغة لهما من حيث الدلالة ثلاثة أنواع يستوعبها جميع العقلاء:

الأول: إذا أضيفا إلى الإنسان؛ فإن العاقل يعلم معنى كونه سميعا بصيرا، ويعلم الكيفية الحقيقية التي دل عليها هذان الاسمان في حق المخلوق، فالإنسان يسمع بأذن، ويبصر بحدقة، وهذا ظاهر اللفظ عند تخصيصه وتقييده بالإنسان.

الثاني: إذا أضيفا إلى الله ﷻ؛ فإن العاقل يعلم معنى كونه سبحانه سميعا بصيرا، فالله ﷻ يسمع ويرى على الحقيقة، لكن العاقل لا يعلم

الكيفية الحقيقية للوصفين الذين دل عليهما هذان الاسمان في حق الله تعالى؛ فالكيف مجهول لنا؛ لأننا ما رأينا الله ﷻ، وما رأينا له نظيرا، وهو سبحانه وحده الذي يعلم كيف هو؟ وقد أمرنا أن نؤمن بما أخبرنا به عن نفسه، وأن نصدقه تصديقا جازما، وهذا مراد السلف بأن نصوص الصفات على ظاهرها في حق الله ﷻ.

الثالث: إذا قطعا عن الإضافة وانفصلا عن التقييد وكانا مجردين؛ فإن لهما معنى ثالثا عاما ومشتركا غير المعنى الأول والثاني، وهذا لا يكون في الواقع، بل يتصوره الذهن فقط، ولا يلزم أبدا من استعمال الأسماء المجردة في حق الخالق أو المخلوق وجود التطابق بين سمع هذا وذاك، أو بصر هذا وذاك، أو وجود المماثلة والمشابهة بينهما.

ومن هنا يظهر الخطأ الذي وقع فيه المعطل والممثل، لأن المعطل لما شبه الله بخلقه لم يجد الصورة التي كونها في ذهنه مستساغة أو مقبولة؛ فأراد أن ينفيها بمثل ما ذكره المتكلمون من أنواع التأويل، وسحب النصوص عن دلالاتها، فالنصوص المكونة من حروف وكلمات، وهي بدورها تشتمل على الأسماء والصفات، وهذه الألفاظ كمفردات لغوية يستخدمها المتكلم في التعبير عن مراده عند تجردها، وعند ذكر مفرداتها منقطعة عن الإضافة، حيث تكون عامة مشتركة يمكن استخدامها في حق الخالق والمخلوق معا.

أما إذا أضيفت إلى الخالق سبحانه، وقيدت ألفاظها بالدلالة عليه؛

فإنها تدل على معنى يخص الخالق دون غيره، وكذلك إذا أضيفت إلى المخلوق، وقيدت ألفاظها بالدلالة عليه؛ فإنها تدل على معنى آخر يخص المخلوق دون غيره، فهناك قدر مشترك عند التجرد، وقدر فارق عند التخصيص والتقيد، ولا يمكن إهمال القدر الفارق؛ لأن ذلك تمثيل للمخلوق بالخالق، ولا يمكن نفي القدر العام المشترك بين الجميع؛ لأنه تعطيل للألفاظ اللغوية، وإبطال للتفاهم والتواصل في لغة التخاطب بين الإنسانية [١].

وقد تقدم في كلام ابن أبي العز الحنفي أن القرآن تضمن نصوصا كثيرة تدل على أن الله ﷻ سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه عند التجرد وعموم اللفظ، فسمى نفسه رءوفا رحيما، وسمى بعض عباده رءوفا رحيما، وليس الرءوف كالرءوف، ولا الرحيم كالرحيم، وكذلك سمى نفسه ملكا عزيزا جبارا متكبرا، وسمى بعض عباده ملكا، وبعضهم عزيزا، وبعضهم جبارا متكبرا، وليس هو في ذلك مماثلا لخلقه [٢].

قال أبو عمر الطلمنكي: (وقال قوم من المعتزلة والجهمية لا يجوز أن يسمى الله ﷻ بالأسماء على الحقيقة ويسمى بها المخلوق، فنفوا عن الله الحقائق من أسمائه وأثبتوها لخلقه، فإذا سئلوا ما حملهم على هذا

---

(١) انظر في هذا المعنى بيان تلبيس الجهمية ١/٣٩١.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤/٤٢٥.

الزيغ، قالوا: الاجتماع في التسمية يوجب التشبيه، قلنا: هذا خروج عن اللغة التي خوطبنا بها، لأن المعقول في اللغة أن الاشتباه لا يحصل بالتسمية، وإنما بتشبيه الأشياء بأنفاسها وذواتها، أو بأوصاف وهيئات فيها، كالبياض بالبياض، والسواد بالسواد، والطويل بالطويل، والقصير بالقصير، ولو كانت الأسماء توجب اشتباها وتماثلا، لاشتبهت الأشياء كلها لشمول اسم الشيء لها، وعموم تسمية الأشياء بها) [١].

• ما معنى خلق الله آدم على صورته؟

روى البخاري ومسلم من حديث أَبِي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَال: اذهَبْ فَسَلمْ عَلَى أُولئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلائِكَةِ جُلوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذرِيَّتِكَ؛ فَقَال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ: فَقَالوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَة اللهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَة اللهِ، فكل مَنْ يَدْخُل الجَنَّةَ عَلى صُورَةِ آدَمَ، فَلمْ يَزَل الخَلقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ) [٢].

أعظم تكريم للإنسان من الله ﷻ أنه خلق آدم ﵇ على صورته في القدر المشترك ليوحد الله في القدر الفارق، فقد خلقه على صورته

---

(١) مختصر العلو للعلي الغفار للحافظ الذهبي ص ٢٦٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب بدء السلام ٥/٢٢٩٩ (٥٨٧٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٤/٢١٨٣(٢٨٤١).

في المعنى العام عند التجرد ليستخلفه في أرضه ويستأمنه في ملكه.

والحديث ظاهر المعنى في أن الله ﷻ صور آدم ﷺ وجعل له سمعا وبصرا وعلما وحكما وخلافة وملكا وغير ذلك من الأوصاف المشتركة عند التجرد، والتي يصح عند إطلاقها استخدامها في حق الخالق والمخلوق، فالله ﷻ له صورة وآدم ﷺ له صورة، ولفظ الصورة عند التجرد لا يعني التماثل قط، ولا يكون علة للتشبيه إلا عند من فسدت فطرته من المشبهة والمعطلة.

أما الصورة عند الإضافة والتقييد فصورة الحق لا يعلم كيفيتها إلا هو، لأننا ما رأيناه، وما رأينا له مثيلا، أما صورة آدم ﷺ فمعلومة المعنى والكيفية، وقد خلق الله آدم على صورته ﷻ في القدر المشترك مع ثبوت الفارق عند أهل التوحيد.

والمقصود بخلق الله للإنسان على صورته أن نؤمن بالمشترك العام اللفظي في الاسم أو الوصف اللغوي عند تجرده عن الإضافة، لنوحد الله في القدر الفارق عند إضافة الاسم أو الوصف إلى الخالق، وأن الإنسان مهما بلغ في وصفه، أو بالغ في تعظيم اسمه فلن يصل إلى وصف الخالق الذي استخلفه في أرضه، واستأمنه في ملكه، فالعاقل حينها لا يتصرف في الأمانة إلا بإذنه، ولا بد أن يرجع فيها إلى شرعه وأمره ونهيه.

وكل ذلك لتظهر آثار أسماء الله وصفاته من خلال الإيمان بقدرة

الله ﷻ وعلاقتها بحكمته، وكيف نجمع في اعتقادنا بين الإيمان بربوبيته مع تحقيق عبوديته والعمل في أرضه بشريعته؟

وعلى ذلك فإن الله لما استخلف الإنسان في أرضه على وجه الابتلاء والامتحان، جعله على صورته في إظهار آثار أسمائه من خلال عبوديته للملك الديان، حيث تعرّف الله إليه بجملة من أسمائه وصفاته ليتقلب في آثارها كل إنسان، فالله ﷻ من أسمائه الرحمن الرحيم، ومعناه اتصافه بالرحمة العامة التي مقتضاها العدل، والرحمة الخاصة التي مقتضاها الفضل، فوجب على كل إنسان أن يكون متصفا بالرحمة العامة والخاصة ليلتزم مع المخالفين له بالعدل، ويتعامل مع إخوانه المؤمنين بالفضل.

والله ﷻ من أسمائه الملك، ومعناه المتصرف في ملكه بأمره وقضائه وحكمه، بحيث لا يظلم أحدا من خلقه، فوجب على الإنسان أن يكون ملكا عادلا يتصرف أيضا في مملكته بحيث لا يظلم أحدا من رعيته. وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أن أول السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إِمَامٌ عَادِل [(١)].

ومن أسماء الله ﷻ القدوس، ومعناه المنزه في ذاته عن كل نقص،

---

(١) رواه البخاري في كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش ٢٤٩٦/٦ (٦٤٢١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ٧١٥/٢ (١٠٣١).

والمتصف بكل كمال وجمال، فوجب على الإنسان أن يكون متصفا بالنزاهة، والبعد عن النجاسة الحسية والمعنوية، ويسعى ما استطاع إلى كمال ذاته، وحسن صفاته، وجمال أفعاله، وبذل الوسع في اكتساب حسن الهيئة والجمال. وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بأن الله جميل يحب الجمال [1].

والله ﷻ من أسمائه السلام، ومعناه المتصف بالسلامة من كل عيب في ذاته، وسلامة الآخرين من عذابه إذا عبدوه ووحدوه، فوجب على الإنسان أن يكون سالما في نفسه، محافظا على بدنه، محبا لغيره، قد سلم الجميع من لسانه ويده، وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده [2].

وهكذا القول في جميع أسماء الله وصفاته التي تعرّف بها إلى النوعية الإنسانية من وقت آدم ﵇ إلى آخر ولد من الذرية.

ومن ثم فإن أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة، أو الأسماء التسعة والتسعين المطلقة، وكذلك التسعة والتسعين المضافة والمقيدة، هذه الأسماء هي تعرف الله بها، أو بما يماثلها من أوصافه إلى الأنبياء السابقين كما تعرف بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ١/٩٣ (٩١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/١٣ (١٠)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل ١/٦٥(٤٠).

• هل ظاهر نصوص الصفات مراد أو غير مراد؟

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن من المتأخرين من يقول بأن مذهب السلف هو إقرار النصوص على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد. وهذا اللفظ مجمل، فإن قوله بأن ظاهرها غير مراد، يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلى أنه مستقر في الحائط الذي يصلى إليه، وأن الله معنا، ظاهره أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أن هذا غير مراد. ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ بإطلاق القول بأن هذا هو ظاهر الآيات والأحاديث، فان هذا المحال ليس هو الظاهر، فان الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس وهو من الأمور النسبية [1].

وكان أحسن من هذا أن يبين لمن اعتقد أن هذا هو الظاهر، أن هذا ليس هو الظاهر، حتى يكون قد أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظا ومعنى.

وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله الظاهر غير مراد عندهم أن المعاني التي تظهر من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته، ولا تختص بصفة المخلوقين غير مراد، فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف، أو تعمد الكذب، فما يمكن أحد قط أن ينقل عن

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى ٥/١١١.

واحد من السلف ما يدل لا نصا ولا ظاهرا أنهم كانوا يعتقدون أن ظاهر النصوص، هو أن الله ليس فوق العرش، ولا أن الله ليس له سمع، ولا بصر، ولا يد حقيقة.

وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف ويقولون إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف، بمعنى أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه وتعالى، ولكن السلف امسكوا عن تأويلها، والمتأخرون رأوا المصلحة في تأويلها لمسيس الحاجة إلى ذلك.

ويقولون: الفرق بين الطريقين، أن هؤلاء قد يعيِّنون المراد بالتأويل، وأولئك لا يعيِّنون لجواز أن يراد معنى لا يريده الله ﷻ، وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف.

ومن تأمل كلام السلف المنقول عنهم علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم قد صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك. والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ـ والكلام لشيخ الإسلام ـ ما رأيت كلام أحد منهم يدل لا نصا ولا ظاهرا ولا بالقرائن على نفى الصفات الخبرية، أو نفي إثبات حقائقها. بل الذي رأيته أن كثيرا من كلامهم يدل إما نصا وإما ظاهرا على تقرير سائر نوعية هذه الصفات، ولا أنقل عن كل واحد

منهم إثبات كل صفة على حده، بل الذي رأيته أنهم يثبتون جنسها في الجملة، وما رأيت أحدا منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله ﷻ بخلقه، مع إنكارهم على من ينفى الصفات أيضا، كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري:

(من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها) [(١)].

وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفى التشبيه من غير إثبات الصفات، قالوا: هذا جهمي معطل. وهذا كثير جدا في كلامهم، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئا من الصفات مشبها كذبا منهم وافتراء، حتى إن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتى قال ثمامة بن الأشرس من رؤساء الجهمية: ثلاثة من الأنبياء مشبهة موسى حيث قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ الأعراف:١٥٥. وعيسى حيث قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ المائدة:١١٦.

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٥٣٢/٣ (٩٣٦)، نشر دار طيبة الرياض، والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ١٧٢/١ (٤٦٤)، نشر مكتبة أضواء السلف الرياض، وانظر سير أعلام النبلاء ٢٩٩/١٣، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٩٦/٥.

ومحمد حيث قال: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟) [١].

وحتى إن جل المعتزلة تدخل عامة الأئمة، مثل مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهوية، وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهم في قسم المشبهة.

وقد صنف أبو اسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءا سماه "تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة" ذكر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذا الباب، وذكر أن أهل البدع، كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه، يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد، كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي ﷺ بألقاب افتروها، فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يسمونهم مجبرة، والمرجئة تسميهم شكاكا، والجهمية تسميهم مشبهة، وأهل الكلام يسمونهم حشوية .. إلى أمثال ذلك، كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ تارة مجنونا، وتارة شاعرا، وتارة كاهنا، وتارة مفتريا.

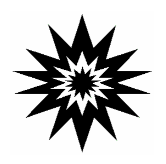
قالوا: فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السنة هي ما

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء نصف الليل ١/٣٨٤ (١٠٩٤) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء آخر الليل ١/٥٢١ (٧٥٨).

كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، اعتقادا واقتصادا، وقولا وعملا، فكما أن المنحرفين عنه يسمونهم بأسماء مذمومة مكذوبة، وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة، فكذلك التابعون له على بصيرة، الذين هم أولى الناس به في المحيا والممات، باطنا وظاهرا [(١)].

في أحد المناظرات سألوا شيخ الإسلام ابن تيمية عن الظاهر: هل هو مراد أم لا؟ فأجابهم بأن هذا ليس في العقيدة، وأنه يتبرع بالجواب عن أكثر من حكى مذهب السلف.. في نفى الكيفية والتشبيه عن نصوص الصفات، وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات العلم بالكيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات العلم بالكيفية. فظاهر النصوص هو ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، وما يخصه سبحانه دون غيره، وهو المراد عند ذكر أسماء الله تعالى وصفاته، مثل الحي والعليم والقدير والسميع والبصير[(٢)].



(١) مجموع الفتاوى ٥/١١١ بتصرف.

(٢) السابق ٣/٢٠٧ بتصرف.

المطلب العاشر

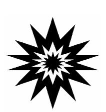
قياس الأولى وطريقة السلف
في إثبات الصفات



- التوحيد عند السلف يؤدي إلى إثبات الصفات.
- طريقة السلف النفي المجمل والإثبات المفصل.
- الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما.
- طريقة السلف النفي المتضمن لكمال الضد.
- طريقة السلف في الإثبات استخدام قياس الأولى.
- لا بد للموحد أن يحذر من التعطيل والتحريف.
- رد شيخ الإسلام ابن تيمية على المعطلة.
- التأويل بغير دليل تحريف للكلم عن مواضعه.
- مذهب السلف وسط بين التعطيل والتمثيل.

المطلب العاشر

قياس الأولى وطريقة السلف الصالح
في إثبات الصفات



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن بعض القواعد السلفية في توحيد الصفات، وبينا أن التوحيد هو أساس الاعتقاد السلفي في هذا الباب، وأنه لا بد للتوحيد من نفي قياس التمثيل والشمول، فقياس التمثيل هو إلحاق فرع بأصل في حكم جامع لعلة، وهذا لا يطبق على ذات الله أو صفاته وأفعاله.

وعلمنا أنه ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق، فمن نفى القدر المشترك فقد عطل، ومن نفى القدر الفارق فقد مثل، وذكرنا شرح ابن أبي العز الحنفي للقدر المشترك والقدر الفارق، وأن الاتفاق في اللفظ عند التجرد عن الإضافة لا يوجب التماثل، وأن المخَاطب لا يمكن أن يفهم المعاني المعبر عنها بالألفاظ إلا عند تقيدها وتخصيصها، وعلمنا أيضا أن قياس الشمول هو قياس يستوي فيه الأفراد تحت حكم واحد.

ثم بينا النتائج المترتبة على استخدام قياس التمثيل والشمول في حق الله، وأن نفاة الصفات ضلوا في فهم القدر المشترك والقدر الفارق. وبينا معنى حديث الصورة، ومعنى خلق الله آدم على صورته؟ ثم عرضنا رأي ابن تيمية في ظاهر نصوص الصفات، وهل هو مراد أو غير مراد؟

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن قياس الأولى وطريقة السلف في إثبات الصفات، وبيان باقي القواعد الأساسية لفهم منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **التوحيد عند السلف يؤدي إلى إثبات الصفات.**

علمنا أن القاعدة الأولى التي قام عليها اعتقاد السلف الصالح هي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله بنفي قياس التمثيل والشمول، أما القاعدة الثانية الأساسية التي قام عليها اعتقاد السلف فهي إثبات الصفات على مراد الله ورسوله ﷺ؛ لأن الله ﷻ بعد أن بدأ بالتوحيد أولا في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ الشورى:١١.

اتبع ذلك بإثبات الأسماء والصفات التي تليق به فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورى:١١. فالتوحيد يستلزم إثبات الصفات، وهذا ما يناسب الفطرة السليمة والعقول المستقيمة.

وبيان ذلك أن المتوحد المنفرد عن غيره لابد أن ينفرد بشيء يتميز

به، ويكون هو الوحيد المتصف به، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا، ولا متوحدا، ولا متميزا عن غيره، فلو قلت مثلا: فلان لا نظير له، سيقال لك في ماذا؟ تقول: في علمه، أو في حكمته، أو في غناه، أو في قدرته، أو في ملكه أو في استوائه على عرشه، أو في أي صفة تذكرها، فلا بد من ذكر الوصف الذي يتميز به.

لكن من العبث أن يقال لك: فلان لا نظير له في ماذا؟ فتقول: في لا شيء، أو تقول لا صفة له أصلا، فالله ﷻ ـ وله المثل الأعلى ـ أثبت لنفسه أوصاف الكمال التي انفرد بها دون غيره، ونفي عن نفسه أوصاف النقص ليثبت توحده في ذاته وصفاته، فأثبت لنفسه الوحدانية في استوائه، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. فاستواؤه له كيفية تليق به لا نعلمها، ولا مثيل ولا شبيه له فيها.

وأثبت الوحدانية في كلامه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ النساء:١٦٤. فكلامه بكيفية تليق به، ليس كمثله شيء فيها، ولا علم لنا بها، فمداركنا وإن استوعبت معنى كلامه، فإنها لا تستوعب كيفية أداء الكلام؛ لأنها كيفية غيبية. وأثبت لنفسه يدين لا مثيل ولا شبيه له فيهما فقال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾ ص:٧٥. وكذلك الحال في سائر الصفات والأفعال.

- **طريقة السلف النفي المجمل والإثبات المفصل.**

كما أن طريقة السلف الصالح في إثبات الصفات هي طريقة القرآن والسنة، وهي تعتمد على أمرين اثنين:

الأمر الأول: النفي المجمل لصفات النقص، والإثبات المفصل لصفات الكمال. فالله ﷻ نفي عن نفسه كل صفات النقص إجمالا، ولم يفصل فيما نفاه تفصيلا، فقال تعالى في النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١.

وقال أيضا: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص: ٤.

وقد أثبت الله ﷻ لنفسه صفات الكمال على وجه التفصيل، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد: ٤.

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحشر: ٢٢/ ٢٤.

وغير ذلك من الآيات التي عدد الله ﷻ فيها أسماءه وأوصافه

وأفعاله، مثبتا لها ولكمالها وجلالها ومفصلا في ذلك.

واعلم أن طريقة السلف في الإثبات والنفي على العكس من طريقة المتكلمين، فإنهم يجملون في الإثبات ويفصلون في النفي، فمثال الإجمال في الإثبات، ما فعله أهل الاعتزال حين أثبتوا وجود ذات الله فقط، ونفوا عنه الصفات.

ومثال التفصيل في النفي عندهم قولهم في مدح الله: ليس بجسم، ولا شبح، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا.، ولا.. الخ.

وهذا يماثل قول الأحمق في مدح الملك أو الأمير: لست بزبال، ولا كناس ولا حمار، ولا نسناس، ولا خادم، ولا حقير، ولا متسول، ولا فقير، ولا.. ولا... الخ.

وكان يكفيه أن يقول: ليس لك نظير فيما رأت عيناي، أو لا يماثلك أحد في وصف كذا، كما كان يكفيهم أن يقولوا في مدح الله ﷻ كما قال تعالى عن نفسه:﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ الشورى:١١.

لكنهم لا يرغبون في إثبات أي صفة من صفات الله ﷻ، فإن سألتهم: من تعبدون؟، قالوا: نعبد من لا صفة له، قيل لهم: من لا صفة له يكون معدوما بلا وجود، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله: المعطل يعبد عدما [1].

- **الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما.**

وهذه الطريقة التي اتبعتها طائفة المعتزلة، أو طائفة الأشعرية، أو أي طائفة من أتباع الجهمية هي في الحقيقة طريقة ذم لا مدح، فالنفوس مفطورة على أن تمدح بالإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات وليس العكس، فتدبر.

وقد ذكر ابن تيمية أن الله سبحانه بعث رسله بإثبات مفصل ونفي مجمل. فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل. قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾ مريم:٦٥ [2].

وقال أهل اللغة: هل تعلم له سميا أن نظيرا يستحق مثل اسمه، ويقال: مساميا يساميه، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثيلا أو شبيها.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص:٣/٤.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ البقرة:٢٢.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٦/٥ ، ومنهاج السنة النبوية ٥٢٦/٢ ، درء تعارض العقل والنقل ٢٨٣/٣ نشر دار الكنوز الأدبية ، الرياض.

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٤/٣ بتصرف.

وقال: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٠/١٠١ .

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان: ١/٢.

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ الصافات: ١٤٩/١٥٣.

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات: ١٨٠/١٨٢.

فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وسلامة ما نقلوه عن رب العالمين، وحمد نفسه إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٥ .

وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص: ١/٤ .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ التحريم: ٢ .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم: ٥٤ .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ إبراهيم: ٤

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ يونس: ١٠٧

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ البروج: ١٤/ ١٦ .

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد: ٣/ ٤ .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ محمد: ٢٨ .

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة: ٥٤ .

وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ البينة:٨.

وقوله: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ النساء:٩٣.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠﴾ غافر:١٠.

وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ البقرة:٢١٠.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ فصلت:١١.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤.

وقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ مريم:٥٢.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ القصص:٦٢.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس:٨٢.

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ الحشر:٢٢/٢٤.

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب تعالى وصفاته، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل، ما هدى الله به عباده سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين والذين أوتوا الكتاب، ومن دخل في هؤلاء من الصابئة المتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم، فإنهم على ضد ذلك يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجود مطلقا لا حقيقة في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل [(١)].

قال ابن تيمية: (وأما السلف والأئمة فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفي أو إثبات، بل اعتصموا بالكتاب والسنة، ورأوا ذلك هو الموافق لصريح العقل، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته حقا، يجب الإيمان به وإن لم تعرف حقيقة معناه.

وكل لفظ أحدثه الناس فأثبته قوم ونفاه آخرون، فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم، فإن كان مراده حقا موافقا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفي أو إثبات قلنا به؛

---

(١) السابق ٣/٥ بتصرف.

وإن كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به.

ورأوا أن الطريقة التي جاء بها القرآن هي الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول، وهي طريقة الأنبياء والمرسلين.

وأن الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بنفي مجمل وإثبات مفصل؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات: ١٨٠/١٨٢.

فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن. والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل، وينفي عنه التشبيه والتمثيل على طريق الإجمال. فهو في القرآن يخبر أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه عزيز حكيم، غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه غفور ودود، وأنه تعالى على عظم ذاته يحب المؤمنين ويرضى عنهم، ويغضب على الكفار ويسخط عليهم، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليما، وأنه تجلى للجبل فجعله دكا؛ وأمثال ذلك.

ويقول في النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١. ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم: ٦٥. ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ النحل: ٧٤. ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ الإخلاص:١/٤. فيثبت الصفات وينفي مماثلة المخلوقات) [(١)].

- **طريقة السلف النفي المتضمن لكمال الضد.**

الأمر الثاني: في طريقة إثبات الصفات عند السلف الصالح أن طريقتهم في نفي النقص عن الله، النفي المتضمن لإثبات كمال الضد، فإذا قال الله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ البقرة:٢٥٥، علمنا أن نفي السنة والنوم يتضمن كمال الضد، وهو إثبات الكمال في حياته وقيوميته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ الكهف:٤٩، فيه نفي الظلم عن الله المتضمن لكمال الضد، وهو منتهى العدل، وهكذا في سائر ما ورد في الكتاب والسنة.

وكل نفي لا يستلزم ثبوتا لم يصف الله به نفسه، ولذا فإن طريقة الخلف من المعتزلة والأشعرية في نفي صفات النقص عن الله هي بذاتها عين النقص لأنهم إذا قالوا: الله ليس بجسم، وتساءل العقلاء؟ ماذا يكون إذا لم يكن جسما؟ هل يكون عرضا؟ قالوا: ولا عرضا، فماذا يكون إن لم يكن عرضا؟ هل يكون شبحا خياليا؟ قالوا: ولا شبحا، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/٣٨.

طول، ولا عرض، ولا عمق، فيقال لهم: إن الله إذا نفى عن نفسه وصفا أثبت كمال ضده، فماذا أثبتم بهذا النفي غير الكلام الفارغ من المدح؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالنفي لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوتا، وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه، ونفي السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، ولله الأسماء الحسنى، وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ ﴾ البقرة:٢٥٥. فنفْي أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾ ق:٣٨. يتضمن كمال قدرته ونحو ذلك، فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه) [١].

• طريقة السلف في الإثبات استخدام قياس الأولى.

ويجدر التنبيه على أنه يجوز في باب الصفات وإثباتها لله ﷻ استخدام قياس الأولى كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾ النحل:٦٠. فإنه من المعلوم أن كل كمال ووصف ممدوح لا نقص فيه يكون لبعض

---

(١) انظر السابق ٣/٣٥. وانظر الكلام على دعوة ذي النون ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٢٥٠. وجواب أهل العلم والإيمان في أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، ضمن مجموع الفتاوى ١٧/١٤٢.

الموجودات المخلوقة المحدثة، فالرب الخالق الصمد القيوم هو أولى به، وكل نقص أو عيب يجب أن ينزه عنه بعض المخلوقات المحدثة، فالرب الخالق القدوس السلام هو أولى أن يتنزه عنه.

واعلم أن كل ما ثبت عن النبي ﷺ من إشارة حسية في الصفات الإلهية فهو من باب إثبات الصفات بقياس الأولى، كما ورد في حديث الإشارة إلى السماء [١]، وحديث قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن[٢]، وحديث اليهودي في حمل السماوات على إصبع[٣]، وغير ذلك مما ثبت عن رسول الله ﷺ فهو محمول على إثبات الصفات بقياس الأولى.

وعدم فهم المتكلمين لذلك، وقياسهم تلك الإشارات بقياس التمثيل والشمول أدى بهم إلى رد السنة وتعطيلها، واتهام الشرع بأن ظاهره باطل مستحيل، وأنهم فهموا ما لم يفهمه النبي ﷺ وأصحابه من تلك الإشارات.

وقد ذكر ابن أبي العز أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده،

---

(١) انظر سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله ﷻ به ٥/٥٩٣ (٣٦٢٥) ، ومسند الإمام أحمد ٥/١٨ (٢٠٢٠٩).

(٢) رواه مسلم في القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب ٤/٢٠٤٥ (٢٦٥٤).

(٣) رواه البخاري في التوحيد ، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٧ (٦٩٧٨) ، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٤٧ (٢٧٨٦).

فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي أفرادها، ولهذا لما سلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية، لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب، لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها. ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلا أو شمولا كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ النحل:٦٠. مثل أن يعلم أن كل كمال للمخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه، فالخالق أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق، فإنما استفاده من ربه وخالقه، وهو أحق به منه، وأن كل نقص وعيب في نفسه تضمن سلب الكمال، إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات، فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى [(١)].

قال ابن تيمية: (ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية قياس الأولى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ النحل:٦٠، إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق، فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه) [(٢)].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١١٧ بتصرف.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ١/٣٢٥.

وقد ذكر ابن تيمية أن السلف والأئمة كانوا في ذلك من العدل والاستقامة وموافقة المعقول الصريح والمنقول الصحيح بحال آخر، فالعصمة وإن كانت شاملة لجماعتهم، فآحادهم مع ذلك لا يجترئون في مخالفة النصوص المشهورة والمعقولات المعروفة على ما يجترئ عليه هؤلاء المسفسطون، وكانوا يستعملون القياس العقلي على النحو الذي ورد به القرآن في الأمثال التي ضربها الله تعالى للناس، فإن الله ضرب للناس في القرآن من كل مثل، وبين بالأقيسة العقلية المقبولة بالعقل الصريح من المطالب الإلهية والمقاصد الربانية ما لا تصل إليه آراء هؤلاء المتكلمين.

والله تعالى له المثل الأعلى، فلا يجوز أن يقاس على غيره قياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا يقاس مع غيره قياس شمول تستوي أفراده في حكمه؛ فإن الله سبحانه ليس مثلا لغيره، ولا مساويا له أصلا، بل مثل هذا القياس هو ضرب الأمثال لله، وهو من الشرك والعدل بالله، وجعل الند لله، وجعل غيره له كفوا وسميا.

وهؤلاء المتكلمون يكثرون من البراءة من التشبيه والذم له، وهم في مثل هذه المقاييس داخلون في حقيقة التمثيل والتشبيه، والعدل بالله وجعل غيره له كفوا وندا وسميا، كما فعلوا في مسائل الصفات والقدر وغير ذلك [١].

---

(١) السابق ١/٣٢٦ بتصرف.

• **لا بد للموحد أن يحذر من التعطيل والتحريف.**

من الأمور الهامة التي ينبغي للموحد أن يحذر منها صيانة للقاعدة الثانية حتى لا يهدم إيمانه بما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ أن يحذر من نوعين من الضلال، وهما التعطيل والتحريف المبني على التأويل الباطل، وبيان ذلك فيما يأتي:

١- التعطيل: وهو رد النصوص الثابتة في الكتاب والسنة ورفض محتواها وعدم التسليم لها.

وسببه اعتقاد المعطل أن إثبات الصفات التي وردت في تلك النصوص يلزم منه التمثيل والتشبيه، فالمعطل جسد صورة لربه في ذهنه تشبه صورة الإنسان، فوقع في محذورات القاعدة الأولى حيث اعتقد فيها التمثيل والتشبيه، وزعم أن ظاهر النصوص دل على ذلك، فأحس بالرفض التلقائي لتلك الصورة، والرغبة في تنزيه الله عنها، وبدلا من أن يعيب فهمه السيئ، وظنه الآثم في كلام الله وجه العيب إلي الكتاب والسنة، وبدأ في التحامل على النصوص بالباطل، فادعي أولا أن ظاهرها باطل غير مراد في كلام الله ﷻ، ثم حاول محو ما دلت عليه بأي طريقة، وتعطيلها عن مدلولها الذي يطابق الحقيقة.

رُوي عن الجهم بن صفوان، التصريح بالرغبة في محو كلام الله الذي أثبت فيه الاستواء على العرش لأنه تصور أن إثبات الاستواء تمثيل وتجسيم، والمعطلة كالمعتزلة والأشعرية والماتريدية يرددون مثل هذه العلة

في تأويل الاستواء بالاستيلاء والقهر. فقال الجهم: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت. يقصد قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ طه:٥ (١).

ورويَ أيضا أن عمرو بن عبيد المعتزلي قال لأبي عمرو بن العلاء وهو أحد القراء: أحب أن تقرأ هذا الحرف: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. بنصب اسم الله، ليكون موسى عليه السلام هو الذي كلم الله، ولا يكون في الكلام دلالة على أن الله كلم أحدا، فقال له: فكيف تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الأعراف:١٤٣؟ فبهت المعتزلي!

وهكذا المعطل اعتقد في النصوص التمثيل، فاضطر إلى أن يعطلها، وقد علمنا من محذورات القاعدة الأولى أن الممثل عطل الصفة الحقيقية لله لأن تمثيله الباطل غطى على الحقيقة، ولذلك قال ابن تيمية: كل ممثل معطل، وكل معطل ممثل.

قال فخر الدين الرازي في بيان وجوب تعطيل صفة الاستواء

---

(١) انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ١/١٦٧ (١٩٠) نشر دار ابن القيم بالدمام. وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت. والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص١٥٤. وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، لأحمد بن إبراهيم عيسى ٢/٨٨، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

وتأويلها بالاستيلاء: (إن الجالس على العرش لا بد أن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش، فيكون في نفسه مؤلفا مركبا، وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال. كما أن الجالس على العرش، إما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة، أو لا يمكنه ذلك، فإن كان الأول فقد صار محلا للحركة والسكون، فيكون محدثا لا محالة، وإن كان الثاني كان كالمربوط، بل كان كالزمِن المشلول، بل أسوأ حالا منه، فإن الزمن إذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك، وهو غير ممكن على معبودهم. كما أن العالم كرة، فالجهة التي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض، وبالعكس، فلو كان المعبود مختصا بجهة، فتلك الجهة وإن كانت فوقا لبعض الناس ولكنها تحت بالنسبة لبعض آخرين، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء) [1].

- **رد شيخ الإسلام ابن تيمية على المعطلة .**

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على مثل هذا الكلام أن كثيرا من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي

---

(١) أساس التقديس للفخر الرازي تحقيق دكتور أحمد حجازي السقا ص ١٩٩، ص٢٠٣، وانظر أيضا مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٨٣/١٤ نشر دار إحياء التراث العربي، وقد تاب الرازي قبل موته، وعاد لمذهب السلف .

فهمه، فيقع في أربعة أنواع من المحاذير:

١- كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

٢- أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله، بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص، وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله ﷺ، حيث ظن أن الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل، يبقى وقد عطل ما أودع الله ورسوله ﷺ في كلامهما من إثبات الصفات والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى.

٣- أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلا لما يستحقه الرب سبحانه وتعالى.

٤- أن يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات، فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب، ومثله بالمعدومات والمنقوصات، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحدا في أسماء الله وآياته.

ومثال ذلك ظن المتوهم أنه إذا وصف الله بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام كقوله

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الزخرف:١٢. فيتخيل أنه إذا كان مستويا على العرش، كان محتاجا إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فلو غرقت السفينة لسقط المستوي عليها، ولو عثرت الدابة لخر من فوقها.

ومقياس هذا عنده أنه لو انعدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى، ثم يريد بزعمه أن ينفي هذا فيقول: ليس له استواء، بل استيلاء، فيخطئ في مفهوم استوائه على العرش، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك، وليس في اللفظ ما يدل على ذلك؛ لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة، كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته، فذكر أنه خلق ثم استوي، كما ذكر أنه قدر فهدى، وأنه بني السماء بأيد، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى، وأمثال ذلك. فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق، ولا عاما يتناول المخلوق، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته.

وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة، فلو قدر على وجه الفرض الممتنع أنه هو مثل خلقه، تعالى الله عن ذلك، لكان استواؤه مثل استواء خلقه، أما إذا كان هو سبحانه ليس مماثلا لخلقه، بل قد علم أنه الغني عن المخلوق، وأنه الخالق للعرش ولغيره، وأن ما سواه مفتقر إليه، وهو الغني عن كل ما سواه، فكيف يجوز أن يتوهم أنه إذا كان مستويا على العرش كان محتاجا إليه، وأنه لو سقط العرش لخر من عليه؟!

سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، هل هذا إلا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه، أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله، أو جوز ذلك على رب العالمين، الغني عن الخلق؟! بل لو قدر أن جاهلا فهم مثل هذا وتوهمه، لبُيّن له أن هذا لا يجوز، وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلا، كما دل على نظائره في سائر ما وصف به الرب نفسه فلما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ الذاريات:٤٧. فهل يتوهم أن بناءه مثل بناء الآدمي المحتاج، الذي يحتاج إلى زنبيل ومجارف وضرب لبن وأعوان؟

ثم قد علم أن الله خلق العالم بعضه فوق بعض، ولم يجعل عاليه مفتقرا إلى سافله، فالهواء فوق الأرض، وليس مفتقرا إلى حمل الأرض، والسحاب فوق الأرض، وليس مفتقرا إلى أن تحمله، والسماوات فوق الأرض وليست مفتقرة إلى حمل الأرض لها. فالعلي الأعلى رب كل شئ ومليكه، إذا كان فوق جميع خلقه، كيف يجب أن يكون محتاجا إلى خلقه أو عرشه؟ أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم في المخلوقات؟

وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغني عن غيره، فالخالق سبحانه وتعالى أحق به وأولى من المخلوق، وكذلك قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ ﴾ الملك:١٦ فمن توهم أن مقتضي هذه الآية زنبيل أن يكون الله داخل السماوات فهو جاهل ضال بالاتفاق. فلو قال قائل: العرش في السماء أو في الأرض؟ لقيل: في

السماء. ولو قيل: الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: في السماء. ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السماوات، بل ولا الجنة فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

(فَإِذا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ) [1].

فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك مع أن كون الجنة في السماء يراد به العلو سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها. قال تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الحج:١٥. وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ الفرقان:٤٨.

ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى وأنه فوق كل شيء كان المفهوم من قوله: في السماء، أنه في العلو وأنه فوق كل شيء.

وكذلك الجارية لما قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل: العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به، إذ ليس فوق العالم موجود إلا الله. كما لو قيل: العرش في السماء. فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شئ آخر موجود مخلوق، وإن قدر أن

---

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٧٠٠ (٦٩٨٧).

السماء المراد بها الأفلاك كان المراد أنه عليها كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ طه:٧١. وكما قال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ النحل:٣٦. وكما قال تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التوبة:٢. ويقال: فلان في الجبل، وفي السطح، وإن كان على أعلى شئ فيه [(١)].

إن لفظ الجلوس من الألفاظ المبتدعة التي لا يجوز إطلاقها في حق الله تبارك تعالى، لأنه لا يطلقه على الله إلا من يعتقد أن الله يشبه المخلوق في استوائه، ونحن لسنا أفضل من رسول الله ﷺ، ولا من أصحابه رضوان الله عليهم، حيث يعتقدون أن الله مستو على عرشه دون أن يحتاج إليه، بل يحمله هو وحملته بقدرته تعالى.

ومن ثم فلا نترك الاعتقاد الحق خشية أن يقال: هذا تشبيه، إنما التشبيه هو ما ذهبوا إليه من الاعتقاد الفاسد الذي عطلوا به صفات الله ﷻ.

لقد حاول المعطل أن يقبح الاستواء الحقيقي في نفس السامع بأن يجعل الاستواء في حق الخالق والذي ورد في قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. يعني الجلوس.

ولم يفهم من الآية إلا معنى مستهجن يدل على تمثيل الخالق بالمخلوق ووصف السلف الصالح بالمجسمة أو المشبهة، ولذلك نفي

---

(١) الرسالة التدمرية ص ٢٦: ٢٨ بتصرف.

الاستواء. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ الحاقة:١٧. لم يفهم منه أيضا إلا أنّ حمل الملائكة لعرش الله، يلزم منه أنهم يحملون الله وهو مفتقر إليهم.

وهو في حقيقته قد طبق قانون الجاذبية الأرضية على الله تعالى في استوائه وعلوه على عرشه، فهل يصلح قانون الجاذبية الأرضية أن يطبق على الخالق سبحانه وتعالى، أو على حملة العرش؟!

إن الجالس أو المحمول تجذبه الأرض إليها بقوة منتظمة خلقها الله في ذات الأرض، وتسمي حديثا بعجلة الجاذبية الأرضية، وقد وجد بالتجربة أن عجلة الجاذبية الأرضية تساوي بالقيمة التقريبية ٩,٨ متر/ث٢، ومعني هذا أن الجسم يسقط في كل ثانية مربعة مسافة تسعة أمتار وثمانية أعشار المتر، وتزداد هذه القيمة كلما اتجهنا نحو أحد القطبين لتصبح هناك ٩,٨٣ تقريبا، بينما تقل القيمة كلما اتجهنا نحو خط الاستواء لتصبح هناك ٩,٨٧ تقريبا.

وتلك القوة التي خلقها الله في الأرض هي العلة في عملية الجلوس والاستقرار، وهي العلة في ثقل الأشياء عند رفعها، فالجسم المحمول على الكرسي تجذبه الأرض بفعل قوتها بالعجلة المذكورة، والكرسي أو المقعد أو الحامل له رد فعل يساوي في المقدار قيمة القوة الجاذبة المتجهة نحو الأرض، ويضاده في الاتجاه.

ولذلك يبدو الجسم مستقرا، ويسمي المحمول محمولا، والجالس

جالسا. فقد ثبت من النواميس والقوانين التي وضعها الله في مخلوقاته على الأرض أن لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، كما هو مقرر في علوم الحركة الميكانيكية.

وعلي ذلك لو فرضنا أن الله الذي خلق قوة الجذب في الأرض أعدمها، فانعدمت عجلة الجاذبية الأرضية، فهل يكون الجالس جالسا أو المحمول محمولا؟! أم أن الجالس سيكون عال على كرسيه والمحمول لا يفتقر إلى من يحمله؟ حينئذ لا يلزم أن يكون المستوي على الشئ محمولا عليه، بل سيكون عال عليه، غير مفتقر إليه.

وماذا لو قلنا لهؤلاء المعطلة: إن هذا الفرض أعني انعدام الجاذبية الأرضية قد حدث بخروج الإنسان عن نطاق الجاذبية الأرضية في السفن الفضائية، أو المحطات الفضائية، والناس يشاهدون ويسمعون أخبار رواد الفضاء يوما بعد يوم في وسائل الإعلام، فرائد الفضاء يكون عال على كرسيه، ولا يكون محمولا عليه، بل هو الحامل له.

وهذا أيضا واقع يتم فيما يسمى بغرفة انعدام الوزن، حيث يصل وزن الإنسان إلى الصفر، ولا تأثير لقوة جذب الأرض عليه. فإن جاز في حق الإنسان المخلوق أن يكون عال الشئ ولا يكون محمولا والمستوي على الشيء لا يفتقر إليه، فإن الله إذا أخبرنا بأنه استوى على العرش، وجب علينا أن نؤمن بذلك دون طلب العلم بالكيفية؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا وليس كمثله شئ. وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

- **التأويل بغير دليل تحريف للكلم عن مواضعه.**

تقدم أنه لا بد لمن أثبت الصفات على منهج السلف الصالح أن يحذر من نوعين من الضلال، وهما التعطيل، وقد تقدم ذكره، والثاني التحريف، وبيانه فيما يلي:

٢- التحريف: هو التأويل بغير دليل، وهو تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن المتكلم يقصد شيئا في كلامه يختلف عن المعنى الذي أراده المؤول، والسبب الذي دفع أهل الضلال إلى التأويل الباطل لنصوص الكتاب والسنة، أن المعطل بعد رفضه للنصوص بناء على اعتقاده التمثيل والتشبيه فيها كما سبق، أراد أن يستر جريمة التعطيل حتى لا يقال في حقه إنه يكذب بالقرآن والسنة، فأخفى جريمة التعطيل تحت شعار التأويل وادعاء البلاغة في فهم النصوص، فاستبدل المعنى المراد من النصوص بمعنى بديل لا يقصده المتكلم بها.

روى أن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، بدلا من قول تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى:١١، فحرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه يسمع ويبصر، لاعتقاده أن السمع في حق الله ﷻ لا بد أن يكون بأذن أو جارحة.

ويشبه هذا الصنيع الباطل قول المعتزلة والأشعرية بأن الاستواء في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ طه:٥. معناه الاستيلاء

والقهر. واليدان في قوله: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾ ص:٧٥. هما القوة والقدرة.

وكل ذلك وأمثاله منكر من القول وتزوير في لغة العرب، لأن العرب عند التحقيق لا تعرف الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر، ولا اليدين في مثل هذا السياق بمعنى القدرة، ولذلك ذكر ابن تيمية أن التحريف بالتأويل أقبح من التعطيل والتكييف والتمثيل، لأنه ما حرف إلا لأنه عطل، وما عطل إلا لأنه كيَّف ومثل، فجمع أنواع الضلال في هذا الباب بتأويله الباطل.

ولا حجة لقول بعضهم إن اللغة مرنة، وحمالة للمعاني، وفضفاضة تتسع لأنواع التأويل، لأن اللغة لها ضوابط معروفة، لا يسعنا أن نخرج عن قواعدها، فالسلف استعملوا التأويل في عصرهم بمعنى غير ما يعرف الآن عند الأشعرية أو سائر علماء الكلام، إذ تقيدوا بما ورد في القرآن والسنة وما عرف بين الصحابة والتابعين من معاني التأويل، وسيأتي إن شاء الله بيان معناه بالتفصيل.

• مذهب السلف وسط بين التعطيل والتمثيل.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن مذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ كما فعل المخالفون، فعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا،

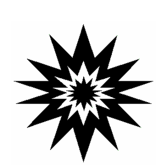
وحرفوا الكلم عن مواضعه، وألحدوا في أسماء الله وآياته.

ثم بين أن كل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل، جامع بين التعطيل والتمثيل. أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثلوا أولا، وعطلوا آخرا. وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله تعالى.

فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أو مساويا، وكل ذلك من المحال، ونحو ذلك من الكلام، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم.

أما استواء يليق بجلال الله تعالى، ويختص به، فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها، كما يلزم من سائر الأجسام، وصار هنا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع، فإما أن يكون جوهرا أو عرضا، وكلاهما محال، إذ لا يعقل موجود إلا هذان، وقوله: إذا كان مستويا على العرش فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا، فإن كليهما مثل، وكليهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه، وامتاز الأول بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي، وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين.

والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله، ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها [١].



(١) مجموع الفتاوى ٥/٢٧ بتصرف.

المطلب الحادي عشر

معاني التأويل في القرآن والسنة

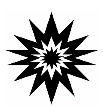
- التأويل لغة رجوع الكلام ومآله إلى ما ينطبق عليه.
- التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.
- أدلة القرآن على المعنى الأول للتأويل.



- أدلة السنة على المعنى الأول للتأويل.
- المعنى الثاني للتأويل هو التفسير والبيان.
- المعنى الثالث صرف اللفظ من معنى إلى آخر بدليل.
- التحريف هو صرف اللفظ عن معناه بغير دليل.
- التحريف بالتأويل أقبح من التعطيل والتكييف والتمثيل.
- أنواع التأويلات الباطلة التي هي من قبيل التحريف.
- نتائج التأويل الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه.
- مثال من أول شيئا بعقله وقدمه على النقل الصحيح.
- لوازم القول بالتأويل الباطل.

المطلب الحادي عشر

معاني التأويل في القرآن والسنة



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن منهج السلف في توحيد الصفات، وبينا أن التوحيد عند السلف توحيد يؤدي إلى إثبات الصفات دون تعطيلها، وأن طريقة السلف في إثبات الصفات هي النفي المجمل والإثبات المفصل.

وعلمنا أن الممثل يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما، وأن طريقة السلف في النفي هي النفي المتضمن لكمال الضد، وأن طريقتهم في إثبات الصفات استخدام قياس الأولى، وأنه لا بد للموحد أن يحذر من التعطيل ورد النصوص الثابتة في الكتاب والسنة بحجة نفي التشبيه، وكذلك لا بد لمن آمن بصفات الله أن يحذر من التأويل بغير دليل؛ لأنه تحريف للكلم عن مواضعه، وعلمنا أيضا أن كل ممثل معطل، وأن كل معطل ممثل، وأن مذهب السلف الصالح مذهب وسط بين التعطيل والتمثيل.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن معاني التأويل في

القرآن والسنة، وأنواع التأويلات الباطلة، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **التأويل لغة رجوع الكلام ومآله إلى ما ينطبق عليه.**

قال ابن منظور الأفريقي: (آل إليه وَأْلاً، ووُؤُولاً، وَوَئيلاً، ووَاءَل مُواءَلةً، ووِئالاً لجأَ، والوَأْل والمَوْئِل الملجأُ، وقد وأَل إلِيه يَئِل وَأْلاً ووُؤُولاً، أَي لجأَ) [1].

والتأويل مصدر أوّله يؤوله تأويلا، مثل حول تحويلا، وقولهم: آل يؤول، أي عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه المآل وهو ما يؤول إليه الشيء، ومما يوافقه في اشتقاقه الآل، فإن آل الشخص من يؤول إليه كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون.

والتأويل من آل يؤول إلى كذا إذا صار إليه، فالتأويل التصيير، وأولته تأويلا إذا صيرته إليه فآل وتأول. وقال الجوهري التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء. ثم تسمى العاقبة تأويلا؛ لأن الأمر يصير إليها ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ النساء:٥٩.

وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلا؛ لأن الأمر ينتهي إليها، ومنه

---

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١١/٧١٥ نشر دار صادر، بيروت.

قول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ الأعراف:٥٣ [١].

- **التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.**

المعنى الأول الذي عرف بين الصحابة والتابعين وسائر السلف المتقدمين، هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، أو الحقيقة المعبرة عن مدلول الكلام [٢].

وهذا المعنى هو الذي نطقت به آيات الكتاب، فلقد تكررت كلمة التأويل في القرآن في أكثر من عشرة مواضع، كان معناها في جميع استعمالاتها، الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.

وتأويل الخبر عند السلف الصالح وقوعه، وحدوث ما أخبر عنه، سواء كان ذلك في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل. وتأويل الأمر تنفيذه وطاعته، ولهذا قال سفيان بن عيينة: (السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الأمرِ وَالنَّهْيِ) [٣]. فإن نفس الفعل المأمور به هو تأويل الأمر به، ونفس الموجود المخبر عنه هو تأويل الخبر، والكلام خبر وأمر.

قال ابن القيم: (فالتأويل في كتاب الله سبحانه وتعالى المراد به حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه، وهي الحقيقة الموجودة في

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٢٩١، والصواعق المرسلة ص١٧٦.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/٣٨٢، والرسالة التدمرية ٣/٥٦.

(٣) انظر الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٥٦.

الخارج، فإن الكلام نوعان: خبر وطلب، فتأويل الخبر هو الحقيقة، وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله نفس ما هو عليه سبحانه، وما هو موصوف به من الصفات العلى، وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور) [1].

• أدلة القرآن على المعنى الأول للتأويل .

١- قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف: ١٠٠.

قال ابن جرير: (قال يوسف لأبيه: يا أبت، هذا السجود الذي سجدتَ، أنت وأمّي وإخوتي لي، تأويل رؤياي من قبل، يقول: ما آلت إليه رؤياي التي كنت رأيتها، وهي رؤياه التي كان رآها قبل صنيع إخوته به ما صنعوا، أنَّ أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر له ساجدون، قد جعلها ربي حقًّا، يقول: قد حقّقها ربي لمجيء تأويلها على الصحَّة) [2].

٢- قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ

---

(١) الصواعق المرسلة ص١٧٧.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٧/٣٠٥.

نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأعراف:٥٣.

قال ابن كثير: (هل ينظرون إلا تأويله، أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ، وقوله: يوم يأتي تأويله، أي يوم القيامة. قال ابن عباس: يقول الذين نسوه من قبل، أي تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا، قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا، أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه، أو نرد إلى الدار الدنيا، فنعمل غير الذي كنا نعمل) [١].

٣- قوله تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ يونس:٣٩.

قال البغوي: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، يعني القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، أي عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم) [٢].

وقال الواحدي: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، أي بما في القرآن من الجنة والنار والبعث والقيامة، ولما يأتهم تأويله، ولم يأتهم بعد

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٤.

(٢) تفسير البغوي ١/١٣٤.

حقيقة ما وعدوا في الكتاب، كذلك كذب الذين من قبلهم بالبعث والقيام) [(١)].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٞ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴾ يوسف:٣٦/٤١.

٥- قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٞ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٧ ﴾ آل عمران:٧.

• أدلة السنة على المعنى الأول للتأويل .

١- ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُول فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغْفِرْ لي، يَتَأَوَّل القُرْآنَ) [(٢)].

وهي تعني أن النبي ﷺ كان عند ركوعه وسجوده في الصلاة ينفذ

---

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي ١/٤٩٨.

(٢) البخاري في الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود ١/٢٨١ (٧٨٤)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/٣٥٠ (٤٨٤).

أمر الله ﷻ الذي ورد في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ النصر:٣. فالتأويل عندها هو الحقيقية التي يؤول إليها الكلام، وتأويل الأمر عندها تنفيذه، والشاهد واضح جدا.

٢- وروى البخاري من حديث أُسَامَة بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمْ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلى الأذى، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّل العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ حَتَّى أَذنَ اللهُ فِيهِمْ، فَلمَّا غزَا رَسُول اللهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَل اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ) (١).

والشاهد أن التأويل الذي يعنيه أسامة بن زيد ﷺ هو الحقيقية التي يؤول إليها الكلام، وأن تأويل الأمر عنده تنفيذه، فقوله بأن النبي ﷺ كان يتأول العفو أي ينفذ الأمر بالعفو. هذا الأمر الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٦.

وكذلك الأمر بالعفو في قول الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب ٤/١٦٦٣ (٤٢٩٠).

شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾﴾ البقرة:١٠٩. فالتأويل الذي استخدمه الصحابة ﷺ هو ما ورد معناه في القرآن، وهو الحقيقية التي يؤول إليها الكلام، وكان الصحابة ﷺ يرون أن تأويل الخبر وقوعه، وأن تأويل الأمر تنفيذه.

٣- اجتماع الصحابة على تأويل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ المائدة:١٠٥. وأن زمن وقوع الأمر بلزوم المسلم نفسه، وترك أصحاب المنكر، ليس هو زمن القوة وتماسك الخلافة الذي كان في عصرهم.

روى الترمذي وصححه، وصححه الشيخ الألباني، أن أبا بكر الصديق ﷺ قال بعد أن حَمِدَ الله ﷻ وأثنى عليه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: إِنَّ النَّاسَ إذا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلمْ يَأْخُذوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ) [1]. وفي رواية ابن حبان: (إن الناس إذا رأوا منكرا، فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه) [2].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القران، باب ومن سورة المائدة ٥/٢٥٦ (٣٠٥٧)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وانظر صحيح الجامع (١٩٧٣) ورواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤/١٢٢(٤٣٣٨).

(٢) رواه ابن حبان في البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١/٥٤٠ (٣٠٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال: (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون، إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب) [(١)].

وقد رأى أبو بكر الصديق ﷺ في تأويل الآية أنها ليست حجة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم في عصر الخلافة الرشيدة وزمان قوة الإسلام، فلا بد لكل مسلم رأي منكرا أن يغيره، وإن عجز طلب من المحتسبين القائمين من قبل المسئولين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يغيروه.

وكذلك كان فهم أبي ثعلبة الخُشَنِيَّ ﷺ فقد روى أبو داود وصحح الألباني بعض ألفاظه عن أَبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ أنه قال: (سَأَلتُ أَبَا ثعْلبَةَ الخُشَنِيَّ فَقُلتُ: يَا أَبَا ثعْلبَةَ، كَيْفَ تَقُول فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ المائدة:١٠٥. قَال: أَمَا وَاللهِ لقَدْ سَأَلتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلتُ عَنْهَا رَسُول اللهِ ﷺ فَقَال: بَل ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ المُنْكَرِ، حَتَّى إذا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثرَةً، وَإِعْجَابَ كُل ذي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَليْكَ، يَعْنِي بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْل قَبْضٍ عَلى الجَمْرِ، للعَامِلِ فِيهِمْ مِثْل أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا

(١) صحيح، مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب السلام(٥١٤٢).

يَعْمَلونَ مِثْل عَمَلِه، وَزَادَنِي غَيْرُهُ، قَال يَا رَسُول اللهِ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَال: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ) (١).

والذي يجمع ما سبق على أن التأويل الذي استخدمه الصحابة ﷺ هو الحقيقية التي يؤول إليها الكلام، وأن تأويل الخبر عندهم وقوعه، وتأويل الأمر تنفيذه، هو ما ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ في بيان معنى التأويل.

روى البيهقي عن أبي العالية قال: كانوا عند عبد الله، فوقع بين رجلين ما يقع بين الناس، فوثب كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال بعضهم: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف، وأنهاهما عن المنكر؟ فقال بعضهم: عليك نفسك، إن الله تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ المائدة:١٠٥.

فسمعها عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: ليس هذا بزمانها، قولوها ما قبلت منكم، فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل حيث نزل فمنه آي قد مضي تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي وقع

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ١٢٣/٤ (٤٣٤١)، والترمذي في كتاب تفسير القران، باب ومن سورة المائدة ٢٥٧/٥ (٣٠٥٨)، وضعفه الألباني إلا بعض ألفاظه ورد في روايات أخرى صحيحة، انظر مشكاة المصابيح (٥١٤٤) وضعيف الترغيب والترهيب، كتاب التوبة والزهد، باب الترغيب في التوبة ١٦٢/٢ (١٨٤٦) نشر مكتبة المعارف الرياض.

تأويلهن على عهد النبي ﷺ، ومنه آي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن في آخر الزمان، ومنه آي يقع تأويلهن يوم القيامة، ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعا، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية) [١].

قال ابن تيمية: (فابن مسعود ﷺ قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر، فهذه الآية: عليكم أنفسكم من باب الأمر، وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر، وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به، وتأويل الأمر هو فعل المأمور به، فالآية التي مضي تأويلها قبل نزولها، هي من باب الخبر يقع الشيء فيذكره الله كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له، وهي وإن مضي تأويلها فهي عبرة، ومعناها ثابت في نظيرها) [٢].

وقال: (وأما لفظ التأويل في التنزيل، فمعناه الحقيقة التي يؤول إليها الخطاب، وهي نفس الحقائق التي أخبر الله عنها، فتأويل ما أخبر

---

(١) السنن الكبري للبيهقي، كتاب آداب القاضي، باب ما يستدل به على أن القضاء وسائر أعمال الولاة مما يكون أمرا بالمعروف أو نهيا عن منكر من فروض الكفايات ١٠/٩٢ (١٩٩٨١) .

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/٣٧١.

به عن اليوم الآخر، هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وتأويل ما أخبر به عن نفسه، هو نفسه المقدسة الموصوفة بصفاته العلية، وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا كان السلف يقولون: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فيثبتون العلم بالاستواء، وهو التأويل الذي بمعنى التفسير، وهو معرفة المراد بالكلام حتى يتدبر ويعقل ويفقه، ويقولون: الكيف مجهول، وهو التأويل الذي انفرد الله بعلمه، وهو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو)[1].

- **المعنى الثاني للتأويل هو التفسير والبيان.**

المعنى الثاني للتأويل في عرف السلف الصالح هو التفسير والبيان، ويقصدون به كشف المعنى، وتوضيح مراد المتكلم، وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه، ويرد باطله.

ومثاله دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: (اللهمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل)[2].

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث، فمرادهم به معنى التفسير والبيان،

---

(١) درء التعارض ٣/٩٥.

(٢) رواه البخاري بلفظ (اللهم فقهه في الدين) ١/٦٦ (١٤٣) ورواه أحمد بالزيادة المذكورة في مسند عبد الله بن عباس ﷺ ١/٣٢٨ (٣٠٣٣)، قال الأرنؤوط: إسناده قوي علي شرط مسلم، ورواه الحاكم في المستدرك ٣/٦١٥ (٦٢٨٠)، وقال الذهبي في التلخيص صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٨٩).

ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا. يريد تفسيره، ومنه قول الإمام أحمد في كتابه في الرد على الجهمية فيما تأولته من القرآن على غير تأويله [١]، فأبطل تلك التأويلات التي ذكروها، وهي تفسيرها المراد بها، وهو تأويلها عنده، فهذا التأويل يرجع إلى فهم المعنى وتحصيله في الذهن، والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج) [٢].

وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلمِ الذينَ يَعْلمُونَ تَأْوِيلهُ) [٣].

قال ابن أبي العز شارح الطحاوية: (وَلَقَدْ صَدَقَ ﷺ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لهُ وَقَال: اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلمْهُ التَّأْوِيل. رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ. وَدُعَاؤُهُ ﷺ لا يُرَدُّ. قَال مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ المُصْحَفَ عَلى ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ أَوَّلهِ إِلى آخِرِهِ، أَقِفُهُ عِنْدَ كُل آيَةٍ، وَأَسْأَلهُ عَنْهَا. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ النُّقُول عَنْهُ أَنَّهُ تَكَلمَ فِي جَمِيعِ مَعَانِي القُرْآنِ، وَلمْ يَقُل عَنْ آيَةٍ: إِنَّهَا مِنَ المُتَشَابِهِ الذي لا يَعْلمُ أَحَدٌ تَأْوِيلهُ إِلا اللهُ. وَقَوْل

(١) انظر كتاب الرد على الزنادقة والجهمية، لناصر السنة وقامع البدعة الإمام أحمد بن حنبل ص٢٠، نشر المطبعة السلفية، القاهرة.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ١٧٨/١.

(٤) انظر ما رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (١٨٣/٣) عن ابن عباس من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وانظر كذلك مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤٠٢/١٧.

الأَصْحَابِ رَحِمَهُمُ اللهُ فِي الأُصُول: إِنَّ المُتَشَابِهَ الحُرُوفُ المُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَيُرْوَى هَذا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مَعَ أَنَّ هَذهِ الحُرُوفَ قَدْ تَكَلَمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ) [١].

قال ابن تيمية: (التأويل بمعنى التفسير، هذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن، كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير: واختلف علماء التأويل، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وعلى تفسيره يعتمد الشافعي وأحمد والبخاري وغيرهما، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه، فالمراد به معرفة تفسيره) [٢].

• **المعنى الثالث صرف اللفظ من معنى إلى آخر بدليل.**

ظهر للتأويل معنى جديد اشتهر في عرف المتأخرين من الفقهاء ورجال الأصول بمعنى صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى آخر بدليل من الكتاب والسنة.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الزمر:٤٢.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١/٢٣٤.

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٥٥.

فهو سبحانه يتوفاهم برسله الذين يتقدمهم ملك الموت كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ السجدة: ١١.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام: ٦١.

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ق: ١٦.

والله سبحانه وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد من حسنة وسيئة، والهم في النفس قبل العمل، فقوله: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله، فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد، فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إلى بعضه من بعض، ولهذا قال في تمام الآية: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق: ١٦. فقوله: "إذ" ظرف، فأخبر أنهم أقرب إليه من حبل الوريد حين يتلقى المتلقيان ما يقول، فهذا كله خبر عن الملائكة (١).

وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ القيامة: ١٦/ ١٨.

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ١٢٩ بتصرف.

والشاهد أن قوله تعالى: فإذا قرأناه. يراد به قراءة جبريل عليه السلام، لما ورد عند البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لسَانَكَ لتَعْجَل بِهِ. قَال: كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إذا نَزَل جِبْرِيل بِالوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ، فَيَشْتَدُّ عَليْهِ، وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ، فَأَنْزَل اللهُ الآيَةَ التِي فِي لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ: لا تُحَرِّكْ بِهِ لسَانَكَ لتَعْجَل بِهِ إِنَّ عَليْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. قَال: عَليْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ، فَإِذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. فَإِذا أَنْزَلنَاهُ فَاسْتَمِعْ، ثمَّ إِنَّ عَليْنَا بَيَانَهُ، عَليْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلسَانِكَ، قَال: فَكَانَ إِذا أَتَاهُ جِبْرِيل أَطْرَقَ، فَإِذا ذهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ ﷻ)[1].

قال ابن القيم: (وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد، ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك، وكل تأويل وافق ما جاء به الرسول ﷺ فهو المقبول، وما خالفه فهو المردود)[2].

- **التحريف هو صرف اللفظ عن معناه بغير دليل.**

وقد وجد كثير من علماء الخلف من المعتزلة والمتكلمين الأشاعرة

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة القيامة قوله تعالى: فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ٤/١٨٧٧ (٤٦٤٥). ومسلم في كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة ١/٣٣٠ (٤٤٨).

(٢) الصواعق المرسلة ص ١٨٧.

بغيتهم في هذا التأويل، واستخدموه بدليل أو بغير دليل، ليضفوا الشرعية على آرائهم، ويبرروا تعطيلهم لأوصاف الله ﷻ، فصرفوا معاني النصوص الظاهرة إلى معان ابتدعوها بغير دليل، وقاموا بلي أعناق النصوص وذبحها بصورة لا تخفى على عاقل، فقالوا في الاستواء كما سبق استيلاء وقهر هروبا من إثبات فوقية الله على خلقه، وقالوا: معنى في السماء، أي عذابه وسلطانه، ومعني اليدين القدرة، ومعني الوجه الذات، ومعني المجيء مجيء الأمر، ومعني النزول نزول الرحمة، ومعني الرضا إرادة الإكرام، والغضب إرادة الانتقام، والقدم مثل للردع والانزجار.

وهكذا أغلب الصفات حتى تشعر من أقوالهم بأن المتبادر إلى الذهن عند قراءة الكتاب والسنة معان باطلة، واعتقادات فاسدة، وأنه كان ينبغي أن يكون القرآن الكريم أحسن من هذا، وكان ينبغي لكلمات النبي ﷺ في الأحاديث أن تكون بغير هذه الألفاظ حتى لا يتكلفوا مشقة صرف الكلام عن معناه، وتأويله بغير دليل.

قال ابن تيمية: (وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، كتأويل من تأول استوى بمعنى استولى ونحوه، فهذا عند السلف والأئمة باطل لا حقيقة له، بل هو من باب تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته، فلا يقال في مثل هذا التأويل لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، بل يقال فيه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ يونس:١٨. كتأويلات الجهمية والقرامطة الباطنية، كتأويل من تأول الصلوات الخمس بمعرفة أسرارهم، والصيام بكتمان أسرارهم، والحج بزيارة شيوخهم، والإمام المبين بعلي بن أبي طالب، وأئمة الكفر بطلحة والزبير، والشجرة الملعونة في القرآن ببني أمية، واللؤلؤ والمرجان بالحسن والحسين، والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والبقرة بعائشة، وفرعون بالقلب، والنجم والقمر والشمس بالنفس والعقل ونحو ذلك، فهذه التأويلات من باب التحريف للكلم عن مواضعه، والإلحاد في آيات الله، وهي من باب الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ وكتابه.

ومثل هذه لا تُجعل حقا حتى يقال إن الله استأثر بعلمها، بل هي باطل مثل شهادة الزور.. وأصل وقوع أهل الضلال في مثل هذا التحريف الإعراض عن فهم كتاب الله تعالى كما فهمه الصحابة والتابعون، ومعارضة ما دل عليه بما يناقضه، وهذا هو من أعظم المحادة لله وللرسول، لكن على وجه النفاق والخداع)[1].

- **التحريف بالتأويل أقبح من التعطيل والتكييف والتمثيل.**

ذكر العلامة ابن القيم أن التأويل شر من التعطيل، فإنه يتضمن التشبيه والتعطيل، والتلاعب بالنصوص، وإساءة الظن بها، فإن المعطل والمؤول قد اشتركا في نفي حقائق الأسماء والصفات، وامتاز المؤول

---

(١) درء التعارض ٣/٣٠٨.

بتلاعبه بالنصوص، وانتهاكه لحرمتها، وإساءة الظن بها، ونسبة قائلها إلى التكلم بما ظاهره الضلال والإضلال، فجمعوا بين أربعة محاذير:

المحذور الأول: اعتقادهم أن ظاهر كلام الله ورسوله ﷺ المحال الباطل، ففهموا التشبيه أولا، ثم انتقلوا عنه إلى ما هو أكثر ضلالا.

المحذور الثاني: هو التعطيل فعطلوا حقائقها بناء منهم على ذلك الفهم الذي يليق بهم، ولا يليق بالرب جل جلاله.

المحذور الثالث: نسبة المتكلم الكامل العلم، الكامل البيان، التام النصح إلى ضد البيان والهدى والإرشاد، وإن المتحيرين المتهوكين أجادوا العبادة في هذا الباب وعبروا بعبارة لا توهم من الباطل ما أوهمته عبارة المتكلم بتلك النصوص، ولا ريب عند كل عاقل أن ذلك يتضمن أنهم كانوا أعلم منه، أو أفصح، أو أنصح للناس.

المحذور الرابع: تلاعبهم بالنصوص وانتهاك حرماتها فلو رأيتها وهم يلوكونها بأفواههم، وقد حلت بها المثلات، وتلاعبت بها أمواج التأويلات، وتقاذفت بها رياح الآراء، واحتوشتها رماح الأهواء، ونادى عليها أهل التأويل في سوق من يزيد، فبذل كل واحد في ثمنها من التأويلات ما يريد، فلو شاهدتها بينهم وقد تخطفتها أيدي الاحتمالات، ثم قيدت بعدما كانت مطلقة بأنواع الإشكالات، وعزلت عن سلطنة اليقين، وجعلت تحت حكم تأويل الجاهلين هذا، وطالما نصبت لها حبائل الإلحاد، وبقيت عرضة

للمطاعن والإفساد، وقعد النفاة على صراطها المستقيم بالدفع في صدورها والأعجاز، وقالوا: لا طريق لك علينا، وإن كان لا بد فعلى سبيل المجاز، فنحن أهل المعقولات، وأصحاب البراهين، وأنت أدلة لفظية، وظواهر سمعية، لا تفيد العلم ولا اليقين، فسندك آحاد، وهو عرضة للطعن في الناقلين، وإن صح وتواتر ففهم مراد المتكلم منه موقوف على انتفاء عشرة أشياء، لا سبيل إلى العلم بانتفائها عند الناظرين والباحثين، فلا إله إلا الله والله أكبر، كم هدمت بهذه المعاول من معاقل الإيمان، وكم أطلقت في نصوص الوحي من لسان كل جاهل أخرق، ومنافق أرعن، وطرقت لأعداء الدين الطريق، وفتحت الباب لكل مبتدع وزنديق [١].

ومن نظر في التأويلات المخالفة لحقائق النصوص رأى من ذلك ما يضحك عجبا، ويبكي حزنا، ويثير حمية للنصوص وغضبا، قد أعاد عذب النصوص ملحا أجاجا، وخرجت الناس من الهدى والعلم أفواجا، فتحيزت كل طائفة إلى طاغوتها، وتصادمت تصادم النصارى في شأن ناسوتها ولاهوتها، ثم تمالأ الكل على غزو جند الرحمن، ومعاداة حزب السنة والقرآن، فتداعوا إلى حربهم تداعي الأكلة إلى قصعتها، وقالوا: نحن وإن كنا مختلفين، فإنا على محاربة هذا الجند متفقون، فميلوا بنا عليهم ميلة واحدة حتى تعود دعوتهم باطلة، وكلمتهم خامدة، وَغَرّ المخدوعين كثرتُهم التي ما زادتهم عند

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ص٢٩٦ بتصرف.

الله ورسوله وحزبه إلا قلة، وقواعدهم التي ما زادتهم إلا ضلالا وبعدا عن الملة، وظنوا أنهم بجموعهم المعلولة يملئون قلوب أهل السنة إرهابا منهم وتعظيما [(١)].

وأكثر هذه التأويلات المخالفة للسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأهل الحديث قاطبة وأئمة الإسلام، الذين لهم في الأمة لسان صدق، أكثر هذه التأويلات يتضمن من عبث المتكلم بالنصوص وسوء الظن بها من جنس ما تضمنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه من أهل النفاق والإلحاد، لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه إفك ومحال، وكفر وضلال، وتشبيه وتمثيل أو تخييل، ثم صرفها إلى معان يُعلم أن إرادتها بتلك الألفاظ من نوع الأحاجي والألغاز، لا يصدر ممن قَصْدُه نصح وبيان.

فالمدافعة عن كلام الله ورسوله ﷺ والذب عنه من أفضل الأعمال، وأحبها إلى الله، وأنفعها للعبد، ومن رزقه الله بصيرة نافذة، علم سخافة عقول هؤلاء المحرفين، وأنهم من أهل الضلال المبين، وأنهم إخوان الذين ذمهم الله ﷻ بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، الذين لا يفقهون، ولا يتدبرون القول، الذين شبههم الله ﷻ بالحمر المستنفرة تارة، وبالحمار الذي يحمل أسفارا تارة.

ومن قَبِل التأويلات المفتراة على الله ورسوله ﷺ التي هي تحريف

---

(١) السابق ص ٢٩٧ بتصرف.

لكلام الله ورسوله ﷺ عن مواضعه، فهو من جنس الذين قبلوا قرآن مسيلمة المختلق المفترى، وقد زعم أنه شريك لرسول الله ﷺ، وكان رئيسا كبيرا مطاعا بجعله شريكا له في التصديق والطاعة والقبول، إن لم يقدمه عليه، لاسيما الغالية من الجهمية والباطنية والرافضة والاتحادية، فإن عندهم من كلام ساداتهم وكبرائهم ما يضاهون به كلام الله ورسوله ﷺ.

وكثيرا ما يقدمونه عليه علما وعملا، ويدعون فيه من التحقيق والتدقيق والعلم والعرفان ما لا يثبتون مثله للسنة والقرآن، ومن تلبس منهم بالإسلام يقول: كلامنا يوصل إلى الله والقرآن، وكلام الرسول ﷺ يوصل إلى الجنة، وكلامنا للخواص والقرآن للعوام.

وكثير منهم يقول: كلامنا برهان، وطريق القرآن خطابة، ومنهم من يقول: القرآن والسنة طريق السلامة، وكلامنا طريق العلم والتحقيق، وكثير منهم يقول: لم يكن الصحابة ﭫ معنيين بهذا الشأن، بل كانوا قوما أميين فتحوا البلاد وأقاموا الدين بالسيف، وسلموا إلينا النصوص نتصرف فيها ونستنبط منها، فلهم علينا مزية الجهاد والزهد والورع، ولنا عليهم مزية العلم بالحقائق والتأويل وإن لم يعلموا هذا من قلوبهم، والله يشهد به عليهم، ويعلمه كامنا في صدورهم، يبدو على فلتات لسان من لم يصرح به منهم[1].

---

(١) السابق ص ٢٩٨ بتصرف.

ومن محققي هؤلاء المتكلمين وأهل التأويل من يدعي أن الرسل يستفيدون العلم بالله من طريقهم، ويتلقونه من مشكاتهم، ولكن يخاطبون الناس على قدر عقولهم، فلم يصرحوا لهم بالحق، ولم ينصحوا لهم به، وكل من هؤلاء قد نصب دون الله ورسوله ﷺ طاغوتا، يعول عليه ويدعوه عند التحاكم إليه، فكلامه عنده محكم لا يسوغ تأويله، ولا يخالف ظاهره، وكلام الله ورسوله ﷺ إذا لم يوافقه فهو مجمل متشابه يجب تأويله، أو يسوغ، فضابط التأويل عندهم ما خالف تلك الطواغيت [(١)].

• أنواع التأويلات الباطلة التي من قبيل التحريف.

١- كل تأويل لا يحتمله اللفظ في أصل وضعه وكما جرت به عادة الخطاب بين العرب، كتأويلهم لفظ الأحد بأنه المجرد من الصفات، أو هو الذي لا جزء له، ولا قسيم له، فإن هذا غير معروف في لغة العرب.

٢- كل تأويل لا يحتمله اللفظ بحسب التركيب الخاص من تثنية وجمع، وإن جاز أن يحتمله اللفظ في تركيب آخر، كتأويلهم قول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾ ص:٧٥. بأن اليدين هما القدرة أو النعمة؛ فإن لفظ اليد مفردا وعند إطلاقه قد يحتمل أحد هذين المعنيين، أما وهو في صيغة

---

(١) السابق ص ٣٠٦ بتصرف.

التثنية، وفي هذا التركيب بالذات، فإنه لم يرد في لغة العرب بهذا المعنى وتأويله بالقدرة أو النعمة تحريف للكلم عن مواضعه.

٣- كل تأويل لا يحتمله السياق المعين، وإن جاز في غيره كتأويلهم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الأنعام:١٥٨. بأن إتيان الرب هنا، معناه إتيان بعض آياته، أو إتيان أمره فهذا التأويل لا يحتمله السياق بحال من الأحوال.

٤- كل تأويل لا يؤلف استعمال اللفظ في ذلك المعني المراد في لغة المخاطب، وإن كان مألوفا كاصطلاح خاص، كتأويل لفظ الأفول بالحركة في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ الأنعام:٧٦. فإن هذا غير معهود في لغة العرب البتة، بل المعهود الأفول بمعني الغياب، فلا يجوز حمل آية من القرآن عليه؛ لأنه نوع من التلبيس.

٥- التأويل الذي لا دليل عليه من سياق أو قرينة؛ لأن هذا لا يقصده المتكلم الذي يريد في خطابه هداية الناس والبيان له.

ولا تغرنك الأشكال اللفظية المزخرفة بأنواع البديع وأجناس البيان التي حالوا بها ترويج ابتداعاتهم تحت ستار التأويل ولو حسنت نواياهم، أو محاولتهم تهجين المعنى الأصلي المسوقة له الآية، وتقبيحه

إلى نفس السامع، كتسميتهم إثبات الصفات الإلهية كما يليق بجلال الله تشبيها وتمثيلا وتجسيما، وكتسميتهم للعرش بالحيز، أو الصفات بالأعراض، وكقولهم: إن ربكم منزه عن الأعراض والأبعاض، والتركيب والتجسيم.

ولا يشك مسلم أن الله منزه عن كل نقص وعيب، وأنه موصوف بصفات الكمال التي وردت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ولكن مراد هؤلاء أن يجعلوا أوصاف الكمال في القرآن السنة دالة على غير ذلك من صفات النقص وإن كانت نيتهم التنزيه، ومن أجل ذلك عطلوا ما دل عليه القرآن من نصوص الصفات، ووقعوا في محاذير لا حصر لها [1].

• **نتائج التأويل الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه.**

ذكر ابن القيم أن من أعظم آفات التأويل وجناياته أنه إذا سلط على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان ستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصول الإسلام خمسة وهي كلمة الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فعمد أرباب التأويل إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها بالتأويل، وذلك أن معقد هذه الأصول تصديق

---

(١) انظر في أنواع التأويلات الباطلة مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٣ وما بعدها.

الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فعمدوا إلى أجل الأخبار وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له[١].

وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن بل والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه، وتنوع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوعها في غيره، وذلك لشرف متعلقة وعظمته، وشدة الحاجة إلى معرفته، وكانت الطرق إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره، وهذا من كمال حكمة الرب تبارك وتعالى، وتمام نعمته وإحسانه [٢].

- **مثال من أول شيئا بعقله وقدمه على النقل الصحيح.**

ضرب ابن القيم رحمه الله مثالا لمن أوَّل شيئا من الشرع، وزعم أن ما أوَّله هو الذي قصده الشرع، بمن أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ بسببه صحة جميع الناس، أو أكثرهم، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاجه وشذوذه عن سائر الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيب الأول فيها بعض البدائل، فأزال بعض الأدوية من ذلك المركب الأعظم، وجعل

(١) الصواعق المرسلة ص٣٦٥ بتصرف.

(٢) السابق بتصرف ص٣٦٥.

فيه بدله الدواء الذي ظن أنه تعافى بسببه.

وقال للناس: هذا هو الذي قصده الطبيب الأول، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجه كثير من الناس، فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجه الناس من ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول، فظهرت آثار جانبية لتركيبة الدواء بسبب تلك البدائل، فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني، فظهرت آثار جانبية أخرى معقدة ومؤلمة، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة، فظهرت آثار جانبية أخرى أشد تعقيدا وإيلاما، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، وسلط الناس التأويل على أدويته وغيروها وبدلوها ظهرت منه للناس أمراض شتى حتى فسدت المنفعة المقصود بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس، وهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة [١].

وذلك أن كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه هو الذي قصده صاحب الشرع، حتى تمزقت معاني الشرع وأهدافه كل ممزق، وبعد جدا عن موضوعه الأول.

ولما علم صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٤/٢٥٢ بتصرف.

مثل هذا يعرض، ولا بد في شريعته قال ﷺ: (سَتفترقُ أمتي عَلَى ثلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةٌ) [(١)]، يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله [(٢)].

وأنت إذا تأملت ما ظهر في الشريعة في هذا الوقت من الكلام الفاسد العارض فيها من قبل التأويل، تبينت أن هذا المثال صحيح، وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج، ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد الغزالي فطم الوادي على القرى [(٣)].

• لوازم القول بالتأويل الباطل.

القول بالتأويل وصرف اللفظ عن ظاهره بدعوى أنه ليس مرادا يتضمن محالات كثيرة ولوازم باطلة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- أن يكون الرسول ﷺ قد ترك الناس في ذلك بدون بيان للحق الواجب سلوكه ولم يهد الأمة، بل رمز إليه رمزا، وألغز إلغازا، ومعلوم أنه ليس في الرمز والألغاز بيان وهداية.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ١٣٧/٥ (٤٨٨٦)، وفي المعجم الصغير ٢٩/٢ (٧٢٤)، وابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم ١٣٢٢/٢ (٣٩٩٢) بلفظ قريب، وانظر السلسة الصحيحة للألباني (١٤٩٢) انظر: صحيح سنن بن ماجه (٣٩٩٣)، وصحيح الجامع (٢٠٤٢).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٢٥٢/٤ بتصرف.

(٢) السابق ٢٥٢/٤ بتصرف.

٢- أن يكون الرسول ﷺ قد تكلم في باب الصفات بما ظاهره خلاف الحق، ولم يتكلم في ذلك كلمة واحدة توافق مذهب الخلف المتكلمين من النفاة أتباع الجهمية.

٣- الطعن في القرآن الذي هو تبيان لكل شئ، وهدي ورحمة، وقول فصل ليس بالهزل، وأن من قال به فقد هدي إلى صراط مستقيم، وأين الهداية إذا كان ما يقوله المتأولون بلا دليل حقا؟!

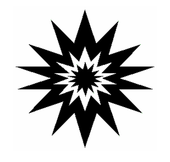
٤- الطعن في وظيفة الرسول ﷺ التي هي البلاغ، والله وصفه بأنه قد بلغ البلاغ المبين، وقد نزل عليه قوله تعالى قبل وفاته ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة:٣. فإذا كان حقا ما ذهب إليه المتأولون بلا دليل، فأين كمال الدين وتمام النعمة؟! بل أين البلاغ المبين وأين الهدي والبيان؟!

وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وجه أولئك الذين سماهم بأهل التحريف والتبديل وقفة مسلم يغار على دينه، فمن المحال أن يكون الرسول ﷺ قد ترك الناس في هذا الأمر الأهم بلا بيان لما يجب اعتقاده حتى يأتي أمثال هؤلاء من أصحاب العقول القاصرة من المتكلمين وأتباع الجهمية ليبينوا للناس بتأويلاتهم الفاسدة ما نزل إليهم من ربهم.

ومحال أن يكون الرسول ﷺ قد استعمل في خطابه ألفاظا لا يفيد ظاهرها إلا الإلحاد والضلال والتشبيه والتجسيم .

ومحال على من أرسله الله هاديا ومبينا أن يستعمل في خطابه رموزا وطلاسم لا يفهمها المخاطب، فاللهم ثبتنا على صراطك المستقيم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ سبأ: ٥/٦ .



المطلب الثاني عشر

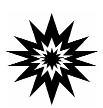
المحكم والمتشابه والقول بالتفويض



- تعريف المحكم والمتشابه لغة.
- المحكم والمتشابه في الاصطلاح.
- القرآن متشابه في البلاغة والإعجاز.
- القرآن محكم باعتبار وضوح معناه.
- القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه.
- التفويض لغة واصطلاحا.
- العقيدة السلفية في فهم المعنى والكيفية.
- دقة الفهم السلفي للمحكم والمتشابه .
- توجيه الوقف في الآية السابعة من آل عمران.
- أمثلة معاصرة على عقيدة التفويض.

المطلب الثاني عشر

المحكم والمتشابه وحقيقة القول بالتفويض



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن معاني التأويل في القرآن والسنة وبينا أن معنى التأويل لغة رجوع الكلام ومآله إلى ما ينطبق عليه، وأن المعنى الأول للتأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وذكرنا أدلة القرآن أدلة السنة على المعنى الأول، كما تحدثنا عن المعنى الثاني للتأويل وهو التفسير والبيان.

وأما المعنى الثالث وهو صرف اللفظ من معنى إلى آخر بدليل، فقد بينا أنه معنى محدث لم يكن معروفا في عصر السلف، وعلمنا أن صرف اللفظ من معنى إلى آخر بغير دليل يسمى تحريفا ولا يسمى تأويلا، وأن التحريف بالتأويل أقبح من التعطيل والتكييف والتمثيل.

كما تحدثنا عن أنواع التأويلات الباطلة التي هي من قبيل التحريف، ونتائج هذه التأويلات الباطلة وخطورتها على العقيدة الإسلامية، وبينا المثال الذي ضربه ابن القيم لمن أوّل شيئا بعقله وقدمه على ما أوجبته الأدلة النقلية، ثـم علمنا لوازم القول بالتأويل الباطل.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن معاني المحكم والمتشابه وحقيقة القول بالتفويض، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **تعريف المحكم والمتشابه لغة.**

المحكم لغة: من الحكم والإحكام والقضاء، والعلم والفقه والحكمة، وهو مصدر حكم يحكم، والحَكْمَةُ عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لَمَنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حكيم، والمحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، فَعِيلٌ بمعنى مُفْعَلٍ أحكم فهو محكم [١].

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (ثم توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم) [٢]. يريد المفصل من القرآن لأنه لم ينسخ منه شيء، وقيل: هو ما لم يكن متشابها لأنه أحكم بيانه بنفسه، ولم يفتقر إلى غيره [٣].

والمتشابه لغة: الشبه ضرب من النحاس، يلقى عليه دواء فيصفر، وسمي شبها لأنه شبه بالذهب، وفي فلان شبة من فلان أي توافق في بعض أوصافه فهو شبيهه، وتقول: شبهت هذا بهذا، وأشبه فلان فلانا، وأشبه الشيء الشيء ماثله. والمشبهات من الأمور المشكلات،

---

(١) النهاية في غريب الأثر ١/١٠٢٣، لسان العرب لابن منظور ١٢/١٤٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القران، باب تعليم الصبيان القران ٤/١٩٢٢ (٤٧٤٨)، وأحمد في المسند ١/٢٥٣ (٢٢٨٣) .

(٣) لسان العرب ١٢/١٤٠.

تشابه الشيئان، أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا، وشبه فلان عليَّ إذا خلط الأمر واشتبه ولم يعرف [1].

• **المحكم والمتشابه في الاصطلاح.**

يمكن بالتتبع والاستقراء حصر الآراء التي فسرت معنى المحكم والمتشابه في القرآن الكريم في الوجوه الآتية:

١- المحكم ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل.

٢- المحكم ما لا يحتمل إلا وجها واحدا، والمتشابه ما يحتمل وجوها، فإذا رُدَّت إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكما.

٣- المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه، وما نؤمن به ونعمل عليه، والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه، وما نؤمن به ولا نعمل به.

٤- المحكم الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه ما فيه تصريف وتحريف وتأويل.

٥- المحكم ما كان قائما بنفسه، لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره، والمتشابه ما يرجع فيه إلى غيره.

---

(١) انظر لسان العرب ١٣/٥٠٥، وتهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ٦/٥٨ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، وكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٣/٤٠٤ نشر مكتبة الهلال.

ويذكر الإمام السيوطي أن ما لم يأت في القرآن بلفظه البتة مما يقصده علماء القرآن، من وقوع النظم الواحد على صور شتى، تتشابه في أمور وتختلف في أخرى، يطلقون عليه متشابه النظم أو متشابه اللفظ [١].

يقول الزركشي عن المتشابه من هذا النوع: (ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام، وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكرر) [٢] .

- **القرآن متشابه في البلاغة والإعجاز.**

وربما يطلق المتشابه كصفة مدح لجميع القرآن، ولفظ المتشابه على هذا المعنى هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الزمر:٢٣.

أما تبيان كيف أن المتشابه بهذا الإطلاق نعت كمال لجميع القرآن، فإنه من الواضح الجلي أن صوغ مادة التشابه في هذه الآية يقضى بأن الكتاب الكريم ذو أجزاء، كلها يشبه بعضها بعضا من حيث الصحة والإحكام، وإعجاز الصياغة في سائر الكلام، والبناء

---

(١) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٣/٣٩٠، طبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة.

(٢) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ١/١١٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعرفة، بيروت ١٩٧٢.

على الحق والصدق والهداية ومنفعته الخلق، وتناسب ألفاظه وتناسقها في البلاغة والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتحدي.

وجميع آيات القرآن متشابهة في الحسن وإظهار المعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني[1].

قال الزرقاني: (ومعنى كونه كله متشابها، أنه يشبه بعضه بعضا في إحكامه، وحسنه وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحسن والإحكام والإعجاز، كأنه حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها) [2].

• **القرآن محكم باعتبار وضوح معناه.**

والتشابه بهذا المعنى الذي يعم جميع القرآن على نحو ما رأينا، لا يتنافى بحال مع وصف الإحكام المذكور في قول الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ هود:١، والذي يعم هو الآخر القرآن الكريم بأسره.

بل يجب الأخذ بكلا الوصفين جميعا في كتاب الله ﷻ دون أن يأتي كلام الحق في ذلك باطل من بين يديه أو من خلفه، وذلك بأن

---

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي ص٥٧ بتصرف.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/١٩٥ نشر دار الفكر، بيروت.

التناقض إنما يلزم إذا كان بين المادتين في هاتين الآيتين تقابل التضاد، وكيف وكل منهم صفة مدح، لا يمكن أن تدل على ما يضاد الأخرى، وإنما على ما يؤيدهما ويشد من أزرهما، وبانطوائهما معا في صفته شاهد صدقه وآية تنزيل رب العالمين[١].

وأما الإحكام فمعناه أن أي القرآن كلها قد نظمت نظما محكما، لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى، ولا من جهة الهدف والغاية، أو أنها أحكمت بالحجج والدلائل، أو جعلت حكمة، فنقول حُكِم إذا صار محكما، لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية، وإذن فالقرآن بهذا المعنى محكم في تشابهه، متشابه في إحكامه [٢].

• **القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه.**

وقد يرد لفظ المتشابه في القرآن مقولا على بعض منه مخصوص، مقابلا وقسيما للبعض الآخر الذي يقال عليه وصف المحكم، وبحيث لا يجتمع هذان الوصفان المتقابلان في شيء واحد، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ آل عمران:٧.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/٩٥ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن للبيضاوي ٣/٢١٩، تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة، نشر دار الفكر بيروت.

وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه لفظ المتشابه عند الإطلاق، أو التجرد من القرينة. وإن الناظر في هذين الوصفين المتقابلين، واللذين لا يصدق واحد منهما على ما يصدق عليه الآخر من القرآن، ليرى اختلافا عظيما بين العلماء في تبيان هذا المعنى.

• التفويض لغة واصطلاحا.

التفويض لغة، فوض إليه الأمر تفويضا صيره إليه، وجعله الحاكم فيه، قال الله ﷻ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ غافر:٤٤. أي أتكل عليه.

وعند البخاري من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِب ﵁ مرفوعا: (اللهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ) [(١)]. أي رددته إليك.

والتفويض في النكاح التزويج بلا مهر، وقوم فوضى مختلطون، وقيل: هم الذين لا أمير لهم، ولا من يجمعهم، وصار الناس فوضى أي متفرقين، وقوم فوضى، أي متساوون لا رئيس لهم، ونعام فوضى، أي مختلط بعضه ببعض.

أما التفويض في الاصطلاح، فهو زعم الخلف الأشعرية أن عقيدة السلف في الصفات الإلهية هو تفويض العلم بالمعنى لا الكيفية.

فبعد موت أبي الحسن الأشعري (ت:٣٢٤هـ) الذي أعلن اتباعه

(١) البخاري في كتاب الوضوء، باب فضل من بات علي الوضوء(٢٤٧)

للمنهج السلفي في كتابه الإبانة عن أصول الديانة، ظن علماء الخلف من الأشعرية كالقاضي أبى بكر الباقلاني (ت:٤٠٢هـ)، وأبى إسحاق الإسفراييني (ت:٤١٨هـ)، وعبد الكريم الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ)، وأبى إسحاق الشيرازي (ت:٤٧٦هـ)، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت:٤٧٨هـ)، وكأبي حامد الغزالي الصوفي (ت:٥٠٥هـ)، وفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ)، وكذلك سيف الدين الآمدي (ت:٦٣١هـ)، وشمس الدين الأصفهاني (ت:٦٨٨هـ)، وغيرهم من علماء الخلف المتكلمين الأشعرية، ظن هؤلاء أن مذهب السلف الصالح هو التفويض.

والتفويض عندهم هو القول بأن معنى النص مجهول، ولا يعلمه أحد من السلف، لا من الصحابة ﷺ ولا من التابعين، وأنهم فوضوا العلم به إلى الله ﷻ، أو ردوا العلم بالمعنى إلى الله لعدم علمهم به، كالأعجمي حين ينظر إلى القرآن.

والأمر في حقيقته ليس كذلك، فالسلف الصالح فوضوا العلم بالكيفية الغيبية فقط إلى الله ﷻ، أو ردوا العلم بكيفية الصفات إلى الله ﷻ، أما المعنى فهو معلوم وواضح من دلالة اللغة العربية التي نزل بها القرآن.

وحجتهم في ذلك اعتقادهم الخاطئ أن النصوص القرآنية والنبوية في الغيبيات، أو في باب الأسماء والصفات موهمة للتشبيه والجسمية، ومعانيها من المتشابهات دون المحكمات.

وقد بقى الحال على هذا الفهم عند كثير من الناس حتى الآن، فأغلبهم يخطئون في فهم عقيدة الإمام مالك بن أنس رحمه الله، عندما سأله سائل مبتدع عن كيفية الاستواء في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه:٥؟ وقال له: يا أبا عبد الله: كيف استوى؟! فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج) [1].

لقد ظنوا أن مالكا رحمه الله دعا إلى عدم التعرض للآيات بتفسير معناها، وإيجاب تفويض العلم بالألفاظ إلى الله ﷻ، وأمر عقيدة السلف التي قررها الإمام مالك ليس كذلك، فمعتقد الإمام مالك هو تفويض العلم بالكيفية إلى الله فقط، أما المعنى فهو معلوم ظاهر من لغة العرب، ومراد من مفهوم الآية.

وهذا واضح بيِّن في كلامه حيث قال: الاستواء غير مجهول، أي معلوم المعنى، والكيف غير معقول، أي مجهول للعقل البشرى بسبب عجزه عن إدراكه، ومن ثم لو قلنا كما قالت الأشعرية بأن مالكا فوض العلم بالمعنى لا الكيفية، فهذا يجعل السلف كالأعاجم والأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ ﴾ البقرة:٧٨.

---

(١) شرح أصول أهل السنة والجماعة للالكائي ٣/٣٩٨، تحقيق د، أحمد سعد حمدان، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: إسناده جيد انظر الفتح ١٣/٤٠٧.

• العقيدة السلفية في فهم المعنى والكيفية.

لما قال علماء الخلف من الأشعرية بأن نصوص الصفات الإلهية موهمة للتشبيه والجسمية، تغير تبعا لذلك مفهوم المحكم والمتشابه عندهم وعند أتباعهم، من معنى سلفي يعتبر المتشابه من القرآن آيات معلومات المعنى، واضحات الدلالة، ظاهرها مراد في حق الله ﷻ، وليس كمثله شيء في حقائقها، وأن المجهول فقط وهو كيفية الصفات الإلهية التي دلت عليها هذه الآيات، تغير مفهوم المتشابه عندهم إلى اعتبار تلك النصوص نصوصا تدل على ظاهر باطل محال يحمل التشبيه والتجسيم، ويجب صرفه عن الصورة المنفرة التي صورها لربهم، كل ذلك ليجعلوا الناس مؤيدين لآرائهم وأصولهم، مهيئين لقبول تأويلهم وتبديلهم.

ثم طرحوا بديلا آخر أمام الناس كخيار ينسبونه لعقيدة السلف، وهو القول بأن نصوص الصفات الإلهية معانيها معان مجهولة كدلالة الألفاظ الأعجمية، يفوض فيها الأمر والعلم إلى الله ﷻ، ثم ألصقوا هذا الطرح بدعوى التسليم، وعدم الخوض في توحيد الصفات كما كان شأن السلف الصالح، ومن هنا كان لابد من تحقيق الأمر في قضية المحكم والمتشابه وتجليته بصورة جديدة تبين حقيقة الفهم السلفي الصحيح.

ذكر أبو بكر الجصاص أن كلا من المحكم والمتشابه في القرآن الكريم ينقسم إلى معنيين: أحدهما يصح وصف القرآن بجميعه.

والآخر إنما يختص به بعض القرآن دون بعض، قال الله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ هود:١. فوصف جميع القرآن في هذه الموضع بالإحكام.

وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ الزمر:٢٣. فوصف جميعه بالمتشابه.

ثم قال في موضع آخر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ آل عمران:٧. فوصف بعضه هاهنا بأنه محكم، وبعضه متشابه.

والإحكام الذي عم به الجميع هو الصواب والإتقان اللذان يفضل بهما القرآن كل قول. وأما موضع الخصوص في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾. فإن المراد به اللفظ الذي لا اشتراك فيه، ولا يحتمل سامعه إلا معنى واحدا [(١)].

ويحاول أبو بكر الجصاص في كلامه السابق أن يبلور آراء الناس في المحكم والمتشابه، لأنهم اختلفوا اختلافا عظيما في قضية العلم بتأويل المتشابه بهذا الإطلاق الأخير، هل هو مقصور على الله تعالى؟ أو هو

(١) أحكام القران لأبي بكر الجصاص، سورة آل عمران ٢/٢٨٠، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مما يتأتى للراسخين في العلم أيضا؟

ومن أبرز المتشابه بهذا الإطلاق في القرآن ما يعرف لدى علماء الخلف والمتكلمين بآيات الصفات الخبرية، أو متشابه الصفات، كالآيات التي جاء فيها ذكر صفات الذات والأفعال، مثل الوجه واليد والجنب والفوقية، والاستواء والمجيء والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات الإلهية.

ويهمنا أن نبين مقدمة هامة مبنية على ما سبق من الآراء في المحكم والمتشابه، فجميع تلك الآراء في معنى المحكم والمتشابه، تكاد تتمثل في أن المحكم هو المعلوم الواضح الذي يمكن تحديده وتمييزه، كتمييز الصورة في المرآة المصقولة عند تحديد معالمها، وضبط ملامحها، والتمكن من وصفها، فما لا يحتمل إلا وجها واحدا يصبح معلوما مميزا، كما أن المتشابه عكس المحكم، وهو المجهول الذي لا يعلم.

إما من التشابه والتماثل كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ البقرة:١١٨، أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو.

وإما من الاختلاط، وعدم التمييز بين الأشياء، كقول الله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ البقرة:٧٠.

وعلى المعنى السابق للمحكم والمتشابه سوف ننظر إلى الآية السابعة من آل عمران، والتي هي محل النظر في قضية المحكم والمتشابه، وأثرها هذه الرؤية على القول بالتفويض.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ آل عمران:٧.

كثير من علماء الخلف الأشعرية يعتبرون معاني نصوص الصفات الإلهية من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله مستدلين بهذه الآية، وفي هذا نظر حيث يترتب على ذلك من اللوازم الباطلة ما لا يرضاه المسلم على كلام الله.

قال أبو محمد بن قدامة المقدسي: (وكل ما جاء في القرآن، أو صح عن المصطفى ﷺ من صفات الرحمن، وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل، والتشبيه والتمثيل، وترك التعرض لمعناه، ونرد علمه إلى قائله، ونجعل عهدته على ناقله، إتباعا لطريق الراسخين في العلم) [(١)].

وقال الشيخ أحمد الرفاعي معبرا عن فهمه في قضية المحكم والمتشابه: (فعاملوا الله بحسن النيات، واتقوه في الحركات والسكنات،

(١) لمعة الاعتقاد ص٣٧.

وصونوا عقائدكم من التمسك بظاهر ما تشابه من الكتاب والسنة، لأن ذلك من أصول الكفر.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ آل عمران:٧.

والواجب عليكم وعلى كل مكلف في المتشابه، الإيمان بأنه من عند الله، أنزله على عبده سيدنا رسول الله ﷺ، وما كلفنا سبحانه وتعالى تفصيل علم تأويله، قال جلت عظمته: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ آل عمران:٧. فسبيل المتقين من السلف تنزيه الله تعالى عما دل عليه ظاهره، وتفويض معناه المراد منه إلى الحق تعالى وتقدس، وبهذا سلامة الدين) [(١)].

فهؤلاء يَدْعُون إلى ترك التأويل، والبعد عن طريقة الخلف لعدم قناعتهم بها، لكن الطرح الذي يقدمونه لأتباعهم يزعمون فيه أن طريقة السلف هي الكف عن معاني نصوص الصفات، ومنع البحث عن مدلول الآيات، ثم يجعلون ذلك سبيل المتقين ظنا منهم أن الظواهر تدل على التشبيه والمعاني الكفرية، فلا هم فهموا طريقة السلف، ولا صوبوا طريقة الخلف.

وهؤلاء إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان

---

(١) البرهان المؤيد لأحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني، باب المحكم والمتشابه ص١٥، تحقيق عبد الغني النكهمي، نشر دار الكتاب النفيس، بيروت.

بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ البقرة:٧٨. وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد هو الذي قام عليه قولهم: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد تقولوا على طريقة السلف، ولم يقتنعوا في قرارة أنفسهم بطريقة الخلف.

قال شارح الطحاوية في وصف حالهم في باب الصفات: (يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه إما أن يتأوله تأويلا يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه، فيجحدوا ما أنزله من معانيه، وهو في معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى، هو من جنس إيمان أهل الكتاب.

كما قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ الجمعة:٥.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ البقرة:٧٨.

أي إلا تلاوة من غير فهم معناه، وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن، فعمل به واشتبه عليه بعضه، فوكل علمه إلى الله كما

أمره النبي ﷺ بقوله: "فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه" ، فامتثل ما أمر به) [١].

وسبب ذلك كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهي التي يسمونها طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان أخرى بنوع تكلف، وهي التي يسمونها طريقة الخلف، فصار هذا الباطل مركبا من فساد العقل، وتعطيل السمع، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات، وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه، فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قوما أميين بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله [٢].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٥١٢. والحديث رواه أحمد في المسند ٢/١٨١ (٦٧٠٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٢) الفتوي الحموية الكبري ضمن مجموع الفتاوى ٥/١٠.

- **دقة الفهم السلفي للمحكم والمتشابه .**

والحقيقة أن الفهم السلفي لمسألة المحكم والمتشابه التي وردت في آية آل عمران يتسم بالدقة والأصالة والعمق، ويتسق مع اعتقادهم في التوحيد، لاسيما في توحيد الصفات، فهم لما آمنوا بصفات حقيقية جاءت بها الأدلة السمعية، وفرقوا بين فهم المعنى الذي حواه اللفظ العربي وفهم الكيفية، ووفقوا في تفسير المحكم والمتشابه.

فإذا كان المحكم هو المعلوم الواضح المعنى، وكان المتشابه عكس المحكم، وهو المجهول الذي لا يعلم على نحو ما تقدم، فإنهم يعتبرون معاني نصوص الصفات محكمات، والكيفية الغيبية فقط من المتشابهات التي لا يعلمها إلا الله.

أما إذا كان معنى النص معلوما، والكيفية التي دل عليها معلومة أيضا، كانت الآية محكمة لأهل العلم على تفاوتهم في المعرفة والفهم، كما هو الحال في جميع آيات الأحكام، ولذلك والله أعلم سميت نصوص التكليف بما تحويه من أحكامٍ أحكاماً، لوضوح معناها والعلم بكيفية أدائها.

وإن كان المعنى معلوما، والكيف مجهولا، كان النص محكم المعنى متشابه الكيف، وإذا قيل في عرف السلف: هذا النص متشابه، فيحمل على هذا المعنى أي أنه متشابه باعتبار الكيف لا المعنى، كما قال الإمام أحمد (ت:٢٤١هـ): (فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله

ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ القصص:٨٨، ونحو هذا من متشابه القرآن) [١].

وكما روى أبو القاسم بسنده عن سليمان بن يسار أن رجلا من بني غنيم يقال له صبيغ بن عسل، قدم المدينة وكانت عنده كتب، فجعل يسأله عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر ﷺ، فبعث إليه، وقد أعد له عراجين النخيل، فلما دخل عليه جلس، قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال عمر ﷺ: وأنا عبد الله عمر، وأومأ عليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه وجعل الدم يسيل عن وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي [٢].

ويقول ابن بطة العكبري (ت:٣٧٨هـ): (فالجهمي ينكر أن المؤمنين يرون ربهم في القيامة، فإذا سئل عن حجته في ذلك نزع بآيات من متشابه القرآن) [٣].

---

(١) العقيدة لأحمد بن حنبل رواية أبي بكر الخلال ٧٧/١.

(٢) الشريعة للآجري، باب تحذير النبي ﷺ أمته الذين يجادلون بمتشابه القران ٧١/١. وإيضاح الدليل لمحمد بن إبراهيم بن جماعة، باب السلف الصالح يخوضون في علم التوحيد ١٤/١، تحقيق وهبي سليمان غاوبي الألباني، دار السلام. واعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي ٦٣٦/٤.

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابن بطة ٧٠/٣، تحقيق د. عثمان عبد الله آدم الأثيوبي، دار الراية، الرياض.

هؤلاء جميعا يقصدون بمتشابه القرآن، ما يؤدي الخوض فيه إلى الضلال من جهة التجهم على وصف الغيبيات، وتصوير ما فيها من الكيفيات، وتمثيلها من خلال الأقيسة التي تحكم سائر المخلوقات، أو القول بتعطيل الصفات، وتأويلها على غير مراد الله من الآيات.

والنتيجة التي نصل إليها من هذه الرؤية أن القرآن جميعه محكم المعنى لقوله تعالى عن جميع آيات القرآن: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ هود:١.

أي أحكمت باعتبار المعنى، فليس في القرآن كلام بلا معنى، أما من جهة الكيفية التي دلت عليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فبعضها محكم معلوم، وبعضها متشابه مجهول، وهذا هو المقصود بقول الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

وهو المعنى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ آل عمران:٧. فلو سأل سائل عن استواء الله في قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه:٥. هل هو من المحكمات أم من المتشابهات؟ قيل له: الاستواء محكم المعنى متشابه الكيف.

وما عاينه الإنسان من الكيفيات التي تتعلق بالمخلوقات، والتي دلت عليها ألفاظ الآيات، ككيفية أداء الصلاة والزكاة والصيام وأفعال الحج وما شابه ذلك، فهذا محكم المعنى والكيفية، فلو سأل

مسلم أعجمي لا يعرف العربية عن معنى الصلاة في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ البقرة:٣؟

لقيل له بلسانه: الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، فيسأل عن كيفية أدائها؟ يقال له: أمرنا رسول الله ﷺ بأن نحاكيه تماما في الكيفية، فقال مبينا ذلك في بعض الأحاديث النبوية: (وَصَلوا كَمَا رَأَيْتمُونِي أُصَلي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ، فَلْيُؤَذنْ لكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ)[1].

أما إذا كان المعنى معلوما والكيف الذي دل عليه المعنى مجهولا كانت الآية من المتشابه باعتبار الكيف لا باعتبار المعنى، كما في جميع الأخبار والنصوص التي وردت في وصف عالم الغيب؛ فالجنة مثلا سمعنا عن وجود ألوان النعيم فيها، وأخبرنا الله بذلك في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وعلى الرغم من ذلك قال رسول الله ﷺ عن كيفية ألوان النعيم فيها: (قَال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ السجدة:١٧)[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمع ٢٢٦/١ (٦٠٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ١١٨٥/٣(٣٠٧٢)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٤).

فتأمل قوله: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ماذا يعنى؟ هل يعنى معنى الآيات والنصوص التي وردت عن وصف الجنة؟ أم الكيفية التي دلت عليها؟ فإن قيل المعنى: فخطأ لأننا سمعنا به في الكتاب والسنة وفهمناه، كما أن المعنى لا يرى بعين البصر، وإنما يدرك بعين البصيرة. وإن قيل: الكيفية التي دل عليها، فصواب، لأننا لم نره، ولم نر له مثيلا. فالمتشابه إذا كيفية الموجودات في الجنة، لا المعنى الذي يدل عليها. وعلى ذلك فجميع آيات الصفات محكمة المعنى متشابهة في الكيفية فقط، فلا يدخل في المتشابه معاني الآيات التي وصف الله بها نفسه، كما اعتقد الخلف ذلك في مذهب السلف، وإلا لكانت الآيات بلا معنى، وكانت ألفاظها معطلة عن الهداية والبيان، فقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ آل عمران:٧، أي باعتبار الكيف لا المعنى.

وجميع آيات القرآن لها معنى معلوم عند الراسخين في العلم حسب اجتهادهم في تحصيله، وعليه جاء قول عبد الله بن عباس رضي الله عنه في آية آل عمران: (أنا من الراسخين في العلم) [1].

أما المتشابه في هذا الباب فهو الذي استأثر الله بعلمه، من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا هو، والتي أخبرنا بها في كتابه.

ومن ثم فإن القرآن كله محكم باعتبار المعنى الذي دل عليه اللفظ،

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٨٣/٣ نشر دار الفكر بيروت، وتفسير البغوي ١٠/٢ نشر دار طيبة، وتفسير الخازن ٣٢٢/١ نشر دار الفكر بيروت.

وباعتبار الكيفية ففيه المحكم والمتشابه.

وفي قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ ص:٢٩. قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله معقبا: (وهذا يعم الآيات المحكمات، والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر) [(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ محمد:٢٤. قال ابن تيمية: (فلم يستثن شيئا منه نهي عن تدبره، والله ورسوله ﷺ إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله، وطلب فهمه ومعرفة معناه، فلم يذمه الله، بل أمر بذلك ومدح عليه) [(٢)].

وقد ذكر رحمه الله أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله، أو قال هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة، ولا من الأئمة المتبوعين، إن في القرآن آيات لا تعلم معناها، ولا يفهمها رسول الله ﷺ، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم، وإنما قد ينفون علم بعض الناس، وهذا لا ريب فيه [(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى، الإكليل في المتشابه والتأويل ١٣/٢٧٥.

(٢) السابق ١٣/٢٧٥.

(٣) السابق ١٣/٢٨٥.

ويذكر ابن القيم أننا لو قلنا كما قال الخلف بإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ آل عمران:٧. يتناول المعنى، يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الصحابة والتابعون لهم بإحسان، بل يقرؤون كلاما لا يعقلون معناه، فهم إذا على زعم الخلف متناقضون أفحش تناقض، فإنهم يقولون: النصوص تجري على ظاهرها، وتأويلها باطل، ثم يقولون: لها تأويل لا يعلمه إلا الله.

وقول هؤلاء باطل، فإن الله سبحانه أمر بتدبر كتابه، وتفهمه وتعقله، وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء لما في الصدور، وحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومن أعظم الاختلاف اختلافهم في باب الصفات والقدر والأفعال، واللفظ الذي لا يعلم ما أراد به المتكلم، لا يحصل به حكم، ولا هدى، ولا شفاء، ولا بيان.

وهؤلاء لم يفهموا مراد السلف بقولهم: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، فإن التأويل في عرف السلف المراد به الحقيقة التي يؤول إليه الكلام، كالتأويل في مثل قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ الأعراف:٥٣.

وكقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ يوسف:١٠٠، فتأويل الكلام الطلبي هو نفس فعل المأمور به والمنهي عنه، تأويله تنفيذه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كَانَ

النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُول فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لي يَتَأَوَّل القُرْآنَ) [(١)].

وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو وقوعة، وهو نفس الحقيقة التي أخبر الله عنها، وذلك في حق الله هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره، ولهذا قال مالك وربيعة: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

وفي رده على الخلف في زعمهم أن آيات الصفات من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله، يذكر ابن القيم أن التشابه والإحكام نوعان، تشابه وإحكام يعم الكتاب كله، وتشابه وإحكام يخص بعضه دون بعض، فإن أردتم بتشابه آيات الصفات النوع الأول، فنعم هي متشابهة غير متناقضة يشبه بعضها بعضا، وكذلك آيات الأحكام، وإن أردتم أنه يشتبه المراد بها بغير المراد، فهذا وإن كان يعرض لبعض الناس فهو أمر نسبي إضافي، فيكون متشابها بالنسبة إليه دون غيره، ولا فرق في هذا بين آيات الأحكام وآيات الصفات، فإن المراد قد يشتبه فيهما بغيره على بعض الناس دون بعض.

وقد تنازع الناس في المحكم والمتشابه تنازعا كثيرا، ولم يعرف عن أحد من الصحابة قط أن المتشابهات آيات الصفات، بل المنقول عنهم

---

(١) الصواعق المرسلة ٩٢١/٣ والحديث رواه البخاري في صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود ٢٨١/١ (٧٨٤).

يدل على خلاف ذلك، فكيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم، وهم لا يتنازعون في شيء منها، وآيات الأحكام هي المحكمة وقد وقع بينهم النزاع في بعضها؟

والمقصود أنه لا يجوز أن يكون الله ﷻ أنزل كلاما لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ، سواء كان تأويل القرآن مع هذا لا يعلمه الراسخون، أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما، ولا يعلمون الآخر.

- **توجيه الوقف في الآية السابعة من آل عمران.**

وعلى هذا المنهج السلفي لفهم المحكم والمتشابه يمكن تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، بأن الله ﷻ يخبر أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، سواء من جهة المعنى أو الكيفية، وهي أصل الدين وقوام العبودية، وتتمثل في الأحكام الشرعية الدينية، فلا بد من وضوحها وبيان معانيها، ولا بد من وصف كيفيتها لسائر الناس دون اشتباه أو التباس، فهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع خصوم الباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه.

وفي هذا ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (المحكمات ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يؤمر به،

ويعمل به)[١]. وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والسدي أنهم قالوا: المحكم الذي يعمل به[٢].

وأخر متشابهات كآيات الصفات من حيث اشتراك الألفاظ والكلمات عند تجردها عن الإضافة والتخصيص والتركيب لا من حيث المعنى المراد، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام، ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ آل عمران:٧، أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾، أي تحريفه على ما يريدون.

روى البخاري في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (تَلا رَسُول اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ آل عمران:٧. قَالتْ: قَال

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٦/١٧٥، وفهم القرآن للحارث بن أسد المحاسبي في ١/٣٢٦، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١/٢٠٣، نشر دار ابن الجوزي.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٧ نشر دار طيبة، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٥٩٢ (٣١٦٧)، نشر المكتبة العصرية، صيدا.

رَسُول اللهِ ﷺ: فَإِذا رَأَيْتِ الذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولئِكِ الذِينَ سَمَّي اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ) [١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يجب الوقف هاهنا إذا كان المقصود هو العلم بكيفية الحقائق الغيبية، وكيفية الصفات الإلهية، فلا يعلم ذلك إلا الله ﷻ، ويجوز الوقف على قوله سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ إذا كان المقصود هو العلم بمعاني الآيات القرآنية سواء المتعلقة بالخالق أو المخلوق، وكذلك كيفية أداء الأحكام الشرعية، أو كيفية ما دلت عليه الآيات في الإخبار عن سائر المخلوقات في الدنيا.

قال ابن كثير: (وأما إن أريد بالتأويل التفسير والبيان، والتعبير عن الشيء، فالوقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه) [٢].

• أمثلة معاصرة على عقيدة التفويض.

١- قال صاحب جوهرة التوحيد:

وكل نص أوهم التشبيه : أوله أو فوِّض ورم تنزيها

ويذكر شارح الجوهرة تحت هذا البيت في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب منه آيات محكمات ٤/١٦٥٥ (٤٢٧٣)، ومسلم في العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القران ٤/٢٠٥٣ (٢٦٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٢.

رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ الفجر: ٢٢ .

وحديث الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قال: (يَنْزِل رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالى كُل لَيْلةٍ إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلثُ الليْلِ الآخِرُ، يَقُول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ له، مَنْ يَسْأَلنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لهُ) [(١)]. يقول: فالسلف يقولون: مجيء ونزول لا نعلمه) [(٢)].

ادعى الناظم والشارح معا أن مذهب السلف الصالح هو تفويض المعنى، وهذا باطل لأنه جعل كلام الله بلا معنى، وجعل السلف بمنزلة الجهلة الذين خاطبهم الله ﷻ بالألغاز والأحاجي وما لا يفهم معناه، ولا يعقل أن نسمع رجلا أجنبيا يتحدث بلغة لا نفهمها، ولا نعلم لسان أهلها، ثم نقول بعد سماعنا له: كلامك جيد، ووصفك سليم، وكلامك ليس فيه باطل، ونحن نصدق كل ما تقول!

وإذا كان هذا مستقبحا بين البشر فكيف نقبله في كلام الله ﷻ؟! فالسلف لم يقولوا: مجيء ونزول لا نعلمه، كما ادعى شارح الجوهرة، وإنما قالوا: مجيء ونزول لا نعلم كيفيته، وفرق بينهما عظيم.

٢- قال الشيخ أمين محمود خطاب عن نصوص الصفات: (إن

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١/٣٨٤ (١٠٩٤) (٥٩٦٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/٥٢١ (٧٥٨).

(٢) شرح البيجوري على الجوهرة، طبعة المعاهد الأزهرية ص١٠٩.

السلف فوضوا علم المراد منها إلى الله تعالى. فقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥، يقول فيه السلف، هو مصروف عن ظاهره، ويفوضون علم المراد منه إلى الله) [١].

والسلف الصالح ما قالوا هذا، وإنما قالوا في الآية: هي على ظاهرها، والمعنى معلوم واضح، والمجهول هو الكيف فقط، ولكن الأشعرية ظنوا أن الظاهر منها يتحتم أن يكون الظاهر من استواء بلقيس على عرشها، ولو سئل أحدهم: هل رأيت استواء بلقيس؟ فيقول: لا. يقال له: وهل رأيت له مثيلا؟ فيقول: نعم، فيقال عند ذلك: معنى استواء بلقيس معلوم، وكيفية استوائها معلومة أيضا من رؤيتك للمثيل، لكن إذا سئل: هل رأيت استواء الله؟ فيقول: لا، فيقال: وهل رأيت له مثيلا؟ فيقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ الشورى:١١. فيقال له: كيف حكمت أن الظاهر في استواء الله يماثل الظاهر في استواء بلقيس؟ أليس هذا قول على الله بلا علم؟ إنما يكفي القول إن معنى استواء الله معلوم، وهو العلو والارتفاع، وكيفية استوائه معلومة لله مجهولة لنا.

٣- ما ذكره الشيخ إبراهيم الدسوقي في مقالته عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وآراء العلماء في المتشابه إذ يقول: فذهب السلف إلى التفويض في المعنى الذي أراده الله تعالى، بعد الإيمان به والتنزيه عن الظاهر المستحيل.. ثم ينسب ذلك إلى الأئمة الأربعة

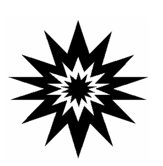
---

(١) الفتاوى الأمينية ص٩٧.

وأنهم يدينون لله بهذه العقيدة [١].

هؤلاء جميعا مع فضلهم وحسن ظننا بهم، ظنوا أن اعتقاد السلف الصالح هو التفويض، وعند التحقيق نجد الأمر يكمن في إثباتهم للصفة من عدمه، فهل استواء الله علي عرشه حقيقة موجودة ولها كيفية؟ أم أنهم لا يؤمنون بهذه الحقيقة الغيبية؟ فلا خلاف بين السلف في وجود كيفية حقيقية للاستواء، وإنما الخلاف بين السلف ومخالفيهم من الأشعرية وغيرهم، في ادعائهم جهل السلف بمعنى الاستواء، وتفويض العلم به إلى الله ﷻ، فالكيفية لها وجود حقيقي معلوم لله ﷻ، ومجهول لنا.

ومن ثم فالقول بأن الاستواء غير معلوم، أو لا نعلمه، أو نجهله، قول باطل، وكذلك القول بأن معنى الاستواء غير معلوم، قول باطل أيضا، أما القول بأن كيفية الاستواء فقط غير معلومة، أو مجهولة لنا، فهو الحق الذي دلت عليه جميع الأدلة.



(١) انظر مجلة الأزهر ص٢٨، عدد محرم سنة ١٤١٤هـ، وانظر أيضا للمقارنة مجموعة الرسائل للشيخ حسن البنا رحمه الله ص٣٣٠.

المطلب الثالث عشر

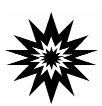
التفويض والهروب من إثبات الصفات

- أثر التفويض على منع الكلام في الصفات والتوحيد.
- أسباب القول بتفويض معاني النصوص.
- لوازم القول بتفويض معاني النصوص.
- أمثلة تطبيقية على فهم حقيقة التفويض.
- المراد بكلام السلف في التمرير من غير تفسير.
- التفويض آخر مهرب لتقديم العقل على النقل.
- سقوط المتكلمين في الباطل بالتأويل أو التفويض.
- الاستواء معلوم ليس بمعنى أنه موجود في القرآن.



المطلب الثالث عشر

التفويض والهروب من إثبات الصفات



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن تعريف المحكم والمتشابه لغة واصطلاحا، وبينا أن جميع آيات القرآن من المتشابه باعتبار الحسن والبلاغة والإعجاز، وأن جميع آيات القرآن محكمات أيضا باعتبار وضوح معناه، فهو كلام عربي مبين.

وبينا معنى التفويض لغة واصطلاحا، وكيف أن العقيدة السلفية في فهم المعنى والكيفية لها علاقة وثيقة بفهم المحكم والمتشابه، وكذلك علمنا دقة الفهم السلفي للمحكم والمتشابه الذي ورد في الآية السابعة من سورة آل عمران، كما تناولنا توجيه الوقف في هذه الآية حسب معاني التأويل عند السلف الصالح، وضربنا أمثلة معاصرة على اعتقاد المتكلمين من الأشعرية أن مذهب السلف هو التفويض في المعنى دون إثبات وجود الكيفية .

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن التفويض والهروب من كلمة الحق في توحيد الصفات، وكيف أنه ملجأ العاجزين عند

إلزامهم بتصديق خبر الله في أسمائه وصفاته وأفعاله على ظاهره، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **أثر التفويض على منع الكلام في الصفات والتوحيد.**

نظرا لأن بعض المنتسبين لمذهب الخلف من الأشعرية قد يُواجهون بقوة النصوص وما دلت عليه من إثبات الصفات عند قولهم بتأويلها، لاسيما إذا كان تأويلهم أقرب إلى التحريف، فإنهم يفرون من مواجهة الحق بدعوى السكوت وعدم الخوض في المتشابه كما كان شأن السلف، أو زعمهم بأن مسائل الصفات لا يترتب عليها عمل ولا سلوك، فلا داعي لأن نختلف، ويكفينا المحكم من القرآن والسنة وما يدعو إلى تأليف القلوب، وهذه دعوة قديمة منذ أن ظهرت عقيدة التفويض وغاب الفهم الصحيح لما عليه السلف في هذا الباب .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قول القائل: لا يتعرض لأحاديث الصفات وآياتها عند العوام، ولا يكتب بها إلى البلاد، ولا في الفتاوى المتعلقة بها. إما أن يريد بذلك أنه لا تتلى هذه الآيات وهذه الأحاديث عند عوام المؤمنين، فهذا مما يعلم بطلانه بالاضطرار من دين المسلمين، بل هذا القول إن أخذ على إطلاقه فهو كفر صريح، فإن الأمة مجمعة على ما علموه بالاضطرار من تلاوة هذه الآيات في الصلوات فرضها ونفلها، واستماع جميع المؤمنين لذلك، وكذلك تلاوتها وإقرائها واستماعها خارج الصلاة هو من الدين الذي لا نزاع فيه بين المسلمين، وكذلك تبليغ الأحاديث في الجملة هو مما اتفق عليه المسلمون، وهو

معلوم بالاضطرار من دين المسلمين، إذ ما من طائفة من السلف والخلف إلا ولا بد أن تروي عن النبي ﷺ شيئا من صفات الإثبات أو النفي، فإن الله ﷻ يوصف بالإثبات، وهو إثبات محامده بالثناء عليه وتمجيده، ويوصف بالنفي، وهو نفي العيوب والنقائص عنه سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وإما أن يريد أنه لا يقال: حكمها كذا وكذا إقرارا أو تأويلا، أو غير ذلك. فإن أراد هذا فينبغي لقائل ذلك أن يلتزم ما ألزم به غيره، فلا ينطق في حكم هذه الآيات والأحاديث بشيء، ولا يقول: الظاهر مراد أو غير مراد، ولا التأويل سائغ، ولا هذه النصوص لها معان أخر، ونحو ذلك. إذ هذا تعرض لآيات الصفات وأحاديثها على هذا التقدير، وإذا التزم هو ذلك، وقال لغيره: التزم ما التزمته ولا تزد عليها ولا تنقص منها؛ فإن هذا عدل، بخلاف ما إذا نهي غيره عن الكلام عليها مع تكلمه هو عليها كما هو الواقع.

وكذلك قوله: ولا يكتب بها إلى البلاد، ولا في الفتاوى المتعلقة بها. إن أراد أنها أنفسها لا تكتب ولا يفتى بها، فهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام كما تقدم، وإن أراد أنها لا يكتب بحكمها ولا يفتي المستفتي عن حكمها، فيقال له: فعليك أيضا أن تلتزم ذلك، ولا تفتي أحدا فيها بشيء من الأمور النافية. وحينئذ يكون أمرك لغيرك بمثل ما فعلته عدلا.

أما أن يجيء الرجل إلى هذه النصوص فيتصرف فيها بأنواع

التحريفات والتأويلات جملة أو تفصيلا، ويقول لأهل العلم والإيمان: أنتم لا تعارضوا ولا تتكلموا فيها. فهذا من أعظم الجهل والظلم والإلحاد في أسماء الله وآياته.

كما أن سلف الأمة وأئمتها ما زالوا يتكلمون ويفتون ويحدثون العامة والخاصة بما في الكتاب والسنة من الصفات، وهذا في كتب التفسير والحديث والسنن أكثر من أن يحصيه إلا الله ﷻ.

وقد قيل: إن مالكا لما صنف الموطأ قال: جمعت هذا خوفا من الجهمية أن يضلوا الناس. لما ابتدعت الجهمية النفي والتعطيل[1].

- **أسباب القول بتفويض معاني النصوص.**

إن القول بتفويض معاني النصوص نوع من تعطيل الحق وكتمانه، ودعوة إلى تجهيل رسالة الإسلام في هذا الباب، لأن مراد الله ﷻ من ذكر أسمائه وصفاته في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ هو تعريف العباد بها، فلا غنى لهم عن دعاء ربهم، واستغاثتهم به في قضاء حوائجهم، ولا بد لهم من مدحه، والثناء عليه بما مدح نفسه، أو مدحه نبيه ﷺ، وكيف يتحقق ذلك مع عقيدة التفويض.

ومن المؤسف أن الدعوة للقول بالتفويض ما زالت قائمة حتى عصرنا الحاضر، ويمكن إجمال الأسباب الداعية لذلك منذ ظهور عقيدة

---

(١) الفتاوي الكبري لشيخ الإسلام، كتاب في الرد على الطوائف الملحدة والزنادقة والجهمية والمعتزلة والرافضة ٦/٣٣٥ بتصرف، نشر دار الكتب العلمية.

التفويض حتى عصرنا في الأمور التالية:

أولا: الأصول العقلية المستمدة من الفلسفة اليونانية، كقولهم بنفي حلول الحوادث ليتوصلوا إلى تعطيل الصفات الفعلية، كالاستواء والنزول والرضا والغضب، وقولهم بنفي الجسمية ليتوصلوا إلى تعطيل الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والعينين والقدم غيرها، وقولهم بنفي التحيز والجهة ليتوصلوا إلى تعطيل العلو والفوقية.

ثانيا: من الأسباب الرئيسية أيضا دعوى الخوف على عقائد العوام، وإلزام قطاع كبير من شباب المسلمين بانتحال هذه المذاهب الكلامية، كتبني بعض المؤسسات التعليمية لهذا الأمر، كما قال صاحب جوهرة التوحيد:

وكل نص أوهم التشبيه : أوّله أو فوِّض ورم تنزيها

فيدّعي أن مذهب السلف الصالح هو التفويض، ومن ثم يشبّ طالب العلم من مهده على ذلك، وهو لا يعرف غير هذا الاعتقاد الفاسد حتى يصبح أستاذا كبيرا في الجامعة، أو مدرسا في المادة يدافع عما درسه بقوة ظنا منه أنه على شيء، وإذا ظهر له الحق في هذا الموضوع، فقل من لا تأخذه عزة المكانة، فيتراجع عن عقيدته ليلحق في ركب السلف أهل السنة والجماعة.

ثالثا: تقليد بعض المشاهير الذين شبوا على دراسة القول بالتفويض، وتربوا عليه دون علم منهم ببطلانه، كتبني بعض الجمعيات الشرعية

وبعض الإخوان في الجماعات الإسلامية لعقيدة بعض مؤسسيها دون نظر فيها أو تمحيص، ومحاولتهم الخلط بين قضية التفويض ومذهب السلف في دعوتهم ومؤلفاتهم.

رابعا: الجهل بمذهب السلف من ناحية، وانعدام القناعة بالمذهب الأشعري من ناحية أخرى، إذ أن الخلف من الأشعرية وغيرهم قاموا بليّ أعناق النصوص بصورة لا تخفى على عاقل، فأغلبهم لا يقر في نفسه تفسير الاستواء بالاستيلاء، أو تفسيره بالقهر والغلبة، وإذا أقر به مكرها أقر ليفر من إثبات صفة الاستواء التي ظاهرها عنده باطل قبيح، فإذا خلا بنفسه تردد على ذهنه سؤال لا يفارقه، ومن الذي نازع الله على العرش حتى قهره واستولى عليه؟! فلا يجد جوابا شافيا، فيُرضى نفسه بالسكوت وتفويض المعنى إلى الله ﷻ، ومن ثم يتجاهل الأمر بكليته مدعيا أن هذا هو مذهب السلف، فلا يتحدث في محاضراته، أو ندواته، أو مؤلفاته عن قضية الأسماء والصفات، ويزهد فيها زهدا ينافي ما ورد في الآيات الواضحات البينات، ويخالف ما كان عليه السلف الصالح في اعتبارهم هذا العلم هو أشرف علوم الاعتقادات الداعية إلى الصدق والإخلاص في العبادات.

• لوازم القول بتفويض معاني النصوص.

يجب على العقلاء من المسلمين التنبه إلى خطورة القول بالتفويض وسلب كلام الله ﷻ عن معناه، أو محاولة تقبيح إثبات الصفات في نفس السامع تحت مسمى التجسيم وإثبات الأعضاء والجوارح لله ﷻ، لأن

القول بالتفويض يؤدي إلى إلزامات قبيحة يتمثل أبرزها فيما يلي:

١- أن القرآن مليء بالحشو الذي لا فائدة منه مما يحتم حذفه ليوصف بالكمال، وهذا باطل لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت:٤٢.

٢- أن الله خاطب عباده بالألغاز والأحاجي، وهو قادر على غير ذلك، وهذا باطل لأنه يؤدي إلى القول بأن كلام الله بلا معنى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ النحل:١٠٣.

وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر:٢٣. فوصف كلامه بأنه أحسن الحديث.

٣- أن الرسول ﷺ بلغ ما لا يعلم، ولم يفهم ما جاء في التنزيل حاشاه، فكيف يفهمه من آمنوا به؟ وهذا باطل لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ إبراهيم:٤.

٤- أن الصحابة ﷺ خدعوا أنفسهم بادعائهم الفهم وموافقتهم النبي ﷺ في إيمان لا يعلمون حقيقته، وهذا باطل لقول الله تعالى عنهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾ الأنفال: ٧٤.

ولقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ الأنفال: ٢. فكيف يزدادون إيمانا بتلاوة ما ليس له معنى؟

٥- أن القول بالتفويض يلزم منه أن ظاهر النصوص يحمل معنى باطلا مستهجنا يخاف المفوض من مواجهته، وهذا باطل لأن الله ﷻ أمرنا بتدبر آياته والنظر فيها، وتعقلها وفهمها، واستخراج أوجه الإعجاز منها، فقال جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ النساء: ٨٢.

وفي الحقيقة إن القول بالتفويض ما هو إلا محاولة للهروب من مواجهة الأدلة لقوة ما ورد فيها من إثبات الصفات.

- **أمثلة تطبيقية على فهم حقيقة التفويض.**

ذكر ابن رجب في الفتح أن طريقة أئمة أهل الحديث وسلف الأمة هي إقرار النصوص وإمرارها كما جاءت، ونفي العلم بالكيفية عنها، ونفي التمثيل. وقد قال الخطابي: مذهب السلف في أحاديث الصفات الإيمان، وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها. ومن قال: الظاهر منها غير مراد، قيل له: الظاهر ظاهران:

١- ظاهر يليق بالمخلوقين ويختص بهم، فهو غير مراد.

٢- ظاهر يليق بذي الجلال والإكرام، فهو مراد، ونفيه تعطيل[1].

إن المتكلمين بالغوا في تنزيه الله ﷻ عن مشابهة الأجسام، فوقعوا في تشبيهه بالمعاني، والمعاني محدثة كالأجسام، فلم يخرجوا عن تشبيهه بالمخلوقات، وهذا كله إنما أتى مِن ظنهم أن تفاصيل معرفة الجائز على الله ﷻ والمستحيل عليه تؤخذ من أدلة العقول، ولا تؤخذ مما جاء به الرسول ﷺ. وأما أهل العلم والإيمان، فيعلمون أن ذلك كله متلقى مما جاء به الرسول ﷺ، وأن ما جاء به من ذلك عن ربه فهو الحق الذي لا مزيد عليه ولا عدول، وأنه لا سبيل لتلقي الهدى إلا منه، وأنه ليس في كتاب الله ﷻ ولا سنة رسوله ﷺ الصحيحة ما ظاهره كفر أو تشبيه، أو مستحيل، بل كل ما أثبته الله ﷻ لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ فإنه حق وصدق، يجب اعتقاد ثبوته مع نفي التمثيل، فكما أن الله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته، فكذلك في صفاته[2].

وما أشكل فهمه من ذلك، فإنه يقال فيه ما مدح الله ﷻ الراسخين من أهل العلم، أنهم يقولون عند المتشابهات: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ آل عمران:٧.

وما أمر به رسول الله ﷺ في متشابه الكتاب، أنه يرد إلى عالمه، والله ﷻ يقول الحق وهو يهدي السبيل. وكلمة السلف وأئمة أهل الحديث

(١) فتح الباري لابن رجب الحنبلي ٦/٤١ بتصرف.

(٢) السابق ٦/٤١ بتصرف.

متفقة على أن آيات الصفات وأحاديثها الصحيحة كلها تمر كما جاءت، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل [(١)].

• **المراد بكلام السلف في التمرير من غير تفسير.**

ينبغي التنبه إلى حقيقة بعض الروايات الواردة عن علماء السلف الصالح بأنهم لا يفسرون شيئا من نصوص الصفات، وأنهم يمررونها كما جاءت، فيظن من رماهم بالتفويض من الأشعرية أنهم يعتقدون أن نصوص الصفات غير معلومة المعنى، أو من قبيل إيمانهم بكلام لا معنى له عندهم، أو أن معناها لا يعلمه إلا الله ﷻ، وهذا باطل، ولا يقصده السلف في كلامهم.

وإنما يقصدون إما عدم الحديث عن بيان الكيفية التي عليها الصفات، فهذا لا يعلمه إلا الله، أو عدم الخوض في التأويلات الباطلة التي فسر بها المتكلمون من الجهمية نصوص الصفات، لاسيما إذا تنبهنا إلى أن التأويل في عرف السلف يأتي في أحد معنييه بمعنى التفسير والبيان الذي يحمد حقه ويرد باطله، وأن التفسير الباطل الذي ذهبت إليه الجهمية سمته تأويلا، فكان مقصد السلف من عدم التفسير هو عدم التأويل الباطل، والعبث في النصوص بالأصول العقلية للمبتدعة، بل يجب إجراؤها وإمرارها على ظواهرها كما جاءت، فهذا مقصدهم إذا نقل عنهم أنهم لا يفسرون شيئا من نصوص الصفات، وأنهم يمررونها

(١) السابق ٦/٤٢ بتصرف.

كما جاءت. ولا يعنون أبدا منع الحديث عن بيان معناها الحق الذي يدل على وجود الصفات كما يليق بجلال الله ﷻ، وإثبات حقائقها، وما دلت عليه من أنواع الكمال والجمال الذي اتصف به رب العزة والجلال.

وهذا واضح من قولهم: ليس لأحد أن يفسره إلا الله ﷻ، أي ليس لأحد أن يخوض في الكيفية التي لا يعلمها إلا الله ﷻ. أما المعنى فقد خاطبنا الله ﷻ به لنتعلمه ونعلمه للآخرين، وليس لتفويض معنى كلام الله ﷻ والزعم بأن كلامه في نصوص الصفات كلام بلا معنى.

وقد زعم مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي مثل ذلك، ونسب فهمه الباطل إلى عقيدة السلف الصالح، وهم بريئون منه، فقال: (اعلم أن من المتشابهات آيات الصفات التي التأويل فيها بعيد، فلا تؤول ولا تفسر، وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها، فقد روى الإمام اللالكائي الحافظ عن محمد بن الحسن قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقد روى اللاكائي أيضا في السنة من طريق قرة بن خالد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان

به واجب، والسؤال عنه بدعه، والبحث عنه كفر، وهذا له حكم الحديث المرفوع لأن مثله لا يقال من قبيل الرأي. وقال الإمام الترمذي في الكلام على حديث الرؤية: المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري، وابن المبارك، ومالك، وابن عيينة ووكيع، وغيرهم، أنهم قالوا: نروي هذه الأحاديث كما جاءت، ونؤمن بها، ولا يقال: كيف. ولا نفسر، ولا نتوهم، وذكرت في كتابي البرهان في تفسير القرآن عند قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ البقرة:٢١٠. وبعد أن ذكرت مذاهب المتأوّلين، أن مذهب السلف هو عدم الخوض في مثل هذا، والسكوت عنه وتفويض علمه إلى الله تعالى) [١].

وكلامه يدل على غير ما كان عليه السلف، ويشبهه زعم صاحب المناهل حيث قال: (ولنطبق هذه المذاهب على قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. فنقول: يتفق الجميع من سلف وخلف على أن ظاهر الاستواء على العرش وهو الجلوس عليه مع التمكن والتحيز مستحيل، لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقه، أو يحتاج إلى شيء منه، سواء أكان مكانا يحل فيه أم غيره.

وكذلك اتفق السلف والخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله

(١) انظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات المحكمات والمتشابهات ص٦١، تأليف مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق شعيب الأرنؤوط.

قطعا؛ لأنه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه، وأثبت لنفسه الغنى عنهم فقال﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ الشورى:١١. وقال: ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ ﴾ فاطر:١٥. فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضا.

ثم اختلف السلف والخلف بعد ما تقدم، فرأى السلفيون أن يفوضوا تعيين معنى الاستواء إلى الله، فهو أعلم بما نسبه إلى نفسه، وأعلم بما يليق به، ولا دليل عندهم على هذا التعيين. ورأى الخلف أن يؤولوا لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب الله عباده بما لا يفهمون، وما دام ميدان اللغة متسعا للتأويل وجب التأويل. بيد أنهم افترقوا في هذا التأويل فرقتين: فطائفة الأشاعرة يؤولون من غير تعيين، ويقولون: إن المراد من الآية إثبات أنه تعالى متصف بصفة سمعية لا نعلمها على التعيين تسمى صفة الاستواء. وطائفة المتأخرين يعينون فيقولون: إن المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والقهر من غير معاناة ولا تكلف، لأن اللغة تتسع لهذا المعنى ومنه قول الشاعر العربي:

قد استوى بشر على العراق : من غير سيف ودم مهراق

أي استوى وقهر، أو دبر وحكم، فكذلك يكون معنى النص الكريم، الرحمن استولى على عرش العالم، وحكم العالم بقدرته، ودبره بمشيئته. وابن دقيق العيد يقول بهذا التأويل إن رآه قريبا، ويتوقف إن رآه بعيدا. ومثل ذلك في نحو: ويبقى وجه ربك، ولتصنع على عيني، يد الله فوق أيديهم، والسموات مطويات بيمنه، يخافون ربهم من

فوقهم، وجاء ربك، وعنده مفاتح الغيب. فالسلف يفوضون في معانيها تفويضا مطلقا بعد تنزيه الله عن ظواهرها المستحيلة.

والأشاعرة يفسرونها بصفات سمعية زائدة على الصفات التي نعلمها، ولكنهم يفوضون الأمر في تعيين هذه الصفات إلى الله، فهم مؤولون من وجه مفوضون من وجه. والمتأخرون يفسرون الوجه بالذات، ولفظ ولتصنع على عيني بتربية موسى ملحوظا بعناية الله وجميل رعايته، ولفظ اليد بالقدرة، ولفظ اليمين بالقوة، والفوقية بالعلو المعنوي دون الحسي، والمجيء في قوله: وجاء ربك، بمجيء أمره، والعندية في قوله: وعنده مفاتح الغيب، بالإحاطة والتمكن، أو بمثل ذلك في الجميع) [(١)].

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية كلام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة المذكور بعضه أعلاه، وأنه قال: (اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ من غير تفسير، ولا وصف، ولا تشبيه، فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا، ولم يفسروا، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة، ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة) [(٢)].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/٢٠٨.

(٢) مجموع الفتاوى٤/٥.

ثم قال معقبا في بيان أن التفسير الذي يقصدون نفيه هو تفسير الجهمية وليس تفسير السلف: (محمد بن الحسن أخذ عن أبى حنيفة ومالك وطبقتهما من العلماء، وقد حكى هذا الإجماع، وأخبر أن الجهمية تصفه بالأمور السلبية غالبا أو دائما، وقوله: من غير تفسير أراد به تفسير الجهمية المعطلة الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات) [(١)].

وعلى ذلك يتبين القصد مما روي عن الحسن أن رجلا سأله عن شيء من صفة الرب ﷻ؟ فقال: أمروها بلا مثال. أي اتركوها على ظواهرها المرادة في حق الله دون المخلوق [(٢)].

وقال وكيع: أدركت إسماعيل بن أبي خالد وسفيان ومسعرا يحدثون بهذه الأحاديث، ولا يفسرون شيئا [(٣)]. أي لا يؤولونها تأويلا باطلا كالجهمية، بل يتركونها على ظواهرها.

وقال الأوزاعي: سُئِل مكحول والزهري عن تفسير هذه الأحاديث، فقالا: أمرها على ما جاءت[(٤)]. أي على ظواهرها.

وقال الوليد بن مسلم الذي أدرج الأسماء المشتهرة: سألت

---

(١) السابق ٤/٥.

(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبلي ٦/٤٢.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ٧/١٤٩ نشر مؤسسة قرطبة.

(٤) فتح الباري لابن رجب ٦/٤٢.

الأوزاعي ومالكا وسفيان وليثا عن هذه الأحاديث التي فيها الصفة والقرآن، فقالوا: أمروها بلا كيف[١]. أي لا تبحثوا عن العلم بالكيفية الحقيقية التي دلت عليها النصوص.

وقال ابن عيينة: ما وصف الله به نفسه فقراءته تفسيره، ليس لأحد أن يفسره إلا الله ﷻ [٢]. وهو يقصد أنها جاءت بلغة عربية مفهومة فهي على ظواهرها .

وقال أشهب: سمعت مالكا يقول: إياكم وأهل البدع، فقيل: يا أبا عبد الله: وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان [٣].

• **التفويض آخر مهرب لتقديم العقل على النقل.**

ذكر ابن أبي العز أن كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، فإنه عند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه تهافت التهافت: ومن

---

(١) السابق ٦/٤٢.

(٢) السابق ٦/٤٢.

(٣) السابق ٦/٤٣.

الذي قال في الإلهيات شيئا يعتد به؟

وكذلك الآمدي أفضل أهل زمانه واقف في المسائل الكبار حائر، وكذلك الغزالي رحمه الله انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح الإمام البخاري على صدره.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما فقال: ما تعتقده؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: أشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم إذا سلموا من العذاب، بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: (اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [١].

توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير عظيم في حصول المطلوب والله المستعان [٢].

- **سقوط المتكلمين في الباطل بالتأويل أو التفويض.**

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن غاية ما ينتهي إليه هؤلاء المعارضون لكلام الله ورسوله ﷺ بآرائهم من المشهورين بالإسلام هو التأويل أو التفويض، فأما الذين ينتهون إلي أن يقولوا: الأنبياء أوهموا

---

(١) مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل ١/٥٣٤ (٧٧٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٠٨.

وخيلوا ما لا حقيقة له في نفس الأمر، فهؤلاء معروفون عند المسلمين بالإلحاد والزندقة [(١)].

والتأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم، والتأويلات التي يذكرونها، لا يعلم أن الرسول ﷺ أرادها، بل يعلم بالاضطرار في عامة النصوص أن المراد منها نقيض ما قاله الرسول ﷺ، كما يعلم مثل ذلك في تأويلات القرامطة والباطنية من غير أن يحتاج ذلك إلى دليل خاص. وحينئذ فالمتأول إن لم يكن مقصوده معرفة مراد المتكلم كان تأويله للفظ بما يحتمله من حيث الجملة في كلام من تكلم بمثله من العرب هو من باب التحريف والإلحاد، لا من باب التفسير وبيان المراد [(٢)].

وأما التفويض فإن من المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟ وأيضا فالخطاب الذي أُريد به هُدانا، والبيان لنا، وإخراجنا من الظلمات إلي النور، إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره باطل وكفر، ولم يرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه، أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك، فعلى التقديرين لم نخاطب بما بيّن فيه الحق، ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر[(٣)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/١١٥ بتصرف.

(٢) السابق ١/١١٦ بتصرف.

(٣) السابق ١/١١٦ بتصرف.

وحقيقة قول هؤلاء في المخاطِب لنا: أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده، وأن ما خاطبنا به، وأمرنا باتباعه، والرد إليه، لم يبين به الحق، ولا كشفه، بل دل ظاهره على الكفر والباطل، وأراد منا ألا نفهم منه شيئا، أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد [١].

وقولهم: إن معاني هذه النصوص المشكلة المتشابهة لا يعلمه إلا الله، وأن معناها الذي أراده الله ﷻ بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها، فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله ﷻ عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة، ولا السابقون الأولون، وحينئذ فيكون ما وصف الله ﷻ به نفسه في القرآن، أو كثير مما وصف الله ﷻ به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلاما لا يعقلون معناه [٢].

ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذ كان الله ﷻ أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدي وبيانا للناس، وأمر الرسول ﷺ أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقا لكل شيء، وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر

(١) السابق ١/١١٧ بتصرف.

(٢) السابق ١/١١٨ بتصرف.

ونهي، ووعد وتوعد، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر، لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول ﷺ بين للناس ما نزل إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين[١].

وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي وليس في النصوص ما يناقض ذلك، لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة لا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به، فيبقي هذا الكلام سدا لباب الهدي والبيان من جهة الأنبياء، وفتحا لباب من يعارضهم ويقول: إن الهدي والبيان في طريقنا، لا في طريق الأنبياء، لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلا عن أن يبينوا مرادهم. فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد [٢].

فإن قيل: أنتم تعلمون أن كثيرا من السلف رأوا أن الوقف عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران:٧، بل كثير من الناس يقول: هذا هو قول السلف، ونقلوا هذا القول عن أبي بن كعب، وابن مسعود، وعائشة، وابن عباس، وعروة بن الزبير ﷺ، وغير واحد من السلف والخلف.

---

(١) السابق ١/١١٨ بتصرف.

(٢) السابق ١/١١٩ بتصرف.

وإن كان القول الآخر وهو أن السلف يعلمون تأويله منقولا عن ابن عباس أيضا، وهو قول مجاهد ومحمد بن جعفر وابن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم، وما ذكرتموه قدح في أولئك السلف وأتباعهم.

قيل: ليس الأمر كذلك، فإن أولئك السلف الذين قالوا: لا يعلم تأويله إلا الله كانوا يتكلمون بلغتهم المعروفة بينهم، ولم يكن لفظ التأويل عندهم يراد به معنى التأويل الاصطلاحي الخاص، وهو صرف اللفظ عن المعني المدلول عليه المفهوم منه إلى معنى يخالف ذلك، فإن تسمية هذا المعنى وحده تأويلا، إنما هو اصطلاح طائفة من المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، ليس هو عرف السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم، لاسيما ومن يقول إن لفظ التأويل هذا معناه، يقول إنه يحمل اللفظ على المعني المرجوح لدليل يقترن به، وهؤلاء يقولون هذا المعني المرجوح لا يعلمه أحد من الخلق، والمعني الراجح لم يرده الله ﷻ [1].

وإنما كان لفظ التأويل في عرف السلف يراد به ما أراده الله ﷻ بلفظ التأويل، فتأويل الكلام الطلبي الأمر والنهي، وهو نفس فعل المأمور به وترك المنهي عنه، كما قال سفيان بن عيينة: السنة تأويل الأمر والنهي.

وأما تأويل ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس

---

(١) السابق ١/١١٩ بتصرف.

الحقيقة التي أخبر عنها، وذلك في حق الله ﷻ هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره، ولهذا قال مالك وربيعة وغيرهما: الاستواء معلوم والكيف مجهول. وكذلك قال ابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف يقولون: إنا لا نعلم كيفية ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه، وإن علمنا تفسيره ومعناه.

ولهذا رد أحمد بن حنبل على الجهمية والزنادقة فيما طعنوا فيه من متشابه القرآن، وتأولوه على غير تأويله، فرد على من حمله على غير ما أريد به، وفسر هو جميع الآيات المتشابهة وبين المراد بها.

وكذلك الصحابة والتابعون فسروا جميع القرآن، وكانوا يقولون: إن العلماء يعلمون تفسيره، وما أريد به، وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه، وكذلك لا يعلمون كيفية الغيب، فإن ما أعده الله ﷻ لأوليائه من النعيم، لا عين رأته، ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر، فذاك الذي أخبر به لا يعلمه إلا الله، فمن قال من السلف: إن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله بهذا المعني فهذا حق[1].

وأما من قال: إن التأويل الذي هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه إلا الله، فهذا ينازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا: إنهم يعلمون معناه، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلي خاتمته، أقفه عند كل آية وأسأله عنها.

---

(١) السابق ١/ ١٢٠ بتصرف.

وقال ابن مسعود: ما في كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، وقال الحسن البصري: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها.

ولهذا كانوا يجعلون القرآن يحيط بكل ما يطلب من علم الدين، كما قال مسروق: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن علمنا قصر عنه. وقال الشعبي: ما ابتدع قوم بدعة إلا في كتاب الله بيانها. وأمثال ذلك من الآثار الكثيرة المذكورة بالأسانيد الثابتة مما ليس هذا موضع بسطه(١).

• **الاستواء معلوم ليس بمعنى أنه موجود في القرآن.**

زعم بعضهم أن قول السلف في سائر الصفات: إن المعنى معلوم أي معلوم وجوده في القرآن، وأن معنى الاستواء معلوم يعنى أن آية الاستواء موجودة في القرآن .

وقد رد ابن تيمية رحمه الله على هذه الشبهة فقال: (فإن قيل: معنى قوله: الاستواء معلوم، أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم، كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله ﷻ بعلمه! قيل: هذا ضعيف، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن، وقد تلا الآية، وأيضا لم يقل الإمام مالك: ذكر الاستواء في القرآن معلوم، ولا إخبار الله ﷻ بالاستواء معلوم، وإنما قال الاستواء معلوم .. وأيضا

---

(١) السابق ١/١٢٠ بتصرف.

فإنه قال: والكيف مجهول، ولو أراد ذلك لقال: معنى الاستواء مجهول، أو تفسير الاستواء مجهول، أو بيان الاستواء غير معلوم، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء، لا العلم بنفس الاستواء، وهذا شأن جميع ما وصف الله ﷻ به نفسه) [١] .

ونحن إذا نظرنا إلى كتاب الله ﷻ واستقرأنا جميع الأدلة النقلية التي تتعلق بالأمور الغيبية على وجه العموم وبذات الله وصفاته على وجه الخصوص، لا نجد آية واحدة أو حديثا يتحدث عن كيفية الذات وصفاتها، أو كيفية الموجودات التي في عالم الغيب، وكل ما ورد كان الهدف منه إثبات وجود ذات الله وصفاته وأفعاله على التفصيل الوارد في الكتاب والسنة، وبكيفية تليق بالله ﷻ، يعلمها هو، ولا نعلمها نحن، وهذا يتطلب كلاما يحمل معنى مفهوما. وعلى هذا المفهوم كما سبق جاءت أقوال السلف الصالح في نصوص الصفات وسائر الغيبيات: أمروها كما جاءت بلا كيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله معقبا: (قولهم أمروها كما جاءت، يقتضى إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معان ، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال: أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم غير مراد، أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله ﷻ لا يوصف بما دلت عليه حقيقة، وحينئذ فلا تكون قد

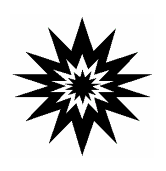
---

(١) رسالة الإكليل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٢/٣٣.

أمرت كما جاءت ولا يقال حينئذ: بلا كيف، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول) [(١)] .

قال ابن القيم: (فلا سعادة للعباد، ولا صلاح لهم، ولا نعيم إلا بأن يعرفوا ربهم، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم، والتقرب إليه قرة عيونهم) [(٢)] .

ولا شك أنه كلامه حق، فلا سعادة للعباد إلا بتوحيد الله ﷻ في عبوديته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فكيف تتم هذه السعادة في ظل عقيدة التفويض؟!



---

(١) الفتوى الحموية ص٢٨.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/٤٧.

المطلب الرابع عشر

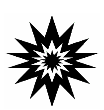
وحدة المنهج في الحديث عن الذات والصفات وسائر الغيبيات



- شمولية المنهج في الحديث عن الذات والصفات.
- غلاة الصوفية وأكثر المتكلمين جعلوا القرآن عضين.
- محبة الصوفية وعبادتهم بلا عوض عبادة بدعية.
- القول في الصفات كالقول في الذات.
- بدعة المعتزلة في إثبات الأسماء ونفي الصفات.
- القول في الصفات كالقول في بعض.
- بدعة الأشعرية في إثبات بعض الصفات ورد البعض.
- أسلم الضوابط التي وضعت للتعريف باعتقاد السلف.

المطلب الرابع عشر

وحدة المنهج السلفي في الحديث عن الذات والصفات وسائر الغيبيات



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أثر عقيدة التفويض في الدعوة إلى عدم الكلام في توحيد الأسماء الصفات مع كونه من أشرف العلوم والموضوعات، وبينا أسباب القول بتفويض معاني نصوص الصفات، وادعاء أن كلام الله بلا معنى في هذا الباب، وما يترتب على ذلك من اللوازم الباطلة. ثم ضربنا بعض الأمثلة التطبيقية التي تدل على فهم حقيقة التفويض والفرق بين معتقد السلف والخلف في إثبات المعنى والجهل بالكيفية .

وبينا أن التفويض هو آخر مهرب لكل من قدم العقل على النقل، وأن المعارضين للسلف ينتهون إما إلى التأويل أو التفويض، وهما مذهبان باطلان، كما علمنا خطأ من زعم أن قول السلف في سائر الصفات: المعنى معلوم، أي معلوم وجوده في القرآن.

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن وحدة المنهج

السلفي في الإيمان بما جاء في الوحي كله على نسق واحد، سواء في باب الأسماء والصفات، أو في سائر الغيبيات والموضوعات الأخرى، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **شمولية المنهج في الحديث عن الذات والصفات.**

من أبرز القواعد التي قام عليها اعتقاد السلف الصالح، الإيمان بما جاء في الوحي كله، سواء في الأسماء والصفات، أو سائر الغيبيات والموضوعات الأخرى، فالوحي وحدة واحدة، لا بد من أن نذعن له كله، ونسلم بكل ما جاء فيه على وجه المحبة والتعظيم، لعلمنا أن الله ﷻ يريد لنا الخير، وهو أعلم بما ينفعنا من أنفسنا.

وهذا معنى الإيمان في حديث سُفْيَان بْنِ عَبْدِ الله الثَّقَفِيِّ ﷺ حيث قَال: (قُلتُ يَا رَسُول الله: قُل لي فِي الإِسْلامِ قَوْلا، لا أَسْأَل عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَال: قُل آمَنْتُ بِالله فَاسْتَقِمْ) [١].

ومن ثم فإن الله ﷻ إذا أخبرنا بشيء صدقناه في كل ما أخبر، وإذا أمر بشيء نفذناه في كل ما أمر، ونستقيم على ذلك مدى الحياة، فهذا مقتضى الإيمان الحق.

ومن الواجب أيضا الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الثابتة بكل ما فيهما لمعرفة الدليل على الموضوع الواحد، سواء في باب توحيد الأسماء والصفات، أو غيره من أبواب العقيدة والشريعة. وذلك لكي يكون

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨).

المنهج منهجا صحيحا نابعا من القرآن والسنة بالفعل، فالقرآن هو كلام الله تعالى إلى عباده، الذي يمثل نورا لهم. وعباد الله متعددون في النوعية ومختلفون في العقلية، يختلفون ويتنوعون زمانا ومكانا.

كما أن القرآن يتحدث عن كثير من الحقائق، ويعرض كثيرا من الموضوعات، لكنها ليست في خطة دراسية مكونة من أبواب وفصول، أو مباحث جزئية، أو مطالب بحثية، للحصول على درجة التخصص أو الإجازة العالية، فليس فيه باب مستقل عن الصلاة، أو فصل مختص بالزكاة، أو غير ذلك من أحكام الله ﷻ، ولكن الموضوع الواحد قد يكون مطروحا في سور القرآن العديدة التي تضم آلاف الآيات والجمل والكلمات.

والله ﷻ ترك الاجتهاد مفتوحا لجمع المعلومات، والنظر في الأدلة لموضوع من الموضوعات، وذلك حتى يرفع الله ﷻ الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات، فالقرآن نور لمن نور الله ﷻ بصيرته في النظر إلى الآيات، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى:٥٢.

ولا بد لكل مسلم أن يعلم أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، فما أجمله في موضع، أفاض فيه في موضع آخر، فينبغي علينا حتى نتعرف على دليل من القرآن والسنة لحقيقة غيبية أو مشهودة واقعية، أو أي

موضوع من الموضوعات، ينبغي علينا أن ننظر في جميع الآيات، وما ثبت في السنة من الأخبار والمرويات.وأن تكون نظرتنا للقرآن والسنة نظرة شاملة، حتى نخرج بالحقيقة صحيحة كاملة، ولو اقتصر الأمر على بعض الآيات دون بعض، فسوف نصل إلى حقيقة مشوهة ناقصة، وتبريرات عقلية خاوية مفلسة، أو سنصل إلى جزء من الحقيقة في القرآن والسنة دون الأخر.

فمثلا في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ الماعون:٤. إذا وقفت عندها يصبح معناها وعيدا للمصلين، وحجة للعصاة والمفسدين، ولو وصلتها بما بعدها لبان لك مراد رب العالمين، حيث يقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ الماعون:٤/٧.

والأمر الذي وقع فيه كثير من طوائف المسلمين وفرقهم، هو عدم أخذهم للأدلة كلها كوحدة واحدة، في الموضوع الواحد، شأنهم في ذلك شأن علماء بني إسرائيل وأحبارهم مع كتابهم، أخذوا بعض الكتاب ليوافق آراءهم وعقولهم وأهواءهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، فبدلوا وغيروا وأولوا وحرفوا، تحريفا لفظيا، أو تحريفا معنويا يقوم على إخفاء بعض الحقائق وإلغائها، أو التغاضي عنها وتكذيبها، أو كفر الأحكام بتغطيتها وجحودها.

قال تعالى في وصفهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ البقرة:٨٤/٨٥.

وإذا كان بنو إسرائيل قد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض عن سوء نية، وسوء قصد، فإن كثيرا من المتصوفة والمتكلمين أتباع الجهمية، قد شابهوا اليهود في فعلهم، فأخذوا ببعض ما ورد في كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتركوا البعض، سواء عن قصد، أو غير قصد، فتركوا النظرة الشاملة الكاملة للقرآن والسنة التي تتوافق مع العقل والفطرة، فجاء اعتقادهم مشوها قاصرا، مضطربا مختلفا باطلا.

- **غلاة الصوفية وأكثر المتكلمين جعلوا القرآن عضين.**

ومثال ذلك أن بعض الصوفية بدلوا مجال اختيار المسلم من اختيار بين الدنيا والآخرة، أو بين الجنة والنار كما دلت النصوص، إلى اختيار بين الله ﷻ وبين سائر المخلوقات في الدنيا والآخرة.

كما روى عن رابعة العدوية من نساء الصوفية أنها قالت: (ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن حبا لذاتك) [1].

---

(١) هى رابعة بنت إسماعيل العدوية العابدة المشهورة، قال ابن كثير: (أثنى عليها الناس، وتكلم فيها أبو داود السجستاني واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر، وقد ذكروا لها أحوالا وأعمالا صالحة، وصيام نهار وقيام ليل توفيت بالقدس الشريف سنة ١٨٥هـ). انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٠/١٨٦، نشر مكتبة المعارف، بيروت، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٤/٢٧ نشر دار المعرفة، بيروت.

جعلت رابعة حب الذات الإلهية خيارا مطروحا في مقابل الدنيا والآخرة، ومن ثم صرح أغلب الصوفية بأقوال باطلة، حيث زعموا أن العبد ينبغي أن يعبد الله ﷻ دون انتظار للثواب أو خوف من العقاب، بل يعبد الله ﷻ حبا لذاته، فأدى ذلك إلى أن وصلوا إلى درجة يحتقرون فيها من عبد الله ﷻ انتظار لثوابه، أو خوفا من عقابه على السلف وأهل السنة، وقد وصفوه من التجار الذين لا يعطون إلا لانتظار البديل.

بل غالى بعضهم فوصف هذا أهل الحق والسنة بأنهم عبيد السوء الذين لا يوقرون الله ﷻ لذاته، ولكن لما يصلهم من نفع أو نعمة في الآخرة، حتى قال أبو بكر الشبلي الصوفي: (إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) [(١)].

وقال أيضا: (لو خطر ببالي أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق منى شعره، لكنت مشركا) [(٢)].

ولما رجعوا إلى القرآن الكريم ، لم يرجعوا إلى القرآن كله بالتكامل مع السنة لكي يكون موضوع الاستدلال صحيحا، أو يكون المنهج منهجا نابعا من القرآن والسنة بالفعل، ولكنهم استدلوا ببعض، وتركوا دلالة البعض الآخر معطلة، فاستدل أبو بكر الكلاباذي على

---

(١) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٩٠، وانظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٤٣٦، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) السابق ص ٤٩١.

هذا الفكر الصوفي بجزء من قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ﴾ التوبة:١١١. وقال معقبا: (ليعبدوه بالرق لا بالطمع). أو استدلال الآخر على هذه الدعوة الباطلة بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ الإنسان:٩ [١].

وقطع الآيات عن نهايتها، التي لو استكملت لتغير المعنى تماما، فشراء الله لأنفس المؤمنين وأموالهم إنما كان بعوض وهو الجنة، وعمل المؤمنين كان سببا للوصول إلى هذه الجنة، وإن كان لا يزنها، ولكن هذا لا يمنع المؤمن أن يطمع في فضل الله ورحمته فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١١١ ﴾ التوبة:١١١.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢ ﴾ الإنسان:٩/١٢.

وإذا أخذت نصوص القرآن والسنة مجتمعة، فسوف نجد الثناء على

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد بن اسحاق بن إبراهيم البخاري الكلاباذي ص١٦٨، طبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٠م، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

عباد الله وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار وعذابها، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٠.

وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ الفرقان: ٦٥/٦٦.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل: (ما تقول في الصلاة؟ فقال: أتشهد ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أنا والله ما أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ فقال ﷺ: حولها ندندن) [(١)].

• محبة الصوفية وعبادتهم بلا عوض عبادة بدعية.

ادعى أغلب الصوفية أن العبادة الحقة هي ما كانت دون طلب العوض من الله ﷻ، وأن التطلع إلى الجنة عندهم معصية، وطلبها نقص في حق العابد.

---

(١) الحديث بهذا اللفظ رواه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب مسألة الله الجنة بعد التشهد وقبل التسليم والاستعاذة بالله من النار ٣٥٨/١ (٧٢٥)، واصل الحديث عند أبي داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة ٢١٠/١ (٧٩٢)، وابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقال في التشهد والصلاة على النبي ﷺ ٢٩٥/١ (٩١٠)، وصححه الشيخ الألباني في كتاب صفة الصلاة.

روي أن جماعة دخلوا على رابعة العدوية يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلتي سببا، غير أني عرضت على الجنة فملت بقلبي إليها، فأحسب أن مولاي غار علي، فعاتبني فله العتبى[1].

ومعنى هذا أن مجرد ميل القلب إلى الجنة يعتبره المتصوفة ذنبا يستوجب العقاب، ومن ثم كان هذا الاعتقاد الباطل دافعا لأن يحولوا معاني الآيات والأحاديث إلى ما يريدون إثباته من أفكارهم البدعية فحاولوا لي أعناق النصوص وبترها للتوافق مع ما ذهبوا إليه، فقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ التوبة: ١١١.

استدلوا بهذا المقطع من الآية فقط، وقطعوا الآية عن نهايتها التي ترد قولهم وهي قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ التوبة: ١١١. فشراء الله ﷻ لأنفس المؤمنين وأموالهم، إنما كان بعوض وهو الجنة، وعمل المؤمنين كان سببا للوصول إلى هذه الجنة، وإن كان لا يكافئها، ولكن هذا لا يمنع المؤمن أن يطمع في فضل الله ﷻ ورحمته، والسعي لدخول جنته، بل هذا هو التعبد الصحيح.

والقصد أن مثل هذا الاعتقاد المبني على انحراف العقل والذوق، سوف يؤدي إلى الإيمان ببعض الكتاب ورد البعض الآخر وتعطيله عن مدلوله الحقيقي، أو لي أعناق النصوص بالتحريف أو التأويل

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص١٨٤.

المتعسف، لتسير الأدلة في غير اتجاهها، كمطية يركبها صاحب الأهواء ويوجهها حيث يشاء، وهذا العمل كان مسلكا لليهود حتى لعنهم الله ﷻ وقال في وصفهم: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الحجر: ٩٠/٩١.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ) (١).

وقال تعالى في شأنهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ البقرة: ٨٥.

وقال عن تأويلهم الباطل: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ آل عمران: ٧٨.

وقال سبحانه: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ النساء: ٤٦.

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة ٣/١٤٣٥(٣٧٢٩).

وقد فعل أغلب الجهمية من أهل الكلام فعل اليهود لما قال الله ﷻ لهم: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ البقرة:٥٨. أي حط عنا خطايانا واغفر لنا، فبدلوا كلام الله ﷻ وزادوا نونا وقالوا: حنطة، أي نريد القمح والشعير، فقال الله تعالى في شأنهم: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩ ﴾ البقرة:٥٩. وقال الله ﷻ لأهل الكلام: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ ﴾ طه:٥. فزادوا لاما وقالوا: استولى عليه وقهر. فما أشبه نون اليهود بلام أهل الكلام .

وقد وضع علماء الكلام من الأشعرية والماتريدية وغيرهم لأنفسهم قانونا عقليا يحكمون به على ما ورد في الكتاب والسنة، وخصوصا في مسائل الصفات، فما وافقهم أخذوا به وأيدوه، وما خالفهم أنكروه وأولوه .

قال ابن تيمية: (وهذا يشبه ما وضعته النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم، وردوا نصوص التوراة والإنجيل إليها، لكن تلك الأمانة اعتمدوا فيها على ما فهموه من نصوص الأنبياء، أو ما بلغهم عنهم، وغلطوا في الفهم، أو في تصديق الناقل، كسائر الغالطين ممن يحتج بالسمعيات، فإن غلطه إما في الإسناد، وإما في المتن، وأما هؤلاء فوضعوا قوانينهم على ما رأوه بعقولهم، وقد غلطوا في الرأي والعقل، فالنصارى أقرب إلى تعظيم الأنبياء والرسل من هؤلاء، لكن

النصارى يشبههم من ابتدع بدعة بفهمه الفاسد من النصوص، أو بتصديقه النقل الكاذب عن الرسول، كالخوارج والوعيدية والمرجئة والإمامية وغيرهم، بخلاف بدعة الجهمية والفلاسفة فإنها مبنية على ما يقرون هم بأنه مخالف للمعروف من كلام الأنبياء، وأولئك يظنون أن ما ابتدعوه هو المعروف من كلام الأنبياء وأنه صحيح عندهم) [(١)].

وقد عبر ابن تيمية رحمه الله عن وحدة المنهج السلفي وعمومه في معرفة أوصاف الله ﷻ بأصلين شريفين يوضحان تلك القاعدة:

- **القول في الصفات كالقول في الذات.**

والمقصود بهذا الأصل الرد على المعتزلة، فالقول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ﷻ ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان لذات الله ﷻ وجود حقيقي لا يماثل سائر الذوات من المخلوقات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات، فإذا قال السائل: كيف استوي على العرش؟ وما كيفية أوصافه؟

قيل له: كيف هو؟ فإن قال: أنا لا أعلم كيفية ذاته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية أوصافه، ولا كيفية استوائه، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٦.

وإذا كنت تقر بأن لله ﷻ ذات حقيقية لا يماثله شيء فيها، فكذلك وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوق وبصره وكلامه ونزوله واستوائه وسائر أوصافه [(١)].

قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي: (أما الكلام في الصفات، فإنَّ ما روي منها في السنن الصحاح، مذهبُ السلف إثباتُها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ فأبطلوا ما أثبته الله ﷻ، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصدُ إنَّما هو سلوك الطريقة المتوسّطة بين الأمرين، ودينُ الله تعالى بين الغالي فيه والمقصِّر عنه.

والأصل في هذا أنَّ الكلام في الصفات فرعُ الكلام في الذات، ويُحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أنَّ إثبات ربِّ العالمين إنّما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنَّما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: لله ﷻ يدٌ وسمعٌ وبصرٌ، فإنَّما هي صفاتٌ أثبتها الله ﷻ لنفسه، ولا نقول: إنَّ معنى اليد القدرة، ولا إنَّ معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنَّها جوارح، ولا نشبّهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارحُ وأدوات للفعل، ونقول: إنَّما وجب إثباتها؛ لأنَّ التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ الشورى:١١.

---

(١) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٢٥.

ولقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ الإخلاص:٤)[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟، قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضي الله عنهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنَّه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه. وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربّنا إلى السماء الدنيا؟، قيل له: كيف هو؟، فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه، واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته ؟!)[٢].

وقال أيضا: (ومن أوَّل الاستواء بالاستيلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك وسلك غير سبيله، وهذا الجواب من مالك رحمه الله في الاستواء شافٍ كافٍ في جميع الصفات مثل: النزول والمجيء، واليد، والوجه، وغيرها، فيقال في مثل النزول: النزول، معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهكذا يُقال في سائر

---

(١) انظر العلو للعلو الغفار الذهبي ص٢٥٣، نشر مكتبة أضواء السلف الرياض. وذم التأويل لابن قدامة المقدسي ص١٥ نشر الدار السلفية، الكويت. وانظر إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لبدر الدين بن جماعة ص٤٩، نشر دار السلام. وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/٢٨٤ نشر مؤسسة الرسالة.

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٥/٣ .

الصفات؛ إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة) [١].

- **بدعة المعتزلة في إثبات الأسماء ونفي الصفات.**

ابتدع أهل الاعتزال من أتباع الجهمية معنى جديدا للتوحيد غير ما عرف بين الصحابة والتابعين وعلماء السلف، فقالوا: إن التوحيد هو إثبات الأسماء ونفي الصفات، فجعلوا القرآن عضين، يقبلون منه ما يوافق آراءهم الفاسدة ويعطلون ما يخالفها.

ومعني قولهم بإثبات الأسماء ونفي الصفات أنهم أثبتوا وجود ذات الله ﷻ فقط دون أي صفة لها، وجعلوا أسماء الله ﷻ الدالة عليها أسماء فارغة من الأوصاف، أو أسماء بلا مسمى، فقالوا: هو العليم، لكنه لا يتصف بصفة العلم، والسميع بلا سمع، وهو البصير بلا بصر، وهكذا سائر الأسماء الحسنى.

ولتبسيط فكرتهم نقول: فلان اسمه سعيد، لكن لو بحثت عن صفة السعادة فيه، فربما يكون سعيدا أو شقيا، فإن كانت الأولى قلنا: سعيد اسم على مسمى، وذاته متصفة بصفة السعادة، وإن كانت الثانية قلنا: سعيد اسم فارغ من المسمى وذات بلا صفة لأنه شقي.

ومن ثم فإن أسماء الله ﷻ عند السلف أسماء على مسمى، فهو الغني الذي يتصف بالغني لا الفقر، وهو القوي الذي يتصف بصفة القوة لا الضعف، وهو السميع يتصف بصفة السمع تعالى الله عن ضدها، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٤.

البصير الذي يتصف بالبصر وهكذا في سائر الأسماء والصفات، ولهذا كانت أسماؤه حسنى وعظمى، ولا تكون حسنى وعظمى بغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الأعراف:١٨٠.

ودعاء الله بها أن يقول الفقير: يا غني أغنني بفضلك عمن سواك، ولولا يقين الداعي الفقير أن الله ﷻ غني ولا نظير له في غناه ما دعاه، وأن يقول الضعيف: يا قوي قوني، فلولا يقينه أنه سبحانه لا شبيه له في قوته ما دعاه، وهكذا يعلم أصحاب الفطرة السليمة فطرة التوحيد أن الله ﷻ يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء بسبب العظمة في أسمائه وأوصافه كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ النمل:٦٢، فعلم العقلاء أنه لا يجيب المضطر إذا دعاه وهو عاجز لا صفة له مطلقا، أو أسماؤه فارغة بلا مسمى.

وهذا المذهب الخبيث يترتب عليه أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ لا قيمة له عندهم، وكذلك تعداد الأسماء الحسنى في حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ) [1]. لأن تعداد الأسماء

---

(١) رواه البخاري في الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط ٢/٩٨١ (٢٥٨٥) ومسلم في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى ٤/٢٠٦٣ (٢٦٧٧).

الحسني، أو الدعاء بها مبني على إثبات الصفات.

وأي نقص في حق الله ﷻ أعظم من ألا يكون له صفة عند المعتزلة تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. إن الواحد منا لا يقبل هذا على نفسه، فلو قال لك قائل: أنت لا صفة لك عندي. ربما خاصمته دهرا؛ لأن الفطرة مجبولة على إثبات الأوصاف الحميدة ونفي الأوصاف البغيضة، فمن العجب أن يثبتوا لأنفسهم أجود الأوصاف وينفون عن الله ﷻ الذي ليس كمثله شيء سائر أوصاف الكمال.

ومن ثم لا بد من الإيمان بصفات الله جميعها، كالإيمان بوجود ذاته، والذي لا يعرف كيفية الذات، كذلك فإنه لا يعرف كيفية الصفات، والذي يزعم أن إثبات الصفات يدل على التشبيه فيخاصم بأن إثبات الذات أيضا يدل على التشبيه، فالقول في الذات كالقول في الصفات سواء بسواء [١].

- **القول في الصفات كالقول في بعض.**

الأصل الثاني المعبر عن وحدة المنهج السلفي وعموم النظر في التعرف على أوصاف الله ﷻ هو أن يقال: القول في الصفات كالقول في بعض. فلا يجوز أن نثبت بعض الصفات، وننازع في إثبات باقي الصفات، أو نردها بالتعطيل والتأويل بغير دليل، لأن منهج السلف

---

(١) انظر المزيد عن هذا الموضوع في المسألة المصرية في القرآن ضمن مجموع الفتاوى ١٢/١٨٣، وبيان تلبيس الجهمية ١/٥١٦، ودرء تعارض العقل والنقل ٥/١٩.

واحد في كل ما ورد من الصفات وسائر الغيبيات، إما أن تثبت الجميع وتكون مؤمنا، أو ترد الجميع وتكون جاحدا معطلا.

أما إثبات البعض ورد البعض تحت أي حجة، فهذا عمل اليهود كما سبق، وهو أشد بطلانا؛ لأنه استخفاف بكلام الله ﷻ ونوع من العبث بكتابه وسنة رسوله ﷺ .

وينبغي أن يحترز بهذا الأصل في معرفة صفات الله من بدعة الأشعرية، ومن سلك سبيلهم في الصفات الإلهية، حيث ابتدعوا تقسيما عجيبا في صفات الله ﷻ على أهوائهم، جعلوا منه ما هو واجب لله ﷻ، وما هو جائز له، وما هو مستحيل عليه. فقالوا: الوجود صفة نفسية، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس، والوحدانية صفات سلبية. والقدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر صفات معاني أو معنوية.

وبقية الصفات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية صفات خبرية، تدل على التشبيه والأعضاء والجسمية، وظاهرها غير مراد؛ لأنه باطل قبيح دل على معان كفرية شركية، لا يثبتها العقل لربه، حتى قال قائلهم كما سبق:

وكل نص أوهم التشبيه : أوِّله أو فوِّض ورم تنزيها.

ولو سألناهم: لم أثبتم قدرته سبحانه، وإرادته، وعلمه، وحياته، وكلامه، وسمعه، وبصره مع أنها وردت في الكتاب والسنة، ونفيتم

صفة المحبة، والرضي، والغضب، والاستواء، والعلو، والمجيء، وسائر الصفات الخبرية مع أنها أيضا وردت في الكتاب والسنة؟

قالوا: لأن الصفات التي أثبتناها لا تدل على التشبيه، أما الصفات التي نفيناها تدل على التشبيه، فيقال لهم: إن العقلاء لا يقرون هذا، فالقول في الصفات كالقول في بعض، فإما أن تقولوا بالتمثيل الباطل في الذات وجميع الصفات كما فعل الممثل، وقال: إرادة الله مثل إرادة المخلوق، ومحبته، ورضاه، وغضبه، واستواءه، وعلوه، وسائر الصفات الخبرية مثل أوصاف المخلوق، ومعلوم أن هذا كذب على الله ﷻ وقياس باطل محرم.

وإما أن تقولوا كما قال أهل التوحيد إرادة الله تليق به، وإرادة المخلوق تليق به، والله ﷻ ليس كمثله شيء في إرادته، ومحبته، ورضاه، وغضبه، واستواءه، وعلوه، وسائر الصفات الثابتة في الكتاب والسنة كما هو اعتقاد أهل الحق.

وصاحب المذهب الأشعري إن أتى بحجج عقلية سقيمة ينفي بها ما يشاء ويثبت من صفات الله ﷻ، فالعقل لن يسأم من مقارعة الحجة بالحجة، فإن قال: نفيت الغضب لأنه غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يجوز على الخالق سبحانه وتعالى، قيل له: والإرادة التي أثبتها ميل القلب إلي جلب منفعة، أو دفع مضرة، وهذا لا يجوز على الخالق سبحانه وتعالى. فإن قال: تلك إرادة المخلوق، أما إرادة

الخالق فليست كذلك، قيل له: وهذا الغضب الذي وصفته غضب المخلوق، أما غضب الخالق فليس كذلك، وهذا لازم في كل صفة أثبتها أو نفاها.

- **بدعة الأشعرية في إثبات بعض الصفات ورد البعض.**

ولا ريب أننا وإياهم متفقون على إثبات صفات الحياة، والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام لله تعالى. ونحن قطعا لا نعقل من الحياة إلا هذا العرض الذي يقوم بأجسامنا، وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعراضا تقوم بجوارحنا، فكما أنهم يقولون حياته ليست بعرض، وعلمه كذلك، وبصره كذلك، وهي صفات تليق به لا كما يليق بنا، فكذلك نقول أيضا حياته معلومة وليست مكيفة، وعلمه معلوم ليس مكيفا، وكذلك سمعه وبصره معلومان كما يليق به.

ومثل ذلك بعينه فوقيته واستواؤه ونزوله، ففوقيته معلومة ثابتة كثبوت حقيقة السمع وحقيقة البصر، فإنهما معلومان، ولا يكيفان، كذلك فوقيته معلومة ثابتة غير مكيفة، بل هي كما يليق به، واستواؤه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة، أو انتقال يليق بالمخلوق، بل كما يليق بعظمته وجلاله، وصفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت، غير معقولة من حيث التكييف والتحديد، فيكون العبد بها مدركا من وجه، غير مدرك من وجه، مبصرا من حيث

الإثبات والوجود، ولا يعلم من حيث التكييف والتحديد[1].

وبهذا يحصل الجمع بين الإثبات لما وصف الله ﷻ نفسه به، وبين نفي التحريف والتعطيل، والتشبيه التمثيل، وذلك هو مراد الرب تعالى في إبراز صفاته لنا، لنعرفه بها، ونؤمن بحقائقها، وننفي عنها التشبيه، ولا نعطلها بالتحريف والتأويل.

ولا فرق بين النزول والبصر، الكل ورد في النص، فإن قالوا لنا: في الاستواء شبهتم، نقول لهم في السمع شبهتم، ووصفتم ربكم بوصف المخلوق، فإن قالوا: لا تشبيه بل هو كما يليق به، قلنا في الاستواء والفوقية لا تشبيه، بل ذلك كما يليق به، فجميع ما يلزموننا به في الاستواء، والنزول، واليد، والوجه، والقدم، والضحك، والعجب من التشبيه، نلزمهم به في الحياة، والسمع، والبصر، والعلم، فكما لا يجعلونها من جنس ما يوصف به المخلوق، فكذلك نحن لا نجعلها من جنس صفات المخلوق.

وليس من الإنصاف أن يفهموا في الاستواء، والنزول، والوجه، واليد صفات المخلوقين، فيحتاجوا إلى التأويل والتحريف، ولا يفهموا ذلك في الصفات السبع، فإن فهموا في هذه الصفات ذلك، فيلزمهم أن يفهموا في السمع والبصر وبقية ما يثبتونه من الصفات صفات

---

(١) انظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، لمرعي بن يوسف الكرمي ص ٢٠٢، نشر مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط.

المخلوقين، فما يلزمونا في تلك الصفات من التشبيه والجسمية، نلزمهم به في هذه الصفات، وما ينزهون ربهم به في الصفات السبع، وينفون عنه عوارض الجسم فيها، فكذلك نحن نقول في تلك التي ينسبونا فيها إلى التشبيه، سواء بسواء[١].

ومن أنصف عرف الحق ودان لله ﷻ بإثبات جميع صفاته هذه وتلك، ونفى عن جميعها التمثيل والتشبيه والتعطيل والتأويل بغير دليل، وهذا مراد الله تعالى منا في ذلك؛ لأن تلك الصفات جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة، فإذا أثبتنا تلك بلا تأويل، وحرفنا هذه وأولناها، كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، فالقول في الصفات واحد ﷻ لا فرق بين صفة وأخرى.

قال ابن تيمية: (وأما قول القائل: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام.. فلو قدر أن هذا هو حقيقة غضبنا، لم يلزم أن يكون غضب الله تعالى مثل غضبنا، كما أن حقيقة ذات الله ﷻ ليست مثل ذاتنا، فليس هو مماثلا لنا، لا لذاتنا، ولا لأرواحنا، وصفاته كذاته) [٢].

وقال رحمه الله مفصلا لذلك: (فإن قالوا: الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام، والوجه هو ذو الأنف والشفتين واللسان والخد

---

(١) انظر رسالة في إثبات الاستواء والفوقية لأبي محمد عبد الله بن يوسف ص٧٤، نشر دار طويق الرياض.

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٧/٣.

أو نحو ذلك، قيل لهم: إن كنتم تريدون غضب العبد ووجه العبد فوزانه أن يقال لكم: ولا يعقل بصر إلا ما كان بشحمة، ولا سمع إلا ما كان بصماخ، ولا كلاما إلا ما كان بشفتين ولسان، ولا إرادة إلا ما كان لاجتلاب منفعة، أو استدفاع مضرة، وأنتم تثبتون للرب السمع والبصر والكلام والإرادة على خلاف صفات العبد، فان كان ما تثبتونه مماثلا لصفات العبد، لزمكم التمثيل في الجميع، وإن كنتم تثبتونه على الوجه اللائق بجلال الله تعالى من غير مماثلة بصفات المخلوقات، فاثبتوا الجميع على هذا الوجه المحدود، ولا فرق بين صفة وصفة؛ فإن ما نفيتموه من الصفات يلزمكم فيه نظير ما أثبتموه، فإما أن تعطلوا الجميع وهو ممتنع، وإما أن تمثلوه بالمخلوقات وهو ممتنع، وإما أن تثبتوا الجميع على وجه يختص به لا يماثله فيه غيره، وحينئذ فلا فرق بين صفة وصفة، فالفرق بينهما بإثبات أحدهما ونفى الآخر فرارا من التشبيه والتجسيم قول باطل، يتضمن الفرق بين المتماثلين والتناقض في المقالتين) [(١)].

• أسلم الضوابط التي وضعت للتعريف باعتقاد السلف.

إن من أسلم الضوابط الشمولية التي وضعت لتوضيح اعتقاد السلف الصالح في توحيد الصفات هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (ومذهب السلف أنهم يصفون الله ﷻ بما وصف

---

(١) رسالة في مسألة تأويل الصفات ضمن مجموع الفتاوى ٦/٤٦.

به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله ﷻ به من ذلك فهو حق، ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق، وأفصحهم في البيان والدلالة والإرشاد، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله) [(١)].

لقد جاءت هذه الكلمات معبرة عما دلت عليه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في هذا الباب بمجموعها، منبها على مواطن الانحراف، وتسلسله من أعلاه إلي أدناه في عبارة بليغة موجزة.

ونحن لو تأملنا تلك المحذورات لظهر لنا مدى الدقة في التعبير عن المنهج السلفي، وكيف أخطأ من ضل عن طريقهم من المخالفين حيث توهموا في بعض الصفات، أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريدون أن ينفى ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير كما تقدم، أولها: أنه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩٥/٥، وشرح العقيدة الأصفهانية ٢٥/١ نشر مكتبة الرشد الرياض، والعقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى ١٣٠/٣، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ضمن مجموع الفتاوى ٢٥٠/١١، وقاعدة في الكلام علي المرشدة لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى١١/٤٨٠.

ثم عطل بتمثيله هذا ما دلت عليه، وبقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله ﷻ، فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السيئ الذي فهم به التمثيل الباطل من كلام الله ورسوله ﷺ، يبقى وقد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله ﷻ والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى.

ثم نفى تلك الصفات عن الله ﷻ بغير علم فيكون معطلا بالفعل لما يستحقه الرب. ثم يصف الرب سبحانه بنقيض تلك الصفات مما اخترعه بعقله من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات، فيجمع في كلام الله وفى الله ﷻ بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحدا في أسماء الله وآياته [1].

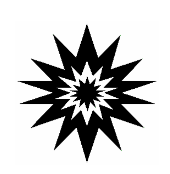
هذا الضابط الذي وضعه شيخ الإسلام ابن تيمية يعد بحق من أسلم الضوابط في توحيد الصفات؛ لأنه اشتمل على قواعد مذهب السلف الصالح، وحذر من التمثيل والتكييف والتعطيل والتحريف والتفويض، بحيث تنكشف أنواع التدرج في الضلال والانحراف الذي وقع فيه المخالفون من أتباع الجهمية.

وقد بان لنا أن أعلاها وأشرها وأقبحها هو التأويل الباطل الذي سماه شيخ الإسلام ابن تيمية بالتحريف، ولذلك بدأ به جملة المحذورات لأنه مبني على التعطيل، والتعطيل سببه التكييف،

---

(١) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٤٨.

والتكييف مرده إلى التمثيل، ثم حذر بعد ذلك من تفويض معاني النصوص، والنظر إليها على أنها كاللغة الأعجمية والألغاز والأحاجي، وأن ذلك مخالف لمذهب السلف، وبين أيضا شمولية هذا المنهج لكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ في باب الأسماء والصفات، فمن أراد النجاة فعليه إتباع من سلف وترك ما أحدثته الجهمية وأتباعهم من الخلف.



المطلب الخامس عشر

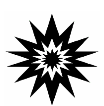
إثبات علو الذات
والفوقية والنصوص الواردة في المعية



- دلالة النصوص على إثبات العرش والاستواء.
- دلالة النصوص النقلية على أن الله في السماء.
- النصوص الدالة على معية الله لخلقه.
- اعتقاد الصحابة في الجمع بين النصوص.
- اعتقاد الأئمة الأربعة في الجمع بين النصوص.
- اعتقاد السلف وأتباعهم في الاستواء والمعية.
- اعتقاد الأشعري في إثبات الاستواء والمعية.
- الرد على المتكلمين في تأويلهم لقول الجارية.

المطلب الخامس عشر

إثبات علو الذات والفوقية والنصوص الواردة في المعية



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن شمولية منهج أهل السنة في الحديث عن الذات والصفات وسائر الغيبيات، وبينا أن منهج غلاة الصوفية وأغلب المتكلمين هو منهج اليهود الذين جعلوا القرآن عضين، فهم يقدمون آراءهم العقلية على كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، ثم ينظرون بعد ذلك في الأدلة، فما وافقهم أخذوه، وما خالفهم عطلوه وتركوه.

وعلمنا أنه لما زعم بعض الصوفية أن العبادة الحقة هي ما كانت دون طلب العوض، اقتطعوا النصوص لتصدق قولهم، وكذلك فعلت المعتزلة حين قالت في الصفات قولا يخالف قولهم في الذات، فظهرت بدعتهم في إثبات الأسماء ونفي الصفات، وعلى شاكلتهم الأشعرية حين قالت في بعض الصفات قولا يخالف قولهم في بقية الصفات.

وبينا أن كل ذلك سببه عدم الإيمان بما جاء في الوحي كله،

سواء في الأسماء والصفات، أو في الغيبيات، أو سائر الموضوعات الأخرى، وقد بينا أن أسلم الضوابط الشمولية التي وضعت لتوضيح اعتقاد السلف هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله ﷻ الحديث عن تطبيق منهج السلف الصالح في فهم مسألة علو الذات والفوقية، والجمع بينها وبين نصوص المعية، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **دلالة النصوص على إثبات العرش والاستواء.**

١- قول الله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه١/٥.

٢- قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ﴾ الأعراف:٥٤.

٣- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ يونس:٣.

٤- قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ السجدة: ٤/ ٥.

٥- قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد: ٤.

٦- ومما ورد في السنة ما رواه البخاري من حديث أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلى اللهِ أَنْ يُدْخِلهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيل اللهِ، أَوْ جَلسَ فِي أَرْضِهِ التِي وُلدَ فِيهَا. فَقَالوا: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَال: إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ للمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذا سَأَلتُمُ اللهَ فَاسْأَلوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلى الجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ) [١].

٧- ومما ورد في السنة أن الرسول ﷺ قال لسعد بن معاذ رضي الله عنه في حكمه على بني قريظة: (لقَدْ حَكَمَ فِيهِمْ اليَوْمَ بِحُكْمِ الله الذي حَكَمَ

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٣/ ١٠٢٨ (٢٦٣٧).

بِهِ مِنْ فَوْق سَبْع سَمَاوَات)[(١)].

وفي رواية: (لَقَدْ حَكَمْت فِيهِمْ بِحُكْمِ الله الذي حَكَمَ بِهِ مِنْ فَوْق سَبْعَة أَرْقِعَة)[(٢)].

• دلالة النصوص النقلية على أن الله في السماء .

١- ما ورد في قول الله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ ﴾ الملك:١٦.

٢- قوله سبحانه: ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ ﴾ الملك:١٧.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣ ﴾ الأنعام:٣.

٤- ومما ورد في السنة ما رواه مسلم عن مُعَاوِيَة بْنِ الحَكَمِ السُّلمِيِّ أنه قال: (بَيْنَا أَنَا أُصَلي مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ، إِذ عَطَسَ رَجُل مِنْ القَوْمِ، فَقُلتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلتُ: وَاثكْل

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب القضاء، باب إذا نزل قوم على حكم رجل فحكم فيهم وفي ذراريهم ٣/٤٦٥ (٥٩٣٩)، وانظر تصحيح الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/٢٤٨.

(٢) انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للشيخ الألباني (١٤٥٣)، والسلسلة الصحيحة ٦/٢٤٨.

أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلى أَفْخَاذِهِمْ، فَلمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُّ، فَلمَّا صَلى رَسُول اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلمًا قَبْلهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْليمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي، وَلا ضَرَبَنِي، وَلا شَتَمَنِي. قَال: إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَال رَسُول اللهِ ﷺ.

قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، إِنِّي حَدِيث عَهْدٍ بِجَاهِليَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالإِسْلامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالا يَأْتُونَ الكُهَّانَ؟ قَال: فَلا تَأْتِهِمْ. قَال: وَمِنَّا رِجَال يَتَطَيَّرُونَ؟ قَال: ذاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلا يَصُدَّنَّهُمْ. قَال قُلتُ: وَمِنَّا رِجَال يَخُطُّونَ؟ قَال: كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذاكَ.

قَال: وَكَانَتْ لي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لي قِبَل أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلعْتُ ذاتَ يَوْمٍ فَإِذا الذيبُ قَدْ ذهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُل مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُول اللهِ ﷺ، فَعَظَّمَ ذلكَ عَليَّ، قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلا أُعْتِقُهَا؟ قَال: ائْتِنِي بِهَا، فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَال لهَا: أَيْنَ اللهُ؟ قَالتْ: فِي السَّمَاءِ. قَال: مَنْ أَنَا؟ قَالتْ: أَنْتَ رَسُول اللهِ. قَال: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ) [1].

---

(١) مسلم في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١ (٥٣٧).

• النصوص الدالة على معية الله لخلقه .

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ المجادلة:٧.

٢- قوله ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ النساء:١٠٨.

٣- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ آل عمران:٥/٦.

٤- قول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة:٤٠.

٥- قوله سبحانه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ طه:٤٣/٤٦.

٦- قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ المائدة:١٢.

٧- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ محمد:٣٥.

٨- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ق:١٦.

٩- قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ الواقعة:٨٣/٨٥.

١٠- قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة:١٨٦.

• اعتقاد الصحابة في الجمع بين النصوص.

١- روى البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُول: اتَّقِ اللهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. قَال: أَنَسٌ، لوْ كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لكَتَمَ هَذِهِ. قَال: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُول: زَوَّجَكُنَّ أَهَاليكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ)[1].

وهي رضي الله عنها تقصد ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب:٣٧.

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه علي الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٤).

٢- روى البخاري من حديث أَنَس بن مَالكٍ ﷺ قال: نَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَأَطْعَمَ عليها يَوْمَئِذ خُبْزًا وَلَحْمًا، وَكَانَتْ تَفْخَرُ على نِسَاءِ النبي ﷺ وَكَانَتْ تَقُول: (إنَّ اللهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ) [(١)].

٣- وعند ابن ماجة من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (تَبَارَكَ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لأَسْمَعُ كَلامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلى رَسُول اللهِ ﷺ، وَهِيَ تَقُول: يَا رَسُول اللهِ، أَكَل شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إذا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَل جِبْرَائِيل بِهَؤُلاءِ الآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ①﴾ المجادلة: ١) [(٢)].

٤- وفي المسند عن ذكْوَان مولى عَائِشَةَ أنه اسْتَأْذنَ لابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ على عَائِشَةَ رضي الله عنها وَهِيَ تَمُوتُ، وَعِنْدَهَا ابن أَخِيهَا عبد اللهِ بن عبد الرحمن ﷺ فقال: (هذا ابن عَبَّاسٍ، يَسْتَأْذنُ عَلَيْكِ وهو من خَيْرِ بَنِيكِ، فقالت: دعني مِنِ ابن عَبَّاسٍ وَمِنْ تَزْكِيَتِهِ، فقال لها عبد اللهِ بن عبد الرحمن: إنه قاري لكِتَابِ اللهِ، فَقِيهٌ فِي دِينِ اللهِ، فأذني له فَلْيُسَلمْ عَلَيْكِ وَلْيُوَدِّعْكِ، قالت: فأذن له إن شِئْتَ، قال:

---

(١) السابق ٦/٢٧٠٠ (٦٩٨٥).

(٢) رواه ابن ماجة في الطلاق، باب الظهار ١/٦٦٦ (٢٠٦٣) وصححه الشيخ الألباني انظر إرواء الغليل ٧/١٧٥.

فَأَذنَ له، فَدَخَل ابن عَبَّاسٍ، ثمَّ سَلمَ وَجَلسَ، وقال: أبشري يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، فَوَاللهِ ما بيْنَك وَبَيْنَ أن يَذهَبَ عَنْكِ كُل أَذى وَنَصَبٍ، أو قال: وَصَبٍ، وَتَلقَى الأَحِبَّةَ مُحَمَّداً وَحِزْبَهُ، أو قال: أَصْحَابَهُ إلا أن تُفَارِقَ رُوحُكِ جَسَدَكِ. فقالت: وَأَيْضاً، فقال ابن عَبَّاسٍ: كُنْتِ أَحَبَّ أَزْوَاجِ رسول اللهِ ﷺ إليه، ولم يَكُنْ يُحِبُّ إلا طَيِّباً، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ بَرَاءَتَكِ من فَوْقِ سَبْعِ سماوات، فَلَيْسَ في الأَرْضِ مَسْجِدٌ إلا وهو يُتْلى فيه أناء الليْل وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَسَقَطَتْ قِلاَدَتُكِ بِالأَبْوَاءِ فَاحْتَبَسَ النبي ﷺ في المَنْزِلِ، وَالنَّاسُ معه في ابْتِغَائِهَا، أو قال: في طَلَبِهَا، حتى أَصْبَحَ القَوْمُ على غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً.. الآيَةَ، فَكَانَ في ذلك رُخْصَةٌ للنَّاسِ عَامَّةً في سَبَبِكِ، فَوَاللهِ إنك لَمُبَارَكَةٌ، فقالت: دعني يا بن عَبَّاسٍ من هذا، فَوَاللهِ لوَدِدْتُ أني كنت نَسْياً مَنْسِيًّا) [١].

٥- روى البيهقي بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه مر في ناس من أصحابه، فلقيته عجوز فاستوقفته، فوقف عليها، فوضع يديه على منكبيها، حتى قضت حاجتها، فلما فرغت قال رجل: حبست رجالات قريش على هذه العجوز، قال: ويحك تدري من هذه؟ هذه عجوز سمع الله ﷻ شكواها من فوق سبع سماوات. والله لو

---

(١) رواه أحمد في المسند مسند عبد الله بن عباس ١/٣٤٩ (٣٢٦٢) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي علي شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير ابن خثيم فمن رجال مسلم.

استوقفتني إلى الليل لوقفت عليها، إلا آتي الصلاة ثم أعود إليها حتى تقضي حاجتها [(١)].

٦- قال عبد الله بن مسعود ﷺ: (ما بين السماء القصوى والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء كذلك، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم) [(٢)] .

• **اعتقاد الأئمة الأربعة في الجمع بين النصوص.**

١- رأي الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله (ت:١٥٠هـ). قال نوح بن أبي مريم: كنا عند أبي حنيفة أول ما ظهر، إذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما، فدخلت الكوفة، فقيل لها: إن ها هنا رجلا قد نظر في المعقول يقال له: أبو حنيفة، فَأْتِيهِ، فأتته، فقالت: أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك؟ أين إلهك الذي تعبده؟ فسكت عنها، ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها، ثم خرج إلينا وقد وضع كتابا: إنّ الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال له رجل: أرأيت قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ الحديد:٤. قال: هو كما تكتب للرجل: إني معك وأنت عنه غائب.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، باب قول الله ﷻ: وهو القاهر فوق عباده ٣٢٢/٢ (٨٨٦) نشر مكتبة السوادي جدة.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣٩٥/٣ نشر دار طيبة الرياض والبيهقي في الأسماء والصفات ٢٩٢/٢ نشر مكتبة السوادي جدة. وابن خزيمة في كتاب التوحيد ٢٤٢/١ نشر مكتبة الرشيد الرياض.

قال البيهقي: لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيما نفي عن الله تعالى وتقدّس من الكون في الأرض، وفيما ذكر من تأويل الآية، وتبع مطلق السمع في قوله: إنّ الله ﷻ في السماء [١].

وقال أبو حنيفة أيضا في الفقه الأكبر: من قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض، فقد كفر، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وعرشه فوق سبع سماوات. قلت: فإن قال إنه على العرش، ولكنه يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر، لأنه أنكر أن يكون في السماء؛ لأنه تعالى في أعلى عليين، وأنه يُدْعى من أعلى لا من أسفل. وفي لفظ سألت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أمَ في الأرض؟ قال: فقد كفر، لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وعرشه فوق سبع سموات.قال: فإنه يقول: على العرش استوى، ولكنه لا يدري العرش في الأرض أو في السماء؟ قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر) [٢].

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، باب قول الله ﷻ لعيسى ﵇: إني متوفيك ورافعك إلي ٢/٣٣٨ (٩٠٥) نشر مكتبة السوادي جدة. وانظر العلو للعلي الغفار للذهبي ١/١٣٤. واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ذكر أقوال الأئمة الأربعة ١/٧٣ نشر دار الكتب العلمية.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٥/٤٧. واجتماع الجيوش الإسلامية ١/٧٤. والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٤/١٢٩٧ نشر دار العاصمة الرياض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة رحمه الله عند أصحابه أنه كَفَّرَ الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض، فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء ولا في الأرض؟ واحتج على كفره بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾. قال: وعرشه فوق سبع سموات، وبيّن بهذا أن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ بيّن في أن الله ﷻ فوق السموات، فوق العرش، وأن الاستواء على العرش، ثم أردف ذلك بكفر من توقّف في كَوْنِ العرش في السماء أو في الأرض. قال: لأنه أنكر أن يكون في السماء، وأن الله ﷻ في أعلى عليين، وأن الله ﷻ يدعى من أعلى لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية، فإنّ القلوبَ مفطورةٌ على الإقرار بأنّ الله ﷻ في العلو، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل[1].

٢- رأي إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله (ت:١٧٩هـ) قال: إن الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه مكان. وقيل لمالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. كيف استوى؟ فقال مالك رحمه الله تعالى: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة وأراك رجل سوء[2].

---

(١) المصدر السابق ٥/٤٨ بتصرف.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٧/١٣٨ نشر مؤسسة قرطبة وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ١/٧٥.

وقال مالك: (الله ﷻ في السماء، وعلمه في كل مكان وتلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ المجادلة:٧) [(١)].

٣- رأي الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله (ت:٢٠٤هـ) حيث قال: القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم، وأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا رسول الله، وأنّ الله تعالى على عرشه، في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كيف شاء.

وقد سئل الإمام الشافعي عن صفات الله وما يؤمن به؟ فقال: لله تعالى أسماء وصفات، جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها؛ لأن القرآن نزل بها، وصحّ عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر. أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالرؤية

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤٠١/٣ نشر دار طيبة الرياض. وانظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ١٠٧/١، نشر دار ابن القيم الدمام. والشريعة للآجري ١٠٧٧/٣، نشر دار الوطن الرياض. وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٣/٥.

والفكر، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، ويثبت هذه الصفات وينفي عنها التشبيه كما نفي التشبيه عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١.

وصح عن الإمام الشافعي أيضا أنه قال: خلافة أبي بكر الصديق ﷺ حَقٌّ قضاها اللهُ في سمائه، وجمع عليها قلوبَ عباده[١].

٤- رأي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (ت:٢٤١هـ). قال أبو طالب سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ المجادلة:٧. قال: قد تجهم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها، هلا قرأت عليه: ألم تر أن الله يعلم. فالعلم معهم، وقال في سورة ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ ق:١٦. فعلمه معهم[٢].

وقال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: إن رجلا قال: أقول كما قال الله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ المجادلة:٧. أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره. فقال أبو عبد الله: هذا كلام الجهمية. قلت: فكيف نقول؟ قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨١/٤ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية١/٩٤. ومختصر العلو للعلي الغفار ص ١٧٦.

(٢) الإبانة لابن بطة العكبري ١٥٩/٣ نشر دار الراية الرياض. والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص١٧٦ نشر مكتبة أضواء السلف الرياض.

خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ المجادلة:٧. علمه في كل مكان، وعلمه معهم، ثم قال: أول الآية يدل على أنه علمه [١].

وقال أحمد بن حنبل: (هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا. وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق..

إلى أن قال: وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أراضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن ﷻ فوق الماء، والله ﷻ العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد كل كلمة، وعدد الحصى والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد، وآثارهم، وكلامهم، وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نور

---

(١) المصدر السابق ٣/١٥٩.

ونار وظلمة وما هو أعلم به.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ ق:١٦. وبقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد:٤. وبقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ المجادلة:٧. ونحو هذا من متشابه القرآن فقال: إنما يعني بذلك العلم، لأن الله تعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا، ويعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان [(١)].

• اعتقاد علماء السلف وأتباعهم في الاستواء والمعية.

١- رأي مقاتل بن حيان رحمه الله توفي في نهاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري حيث قال في قول الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ المجادلة:٧. قال: هو على العرش، ولا يخل شيء من علمه [(٢)].

٢- رأي عبد الله بن المبارك رحمه الله (ت:١٨١هـ)، قال علي

---

(١) انظر العقيدة للإمام أحمد بن حنبل رواية أبي بكر الخلال ص ٧٣، ص٧٨ نشر دار قتيبة دمشق وطبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى ١/٢٤، نشر دار المعرفة بيروت.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/٤٠٠ (٦٧٠).

بن الحسن بن شقيق، شيخ البخاري: (قلت لعبد الله ابن المبارك: كيف نعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه. وفي لفظ: على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض. وقال أيضا: سألت ابن المبارك: كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا؟ قال: على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض) [١].

٣- رأي أبي يوسف الأنصاري (ت:١٨٢هـ) صاحب أبي حنيفة رحمه الله. فقد جاء بشر بن الوليد إلى أبي يوسف فقال له: تنهاني عن الكلام وبشر المريسي وعليٌّ الأحْوَل وفلان يتكلمون، فقال: وما يقولون؟ قال: يقولون: إن الله في كل مكان. فبعث أبو يوسف فقال: عليَّ بهم، فانتهوا إليهم، وقد قام بشر، فجيء بعلي الأحول والشيخ، يعني الآخر، فنظر أبو يوسف إلى الشيخ وقال: لو أن فيك موضع أدب لأوجعتك، فأمر به إلى الحبس، وضرب عليا الأحْوَل وطوَّف به [٢].

(١) خلق أفعال العباد للبخاري ص٣١ نشر دار المعارف الرياض. والرد على الجهمية للدارمي ٤٧/١ نشر دار الأثير الكويت. والإبانة لابن بطة العكبري ١٥٥/٣ (١٢٢) نشر دار الراية الرياض. والتمهيد لابن عبد البر ١٤٢/٧.

(٢) ذكر ابن تيمية هذه القصة في مجموع الفتاوى ٥٤/٥، وعزاها لابن أبي حاتم. وأوردها الإمام الذهبي في العلو للعلي الغفار ص١٥١. وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٣٨.

٤- رأي حماد بن هنَّاد رحمه الله (ت: ٢٣٠هـ) حيث قال: (هذا ما رأينا عليه أهل الأمصار، وما دلت عليه مذاهبهم فيه، وإيضاح مناهج العلماء وطرق الفقهاء، وصفة السنة وأهلها، أن الله فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه وقدرته وسلطانه بكل مكان) [(١)].

٥- رأي أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله (ت: ٢٣١هـ)، قال إبراهيم الحربي: (سئل أحمد بن نصر عن علم الله؟ فقال: علم الله معنا وهو على عرشه) [(٢)].

٦- رأي الإمام إسحاق بن راهويه (ت:٢٣٨هـ)، قال حرب بن إسماعيل: (قلت لإسحاق بن راهويه في قول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ المجادلة:٧ كيف تقول فيه؟ قال: حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه) [(٣)].

---

(١) انظر العلو للذهبي ص١٥١. واجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٤٢.

(٢) السابق ص١٢٨.

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة ٣/١٦١. وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠. والعلو للعلي الغفار للذهبي ص١٧٧. وسير أعلام النبلاء للذهبي ١١/٣٧٠.

٧- رأي الحارث بن أسد المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)، قال: (وأما قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ طه:٥. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ الأنعام:١٨. وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك:١٦. وقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾ الإسراء:٤٢. وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠. هذا يوجب أنه فوق العرش، فوق الأشياء كلها متنزه عن الدخول في خلقه، لا يخفى عليه منهم خافية؛ لأنه أبان في هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده؛ لأنه قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك:١٦. يعني فوق العرش، والعرش على السماء، لأن من قد كان فوق كل شيء على السماء في السماء، وقد قال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التوبة:٢. يعني علي الأرض لا يريد الدخول في جوفها) [(١)].

٨- رأي يحي بن معاذ الرازي رحمه الله (ت:٢٥٨هـ) حيث قال: (الله تعالى على العرش، بائن من الخلق، قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ولا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء، ضليل هالك مرتاب، يمزج الله بخلقه، ويخلط الذات بالأقذار والأنتان)[(٢)].

٩- رأي أبي زرعة الرازي (ت:٢٦٤هـ) رحمهما الله، قال عبد

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٦٩ واجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٧٢.

(٢) السابق ٥/٤٩، واجتماع الجيوش ص٢٧٠.

الرحمن بن أبي حاتم: (سألت أبا حاتم وأبا زرعة الرازيين رحمهما الله عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازا، وعراقا، ومصرا، وشاما، ويمنا، وكان من مذهبهم أن الله على عرشه، بائن من خلقه، كما وصف نفسه بلا كيف، أحاط بكل شيء علما) [(١)].

١٠- رأي الإمام ابن قتيبة رحمه الله (ت:٢٧٦هـ) في تأويل مختلف الحديث: (نحن نقول في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ المجادلة:٧. إنه معهم يعلم ما هم عليه، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع، احذر التقصير فإني معك، تريد أنه لا يخفى عليَّ تقصيرك، وكيف يسوغ لأحد أن يقول: إنه سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. ومع قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ فاطر:١٠؟ كيف يصعد إليه شيء هو معه؟ وكيف تعرج الملائكة إليه وهي معه؟ ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما ركبت عليه خِلقُهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله هو العلي، وهو الأعلى، وأن الأيدي ترتفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجميها وعربيها، تقول: إن الله في السماء ما تركت على فطرها) [(٢)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/١٧٧.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٢٧١، نشر دار الجيل، بيروت. وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥/٤٠٣. والعلو للعلي الغفار للذهبي ص١٩٦.

١١- رأي الإمام الدارمي عثمان بن سعيد بن خالد رحمه الله (ت: ٢٨٠هـ) في كتابه الرد على الجهمية، قال: (فاحتج بعضهم فيه بكلمة زندقة، استوحش من ذكرها، وتستر آخر من زندقة صاحبه فقال: قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ المجادلة:٧. قلنا: هذه الآية لنا عليكم، لا لكم، إنما يعني أنه حاضر كل نجوى، ومع كل أحد من فوق العرش بعلمه، لأن علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، لا يحجبه شيء عن علمه وبصره، ولا يتوارون منه بشيء، وهو بكماله فوق العرش، بائن من خلقه، يعلم السر وأخفى، أقرب إلى أحدهم من فوق العرش، من حبل الوريد، قادر على أن يكون له ذلك، لأنه لا يبعد عن شيء، ولا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، فهو كذلك رابعهم، وخامسهم، وسادسهم، لا أنه معهم بنفسه في الأرض كما ادعيتم، وكذلك فسرته العلماء) [1].

١٢- رأي الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة رحمه الله تعالى (ت:٢٩٧هـ) حيث قال: (ذكروا أن الجهمية يقولون: إن ليس بين الله ﷻ وبين خلقه حجاب، وأنكروا العرش، وأن يكون الله ﷻ فوقه، وقالوا: إنه في كل مكان.. ثم بين أن العلماء فسروا المعية بالعلم. وقال: توافرت الأخبار أن الله ﷻ خلق العرش، فاستوى عليه بذاته، فهو فوق

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص٤٢، نشر دار ابن الأثير، الكويت.

العرش بذاته، متخلصا من خلقه بائنا منهم) [١].

١٣- رأي أبي بكر الآجري رحمه الله (٣٦٠هـ) الذي كان معتزليا ثم تاب ورجع إلى معتقد أهل السنة، حيث قال في التحذير من مذهب الحلولية: (الذي يذهب إليه أهل العلم، أن الله ﷻ على عرشه، فوق سمواته، وعلمه محيط بكل شيء، قد أحاط علمه بجميع ما خلق في السموات العلى، وبجميع ما في سبع أراضين، يرفع إليه أعمال العباد. فإن قال قائل: إيش يكون معنى قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ المجادلة:٧. الآية التي احتجوا بها؟ قيل له: علمه، والله ﷻ على عرشه، وعلمه محيط بهم، كذا فسره أهل العلم، والآية يدل أولها وآخرها على أنه العلم، وهو على عرشه، فهذا قول المسلمين) [٢].

١٤- رأي الإمام أبي عمر الطلمنكي (ت:٤٢٩هـ) حيث قال في كتابه الوصول إلى معرفة الأصول: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته. وقال أيضا: أجمع أهل السنة على أنه تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز... ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء، وعلمه في كل مكان. ثم قال: وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ

---

(١) العرش وما روي فيه لابن أبي شيبة ص ٤٩ نشر مكتبة المعلا، الكويت.

(٢) الشريعة للآجري ٣/١٠٧٥. العلو للعلي الغفار للذهبي ص٢٢٨.

﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد:٤. ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء) [١].

١٥- رأي الإمام ابن عبد البر (ت:٤٦٣هـ) حيث قال رحمه الله تعالى: (وأما احتجاجهم بقوله ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ المجادلة:٧. الآية، فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن، قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله) [٢].

- **اعتقاد أبي الحسن الأشعري في إثبات الاستواء والمعية.**

ذكر أبو الحسن الأشعري في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في الاستواء وإبطال من قال بأنه استيلاء وقهر إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواء يليق به من غير طول استقرار، كما قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وقد قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر:١٠. وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ النساء:١٥٨. وقال تعالى:

---

(١) العلو للعلي الغفار للذهبي ص٢٤٦.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر١٣٨/٧ نشر مؤسسة قرطبة. وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٣/٥. والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص٢٤٩. واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١١٤.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ السجدة:٥. وقال تعالى حاكيا عن فرعون لعنه الله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ غافر:٣٦/٣٧. كذب موسى عليه السلام في قوله: إن الله سبحانه فوق السماوات. وقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ الملك:١٦. فالسماوات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، والعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ من يعني جميع السماوات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ نوح:١٦. ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا، وأنه فيهن جميعا، ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله عز وجل على العرش، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى قول الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ طه:٥. أنه استولى وملك وقهر وأن الله تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله عز وجل مستو على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، ولو كان

هذا كما ذكروه، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله تعالى قادر على كل شيء، والأرض لله سبحانه قادر عليها، وعلى الحشوش ـ والحُشُوشُ مواضعُ الغائط ـ وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله ﷻ مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء، وهو تعالى مستو على الأشياء كلها، لكان مستويا على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها. وإذا كان قادرا على الأشياء كلها، لم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله تعالى مستو على الحشوش والأخلية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها. وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان، فلزمهم أنه في بطن مريم، وفي الحشوش والأخلية، وهذا خلاف الدين تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [1].

• **الرد على المتكلمين في تأويلهم لقول الجارية في السماء.**

قال بعض المعاصرين المتمسكين بعقيدة الأشعرية في تأويلهم الباطل لحديث الجارية: (ويقولون في قول النبيﷺ للجارية: أين الله؟ فقالت: في السماء، هو مصروف عن ظاهره، وإنما اكتفى ﷺ منها بقولها في

(١) الابانة عن أصول الديانة ذكر الاستواء على العرش ص١٠٥ وما بعدها.

السماء، لأنه كان يكفي في صدر البعثة بالنسبة للعامة اعتقاد وجود الله تعالى ووحدانيته. فعامل الجارية بما ألفته، وأقرها على اعتقاد وجود الله تعالى وانفراده بالإلهية. ولما أشارت إلى السماء علم النبي ﷺ أنها تعظم الله تعالى، وتعتقد وحدانيته، وتنفر من آلهة الأرض التي كانوا يعبدونها) [(١)].

الحقيقة التي تكشف عن مذهب هؤلاء المتكلمين الأشعرية أنهم يقدمون عقولهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويزعمون أن نصوص الصفات ظاهرها باطل يدل على التشبيه والجسمية، وهي مصروفة عن ظاهرها بالحتم واللزوم فرارا من هذا التشبيه المزعوم، فهم يقولون في قول الجارية: إن الله في السماء، هو مصروف عن ظاهره.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل قول الجارية: في السماء ظاهره يدل على معنى باطل؟! لقد أراد هذا القائل أن يجعل الظاهر المتبادر من قول الجارية، هو أن الله ﷻ في داخل السماء، وأنها تحيط به، وحاشا للنبي ﷺ أن يقر هذا الظاهر، وأن يشهد للجارية بالإيمان لأنها تعتقده، فقد قال الله في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ النساء:١٢٦. فكيف بالذي وسع كرسيه السماوات والأرض أن تحيط السماء به، ويكون في داخلها

(١) حق الله على العباد وحق العباد على الله لطه عبد الله عفيفي ص٩٨: ٩٩ .

كما قطع الخلف بأن هذا هو ظاهر النص المتبادر إلى الذهن؟!!

وإن تعجب فعجب قولهم: إنما اكتفى النبي ﷺ منها بقولها في السماء، لأنه كان يكفي في صدر البعثة بالنسبة للعامة وجود الله تعالى ووحدانيته، فعامل الجارية بما ألفته، وأقرها على اعتقاد وجود الله تعالى وانفراده بالإلهية، وهذا القول باطل لأنه من لوازمه أنهم جعلوا الاعتقاد على نوعين: اعتقاد العوام، وهو كاعتقاد الجارية أن الله ﷻ في السماء. واعتقاد الخواص، وهو أن الله ﷻ ليس في السماء على العكس من اعتقاد العامة، ولكن النبي ﷺ أخفاه مع كونه الحق وسكت عنه، ولم يوضحه للجارية حتى لا تفتن. ولا شك في بطلان ذلك.

ويلزم أيضا أنه في أوّل البعثة كان الاعتقاد مغايرا لنهايتها، وهذا كذب صريح، فإننا نجزم أن اعتقاد الناس ومنهجهم في الصدر الأول أفضل ممن جاء بعدهم كما هو معلوم في بابه، وقولهم هذا قول على الله بلا علم.

وقد حرم الله ذلك فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأعراف:٣٣. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦.

ثم ما هو الدليل على أنه كان يكفي في صدر البعثة اعتقاد وجود

الله ووحدانيته، وإن اعتقد المسلم في الله ما لا يجوز؟!

ويلزم من قولهم هذا أن أعلم الخلق بربه، وأنصحهم لأمته قد أخطأ عندما سأل الجارية أين الله؟ وأنه كان يجب أن يسألها بما لا يوهم باطلا، وهذا افتراء عظيم على الله ورسوله ﷺ.

ولازم قولهم أيضا أننا لا نعرف أين معبودنا؟ أهو في السماء أم في الأرض؟ ما دام أنه لا يسأل عنه بأين؟ وهذا هدم لنصوص القرآن ودفع لكلام الله ﷻ.

أما الجارية فكانت أعلم بدلالة الألفاظ على معانيها من علماء الكلام الأشعرية؛ لأنها تقصد العلو، ولا تقصد بوجه من الوجوه أن السماء تحيط به كما زعموا.

وهذا المعنى اجتمعت عليه أدلة النقل والعقل، فالنبي ﷺ في حجة الوداع في اليوم الأعظم في المكان الأعظم لما كان بالمجمع الأعظم قال لهم: (وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلونَ؟ قَالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلى النَّاسِ: اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، ثلاث مَرَّاتٍ)[1].

وفي هذا بيان واضح بالمقصود من قول الجارية: إن الله في السماء

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ٢/٨٩٠ (١٢١٨).

أن المراد به العلو، وقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ ﴾ الملك:١٦. كما أن التصريح بأنه تعالى في السماء عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين:

١- إما أن تكون في بمعنى على كما جاء في قوله تعالى عن فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾ طه:٧١. أي على جزوع النخل وكقوله تعالى أيضا: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ التوبة:٢.

٢- وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره [1].

ومن ثم فإن مراد الجارية بقولها: في السماء هو علو الله تعالى على خلقه، وأن من قال: إن مرادها هو اعتقاد وحدانية الله تعالى وتعظيمه دون إثبات علو الذات كما قال هؤلاء المتكلمون، فهو مخطئ قد جانب الصواب.

واعلم أنه لو لم يكن مرادها علو الله على خلقه لما سألها النبي ﷺ بلفظ الأين، فلو كان المقصود اعتقاد وجود الله تعالى ووحدانيته لسألها بغير هذا السؤال، كأن قال لها: هل تعتقدين أن الله موجود؟ وأنه واحد لا شريك له؟! أو هل تعظمين الله تعالى؟! فعلم عند ذلك المراد بجوابها، وأن معنى في السماء العلو.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٠ بتصرف.

والعجب أن بعض هؤلاء الأشاعرة يزعم أنه لا ضير في ألا يعرف الإنسان أين ربه؟ كما قال أحدهم: (وماذا يضيرنا لو قلنا: إننا نؤمن بالله، وبوجوده المتيقن المؤكد، وبهيمنته على الخلق، ولكننا لا ندري أين هو؟! وهل لو سألني سائل عن رئيس من الرؤساء أموجود هو؟ فقلت هو موجود، يأمر وينهي، ويصرف الأمور، فإذا سألني: وأين هو؟ فقلت: لا أدري، غير أني أؤمن أنه موجود، أيكون جوابي هذا حكما بعدم وجود الرئيس المسئول عنه؟ اللهم إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [(١)].

وهذا كلام باطل، لأن لازمه رد النصوص الثابتة عن الله ورسوله ﷺ، وقد نهانا الله ﷻ عن ذلك، وحرمه علينا فقال:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ البقرة:٨٥.

فكيف نرد النصوص القرآنية والنبوية التي قطعت بأن الله على عرشه في السماء، يسمع ويرى، وهو بالمنظر الأعلى، يدبر الأمر في مملكته، ما يكون من نجوي ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدني من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم.

أو كيف نرد الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في إثبات

---

(١) حق الله على العباد ص ١٠٥ .

العرش، وعلو الله ﷻ عليه وعلي جميع المخلوقات.

ومن لوازم قولهم هذا أن الله ﷻ كلم عباده بما لا فائدة فيه، ويكون القرآن والسنة مليئين بالحشو والألفاظ الغامضة، وهذا باطل لقوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ يوسف:٢/١. فكيف يزعمون مثل ذلك في كلام الله ورسوله ﷺ ويقول قائلهم: هذا لا يضيرنا في شئ؟!.

وقول هذا الأشعري: لو سألني سائل عن رئيس من رؤساء، أموجود هو؟ فقلت: هو موجود يأمر وينهي، فإن سألني أين هو فقلت: لا أدري، أيكون جوابي حكما بعدم وجود الرئيس المسئول عنه؟ يرد عليه بقياس الأولى فيقال: وماذا يضيرنا لو سألنا سائل عن رئيس من الرؤساء أين هو؟ فقلنا في مدينة كذا، هل نكون قد قلنا غير الحق؟ أم أجبنا بما يريح النفس، ويطمئن الفؤاد، ويكف طلبها، وذلك أفضل بكثير من قولك: لا أدري؟

ولله المثل الأعلى لو سألنا سائل عن الله كما سأل رسول الله ﷺ الجارية أين الله؟ فأجبنا بما أجابت به الجارية: أنه سبحانه في السماء استوى على العرش، هل نكون قد شبهنا الله ومثلناه بالمخلوق كما يعتقدون؟ أم الحق عندهم هو قولنا: لا ندري، ولو تعطل كلام رسول الله ﷺ عن مدلوله؟

ولو فرضنا بقياس الأولى أن شخصا ما أراد أن يقابل ذلك الرئيس

الذي لا يدري هذا الأشعري أين هو؟ وأخذ يسأل عنه في كل مكان، فكلما سأل عنه شخصا أجابه بقوله: لا أدري إلى أن انتهى كل الجنس البشرى وغير البشري على الأرض، ولم يجد شخصا واحدا يعلم أين هو؟! هل يكون الرئيس بذلك موجودا أم معدوما؟!

إن الله ﷻ وله المثل الأعلى، فطر الخلائق على أن يتوجهوا إلى السماء بالدعاء لأنه في السماء فوق عرشه، ولا غنى لأحد عن ربه، فهل بعد ذلك نحرم السؤال عن الله بأين؟ وطلب العلو مفطور في أعماق كل نفس .

وهل كون هذا الأشعري لا يدري أين الرئيس لعدم متابعته للأخبار المذاعة، أو المرئية، أو المقروءة لعدم سؤاله عنه يلزم منه عدم العلم لمن تابع الأخبار وعلم أن الرئيس في مدينة كذا؟ ولله المثل الأعلى لقد تابع أهل السنة كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فوجدنا النبيﷺ شهد للجارية بالإيمان؛ لأنها قالت: إن الله في السماء. والنصوص التي تقدمت كافية شافية في بيان أنه سبحانه على العرش استوى، عال على خلقه إلى آخر ما يجب معرفته في توحيد بالأسماء والصفات.

ومن العجب أيضا أن هؤلاء المتكلمين يحتجون بكلام يروى عن يحي بن معاذ الرازي، ويجعلونه أفضل من قول رسول الله ﷺ، فقد قيل ليحي بن معاذ الرازي: أخبرنا عن الله تعالى. فقال: إنه واحد. فقيل: كيف هو؟ فقال: ملك قادر. فقيل: أين هو؟ فقال: بالمرصاد.

قال السائل: لم أسألك عن هذا؟ فقال: ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرت عنه [١].

ويكفي لبيان بطلان مثل هذا الكلام أن نقارن بين قول النبي ﷺ للجارية أين الله؟ فقالت في السماء، وبين قول يحيي الرازي لما سئل عن الله ﷻ أين هو؟ فقال بالمرصاد. فهل يحي الرازي علم شيئا من صفات الله والرسول ﷺ لم يعلمها؟ أو أن رسول الله ﷺ أخطأ حين سأل الجارية أين الله؟ أو هل هو أعلم من رسول الله ﷺ؟ أو أن كلام الرسول في الله ﷻ يوهم التشبيه والتمثيل بالمخلوق، أما كلام يحي الرازي فهو الحق الذي لا تشوبه شائبة!

وتعجب أيضا حينما يذكرون من الكلام الباطل ما يدللون به على تقبيح القول بأن الله ﷻ في السماء، مثل قول بعض العلماء لتلميذ يمتحنه: لو قال لك أحد: أين معبودك؟ فأي شئ تقول؟ قال: كنت أقول: حيث لم يزل، قال: فإن قال لك: فأين كان في الأزل؟ فأي شئ تقول؟ قال: أقول: حيث هو الآن ولا مكان، فهو الآن على ما عليه كان. قال التلميذ: فارتضى الشيخ ذلك [٢].

ونلاحظ أن طريقة الجهمية والنفاة المعطلة من الأشعرية هي هذه بعينها، فلا يريدون أن يثبتوا لله استواء يليق بجلاله، ولا نزولا، ولا

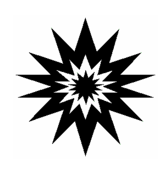
---

(١) انظر السابق ص١٠٥، ومجموعة الرسائل للشيخ حسن البنا رحمه الله ص٢٩٧.

(٢) انظر السابق ص١٠٦.

مجيئا إلى غير ذلك من الصفات الثابتة في الكتاب والسنة. وكأن رسول الله ﷺ لم يبلغ البلاغ المبين حين سأل الجارية أين الله؟ أو كأن هذا التلميذ أعلم بالله من رسول الله ﷺ؟ ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ البقرة:٣٢.

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ الصافات:١٨٠/١٨٢.



المطلب السادس عشر

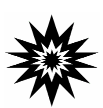
معاني العلو والرد
على تأويل الاستواء بالاستيلاء



- رد ابن القيم على من تأول الاستواء بالاستيلاء.
- علو الله في الكتاب والسنة له ثلاثة معان.
- شبهات المتكلمين الأشعرية في تعطيل علو الفوقية.
- أين المكانية الغيبية لا تعني ما ينفيه الأشعرية.
- الرد على القائلين بأن العالم كرة وهذا ينفي الاستواء.
- تعطيل حقيقة الاستواء تعطيل لمعاني الربوبية.
- أوصاف عرش الرحمن تدل على حقيقة الاستواء.
- هل السلف يثبتون لله الجهة أم ينفونها عنه؟
- صفة النزول وارتباطها بإثبات العلو والاستواء.

المطلب السادس عشر

معاني العلو
والرد على تأويل الاستواء بالاستيلاء



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن النصوص النقلية في إثبات استواء الله ﷻ على عرشه، وأوردنا النصوص النقلية الدالة على أن الله ﷻ في العلو على السماء، وكذلك النصوص الدالة على معية الله لخلقه وهو فوق عرشه، وبينا اعتقاد الصحابة ﵃ في الجمع بين تلك النصوص، وما ورد في اعتقاد الأئمة الأربعة من الجمع بين نصوص الاستواء والمعية، وما كان عليه اعتقاد السلف وأتباعهم في ذلك.

ثم أوردنا ما كان عليه الأمام أبو الحسن الأشعري الذي تنسب إليه طائفة الأشعرية حتى عصرنا، من إثبات الاستواء فوق العرش على الحقيقة لا على المجاز، وإثبات أن العرش هو أعلى سماء، وأن الله ﷻ من فوق العرش مع جميع الخلائق بعلمه وقدرته، ثم بينا وجه الرد على المتكلمين في تأويلهم لقول الجارية في السماء.

وفي هذا المطلب بإذن الله ﷻ نتناول الحديث عن معاني العلو عند

السلف الصالح، والرد على من فسر الاستواء بالاستيلاء والقهر، وذلك من خلال المحاور التالية:

• رد ابن القيم على من تأول الاستواء بالاستيلاء.

١- من اعتقد بأن استواء الله ﷻ هو الاستيلاء والقهر فاعتقاده باطل، وهو تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم، وأنزل بها كلامه نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ يوسف:٢٢. وهذا معناه كمل وتم، يقال: استوى النبات، واستوى الطعام. وأما المقيد فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد بإلى كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ البقرة:٢٩. واستوى إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعدى بإلى في موضعين من كتابه:

أ- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ البقرة:٢٩.

ب- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ فصلت:١١. وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف الصالح.

والثاني: مقيد بعلى كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ

رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ الزخرف:١٣. وقوله تعالى: ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ هود:٤٤. وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح:٢٩. وهذا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

والثالث: المقرون بواو المعية التي تعدي الفعل إلى المفعول معه، نحو استوى الماء والخشبة، بمعنى ساواها.

هذه هي معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنى استولى البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة، ومن جاء بعدهم من النفاة متأثرا بهم.

٢- أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب، قال ابن الأعرابي وقد سئل: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولي؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك.

٣- أن الذين قالوا: إن استوى معناها استولى، لم يقولوه نقلا، فإنه مجاهرة بالكذب، وإنما قالوه استنباطا وحملا منهم للفظة استوى على استولى، مستدلين بقول الأخطل النصراني:

قد استوى بشر على العراق :

من غير سيف أو دم مهراق[١]

وهذا البيت ليس من شعر العرب [٢].

٤- ما قاله الخطابي في كتابه شعار الدين: وزعم بعضهم أن الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء، ونزع فيه إلى بيت مجهول، لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله، ولو كان الاستواء ها هنا بمعنى الاستيلاء، لكان الكلام عديم الفائدة، لأن الله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شئ، وكل بقعة من السماوات والأرضين وتحت العرش، فما معنى تخصيصه العرش بالذكر؟! ثم إن الاستيلاء إنما يتحقق معناه عند المنع من الشئ، فإذا وقع الظفر به قيل: استولى عليه، فأي منع كان هناك حتى يوصف بالاستيلاء بعده؟! وهذا لفظ الخطابي، وهو من أئمة اللغة [٣].

٥- أن هذا تفسير لكلام الله ﷻ بالرأي المجرد الذي لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل

---

(١) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة للإمام الجويني.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: (هذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، ولا نجد أضعف من حجج الجهمية حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح، تعالى الله عما تقول الجهمية علوا كبيرا). انظر البداية والنهاية ٢٩٥/٩، وما بعدها بتصرف.

(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ٤٣٧/٢.

التفسير الذين يحكون أقوال السلف.

٦- أن القائل بأن معنى استوى استولى شاهد على الله ﷻ أنه أراد بكلامه هذا المعنى، وهذه شهادة لا علم لقائلها بمضمونها، بل هي قول على الله ﷻ بلا علم، فلو كان اللفظ محتملا لها في اللغة وهيهات، لم يجز أن يشهد على الله ﷻ أنه أراد هذا المعنى، بخلاف من أخبر عن الله تعالى أنه أراد الحقيقة والظاهر؛ فإنه شاهد بما أجرى الله سبحانه عادته من خطاب خلقه بحقائق لغاتهم وظواهرها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ إبراهيم:٤. فإذا كان الاستواء في لغة العرب معلوما، كان هو المراد لكون الخطاب بلسانهم، وهو المقتضي لقيام الحجة عليهم، فإذا خاطبهم بغير ما يعرفونه، كان بمنزلة خطاب العربي بالعجمية.

٧- أن الإجماع منعقد على أن الله سبحانه وتعالى استوى على عرشه حقيقة لا مجازا، فقد ذكر أبو عمر الطلمنكي أحد أئمة المالكية أن أهل السنة أجمعوا على أن الله تعالى على عرشه، على الحقيقة لا على المجاز.

٨- أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر عاد معنى هذه الآية كلها إلى أن الله تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض، ثم غلب العرش بعد ذلك وقهره وحكمه، أفلا يستحي من في قلبه أدنى وقار لله ﷻ ولكلامه أن ينسب ذلك إليه! وأنه أراد بقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ ﴾ طه:٥.أي اعلموا يا عبادي أني بعد فراغي من

خلق السموات والأرض، غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه!

٩- أن الاستيلاء والاستواء لفظان متغايران، ومعنيان مختلفان، فحمل أحدهما على الآخر إن ادعى أنه بطريقة الوضع فكذب ظاهر؛ فإن العرب لم تضع لفظ الاستواء للاستيلاء البتة، وإن كان بطريقة الاستعمال في لغتهم فكذب أيضا، فهذا نظمهم ونثرهم شاهد بخلاف ما قالوه، فتتبع لفظ استوى وموارده في القرآن والسنة وكلام العرب، هل تجدها في موضع واحد بمعنى الاستيلاء؟! وهناك وجوه أخرى للرد على من فسر الاستواء بالاستيلاء تبين ما في هذا التفسير من تحريف وزيغ وفساد، فكيف يتشدق المتكلمون ويزعمون أن تفسير الاستواء بالاستيلاء من المعاني المعقولة والمقبولة! [١].

- **علو الله في الكتاب والسنة له ثلاثة معان.**

أورد الشيخ حافظ حكمي رحمه الله في معارج القبول معاني العلو التي دل عليها الكتاب والسنة، وهي ثلاثة معان:

• المعنى الأول علو الفوقية: وهو علو الذات وهو ثابت على الحقيقة بالكتاب والسنة وإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، فهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه، بائن من خلقه، لا شئ من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شئ من ذاته، يعلم أعمالهم، ويسمع أقوالهم،

---

(١) انظر تفصيل هذه الوجوه وما هو أكثر منها في مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم الجوزية ١/٣٧ وما بعدها.

ويرى حركاتهم وسكناتهم، لا تخفى عليه منهم خافية.

والأدلة في ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، وأجل من أن تستقصى، والفطرة السليمة والقلوب المستقيمة مجبولة على الإقرار بذلك، ولا ينكره إلا كل قلب تنجس بالتمثيل والتشبيه، والتعطيل والتأويل بغير دليل، ومن تلك الأدلة:

١- التصريح بالفوقية مقرونا بأداة من المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ النحل:٥٠.

٢- ذكر الفوقية مجردة عن الأداة كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنعام:١٨.

٣- التصريح بالعروج إليه نحو قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ المعارج:٤ وكقوله: ﴿ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ المعارج:٣.
وكقوله ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار.. إلى أن قال: فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم) [1].

٤- التصريح بالصعود إليه نحو قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فاطر:١٠.

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ٢٠٣/١ (٥٣٠)، ومسلم في كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٤٣٩/١ (٦٣٢).

٥- التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ﴾ النساء:١٥٨. وقوله: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ آل عمران:٥٥.

٦- التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو، ذاتا وقدرا وشرفا كقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ﴾ الأعلى:١. ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ البقرة:٢٥٥. ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣ ﴾ سبأ:٢٣.

٧- التصريح بتنزيل الكتب منه كقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ ﴾ غافر:٢. وقول الله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ ﴾ فصلت:٢.

٨- التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب من بعض نحو قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ الأعراف:٢٠٦. وكقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾ الأنبياء:١٩. ففرق سبحانه بين من له عموما، وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصا. وكقول رسول الله ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه وأنه عنده فوق العرش: (إِنَّ اللّٰهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي) [1].

٩- التصريح برفع الأيدي إليه سبحانه كقوله ﷺ: (إِنَّ رَبَّكُمْ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: وكان عرشه على الماء ٦/٢٧٠٠ (٦٩٨٦)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٤/٢١٠٨ (٢٧٥١).

تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا) [(١)]. وهناك أدلة أخرى كثيرة تدل على علو ذات الله ﷻ على خلقه.

• المعنى الثاني للعلو: علو القهر فلا مغالب له ولا منازع، بل كل شئ تحت سلطانه وقهره. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ ص:٦٥. وقال: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ الزمر:٤.

وقد جمع الله تعالى بين علو الذات وعلو القهر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنعام:١٨. أي وهو الذي قهر كل شئ، وخضع لجلاله كل شئ، وذل لعظمته وكبريائه كل شئ، وعلا على عرشه فوق كل شئ.

• المعنى الثالث للعلو: علو الشأن، فالله ﷻ تعالى عن جميع النقائص والعيوب المنافية لإلهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وتعالى في أحديته عن الشريك والظهير والولي والنصر، وتعالى في عظمته وكبريائه وجبروته عن الشفيع عنده بغير إذنه. وتعالى في

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء ٢/٧٨ (١٤٨٨)، والترمذي في كتاب الدعوات ٥/٥٥٦ (٣٥٥٦)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء ٢/١٢٧١ (٣٨٦٥)، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٣٨٦٥) .

صمديته عن الصاحبة والولد والوالد، وأن يكون له كفوا أحد، وتعالى في كمال حياته وقيوميته وقدرته عن الموت والسنة والنوم، وتعالى في علمه عن الغفلة والنسيان، وعن عزوب مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض عن علمه.

تعالى في كمال حكمته عن الخلق عبثا، وعن ترك الخلق سدى بلا أمر ولا نهي، ولا بعث ولا جزاء. تعالى في كمال عدله عن أن يظلم أحدا مثقال ذرة من حسناته. تعالى في كمال غناه عن أن يُطعم أو يُرزق، أو أن يفتقر إلى غيره في شئ تعالى في صفات كماله ونعوت جلاله عن التعطيل والتمثيل. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى: ١١ (١).

ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني إمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول: كان الله ولا عرش ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان! فقال الشيخ أبو جعفر الهمداني: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط: يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة العلو، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا؟! قال: فلطم أبو المعالي الجويني على رأسه، ونزل وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني!

---

(١) انظر معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ٩٢/١ وما بعدها بتصرف .

أراد الشيخ الهمداني: أن هذا أمر فطر الله ﷻ عليه عباده، من غير أن يتلقوه من المرسلين، يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ﷻ ويطلبه في العلو [1].

• شبهات المتكلمين الأشعرية في تعطيل علو الفوقية.

زعم بعض الأشعرية المعاصرين أن التوحيد الخالص أن تعتقد أن الله ﷻ لا يسأل عنه بأين، وأن سلف الأمة وخلفها اتفقوا على أن الآيات والأحاديث المتشابهة مصروفة عن ظاهرها لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١. غير أن السلف فوضوا علم المراد منها إلى الله تعالى وقالوا: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران:٧.

وأما الخلف فأوّلوها وحملوها على معان معقولة مقبولة فبينوا المراد منها وقالوا: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ آل عمران:٧. فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. يقول فيه السلف: هو مصروف عن ظاهره، ويفوضون علم المراد منه إلى الله تعالى، والخلف يقولون: هو مصروف عن ظاهره، والمراد من استوى استولى.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص١٧٤. والعلو للعلي الغفار للذهبي ص٢٥٩. ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٤٤. وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٢٥.

ويقولون في قول النبي ﷺ للجارية: أين الله؟ فقالت: في السماء. هو مصروف عن ظاهره، وإنما اكتفى ﷺ منها بقولها في السماء، لأنه كان يكفي في صدر البعثة بالنسبة للعامة اعتقاد وجود الله تعالى ووحدانيته. فعامل ﷺ الجارية بما ألفته وأقرها على اعتقاد وجود الله تعالى وانفراده بالإلهية. ولما أشارت إلى السماء علم النبي ﷺ أنها تعظم الله تعالى وتعتقد وحدانيته، وتنفر من آلهة الأرض التي كانوا يعبدونها [(١)].

- **أين المكانية الغيبية لا تعني ما ينفيه الأشعرية.**

قول القائل: ناقشنا شخص في مكان الله سبحانه وتعالى، ونحن نعتقد أن الله ﷻ ليس له مكان، فأبى إلا أن الله ﷻ في السماء مستدلا

---

(١) كتاب حق الله على العباد وحق العباد على الله للشيخ طه عبد الله عفيفي ص٩٧، حيث قال: (والذي أريد أن أوقفك على مذهب السلف والخلف في المتشابه حتى لا تنحرف عن التوحيد الخالص، فحسبي أن أسوق إليك هذا السؤال، قال السائل: ناقشنا شخص في مكان الله سبحانه وتعالى، ونحن نعتقد أن الله تعالى ليس له مكان، فأبى إلا أن الله في السماء مستدلا بحديث الجارية، فنرجو التفضل بشرح هذا الحديث، وهل يجوز الأخذ بظاهره، وحاشا أن نعتقد ذلك؟) والسؤال في الأصل موجه إلى الشيخ أمين محمود خطاب السبكي، ونقل الشيخ طه العفيفي إجابته بنصها من كتابه الفتاوى الأمينية، وكل ما ورد فيها من شبهات الخلف نقلها الشيخ السبكي عن كتاب أساس التقديس لفخر الدين الرازي المتكلم الأشعري، الذي تاب وندم على مسلكه الباطل في اتباع مذهب المتكلمين، ومات على طريقة السلف الصالح في إثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ بلا تأويل ولا تعطيل.

بحديث الجارية.

يقال له: نفي المكان عن الله بمفهوم الأشعرية، لا يلزم منه نفي علو الله تعالى على خلقه بمفهوم العقيدة السلفية، أو عدم جواز السؤال عن الله بأين المكانية؛ لأن المكان في الاعتقاد السلفي له وجهان، وليس وجها واحدا كما هو حال الأشعرية:

الوجه الأول: أن يراد به ما كان محصورا في محيط عالم الشهادة، أو المحاور الفراغية الهندسية التي نراها. وقد فهم المتكلمون أن معنى قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الملك:١٦. أو قول الجارية: في السماء فهموا من ذلك الظرفية والحلول في تلك المحاور الفراغية الهندسية التي نراها بالمشاهدة العينية، وأن الله محصور داخل هذا المحيط المذكور، تعالى الله عن قولهم. وهذا باطل من وجهين:

١- أن الله سبحانه أعظم من أن تحيط به مخلوقاته، بل قد وسع كرسيه السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧ ﴾ الزمر:٦٧. وقال ﷺ: (يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟) (١).

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ٢٣٨٩/٥ (٦١٥٤)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٨/٤ (٢٧٨٧).

٢- أن معنى في السماء في العلو، وهذا العلو يمتد إلى أعلى شيء في المخلوقات، وهو عرش الرحمن الذي هو فوق سبع سماوات، حيث يخبر رب العزة عن نفسه بأنه على عرشه قائلا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥.

ولم يفهم أحد من أصحاب النبي ﷺ أن معنى في السماء الظرفية، وأن الله ﷻ داخل السماء، أو أن السماء تحوزه. ومن دقق النظر في قول أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها الذي ورد في صحيح البخاري: (زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ). والرواية الأخرى الثابتة عنها: (إِنَّ اللَّهَ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ). علم أنها تعني قطعا أن الله ﷻ في العلو، فوق سبع سماوات، عال على عرشه، بائن من خلقه، لا شئ من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شئ من ذاته، ولا تعني شيئا غير ذلك، وقد اجتمعت كلمة المفسرين من أهل السنة على ذلك، لا يختلفون فيه، ولا يجوز الحمل على غيره [1].

الوجه الثاني: أن يراد بالمكان ما كان خارجا عن محيط عالم الشهادة، أو المحاور الفراغية الهندسية التي نراها، فقد ثبت علميا أن محاور الفراغ تزيد عن ثلاثة محاور بعشرة أخرى أو أكثر غير مرئية، وتمثل عالما غيبيا لا يقاس بمقاييس عالم الشهادة، وهو ما يطلق عليه

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٨٠.

السلف المكان العدمي، أو المكان الذي تنعدم فيه أقيسة التمثيل والشمول [١].

والمكان بهذا الاعتبار لا يخضع بحال لمقاييس المكان في حسابات المخلوقين، فمكان الشئ يحدد في حساب المقاييس العقلية الحديثة باعتبار ثلاثة محاور رئيسية متعامدة، اثنان يمثلان المستوى الأفقي الموازي لسطح الأرض، والثالث يمثل الارتفاع عن ذلك المستوي، فأجسام الدنيا يحدد مكانها بمدى الارتفاع في المحور الرأسي عن مستوى المحورين الأفقيين.

ولا شك أن تلك المقاييس المكانية لا تصلح بحال ما في قياس ما هو خارج عن محيط العالم، فضلا عن عدم صلاحيتها في تحديد أماكن الفضاء الخارجي لرواد الفضاء، فرائد الفضاء يسير بمركبته خارج نطاق الكرة الأرضية، لا يدري عن عامل الزمان شيئا إلا بالاتصال المباشر بمن على الأرض ليحدد المدة التي يمكثها خارج الأرض، وذلك لوجود الظلام الدامس، وبعده عن إدراك الزمان الناشئ عن تعاقب الليل والنهار، والذي لا يفهم إلا في نطاق الكرة الأرضية. وكذلك الحال بالنسبة لتحديد المكان، حيث يعجز عن تحديد المستوى الأفقي الذي يقيس من خلاله ضابط المكان.

---

(١) مختصر العلو للعلي الغفار ص ٧٣ بتصرف، تحقيق محمد ناصر الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، دمشق سوريا، سنة١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

ولو كانت المقاييس المكانية التي تحكم عالم الغيب هي ذات المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان وضع مثلا في غرفة مغلقة بإحكام، لأنه حينئذ يعجز عن دخولها بالمقاييس المكانية التي يقيسون بها الخالق على المخلوق، ويزعمون فيها أن النصوص القرآنية والنبوية ظاهرها هو هذا الباطل المستحيل الذي يجب صرفه إلى تأويلاتهم الباطلة، وإلا وقعنا في التشبيه الذي تنجست به أذهانهم. قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ النساء:٧٨. وقال سبحانه وتعالى في بيان وقوع الأجل على التقدير، فورا دون تأخير: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ النحل:٦١.

ولو كانت المقاييس الزمانية التي تحكم عالم الغيب هي ذات المقاييس التي تحكم الإنسان في عالم الشهادة، لما استطاع ملك الموت أن يقبض روح إنسان في مشرق الأرض، ويقض روح آخر في مغربها، لأن انتقاله يتطلب سفرا طويلا، تقطعه الطائرات في ساعات وساعات، ولتأخر الأجل عما قدره الله في اللوح المحفوظ، فعلم أن الزمان في عالم الغيب يختلف عن الزمان في عالم الشهادة، وأن ملك الموت تطوى له الأرض بكيفية زمانية ومكانية لا نعلمها. فكيف يقاس الخالق وله المثل الأعلى في نزوله إلى السماء الدنيا بمقاييس النازل من البشر، ثم يطالبنا الأشعري وأمثاله من أصحاب الفهم السيئ بتعطيل النزول وتأويله بغير دليل، وإلا صرنا عنده من أصحاب

التجسيم والتشبيه الذين يثبتون الظاهر الباطل المستحيل.

ومن ثم فلا يصلح بحال أن نمنع دلالة الآيات والأحاديث على ظاهرها اللائق في حق الله ﷻ بحجة أننا لو أثبتناها لكان الله ﷻ في مكان، وما كان في مكان فهو حادث مخلوق.

وعلى ذلك سأل رسول الله ﷺ الجارية: أين الله؟ فقالت: في السماء. وشهد لها رسول الله ﷺ بالإيمان، علم أنه لا إشكال في ذلك، وأن الأمر واضح ظاهر جلي، وأن العيب في سوء ظن الأشعري ولا يستلزم ما زعموه في كلام النبي ﷺ.

ويجب أن يعلم أيضا أن رسول الله ﷺ سأل الجارية بلفظ الأين الذي يدل على المكان من وجهة نظرهم الضيقة، والذي يمنعون السؤال به في حق الله ﷻ، ولا شك أن رسول الله ﷺ يعلم أن أين الاستفهامية المكانية تدل على المكان في حق المخلوق، ولكنه بالرغم من ذلك سأل عن الله ﷻ بأين؟ وأجابت الجارية بقولها: في السماء، وقال ﷺ لسيدها: اعتقها فإنها مؤمنة. فأي اعتراض منهم على ذلك إنما هو اعتراض على رسول الله ﷺ، ووصف له بعدم العلم الفهم، أو بعدم القدرة على التعبير عن المراد.

- **الرد على القائلين بأن العالم كرة وهذا ينفي الاستواء.**

زعم المتكلمون الأشاعرة أن العالم كرة، فالجهة التي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض

وبالعكس، فلو كان المعبود مختصا بجهة، فتلك الجهات وإن كانت فوق لبعض الناس، لكنها تحت بالنسبة لبعض آخرين منهم، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال: المعبود تحت جميع الأشياء.

وكلامهم باطل وليس بحجة في نفي استواء الله ﷻ على عرشه، أو تحريفه بالاستيلاء والقهر. والعلة في ذلك أنهم نظروا إلى السماء الدنيا بقياس التمثيل والشمول، وأن السماوات تشبه طبقات العمارة المرتفعة، وأن السماء الدنيا هي فقط ما يرى من اللون الأزرق الناشئ عن انعكاس ضوء الشمس على الذرات المتفرقة في الطبقات العليا للغلاف الجوي.

ولكن إذا تأملنا وضع الأرض ككرة متناهية في الصغر، ومعلقة في الفضاء الخارجي، كما رآها رواد الفضاء من قريب، أو أقل من ذلك بكثير لمن رآها من بعيد، أو ابتعد عنها أكثر فأكثر، أدرك الإنسان أن الأرض ومن عليها لا يمثلون ذرة بالمعنى الحديث للكلمة في ملك الله ﷻ الكائن تحت السماء الدنيا.

ولا يرى الإنسان إذا خرج إلى الفضاء الخارجي سماء بلون أزرق كما هو الحال في الأرض، ولا يرى إلا سوادا قاتما، وعماء مظلما لا يدرك مداه، ولا منتهاه إلا الله ﷻ. فانظر كيف أن الأرض بما فيها قد رآها الإنسان من أقرب الكواكب إلى الأرض كرة صغيرة معلقة في الفضاء أمسكها الله ﷻ بقدرته؟

وماذا لو وصل الإنسان إلى الكواكب البعيدة في المجموعة الشمسية أو المجرات الأخرى، ونظر إلى الأرض ومن عليها؟ لربما انعدمت رؤية الأرض تماما!

إذا أدركنا هذه العظمة الإلهية في خلقه للكون بصفة عامة والأرض وما فيها بصفة خاصة، علمنا أن الله ﷻ في العلو بالنسبة لكل مخلوق على سطح الكرة الأرضية، كما دلت الأدلة النقلية القطعية، وأن كيفية السماء الدنيا وحقيقتها أمر غيبي لا نعلم، ويعجز عقل الإنسان عن تصوره، فالسماء الدنيا علو بالنسبة للكرة الأرضية بأكملها، وعلى كل نقطة فيها.

وسطح الكرة الأرضية يجد المرء نفسه وهو واقف عليه في كل موضع فيه، يجد نفسه عند دعائه لربه متجها بفطرته إلى العلو، قلبه يستشرف السماء الدنيا التي حجب الله ﷻ عنا كيفيتها، وكيفية ما عليها من الملائكة أو البشر، أو كيفية ما فوقها من السماوات، والتي لا تخضع بحال من الأحوال للمقاييس العقلية التي تخمرت في عقل كل أشعري، وأراد بها أن يخضع عالم الغيب لقوانين الأرض أولا، ثم يطالب سائر الناس بنفي دلالة القرآن والسنة عن ظاهرها، وتعطل حقائقها الثابتة.

روى ابن جرير الطبري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (ما السماوات السبع والأرضون السبع، وما فيهن، وما

بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم)[1].

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ البقرة:٢٥٥. وروى البيهقي وابن أبي شيبة من حديث أبي ذر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرْسِي في العَرشِ إلا كحَلقةٍ مِن حَديد أُلْقِيَت بَيْن ظهْرَانِي فَلاة مِن الأرْضِ)[2].

إذا كان الكرسي الذي وسع السماوات والأرض قد ذكر الرسول ﷺ أنه لا يمثل بالنسبة لعرش الرحمن إلا كنسبة الحلقة وسط الصحراء، ألا يظهر ذلك مدى الضخامة العظمى لحجم الكون، ومدى العظمة التي خص الله ﷻ بها العرش من بين المخلوقات، وأن الأرض لا تكاد تمثل شيئا في هذا العالم.

وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي بعد قول ابن عباس السابق، أنه من المعلوم ولله المثل الأعلى، أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير ٢٤/٢٥. وانظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ٢/٤٧٦. والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة العكبري ٣/٣٠٨. ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٤٨٢. وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٣١٤.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ٢/٣٠٠. وابن أبي شيبة في كتاب العرش برقم ١/٧٧ (٥٨). والذهبي في العلو ص٣٠. وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٩)، وفي مختصر العلو ص.١٣٠ وقال في تعليقه على شرح الطحاوية: حديث صحيح انظر ص.٢٨٠

قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عال عليها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف. فلو شاء لقبض السماوات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم، وهو على عرشه فوق سمواته؟ أو يدني إليه من يشاء من خلقه؟ فمن نفي ذلك لم يقدره حق قدره [(١)].

ومن ثم إذ قال رب العزة والجلال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. قال المؤمنون الموحدون لله حقا: آمنا بالله ﷻ، وبقول الله ﷻ، على مراد الله ﷻ، ووسعنا ما وسع رسول الله ﷺ.

- **تعطيل حقيقة الاستواء تعطيل لمعاني الربوبية.**

إن خطورة القول بتعطيل استواء الله ﷻ على عرشه وتفسير استوائه باستيلائه وقهره، لا تكمن فقط في كون ذلك تحريفا للكلم عن مواضعه، وإنما تكمن أيضا في نفي معاني الربوبية، ووصف الله ﷻ بالنقص في أوصاف الإلوهية.

وذلك أنه لما كان استواء الله ﷻ على عرشه، فيه دلالة على الإقرار له بأنه الملك العظيم الذي له حق التصرف والتدبير المطلق في مملكته، وكان استواء كل ملك في الدنيا على عرشه من لوازم دوام ملكه

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٤ بتصرف.

وكماله وعظمته، فإن إثبات استواء الله على عرشه من لوازم توحيده من باب أولى، فهل يصح أن نقر بالكمال للملك المخلوق، ونسلبه عن ملك الملوك؟ فمن لوازم توحيد الربوبية والأسماء والصفات إثبات علو الذات والفوقية، والاستواء على العرش على الطريقة السلفية، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ طه: ١/٥.

ومن المعلوم أن عظة العرش مقترنة بعظمة من استوى عليه، وقد ذكر الله ﷻ العرش في سورة النمل وحدها في أربعة عشر موضعا، لبيان ارتباط الملك بالاستواء على العرش، وأن كل ملك من الملوك يتخذ لنفسه عرشا عظيما يدل على منزلته وقدره، فشتان بين عرش سليمان وعرش بلقيس، وأن عجز بلقيس عن تمييز عرشها دليل على هوانها وهوان ملكها إن لم تكن مسلمة موحدة.

وعلى الرغم من كون مُلْك الدنيا محدود زائل، والمُلْك يهبه الله ﷻ وفق مشيئته للملوك على سبيل الأمانة والاستخلاف، فهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، إلا أن ملوك الدنيا يبالغون في الحفاظ على عروشهم، ويجعلون قصورهم في الأماكن المرتفعة على الماء، وما ذلك إلا ليوقعه الشيطان في التشبيه، والشرك بالملك الذي انفرد بالاستواء على العرش في السماء، وليفتخر كل منهم بأنه صاحب العرش والسلطنة، والقوة والهيمنة، فهذا فرعون طاغوت

ادعى لنفسه الملك بغير حق على جزء قليل من الأرض، قال الله تعالى في وصفه: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ الزخرف:٥١.

والشيطان الذي هو رأس الطواغيت لما نزل إلى الأرض وضع لنفسه عرشا على الماء ليتشبه في استواءه باستواء الله على عرشه في السماء، وجعل نفسه إلها لأتباعه من العصاة، وحبب إلى نفسه من جنسه أسوأ الدعاة، وجلس على عرشه ليبعث في الأرض سراياه. كما ورود في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ إِبْليسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلى المَاءِ، ثم يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيَقُول: فَعَلتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُول: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَال: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيَقُول: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَال: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُول: نِعْمَ أَنْتَ) [1].

ومن هنا كان لا بد من توحيد الله في أسمائه وصفاته، وكان لا بد لمن وهبه الله ﷻ الملك، وجعله مستويا على عرش في مملكته، أن يوحد ملك الملوك في استوائه على عرشه، ولا يكون ذلك في المقام الأول إلا بإثبات حقيقة الاستواء على الكيفية التي لا يعلمها إلا الله

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).

ﷻ، وذلك هو مقتضى توحيد الربوبية والأسماء والصفات، ثم ينفذ أمر الله التكليفي الشرعي في مملكته، ويحكم بالعدل في رعيته، وذلك مقتضى توحيد العبودية والحاكمية. أما تعطيل الإيمان بحقيقة الاستواء فهو نفي لمعاني التوحيد جميعها.

• أوصاف عرش الرحمن تدل على حقيقة الاستواء.

وقد ثبت من نصوص الكتاب والسنة في ذكر عرش الرحمن، أنه موصوف بأوصاف كثيرة تدل على سموه في حقيقته، وفضله عند ربه، وعلوه على سائر المخلوقات منها:

١- عرش الله عظيم ذاتا وصفة لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾ التوبة:١٢٩.

وصفه عرشه بالعظمة في مقابل تولي الخلق وكفرهم، لأنه لما كان الاستواء على العرش دليلا على تولي أمور الملك، فلو أعرض الناس عن ملك من ملوك الدنيا خلعوه من عرشه، ونصبوا غيره، لأنه ما وصل إلى الملك إلا بهم، سواء بانتخاب أهله وعشيرته، أو حزبه وجماعته، أما ملك الملوك فإنه لو أعرض عنه سائر الخلق، فمن الذي يتغير؟ أيتغير الملك أم المملوك؟ أيزول الخالق أم المخلوق؟ قال الله تعالى في بيان غناه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾ محمد:٣٨. وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾ النساء:١٣٣.

٢- وصف الله ﷻ عرشه بأنه كريم فقال: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ ﴾ المؤمنون:١١٦.

٣- عرش الله ﷻ مجيد أي رفيع عال في المكان والمكانة كما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ ﴾ البروج:١٤/١٥. على قراءة الخفض.

٤- عرش الله ﷻ أول المخلوقات المعلومة لدينا، فقد ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (إن الله قَدَّرَ مَقَادِير الْخَلَائِق قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاوَات وَالأَرْض بِخَمْسِينَ أَلْف سَنَة، وَكَانَ عَرْشه عَلَى الْمَاء) [(١)].

٥- عرش الله ﷻ له حملة اليوم كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ ﴾ غافر:٧. وله حملة يوم القيامة: ﴿ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ ﴾ الحاقة:١٧.

٦- عرش الله ﷻ له قوائم كما ورد عند البخاري من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ أن النبيِّ ﷺ قال: (الناسُ يصعَقون يومَ القِيامةِ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣).

فأكونُ أول مَن يُفِيقُ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمةٍ من قوائم العرشِ، فلا أدرِي، أفاقَ قبلي، أم جُوزِيَ بصَعقةِ الطُّور) [١].

٧- عرش الله ﷻ أعلى المخلوقات وسقف جنة الفردوس، فعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: (من آمَنَ باللهِ وبرسوله، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حَقّاً على الله أن يُدْخلهُ الجنَّة، جاهدَ في سبيل اللهِ، أو جلسَ في أرضهِ التي وُلدَ فيها. فقالوا: يا رسول اللهِ، أفلا تُبَشِّرُ الناس؟ قال: إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيل الله، ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض، فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ؛ فإنهُ أوْسَطُ الجنة، وأعلى الجنة، وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ) [٢].

٨- عرش الله ﷻ يهتز لعظائم الأمور، كما ورد عند البخاري من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: (اهتزَّ العرش لموتِ سعدِ بن مُعاذ) [٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ٣/١٢٤٥ (٣٢١٧). ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم ٤/١٨٤٤ (٢٣٧٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٣/١٠٢٨ (٢٦٣٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن معاذ ﷺ ٣/١٣٨٤ (٣٥٩٢)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ ﷺ ٤/١٩١٥ (٢٤٦٦.

٩- عرش الله ﷻ تسجد الشمس تحته، روى البخاري من حديث أبي ذرّ ﷺ أن النبيُّ ﷺ قال لأبي ذرّ حينَ غَرَبَتِ الشمسُ: أتدري أينَ تَذهَبُ؟ قلتُ: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنها تَذهب حتّى تَسجُدَ تحتَ العَرش، فتستأذنَ فيُؤذَنُ لها، ويوشِكُ أن تَسجدَ فلا يُقبَل منها، وتستأذِنَ فلاُ يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيثُ جِئتِ، فتطلعُ من مَغربها. فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ ﴾ يس:٣٨ [١].

١٠- عرش الله ﷻ من أثقل الأوزان عند الله، وروى البخاري من حديث جُوَيْرِيَة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلى؟ الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا. ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالسَةٌ. فَقَال: مَا زِلتِ عَلى الحَال التِي فَارَقْتُكِ عَليْهَا؟ قَالتْ: نَعَمْ. قَال النَّبِيُّ: لقَدْ قُلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلمَاتٍ ثلاَثَ مَرَّاتٍ، لوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلتِ مُنْذُ اليَوْمِ لوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلمَاتِه [٢].

١١- عرش الله ﷻ يظل من شاء من خلقه تحته يوم القيامة، روى الترمذي من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَنْظَرَ

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان ٣/١١٧٠ (٣٠٢٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ٤/٢٠٩٠ (٢٧٢٦.

مُعْسِراً، أوْ وَضَعَ لهُ، أظَلهُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ تَحْتَ ظِل عرشِهِ يَوْمَ لاَ ظِل إلاَّ ظِلهُ) [(١)].

وعند البخاري من حديث أبي هُرَيْرَة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (سَبعةٌ يُظِلهم اللهُ في ظِلهِ يومَ لا ظِل إلا ظِلهُ: الإمامُ العادِل، وَشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجل قلبُه مُعَلقٌ في المساجد، وَرجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليهِ وتَفَرَّقا عليه، ورجل طَلَبَتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجل تَصدَّقَ أخفي؟ حتى لا تَعلمَ شِماله ما تُنفِقُ يمينُه، ورَجُل ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عَيناه) [(٢)].

١٢- عرش الله ﷻ كان على الماء: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ هود:٧ .

١٣- عرش الله ﷻ لا يزال على الماء، فعند البخاري من حديث أبي هريرةَ ﷺ أن النبيِّ ﷺ قال: (إنَّ يمينَ اللهَ ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهارَ، أرأيتم ما أنفَقَ منذُ خلقَ السماوات والأرضَ،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في إنظار المعسر والرفق به ٥٩٩/٣ (١٣٠٦)، وأحمد في المسند، مسند أبي هريرة ﷺ ٣٥٩/٢ (٨٦٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٢١/١ (٩٠٩) .

(٣) رواه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ٢٣٤/١ (٦٢٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ٧١٥/٢ (١٠٣١).

فإنه لم ينقص ما في يمينِهِ، وعرشه على الماء، وبيدِهِ الأخرى الفيض، أو القبض، يرفع ويخفِض) [١].

١٤- عرش الله ﷻ امتدح الله نفسه بإضافته إليه فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ الإسراء:٤٢/٤٣. وقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ غافر:١٥. فإذا كان ملك الدنيا يزين عرشه، ويتباهى به بين رعيته، ويفتخر به بين الملوك من أمثاله، فأولى بنا أن نوحد الله ﷻ بإفراد عرشه عن أنواع العروش الأخرى، وإثبات المباينة بينه وبين سائر المخلوقات، فإن عرش الله ﷻ أولى بالكمال الذي لا يماثله شيء من عروش الدنيا، والله ﷻ أولى بالمدح عند ذكره بين سائر خلقه.

١٥- عرش الله ﷻ خصه بالاستواء عليه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وقد وردت نصوص أخرى في أوصاف عرش الرحمن تدل بما لا يدع مجالا للشك، أن عرش الرحمن حقيقة لا مجاز، وأن الله ﷻ استوى عليه حقيقة لا مجازا.

وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء، كلهم وذكر في كل كتاب أنزل

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٣)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٢/٦٩١ (٩٩٣).

على كل نبي، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف إلا من ضل عن الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم.

وقد سلك كثير من الأشاعرة المعاصرين مسلك الجهمية المتقدمين في محاولتهم أن يجعلوا كل النصوص السابقة التي وردت في العرش وصفته أمورا مجازية خيالية، لا تدل على حقيقة الاستواء البتة، وهذا ضلال بين نسأل الله ﷻ العصمة والسلامة [(١)].

• هل السلف يثبتون لله الجهة أم ينفونها عنه؟

زعم بعض الأشعرية أنه لا بد للتوحيد الخالص من نفي الجهة عن الله ﷻ فقال: (فهو سبحانه ليس في جهة من الجهات، لأن ذلك من صفات الأجسام) [(٢)].

ولا بد من وقفة لبيان القول الحق في ذلك. فلو سأل سائل هل نثبت لله ﷻ تعالى جهة؟ قلنا له: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسنة إثباتا ولا نفيا، ويغني عنه ما ثبت فيهما من أن الله تعالى في السماء.

وأما المراد من معنى الجهة ،فإما أن يراد به جهة سفل، أو جهة

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان ص٤٣٦ وما بعدها بتصرف، تأليف عبد الله بن محمد الغنيمان، طبعة مكتبة الدار، المملكة العربية السعودية سنة ١٤٠٦هـ.

(٢) انظر كتاب حق الله على العباد وحق العباد على الله ص٩٩.

علو تحيط بالله ﷻ، أو جهة علو لا تحيط به. فالأول باطل لمنافاته لعلو الله ﷻ الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع. والثاني باطل أيضا لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شئ من مخلوقاته. والثالث حق لأن الله تعالى هو العلي فوق خلقه، ولا يحيط به شئ من مخلوقاته [(١)].

وقد طلب من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن يعتقد نفي الجهة عن الله ﷻ فأجاب رحمه الله: (أما قول القائل يطلب نفي الجهة عن الله ﷻ فليس في كلامي إثبات هذا اللفظ، لأن إطلاق هذا اللفظ نفيا أو إثباتا بدعة، وأنا لم أقل إلا ما جاء به الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة. فإن أراد قائل هذا القول: أنه ليس فوق السماوات رب، ولا فوق العرش إله، وأن محمدا لم يعرج به إلى ربه، وما فوق العالم إلا العدم المحض، فهذا باطل مخالف لإجماع سلف الأمة. وإن أراد بذلك أن الله ﷻ لا يحيط به مخلوقاته، ولا يكون في جوف الموجودات، فهذا مذكور مصرح به في كلامي) [(٢)].

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن السلف الصالح أثبتوا علو الله ﷻ على خلقه، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة، ويدل أيضا على أن لفظ الجهة على إطلاقه غير محدد الدلالة، فوجب فيه الاستفصال، فإن

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسني ص٣١ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٢٦.

من لا يكون في جهة على الإطلاق يقتضي عدم وجوده بالكلية، وهذا يؤدي إلى نفي الاستواء والعلو والرؤية وغير ذلك مما ثبت في النقل الصحيح.

- **صفة النزول وارتباطها بإثبات العلو والاستواء.**

زعم بعض الأشعرية أنه لا بد للتوحيد الخالص من نفي صفة النزول والعلو فقال: (ثم نسأل عمن في السماء؟ أي سماء هي؟ هل الأولى أم الثانية أم السابعة.. الخ، والآية تقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ الطلاق:١٢. ثم نزوله كل ليلة حينما يحل الثلث الأخير من الليل، والثلث الأخير من الليل يحل كل لحظة على بلد من البلدان، فكيف نتصور معبودهم نازلا صاعدا مدة الأربع والعشرين ساعة كلها، لأن الليل هنا قد يكون نهارا هناك) [(١)].

ويقال له: أما عن كون الله تعالى في السماء فقد تقدم الرد على زعمهم أن العالم كرة، وأن الجهة التي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس، وأن كلامهم باطل، وليس بحجة في نفي استواء الله ﷻ على عرشه وتحريفه بالاستيلاء والقهر.

وأما عن النزول فقد قال ابن القيم رحمه الله: (إن نزول الرب

---

(١) انظر كتاب حق الله على العباد وحق العباد على الله ص ٩٩.

تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا قد تواترت الأخبار به عن رسول الله ﷺ، رواه عنه نحو ثمانية وعشرين نفسا من الصحابة، وهذا يدل على أنه ﷺ كان يبلغه في كل موطن ومجمع) [(١)].

ومن تلك الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ) [(٢)].

والنزول والإنزال حقيقته مجيء الشيء، أو الإتيان به من علو إلى أسفل، وهذا هو المفهوم لغة وشرعا. كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ ق:٩. وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ الشعراء:١٩٣.

واعتقاد السلف في النزول كاعتقادهم في الاستواء فكما قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فكذلك القول في النزول: النزول معلوم المعنى غير معلوم الكيفية، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

كما أن حقيقة السماء الدنيا لا يعلم كيفيتها إلا الله، قال تعالى:

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٤٥٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل ٥/٢٣٣٠ (٥٩٦٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/٥٢١ (٧٥٨).

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ الملك:٥. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ الصافات:٦. فهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله ﷻ، قد عجز الإنسان في العصر الحديث أن يخرج من مجال المجموعة الشمسية التي لا تمثل شيئا في هذه النجوم.

ومن المعلوم أن بيننا وبين أقرب الكواكب من المجرات الأخرى ملايين الملايين من السنوات الضوئية، في كون فسيح لا يعلم مداه ولا منتهاه إلا الله ﷻ، فهؤلاء لما أرادوا أن يكيفوا السماء الدنيا، ويكيفوا نزول الله ﷻ إليها، وقعوا في التمثيل، فجعلوا شأن السماء كشأن طبقات البناء في عمارة مكونة من عدة طوابق، ينزل النازل على درجات سلمها، ثم أرادوا بعد هذا الفهم السيء تعطيل النزل بالتأويل الباطل، وأنكروا نزول الخالق سبحانه وتعالى.

كما أن نزول الخالق سبحانه لا يعني أنه يتخلل في طبقات السماوات حتى يصل إلى السماء الدنيا كما كيفوه. وهذا الفهم لا يمكن أن يرد بحال على ذهن واحد من أهل الحق، لأنهم يعلمون أن الله ﷻ لا يحيط به شئ من مخلوقاته، وهو مستو على عرشه بائن من خلقه كما بينت النصوص.

وقد سبق قول عبد الله بن عباس ﷺ في بيان حقيقة الكون، وعظمة الله ﷻ وسعة كرسيه وعرشه، فالكرسي الذي وسع السماوات والأرض كما ورد في السنة، لا يمثل بالنسبة لعرش الرحمن إلا كنسبة

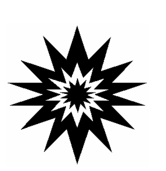
الحلقة في الصحراء.

ويضاف أيضا أن الزمان والمكان في عالم الشهادة يختلفان تماما عن الزمان والمكان في عالم الغيب، ولا بد للموحد من أن يثبت المباينة بينهما، وإلا فهو ممثل، ومن ثم فلا يلزم قولهم: الليل هنا نهار هناك، أو الثلث الأخير يحل في كل لحظة على مدار خطوط الطول على سطح الأرض، فالله سبحانه وتعالى نزوله حقيقي معلوم، له كيفية مجهولة لنا، معلومة لله ﷻ والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

والرسول ﷺ وهو أعلم الخلق بالله ﷻ، وأنصحهم للأمة، وأقدرهم على البيان وحسن العبارة التي لا توقع لبسا، قد صرح بالنزول مضافا إلى الرب في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة. فمن حاول رد هذه الأحاديث، أو قال بأن النزول نزول معنوي وليس حقيقيا، فقد نسب إلى الرسول ﷺ التقصير في بيانه وتعليمه ونصحه.

قال أبو عبد الله الرباطي: حضرت يوما مجلس الأمير عبد الله بن طاهر أمير خرسان، وحضر اسحق بن راهوية. فسئل عن حديث النزول أصحيح هو؟ فقال: نعم. فقيل له: يا أبا يعقوب، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ قال: أثبته فوق حتى أصف لك النزول، فقال له الرجل: أثبته فوق. فقال له اسحاق: قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ ﴾ الفجر:٢٢. فقال الأمير عبد الله بن طاهر: هذا يوم القيامة. فقال اسحاق: أعز الله الأمير،

ومن يجئ يوم القيامة، من يمنعه اليوم؟! [١].



(١) قوله: أثبته فوق. لأن حاشية الأمير من أتباع الجهمية وهم ينفون علو الذات، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالنزول، فالنزول يكون من علو، فأراد منهم أن يثبتوا العلو أولا. انظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات لمرعي بن يوسف الكرمي ص٢٠١. والعلو للعلي الغفار للذهبي ص١٧٩. ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٧٥/٥. انظر شرح حديث النزول لابن تيمية ص ٣٩.

المطلب السابع عشر

صفة البقاء ورؤية الله في الآخرة

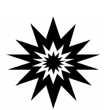
- أولية الله أولية ذاتية وأولية وصفية وأولية فعلية.
- الأولية ودوام الخالقية والقدرة والفاعلية.
- تحقيق المراد لأهل الجنة علَّقه الله بمشيئتهم إكراما لهم.
- شتان بين ما يبقى ببقاء الله وما يبقي بإبقائه.
- الأدلة النقلية على إثبات رؤية الله في الآخرة.
- مذاهب الناس في رؤية العبد لربه.



- الرد على شبهات المعتزلة في نفي الرؤية.
- الأدلة على أن النبي لم ير ربه في الدنيا بعينيه.
- الخلاف في الرؤية المنامية لله دون الرؤية العينية.
- إثبات توحيد الله في صفة اليدين والأصابع والعينين.
- الرد على شبهة تأويل اليدين بالنعمة أو القدرة.
- الرد على الأشعرية في تأويلهم للعينين بالرعاية.

المطلب السابع عشر

صفة البقاء ورؤية الله في الآخرة



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تناولنا في المطلب السابق الرد على من زعم من الأشعرية أن استواء الله ﷻ على عرشه هو استيلاء عليه، وبينا أن علو الله تعالى على خلقه في الكتاب والسنة له ثلاثة معان، كما بينا أوجه الرد على شبهات المتكلمين الأشعرية في تعطيل علو الفوقية، وزعمهم الباطل أن العالم كرة ولا يصح أن يكون الله ﷻ فوق جميع الأشياء وتحتها معا مما يحتم تعطيل الاستواء على العرش.

وبينا أيضا أن تعطيل حقيقة الاستواء هو تعطيل لمعاني الربوبية، وأن أوصاف عرش الرحمن تدل على وجود فوقية حقيقية وإن كنا لا نعلم الكيفية، ثم بينا موقف السلف الصالح في كونهم يثبتون لله ﷻ الجهة أم ينفونها عنه؟ وتناولنا أيضا الحديث عن صفة النزول، وارتباطها بإثبات العلو والاستواء.

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله ﷻ الحديث عن صفة الأولية

والبقاء ورؤية الله تعالى في الآخرة، وهل رأى النبي ﷺ ربه في الدنيا رؤية عينية، أم رؤية منامية؟ وذلك من خلال المحاور التالية:

- **أولية الله أولية ذاتية وأولية وصفية وأولية فعلية.**

عقيدة أهل السنة والجماعة في التوحيد مبنية على أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

ومن عقيدتهم أيضا أن توحيد الربوبية والأسماء والصفات يقوم على إثبات وصف الأولية لله ﷻ بلا قبلية، والآخرية بلا بعدية، ولازمه وصف الغنى والكمال كوصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال.

ومن عقيدتهم أيضا أن توحيد الله ﷻ بالعبودية يقوم على إثبات وصف الأولية للمخلوق بالقبلية، والآخرية بالبعدية، ولازمه وصف الحاجة والافتقار كوصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار.

والقصد بالأولية والآخرية إثبات دوام الغنى بالنفس أزلا وأبدا، والانفراد بالاسم والوصف عمن سواه، بحيث يبقى غنيا بذاته على الدوام، لا يحتاج إلى غيره في شيء، وهو أساس الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات.

وذلك هو ما عبر عنه الطحاوي بقوله: (ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان

بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا) [(١)].

أي أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يُعتقد أن الله ﷻ وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده.

ولا يَرِدُ على هذه صفات الأفعال كالخلق والتصوير، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط، والطي، والاستواء، والإتيان، والمجيء، والنزول، والغضب، والرضا ونحو ذلك مما وصف به نفسه ﷻ ووصفه به رسوله ﷺ، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا. كما قال الإمام مالك لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

ولا بد أن نفرق بين الفعل ووصف الفعل، فكلاهما يتعلقان بالمشيئة، وينفرد الفعل بزيادة التعلق بالزمن، فإن شاء فعل وخلق ما شاء، في الوقت الذي يشاء، كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ آل عمران:٤٠. وقال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ

---

(١) متن العقيدة الطحاوية ص٢٠ نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ آل عمران:٤٧.

وقال: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ القصص:٦٨.

وقال: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الشورى:٤٩.

وإن كانت هذه الأفعال تحدث في وقت دون وقت، كما ورد في حديث الشفاعة: (إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا، لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثلهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثلهُ) [١].

• الأولية ودوام الخالقية والقدرة والفاعلية.

وربما يستشكل البعض وصف الله ﷻ بالأولية مع وصفه بدوام الخالقية والقدرة والفاعلية، فإذا كان الله ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فهل يعني ذلك أنه كان معطلا عن الفعل، ثم أصبح خالقا فاعلا قادرا بعد أن لم يكن؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إن الله ﷻ موصوف بأنه مريد فعال، يفعل ما يشاء، وقت ما يشاء كما قال تعالى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ٤/١٧٤٥ (٤٤٣٥). ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/١٨٥ (١٩٤).

لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ البروج:١٥/١٦.

وقد بين الله ﷻ أنه قبل وجود السماوات والأرض، لم يكن سوى العرش والماء، وقد شاء أن يوقف علمنا عن بداية المخلوقات عند العرش والماء، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة:٢٥٥، فالله أعلم، هل توجد مخلوقات قبل العرش والماء أم لا؟ لكننا نعتقد أن وجودها أمر ممكن متعلق بمشيئة الله وقدرته، فالله ﷻ أخبرنا أنه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وهو على ما يشاء قدير، وأنه متصف بصفات الأفعال.

ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلا وأبدا، سواء كان ذلك قبل العرش والماء، أو بعد وجودهما، لكن الله ﷻ أوقف علمنا عند هذا الحد، كما أن جهلنا بذلك لا يؤثر فيما يخصنا، أو يتعلق بحياتنا من معلومات ضرورية لتحقيق الكمال في حياة الإنسان.

قال سليمان التيمي: (لو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال السائل: أين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم).

ويعقب الإمام البخاري بقوله: وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة:٢٥٥، يعني إلا بما بين [١].

---

(١) خلق أفعال العباد للإمام البخاري ص ٣٧ نشر دار المعارف، الرياض.

وهذه المسألة تسمى في باب العقيدة بالتسلسل، وهو ترتيب وجود المخلوقات في متوالية مستمرة غير متناهية من الأزل والأبد، ومعتقد السلف الصالح أن التسلسل في الأزل جائز ممكن، ولا يلزم من ذلك أن الخلق يشارك الله ﷻ في الأزلية والأولية.

قال ابن أبي العز الحنفي في بيان اعتقاد السلف: (وَالتَّسَلسُل لفْظٌ مُجْمَل، لَمْ يَرِدْ بِنَفْيِهِ وَلا إِثبَاتِهِ كِتَابٌ وَلا سُنَّةٌ، لِيَجِبَ مُرَاعَاةُ لفْظِهِ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلى وَاجِبٍ، وَمُمْتَنِعٍ، وَمُمْكِنٍ)[1].

- **تحقيق المراد لأهل الجنة علَّقه الله بمشيئتهم إكراما لهم.**

والتسلسل الواجب علينا اعتقاده هو ما دل عليه العقل والنقل، فالواجب علينا اعتقاد دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، ووجود مفعولاته ومخلوقاته على الدوام، وإن تغيرت صورها وعللها، بمعنى أن الوجود في الدنيا صورته مستمرة، ولعلة ذكرها الله ﷻ تتمثل في الابتلاء، ثم بمشيئة الله ﷻ يتغير الوجود في الآخرة إلى صورة أخرى مستمرة، ولعلة ذكرها الله ﷻ تتمثل في الجزاء، وبقاء أهل الخلدين في دار النعيم والشقاء، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم، أو لأهل النار عذاب، أحدث لهما نعيما وعذابا آخر، لا نفاد لها.

قال تعالى عن خلد أهل الجنة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١٣٥.

﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ النساء:٥٧.

وقال تعالى عن خلد أهل النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ النساء:١٦٨/١٦٩. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ الجن:٢٣.

ومن ثم فإن الواجب اعتقاده أن وجود المخلوقات في الأبد والمستقبل متوال غير منقطع أبد الآبدين، وهذا هو ما دل عليه كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيما آخر لا نفاد له. فتحقيق المراد لأهل الجنة علقه الله ﷻ بمشيئتهم إكراما لهم، وإظهار لمحبتهم، بعكس الوضع في الدنيا فتحقيق المراد لأهل الدنيا علقه الله ﷻ بمشيئته لا بمشيئتهم، ابتلاء لهم وإظهار لإيمانهم.

قال تعالى في تحقيقه لمشيئة أهل الجنة: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ ق:٣١/٣٥.

وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾ النحل:٣٠/٣١.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ۝١٦﴾ الفرقان:١٥/١٦.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٢٢﴾ الشورى:٢٢.

وقال تعالى في بيان أن تحقيق المراد في الدنيا متعلق بمشيئته وابتلائه لخلقه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ الإسراء:١٨.

وقال الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ الكهف:٢٣/٢٤.

وإذا كان أهل الجنة في نعيم دائم لا ينقضي، كلما نفذ نعيم أحدث لهم نعيما آخر بمشيئته إكراما لهم، إذا كان هذا هو الوضع في الأبد والمستقبل، فما الذي يمنعه في الأزل والماضي.

قال ابن أبي العز الحنفي: (وَلَمَّا كَانَ تَسَلسُل الحَوَادِث فِي المُسْتَقبَل لا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الآخِرَ الذي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، فَكَذا تَسَلسُل الحَوَادِث فِي المَاضِي، لا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى هُوَ الأَوَّل الذي لَيسَ قَبْلهُ شَيْءٌ. فَإِنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى لمْ يَزَل، وَلا

يَزَال، يَفْعَل مَا يَشَاءُ، وَيَتَكَلَّمُ إِذا يَشَاءُ)[١].

ومن ثم فإن عقيد السلف الصالح أن التسلسل في الأزل جائز ممكن، وفي المستقبل واجب، وفي المؤثرات ممتنع، ولا يلزم من ذلك أن الخلق يشاركون الله ﷻ في الأولية أو الأبدية؛ لأنه فرق كبير بين ما يبقي ببقاء الله ﷻ كذاته وصفاته، وما يبقى بإبقاء الله ﷻ كمخلوقاته ومصنوعاته، لكننا نعتقد أن وجود المخلوقات قبل العرش والماء أمر ممكن يتعلق بمشيئة الله وقدرته، فالله ﷻ أخبرنا أنه يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وهو على ما يشاء قدير.

- **شتان بين ما يبقى ببقاء الله وما يبقي بإبقائه.**

كيف نجمع بين وصف الله ﷻ بأنه الآخر الذي ليس بعده شيء، وبقاء المخلوقات في الجنة ودوامها وأبديتها؟

لا بد هنا أن نفرق في قضية البقاء بين ما يبقى ببقاء الله ﷻ، وما يبقي بإبقاء الله ﷻ، أو نفرق بين بقاء الذات والصفات الإلهية، وبقاء المخلوقات التي وجدت بالصفات الإلهية، فالجنة مثلا باقية بإبقائه، وصفاته باقية ببقائه، وشتان بين ما يبقي ببقائه، وما يبقي بإبقائه، فالجنة مخلوقة خلقها الله ﷻ وكائنة بأمره، ورهن مشيئة وحكمه، فمشيئة الله ﷻ حاكمة علي ما يبقى وما لا يبقى.

ومن ثم فإن السلف يعتبرون خلد الجنة وأهلها إلى ما لا نهاية، إنما

---

(١) السابق ص١٣٤.

هو بإبقاء الله ﷻ وإرادته، فالبقاء عندهم ليس من طبيعة المخلوقات ولا من خصائصها الذاتية، بل من طبيعتها جميعا كمخلوقات خلقها الله ﷻ الفناء، فالخلود ليس لذات المخلوق أو طبيعته، وإنما هو بمدد دائم من الله تعالى، وإبقاء مستمر لا ينقطع.

أما صفات الله ﷻ ومنها وجهه ويده وعينه وعلوه، ورحمته وعزته وقوته وملكه، فهي صفات باقية ببقائه ملازمة لذاته، باقية ببقاء ذاته سبحانه، حيث البقاء صفة ذاتية له، كما أن الأزلية صفة ذاتية لله تعالى، فلا بد أن نفرق بين صفات الأفعال الإلهية وأبديتها، وبين مخلوقات الله الأبدية وطبيعتها. وقد فرق القرآن الكريم بين نوعين من البقاء:

الأول: ما ورد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ الرحمن:٢٦/٢٧. وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ القصص:٨٨. فالآيات دلت على صفة من صفات الذات، وهى صفة الوجه، ودلت على أن بقاء الصفة ببقاء الذات، فأثبتت بقاء الذات بصفاتها، وأثبت فناء ما دونها، أو إمكانية فنائه، إذ أن الله ﷻ هو الأول والآخر، وهو قبل كل شيء، وبعد كل شيء وكما جاء في الحديث المرفوع: (اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّل فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ) (١).

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٤/٢٠٨٤ (٢٧١٣).

والثاني: ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الشورى:٣٦، وقوله: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ الأعلى:١٧. فبقاء المخلوقات الذي ورد في الآيات لا لذاته، ولكن بعطاء دائم مستمر من الله ﷻ، لإكرام أهل طاعته، وإنفاذ عدله في أهل معصيته. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ النبأ:٣١/٣٦.

• الأدلة النقلية على إثبات رؤية الله في الآخرة.

اعتقاد أهل السنة والجماعة في الرؤية أن المؤمنين يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة عيانا بأبصارهم، كما يرون الشمس صحوا، ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته، أي لا يلحقهم ضيم في طلب رؤيته حين يُرى، يرونه سبحانه وهم في أرض المحشر أو عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة، كما يشاء الله سبحانه فيكرمهم، ويتجلى لهم من فوقهم، ولا يراه الكافرون، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ المطففين:١٥.

قال الربيع بن سليمان: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ المطففين:١٥. فقال الشافعي: لما أن حجب

هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا[1].

وقال تعالى في إثبات رؤية المؤمنين له في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة:٢٢/٢٣.

قال أبو الحسن الأشعري: (ناضرة يعني مشرقة، إلى ربها ناظرة يعني رائية، وليس يخلو النظر من وجوه نحن ذاكروها: إما أن يكون الله سبحانه عنى نظر الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ الغاشية:١٧. أو يكون عنى نظر الانتظار، كقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يس:٤٩. أو يكون عنى نظر التعطف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ آل عمران:٧٧. أو يكون عنى نظر الرؤية. وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو أن معنى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة:٢٣. أنها رائية ترى ربها عز وجل)[2].

وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/٥٠٦. وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٠٦. وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٢/٤١٦.

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ص٣٥.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ يونس:٢٦. وقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ ق:٣٥.

روى مسلم من حديث صُهَيْبٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: (إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا، أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ. ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [(١)].

روى البخاري عن جَرِير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: (كُنَّا جُلوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذا القَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْل طُلوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاةٍ قَبْل غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلوا) [(٢)].

وروى البخاري من حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه أنه قال: (قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيُكَلمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/١٦٣ (١٨١).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ٦/٢٧٠٣ (٦٩٩٧). ومسلم في كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ١/٤٣٩ (٦٣٣).

تُرْجُمَانٌ وَلا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ) [(١)].

وروى البخاري من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ) [(٢)].

وروى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (قال رَسُول اللهِ ﷺ: مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ، لقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ ، قَال عَبْدُ اللهِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُول اللهِ ﷺ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَل ذِكْرُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ آل عمران:٧٧) [(٣)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ٢٧٠٩/٦ (٧٠٠٥). ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة ٧٠٣/٢ (١٠١٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب قوله: ومن دونهما جنتان ١٨٤٨/٤ (٤٥٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٦٣/١ (١٨٠).

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ٢٧١٠/٦ (٧٠٠٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار ١٢٣/١ (١٣٨).

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَال: (ثلاثةٌ لا يُكَلمُهُمْ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِليْهِمْ، رَجُل حَلفَ عَلى سِلعَةٍ لقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذبٌ، وَرَجُل حَلفَ عَلى يَمِينٍ كَاذبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، ليَقْتَطِعَ بِهَا مَال امْرِئ مُسْلمٍ، وَرَجُل مَنَعَ فَضْلْ مَاءٍ، فَيَقُول اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلي كَمَا مَنَعْتَ فَضْل مَا لمْ تَعْمَل يَدَاكَ) [١].

قال ابن القيم: (دل القرآن والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث على أن الله سبحانه يُرى يوم القيامة بالأبصار عيانا، كما يرى القمر ليلة البدر صحوا، وكما ترى الشمس في الظهيرة) [٢].

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي في عقيدته: (وأجمع أهل الحق، واتفق أهل التوحيد والصدق، أن الله يُرى في الآخرة كما جاء في كتابه، وصح به النقل عن رسوله ﷺ) [٣].

وقال أبو الحسن الأشعري: (وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله ﷻ

---

(١) رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ٢/٨٣٤ (٢٢٤٠).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص٢٤١.

(٣) عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي ص٣٠، وانظر تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي، للدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد ص١٧١، طبعة غراس للنشر والتوزيع.

يوم القيامة بأعين وجوههم، على ما أخبر به تعالى) [١].

وقال الإمام الطحاوي: (والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ القيامة:٢٢/٢٣. وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعَلمه) [٢].

• **مذاهب الناس في رؤية العبد لربه.**

المسلمون في رؤية الله ﷻ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو قول الصحابة والتابعين وسائر السلف المتقدمين ومن سار على نهجهم من أئمة المسلمين، جميعهم على أن الله ﷻ يرى في الآخرة بالأبصار عيانا، وأن أحدا لا يراه في الدنيا، وقد تقدمت الأدلة مفصلة على اعتقادهم.

القول الثاني: قول نفاة الجهمية، أن الله ﷻ لا يرى في الدنيا، ولا في الآخرة. وقد أجمعت المعتزلة على ذلك.

القول الثالث: قول غلاة الصوفية فيزعمون أنه يرى في الدنيا والآخرة، ولا يرى في الدنيا والآخرة، كقول ابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله من أصحاب وحدة الوجود الذين يرون الذات الإلهية متجلية في الوجود بأسره.

---

(١) رسالة إلى أهل الثغر ص٢٣٧ نشر مكتبة العلوم والحكم السعودية.

(٢) متن العقيدة الطحاوية ص٢٦.

قال ابن تيمية: (وحلولية الجهمية يجمعون بين النفي والإثبات فيقولون: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وإنه يرى في الدنيا والآخرة، وهذا قول ابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله؛ لأن الوجود المطلق الساري في الكائنات لا يرى، وهو وجود الحق عندهم، ثم من أثبت الذات قال: يرى متجليا فيها، ومن فرق بين المطلق والمعين قال: لا يرى إلا مقيدا بصورة، وهؤلاء قولهم دائر بين أمرين: إنكار رؤية الله، واثبات رؤية المخلوقات، ويجعلون المخلوق هو الخالق، أو يجعلون الخالق حالا في المخلوق) [(١)].

القول الرابع: وهو قول الأشعرية وأغلب المتكلمين يقولون: إن الله ﷻ لا يرى في الدنيا، ويرى في الآخرة لا في جهة. فاشترطوا شروطا جعلوا الرؤية فيها من المستحيلات، ولذلك قال بعضهم: لا خلاف بيننا وبين المعتزلة في الرؤية، بل كلنا على الرؤية العلمية لا البصرية، ولذلك قالوا بجواز رؤية أعمى في الصين بَقّة في الأندلس، ولا شك أن رؤية أعمى في الصين بَقّة في الأندلس من الرؤية العلمية، وليست من الرؤية البصرية في شيء [(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/٣٣٧.

(٢) كتاب التوحيد للماتريدي ص٥٨، والعقائد النسفية ص٧٣، وحاشية الكستري على شرح العقائد ص١٠٨، نقلا عن اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، وانظر المواقف لعضد الدين الإيجي ٣/١٩٩ نشر دار الجيل، بيروت، وعمدة القاري لبدر الدين العيني ٢٢/٢٤٤، نشر دار إحياء التراث العربي.

• الرد على شبهات المعتزلة في نفي الرؤية.

استدلت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ الأعراف:١٤٣. وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الأنعام:١٠٣. على نفي رؤية الله ﷻ، مع العلم بأن استدلالهم بالقرآن على عدم الرؤية، ليس عملا منهم بتصديق خبر الله ﷻ عن نفسه، وتقديما لكلام الله ﷻ على عقولهم وأصولهم المبتدعة، ولكنه دليل ثانوي عندهم يأتي في المقام الثاني بعد دلالة العقل التي يقطعون بها على أن إثبات رؤية الله ﷻ تجسيم وتشبيه باطل، وهذه مجاهرة برد كلام الله ورسوله ﷺ وتعطيله عن مدلوله بشبهاتهم الفاسدة .

وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي في شرحه لاعتقاد الإمام الطحاوي أن الآيتين دليل عليهم، وعلى إثبات رؤية الله ﷻ، أما الآية الأولى فالاستدلال منها على ثبوت رؤية الله من وجوه ﷻ :

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم، وأعلم الناس بربه في وقته، أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أن الله ﷻ لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هود:٤٦ .

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾. ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي. والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن

من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاما، فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: أنه لا يؤكل. أما إذا كان طعاما صح أن يقال: إنك لن تأكله. وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى.

الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ الأعراف:١٤٣. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته، لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف؟

الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالا لعلقها بمستحيل، كما قال تعالى عن استحالة دخول الكفار الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ الأعراف:٤٠.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ الأعراف:١٤٣ فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله عليه السلام وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله عز وجل أعلم موسى عليه السلام أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف

السابع: أن الله عز وجل كلم موسى عليه السلام وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة، فرؤيته أولى

بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما.

الثامن: أن دعواهم تأبيد النفي بلن تراني، وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد، فإنها حتى لو قيدت بالتأبيد، لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى عن اليهود وعدم تمنيهم الموت: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ البقرة:٩٥. وقال عن جميع من دخل النار في الآخرة: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ الزخرف:٧٧.

ولأن لن لو كانت للتأبيد المطلق، لما جاز تحديد الفعل بعدها، وتعليقه بثبوت الجبل، وقد جاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يوسف:٨٠. فثبت أن لن لا تقتضي النفي المؤبد. قال ابن مالك في ألفيته:

ومن رأى النفي بلن مؤبدا : فقوله أردد وسواه فاعضدا [1].

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ الأنعام:١٠٣. فالاستدلال بها على ثبوت الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٠٦ بتصرف.

بالنفي إذا تضمن أمرا وجوديا وهو كمال المقابل، كمدحه تعالى بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ،ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية والإلوهية، وقهره ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يمدح الله ﷻ نفسه بعدم محض لم يتضمن أمرا ثبوتيا، فإن المعنى في الآية أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به فقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ الأنعام:١٠٣. يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الشعراء:٦١. فلم ينف موسى عليه السلام الرؤية، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به علما.

وهذا هو الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم والأئمة من الآية، كما ذكرت

أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه.

• الأدلة على أن النبي لم ير ربه في الدنيا بعينيه.

أجمعت الأمة على أن الله ﷻ لا يراه أحد في الدنيا بعينه. لما رواه مسلم من حديث عَبْد اللهِ بْن عُمَر أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ انْطَلَقَ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي رَهْطٍ قِبَل ابْنِ صَيَّادٍ، حَتَّى وَجَدَهُ يَلعَبُ مَعَ الصِّبْيَان.. ثمَّ ذكَرَ الدَّجَّال فقَال: إِنِّي لأُنْذرُكُمُوهُ، مَا مِنْ نَبِيٍّ إلا وَقَدْ أَنْذرَهُ قَوْمَهُ، لقَدْ أَنْذرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلكِنْ أَقُول لكُمْ فِيهِ قَوْلا لمْ يَقُلهُ نَبِيٌّ لقَوْمِهِ، تَعَلمُوا أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالى ليْسَ بِأَعْوَرَ، تَعَلمُوا أَنَّهُ لنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ ﷻ حَتَّى يَمُوتَ [(١)].

وروى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قَالتْ: (مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيل فِي صُورَتِهِ وَخَلقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ) [(٢)].

وروى مسلم عَنْ مَسْرُوق ﷺ قَال: (كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثلاث مَنْ تَكَلمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلى اللهِ الفِرْيَةَ، قُلتُ: مَا هُنَّ؟ قَالتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد ٤/٢٢٤٥ (١٦٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٣/١١٨١ (٣٠٦٢).

أَعْظَمَ عَلى اللهِ الفِرْيَةَ. قَال: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلسْتُ فَقُلتُ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي وَلا تَعْجَلينِي، أَلَمْ يَقُل اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ التكوير:٢٣. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ النجم:١٣. فَقَالتْ: أَنَا أَوَّل هَذهِ الأُمَّةِ سَأَل عَنْ ذلكَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَال: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيل، لَمْ أَرَهُ عَلى صُورَتِهِ التِي خُلقَ عَليْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظَمُ خَلقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ. فَقَالتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ الأنعام:١٠٣. أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ الشورى:٥١. قَالتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلى اللهِ الفِرْيَةَ وَاللهُ يَقُول: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ المائدة:٦٧. قَالتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلى اللهِ الفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ النمل:٦٥) [(١)].

وفي رواية عند مسلم عَنْ مَسْرُوق أنه قال: (سَأَلتُ عَائِشَةَ هَل رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالتْ: سُبْحَانَ اللهِ، لقَدْ قَفَّ شَعَرِي لمَا قُلتَ، وَسَاقَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ولقد رآه نزلة أخرى ١/١٥٩ (١٧٧).

الحَدِيث بِقِصَّتِهِ) [١].

وروى مسلم من حديث أَبِي ذرٍّ ﷺ أنه قَال: (سَأَلتُ رَسُول اللهِ ﷺ: هَل رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَال: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ) [٢].

وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر ﷺ: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: عما كنت تسأله؟ قال: إذن لسألته هل رأى ربه؟ فقال: قد سألته أنا، قلت: فما قال؟ قال: نور أنى أراه. وفي رواية قال: رأيت نورا [٣].

• **الخلاف في الرؤية المنامية لله دون الرؤية العينية.**

ذكر ابن تيمية أن أئمة المسلمين اتفقوا على أن أحداً من المؤمنين لا يرى الله ﷻ بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ. وقد اتفقوا أيضا على أنه ﷺ لم ير ربه بعينه في الأرض، أو أن الله ﷻ ينزل له إلى الأرض، وليس عن النبي ﷺ قط حديث فيه أن الله ﷻ نزل له إلى الأرض، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ والصحابة ﷺ وأئمة المسلمين.

ولم يثبت عن ابن عباس ﷺ، ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم

---

(١) السابق ١/١٦٠ (١٧٧).

(٢) السابق، باب في قوله عليه السلام: نور أنى أراه ١/١٦١ (١٧٨).

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة النجم ٥/٣٩٦ (٣٢٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح (٥٦٥٩).

قالوا: رأى ربه بعينه، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه. وقول النبي ﷺ: (أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ .. الحديث) [١]. رواه الترمذي وغيره، إنما كان بالمدينة في المنام، هكذا جاء مفسرا.. وقد ثبت بنص قرآني أن موسى عليه السلام قيل له: لن تراني، وأن رؤية الله عز وجل أعظم من إنزال كتاب من السماء، فمن قال أن أحدا من الناس يراه، فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران عليه السلام، ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله عز وجل أنزل عليه كتابا من السماء [٢].

وقال ابن تيمية: (وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه ﷺ، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: نور أنى أراه.

وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ الإسراء:١. ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، سورة ص ٥/٣٦٦ (٣٢٣٣) وصححه الشيخ الألباني، وانظر صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٢٣٣)، والسلسلة الصحيحة (٣١٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٣٣٦ بتصرف.

وكذلك قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ النجم:١٢. وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ النجم:١٨. ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى. وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ الإسراء:٦٠. قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به [١].

وهذه رؤيا الآيات لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم، وكذبه قوم، ولم يخبرهم أنه رأى ربه بعينه، وليس في شئ من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك، لذكره كما ذكر ما دونه) [٢].

وذكر ابن تيمية أن الإنسان قد يرى ربه في المنام ويخاطبه، فهذا حق في الرؤيا، ولا يجوز أن يعتقد أن الله عز وجل في نفسه مثل ما رأى في المنام، فإن سائر ما يرى في المنام، لا يجب أن يكون مماثلاً، وهذه الرؤية شأنها شأن سائر الرؤى المنامية تُعبر، فإن النائم لا يرى الله عز وجل حقيقة، فرؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل، لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق [٣].

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب المعراج ٣/١٤١٢ (٣٦٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦/٥١٠.

(٣) السابق ٣/٣٩٠ بتصرف.

• **إثبات توحيد الله في صفة اليدين والأصابع والعينين.**

قال بعض الأشعرية المعاصرين الذين يجعلون إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه من الصفات تشبيها وتجسيما: (وليت شعري، أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر، فيثبتون له يدا بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح:١٠؟ أم يدين بمقتضى قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة:٦٤؟ أم أيدٍ عديدة بمقتضى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾ يس:٧١) [(١)].

وقوله باطل لأن مذهب السلف الصالح في اليدين، ليس فيه ما يحاول إثباته من التناقض، بل هو الحق الذي اجتمعت عليه الأدلة النقلية الظاهرة الجلية. فمثل هذا الأشعري يحاول أن يجعل صفة اليدين شيئا معنويا لا حقيقة له، كما هو مذهب المتكلمين ومتخفيا خلف ستار ما يسمى بالنصوص التي توهم التشبيه.

والحقيقة أن مذهب السلف هو عين الكمال والتنزيه، فمذهب أهل السنة والجماعة هو إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ من أن لله تعالى يدين حقيقيتين، هما من صفات ذاته، ونثبتهما من غير تمثيل ولا تكييف، ومن غير تعطيل ولا تحريف.

وقد تنوعت الأدلة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ على إثبات اليدين لله ﷻ وإثبات الأصابع لهما، وإثبات القبض بهما، وتثنيتهما،

---

(١) حق الله على العباد للشيخ العفيفي ص١٠٣.

فمن ذلك:

١- قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ ص:٧٥. وقد ترجم البخاري لهذه الآية بابا في كتاب التوحيد من صحيحه؛ لأنها نص صريح في بيان مذهب أهل السنة، ولا يقبل التأويل بحال من الأحوال[1].

٢- وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ المائدة:٦٤. فالله ﷻ لم ينكر على اليهود وصفهم له باليد، وإنما أنكر عليهم وصف اليد بالغلول، وهذه الآية من الأدلة الواضحة على إثبات يدين لله ﷻ على الحقيقة، والآيات في ذلك كثيرة.

٣- وفي حديث الشفاعة المشهور الذي رواه البخاري في قوله ﷺ: (فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلمَكَ أَسْمَاءَ كُل شَيْءٍ)[2]. فجعلوا خلق الله ﷻ لآدم ﵇ بيده ميزة له من بين الخلق، فدل على أن اليد على ظاهرها كما يليق بجلال الله ﷻ.

---

(١) انظر كتاب التوحيد في صحيح البخاري، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٥ (٦٩٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/١٨٠ (١٩٣) .

٤- ومن الأحاديث الدالة على أن لله ﷻ يدين حقيقة ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يَدُ اللهِ مَلأَى، لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ الليْل وَالنَّهَارَ، وَقَال: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَال: عَرْشُهُ عَلى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ) [1].

٥- كما أن اليد وصفت بأوصاف تدل على أنها حقيقية منها القبض، وهو في اللغة إمساك الشئ بجميع كف اليد، فقبض اليد على الشئ، جمعها له بعد تناوله[2]. وعند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثمَّ يَقُول: أَنَا المَلكُ) [3].

وقد وردت رواية أخرى في صحيح مسلم فيها ذكر الشمال لله تعالى، وإن كان لفظ الشمال فيه مقال. فمن حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثمَّ يَقُول: أَنَا المَلكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٥ (٦٩٧٦)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ٢/٦٩١ (٩٩٣).

(٢) المفردات للراغب ص٣٩١.

(٣) رواه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٧ (٦٩٧٧)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٤٨ (٢٧٨٧) .

المُتَكَبِّرُونَ؟ ثمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثمَّ يَقُول: أَنَا المَلكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ) [(١)]. فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على إثبات اليدين لله تعالى.

وأما ما ذكر في حديث عبد الله بن عمرو ﭬ أن النبي ﷺ: (إِنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﻷ، وَكِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الذِينَ يَعْدِلونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلوا) [(٢)]. فلا تعارض بينه وذكر اليمين والشمال في الحديث السابق، فكلتا يديه يمين بالنسبة للكمال، فإحدى يديه تبارك وتعالى فيها الفضل كما دل على ذلك حديث يد الله ﻷ ملأى، لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. أما اليد الأخرى ففيها العدل، لما ورد أن بيده الأخرى الميزان، يخفض ويرفع. ومعلوم أن الفضل يمن والعدل يمن، وكلاهما كمال لله تعالى فكلتا يديه يمين، أما بالنسبة لتفاضل صفاته فالفضل أيمن من العدل، فاليمين فيها الفضل، والشمال فيها العدل.

٥- ووصفت اليد أيضا بالأصابع التي تدل على أن اليد حقيقية وليست مجازية كما ادعى أهل التأويل الباطل، ففي الحديث الذي رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﭬ: (أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَال: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ عَلى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلى إِصْبَعٍ، وَالجِبَال عَلى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلى إِصْبَعٍ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٤٨ (٢٧٨٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الإمام العادل ٣/١٤٥٨ (١٨٢٧).

وَالخَلائِقَ عَلى إِصْبَعٍ، ثمَّ يَقُول: أَنَا المَلكُ، فَضَحِكَ رَسُول اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ثمَّ قَرأَ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الزمر:٦٧. فَلقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَضْحَكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّبًا وَتَصْدِيقًا لقَوْلِهِ) [(١)].

• الرد على شبهة تأويل اليدين بالنعمة أو القدرة.

أغلب المتكلمين يؤولون اليدين إما بالقدرة أو النعمة تارة أو الخزائن تارة أخرى، فيقولون في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ص:٧٥. أي بقدرتي. وقد أرادوا بذلك أن يجعلوها معان لا تدل على يدين حقيقيتين ليس كمثله شيء فيهما كما أراد الله ﷻ من الآية، بل أرادوا أن يجعلوها شيئا مجازيا وأن يخترعوا لها أي معنى يوافق قواعدهم وأصولهم ولو كان ذلك باطلا ولا دليل عليه. والرد عليهم من هذه الوجوه:

١- أن تأويل اليدين بالقدرة أو النعمة في سياق التثنية قول على الله ﷻ بلا علم، ولا قال به أحد من السلف الصالح.

٢- أن تناقضهم يدل على بطلان قولهم، لأنهم لو كانوا على الحق لاتفقوا على معنى واحد، فهل اليدان قدرة، أم نعمة، أم خزائن؟ وهل

---

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى:لما خلقت بيدي ٢٦٩٧/٦ (٦٩٧٨)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٨/٤ (٢٧٨٦).

يمكن الجزم بأن هذا ما أراده الله ﷻ من الآيات.

٣- أن الأصل عدم صرف النص عن ظاهره إلا بدليل واضح، وليس لديهم دليل على تأويلاتهم في سياق التثنية.

٤- أنه قد تنوعت النصوص من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على إثبات يدين لله تبارك وتعالى، ووصفها بأوصاف تمنع تأويلها بالقدرة أو النعمة كما تقدم.

٥- أن من لغة العرب استعمال الواحد في الجمع، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ العصر:٢. والجمع في الواحد كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ آل عمران:١٧٣. فالناس الأولى يقصد بها شخص واحد، وهو نعيم بن مسعود الأشجعي، والناس الثانية هم عسكر قريش . والجمع في الاثنين كقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم:٤.

ولكنها لم تستعمل الواحد في الاثنين، فلا تقول عندي رجل، وأنت تعني رجلين، ولم تستعمل الاثنين في الواحد، فلا تقول عندي رجلان، وأنت تعني به جنس الرجال. فلا يجوز تأويل اليدين بالقدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد. ولا يجوز تأويل اليدين بالنعمة، لأن نعم الله ﷻ لا تحصى ولا تعد، وعلى ذلك فلا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الجمع، مما يبطل

تأويل اليدين بالنعمة أو القدرة.

وأما عن الآيات الثلاث التي أوردها طه العفيفي فقد أمرنا الله ﷻ برد المبهم إلى المحكم. وقد أحكم الله ورسوله إثبات يدين حقيقتين، فعلينا أن نرد الآيات إلى ما أحكم، فالمحكم من الآيات الثلاث التي أوردها هو قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة:٦٤. أما قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ يس:٧١. فالمقصود من الجمع التعظيم، وهذا وارد في لغة العرب، فلما قال في بداية الآية: خلقنا، قال: أيدينا. ولما قال: خلقت، قال: بيدي.

وأما قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح:١٠. وقوله ﷻ: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ آل عمران:٢٦. وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ المائدة:٦٤. فإطلاق اليد هنا من باب تسمية الشئ باسم سببه، فقد تكون بمعنى القدرة، لأن القدرة هي أثر فعل اليد، يقال: فلان له يد في كذا وكذا، أي له قدرة، ومن لوازم اليد للرحمن القوة والخير والسَّح..الخ، ولا يقال: يد، لمن ليس له يد.

أما قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة:٦٤. وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ص:٧٥. فلا يمكن أن تأول بالقدرة أو النعمة؛ لأن تركيب السياق يمنع ذلك، والتأويل هنا تحريف للكلم عن مواضعه [1].

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٤١١ بتصرف.

• الرد على الأشعرية في تأويلهم للعينين بالرعاية.

قال بعض الأشعرية المعاصرين الذين يجعلون إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه من الصفات تشبيها وتجسيما: (وليت شعري، أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر، فيثبتون له عينا بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾ طه:٣٩. أما أعينا بمقتضى قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ القمر:١٤)[1].

هذا الأشعري يحاول أن يجعل النصوص الثابتة في صفة العينين تدل على أمور معنوية لا حقيقة لها ولا وجود، وقد دل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع أهل العلم على أن الله تعالى موصوف بأن له عينين حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقد جاء ذكر العين وصفا لله تعالى في القرآن مفردة مضافة إلى ضمير المفرد، كما جاءت مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع كما في هاتين الآيتين، ولم يأت ذكر العين وصفا لله تعالى في القرآن مثناه ولكن جاء ذلك في السنة.

قال ابن القيم: (ذكر العين مفردة لا يدل على أنها واحدة، ليس إلا كقولك: أفعل هذا على عيني، لا يريد أن له عينا واحدة، ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرا أو مضمرا حسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ القمر:١٤. وقوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ

---

(١) حق الله على العباد للشيخ العفيفي ص١٠٣.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ هود:٣٧. وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الملك:١. وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ آل عمران:٢٦.

ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ يس: ٧١) [(١)].

وقال ابن جرير في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ طه:٣٩. أي بمرأى مني ومحبة وإرادة. وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد. وقال ابن جرير في معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾. ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. يقول جل ثناؤه: تجري السفينة التي حملنا نوحا فيها بمرأى منا ومنظر [(٢)].

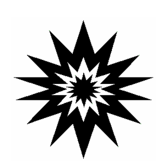
ومن الأحاديث التي تثبت العينين لله ﷻ كما يليق بجلاله ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (ذُكِرَ الدَّجَّال عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَال: إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَليْكُمْ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلى عَيْنِهِ، وَإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّال أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ) [(٣)].

ووجه دلالة الحديث أن العور فقد أحد العينين وذهاب نورها،

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ١/٢٥٥.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/٥٨١، نشر مؤسسة الرسالة، تحقيق أحمد شاكر.
(٣) البخاري في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال برقم (٧١٢٧).

فهذا يدل على أن لله ﷻ عينين حقيقيتين كما يليق بجلاله دون تمثيل أو تكييف، وغير معنويتين دون تعطيل أو تحريف.

فهذه الصفات الخبرية يجب إثباتها لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله من غير مشابهة المخلوقين، فكما أنه حي وحياته لا تشبه حياة المخلوقين، فكذلك وصف الله ﷻ باليدين والعينين وغيرهما من الصفات، نثبتها بالكيفية التي تليق بجلاله كما ورد الخبر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مع اعتقادنا أنه سبحانه ليس كمثله شئ.



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات


13751130
أكاديمية
العقيدة المصرية
للتعليم عن بعد
Al-Aqeedah Academy





التفسير
الاعتقادي

عقدد ١١٥٥



أكاديمية العقيدة المصرية